الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن التاسع (١)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الرابع و العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن التاسع

من كتاب

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

تصنيف

بدر الدين محمود العيني

[ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١ م]

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

في زيارتي العلمية الأولى لمكتبات استانبول تعرفت الى عدد كبير جداً من مخطوطات تاريخ العرب والاسلام، كان من بينها مخطوطة « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» لبدر الدين العيني ، ورأيت مخطوطة هذا الكتاب، وهي فيما اعتقد بخط المؤلف ، في مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧.

ونقلت من هذا المصدر كثيرا لاسيما مما جاء فيه عن القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، لأن المؤلف أكثر النقل عن عبد الملك الهمذاني صاحب عنوان السير.

ولم أصور وقتها شيئا من هذا الكتاب ، وحاولت فيما بعد فأخفقت وشرع منذ عدة سنوات في نشر اجزاء من هذا الكتاب، في مصر وهنا كتبت الى السفير السوري بالقاهرة ساعيا بوساطته للحصول على مصورة الجزء المتعلق بالحروب الصليبية ، ومن جديد حظيت بالاخفاق لطول الزمن وارتفاع النفقات الهائل.

وجاء الفرج عند ما توجهت السيدة مريم الدرع، وهي طالبة في قسم التاريخ تحضر للدكتوراه تحت اشرافي ، وتعمل مديرة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق. توجهت الى أستانبول لحضور دورة تدريبية فيها، وقد قامت مشكورة - بعد جهود مضنية - بتصوير ما يتعلق

بالحروب الصليبية من كتاب العيني اعتمادا على مخطوطة في مكتبة السليمانية .

وقمت على الفور بنسخ هذه المخطوطة وتحقيقها ، لكن بعد ما أسقطت منها كل الأخبار والتراجم التي لاعلاقة لها بموضوع الحروب الصليبية ، والبدر العيني هو: محمود بن أحمد بن موسى، ولد سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، ونشأ في عينتاب ـدا خل تركيا الآن ـ وكان أبوه قاضيها ، ورحل البدر الى حلب وتفقه فيها ، ثم زار بعد ذلك القدس وتحول الى القاهرة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م حيث نزل في المدرسة الظاهرية ، وعمل خادما بها، وبعدها تقلبت به الاحوال حتى ولي حسبة القاهرة سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٩م.وبعد ما عزل من حسبة القاهرة تولى عدة وظائف تعليمية ودينية ، واشتهر اسمه وبات من أعيان فقهاء الأحناف، وأكب على التصنيف ذلك أنه برع في علوم عدة مثل الفقه واللغة والنحو والصرف والحديث والتاريخ، لقد صنف بالتاريخ عدة كتب تراجم صغيرة ومتوسطة مثل:

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر
- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي
- سيرة الأشرف برسباي
- شرح سيرة مغلطاي

وكتب كتبا كبيرة في التاريخ تصدرها كتابه « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» وهو كتاب عملاق ، وقد اختصره بكتاب اسمه « تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر» ثم اختصر هذا المختصر.ولاشك أن عقد الجمان هو أهم مصنفات العيني التاريخية ، أودع فيه النصوص

الكاملة لعدد كبير من المصادر التاريخية المحجوبة عنا، فضلا عن أنه عاش احداث العصر المملوكي .

وكتاب عقد الجمان تاريخ حولي عام للاسلام،وكتاب تراجم بالوقت نفسه،وكان خليفة بن خياط [ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م] أول من اعتاد على اثبات أسماء الوفيات في نهاية كل حولية، وطور ابن الجوزي هذا المنهج وأرسى قواعده في كتابه المنتظم ، ومن بعد ابن الجوزي قلده سبطه في مرآة الزمان، وإثر هذا عدد كبير من المؤرخين.

لقد نشر حتى الان خمسة أجزاء من كتاب عقد الجمان، ترتبط موادها جميعا بالعصر المملوكي ، وهي المرة الاولى التي يتم فيها نشر جزء الحروب الصليبية من هذا الكتاب،وسأعمل في المستقبل ـ بعونه تعالى ـ على نشر مقدمات عصر الحروب الصليبية من هذا الكتاب مع أخبار الأحداث التي وقعت منذ وفاة صلاح الدين حتى تحرير عكا من قبل الاشرف خليل بن قلاوون ، على أنني أرى ان كتاب عقد الجمان على ضخامته جدير بالنشر دفعة واحدة ، وحبذا لو يتم هذا بتعاون سوري مصري ،لأن البدر العيني سوري المولد والمنشأ قاهري الدار والوفاة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م عن عمر يناهر الثالثة والتسعين .

من الله استمد التوفيق والعون وله جل وعلا الحمد والشكر، والصلاة والسلام على نبي الانسانية محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ١٤ جمادى الأولى ١٤١٦هـ

٨/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والتسعين بعد الأربعمائة

استهلت هذه السنة: المستظهر بأمر الله، وملوك البلاد والأطراف على حالهم.

ذكر ابتداء ظهور الفرنج إلى بلاد الاسلام:

والكلام فيه أنواع:

الأول: في ابتداء خروجهم:

كان خروجهم أولا بالمغرب، فخرجوا إلى بلاد الاسلام واستولوا عليها وفتحوا من المدن طليطلة وغيرها في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وملكوا جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف افريقية فملكوها.

الثاني في مسيرهم إلى بلاد الشام:

لما كان هذه السنة ـ اعني سنة احدى وتسعين وأربعمائة ـ خرجوا إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من الافرنج لقصد الشام، ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا الخليج فيكون أسهل عليهم من البحر، فلم يمكنهم صاحبها من العبور حتى شرط عليهم أنهم ان ملكوا انطاكية يعيدونها عليهم، وظن صاحب القسطنطينية أن الأتراك سيظهرون عليهم لشدة بأسهم، لأنهم ملكوا البلاد، فأجابوه إلى ذلك، فمكنهم من العبور، فوصلوا إلى بلاد قليج

أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق، وهي قونية وغيرها، فقاتلوهم وهزموهم وعبروا إلى بلاد ابن ليفون الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى انطاكية.

فلما سمع صاحبها ياغي سيان التركماني حصن البلد، وأخرج النصارى منها، فجاء الفرنج بالعدة والعديد حتى نزلوا عليها وحصروها أشد الحصار، وقاتلوها تسعة أشهر، وقتل من الفريقين جمع كثير، فلما طال مقام الأفرنج عليها، وكان بها شخص مستحفظ بعض الأبراج زراد يعرف بروزبة، فبذلوا له مالاً واقطاعاً، وكان البرج يلي الوادي، وهو مبني على شباك حديد يخرج منه في الشتاء ماء المطر، وأنه مكنهم من قلع ذلك الشباك ودخولهم، فصعد جماعة كثيرة في الليل، فلما أصبحوا أشهروا السلاح وهجموا على المسلمين فقتلوا وقتلوا، واما ياغي سيان فإنه قاتل ثم فتح الباب وهرب ومعه جماعة وتركها لهم، وسار منها كالولهان فنزل على أربعة فراسخ منها، وندم حيث لم يقتل عند أهله وعياله، فوقع مغشياً، فمات في تلك الساعة، وتركه أصحابه بمكانه وتوجهوا.

وفي تاريخ بيبرس: فمن شده مالحق ياغي سيان سقط مغشيا عليه فأراد من معه أن يركبه فلم يكن فيه من المسكة مايثبت على الفرس، فتركوه مرميا، واجتاز انسان أرمني كان يقطع الخشب بياغي سيان محمد ابن ألب أرسلان التركماني فعرفه وهو على آخر رمق، فقطع رأسه وحمله إلى الافرنج بانطاكية.

وكان دخول الافرنج أنطاكية في جمادى الأولى من هذه السنة، ووضعوا السيوف في المسلمين الذين بها ونهبوا أموالهم.

ـ١١٠٠٨ـ

الثالث في مكاتبة الأفرنج إلى المسلمين وتوجه المسلمين إليهم على أنطاكية:

ثم ان الافرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق يقولون: اننا لانقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، مكراً منهم وخديعة، فلما بلغ ذلك كربوغاً صاحب الموصل جمع العساكر وسار إلى مرج دابق، وهو مرج واسع بالقرب من حلب من ناحية الشمال، واجتمعت إليه عساكر الشام وهم: رضوان بن تتش صاحب حلب، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وهو زوج أم الملك رضوان، فإنه كان قد فارق رضوان من حلب، وسار إلى حمص فملكها، وأرسلان صاحب سنجار، وسليمان ابن أرتق صاحب سروج وغيرها، وغيرهم من الأمراء والتركمان، وساروا إلى أنطاكية فحاصروها بالجميع حتى انحصر الأفرنج بها، وعظم خوفهم حتى طلبوا من كربوغاً ان يطلقهم فامتنع، ثم ان كربوغا اساء السيرة مع الامراء وتكبر عليهم، فخبثت نياتهم عليه، وكان في أنطاكية بردويل وصنجيل، وكندهري، والقمص صاحب الرها، وبيمند صاحب أنطاكية.

ولما ضاق عليهم الامر وقلت الاقوات اجتمعوا وخرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين، وكان الامراء الذين مع كربوغاً قالوا له: الصواب ان نحمل عليهم ونقاتلهم اولاً بأول، فقال لهم: بل نتركهم إلى ان يخرجوا جميعا ونحمل عليهم، فلما تكا مل خروج الافرنج ضربوا مصافاً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغاً اولا من الاهانة والاعراض عنهم، وثانيا بانه لم يسمع من رأيهم، وتمت الهزيمة عليهم لاضربا بالسيف ولاطعنا بالرمح، وقتل الفرنج من المسلمين الوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأموال والاقوات والدواب والمسلحة، فصلحت بها حالهم، وعادت إليهم قوتهم.

وفي تاريخ المؤيد [صاحب حماة] فقتلوا من المسلمين مايزيد على مائة الف انسان، وسبوا السبي الكثير.

وفي تاريخ العظيمي: لما اجتمع كربوغا مع الامراء المذكورين وجمعوا عساكر عظيمة مقدار اربعمائة ألف انسان، ساروا فوجدوا ان انطاكية قد فتحت سلمها اليهم فيروز الارمني، وكان من جملة المتحفظين على الأبراج، وسمع بانكسار المسلمين يوم الثلاثاء السادس عشر من رجب من هذه السنة، وكان قد ملك انطاكية من الافرنج بيمند، وكان قد صنع مناماً، ودفن سنانا في بعض الكنائس، وقال للافرنج: رأيت المسيح في هذه الليلة يقول لي: اخرج فانك تكسر المسلمين، فقلت: مايصدقني الافرنج، فقال: خذ السنان في الموضع الفلاني وركبه في قنطاريتك ولاقهم بها تكسرهم، فبادر الافرنج إلى ذلك الموضع واستخرجوا السنان منه وخرجوا إلى المسلمين وكسروهم.

الرابع في توجه الفرنج الى معرة النعمان وحمص:

ثم لما فرغوا من امر المسلمين في ارض انطاكية توجهوا إلى المعرة فنازلوها وحاصروها، واخذوا عليهم النقوب ووضعوا السلاليم والأبراج الخشب، فصعدوا عليها فملكوها ووضعوا في المسلمين السيف ثلاثة أيام، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا وفتكوا، وأقاموا أربعين يوماً، ثم رحلوا إلى حمص فصالحهم جناح الدولة حسين على مال، ثم ساروا إلى عرقة فحصروها أربعة أشهر، فصالحهم صاحب شيزر ابن منقذ على مال ثم على طريق النواقير إلى عكا، فلم يقدروا عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: قتل الافرنج في معرة النعمان وبلادها مايزيد على مائة الف انسان وسبوا سبيا كثيراً، ولما بلغ هذه الحال السلطان بركياروق، شق ذلك عليه وكتب إلى الامراء ببغداد ان يتجهزوا صحبة الامير ابن جهير لقتال الافرنج، فبرز بعض الجيش إلى ظاهر البلد

بالجانب الغربي، ثم انفسخت هذه العزيمة لانه بلغهم ان الافرنج في الف الف مقاتل، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

الخامس في توجه الفرنج إلى القدس:

ذكر بيبرس في تاريخه ان في هذه السنة حاصر الافرنج البيت المقدس وكانوا قد ملكوا الرملة قبل.

وذكر المؤيد وابن كثير في تاريخيهما حصر الافرنج القدس في السنة الثانية والتسعين بعد الأربعمائة، وأنهم ملكوه يوم الجمعة ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين، وهم كانوا في ألف ألف.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي سنة احدى وأربعمائة حاصر الافرنج البيت المقدس، وكانوا أخذوا الرملة، فلما علم الوزير الأفضل خرج بعساكره من مصر، فلما علم الفرنج بخروجه جدوا في الحصار، فملكوها قبل وصوله، وهدموا المساجد وقبر ابراهيم الخليل عليه السلام، وأحرقوا المصاحف وأخذوا من الصخرة من الآلات والقناديل الذهب والفضة وغيرها مالايحصى، فوصل الأفضل إلى عسقلان وسير رسله إليهم يؤنبهم بما فعلوه، فساروا إلى عسقلان وهجموا على عسكر الأفضل فهزموهم، فدخل الأفضل وبعض العساكر عسقلان، ووقع القتل في المسلمين والنهب في أثقالهم، وانهزم الأفضل إلى مصر في البحر وذلك في شعبان من سنة احدى وتسعين وأربعمائة.

وقال العظيمي في تاريخه: فتح الافرنج معرة النعمان في المحرم من سنة اثنتين وتسعين واربعمائة، ثم تحولوا إلى كفر طاب، ثم إلى حماة فلم يقدروا عليها، ثم تحولوا إلى القدس ففتحوها من أيدي المصريين، وملك القدس الملك الذي اسمه الكندفري ــ عليه اللعنة ــ وأحرقوا كنيسة

اليهود، ونـزلت عسـاكر مصر مـع الأفضل وزيـر مصر فكسرهم الافـرنج على عسقلان.

وفي تاريخ المؤيـد: وكان تاج الدولـة تُتُش قد اقطع بيـت المقدس للأميرأرتق،فلماتـوفي صارت القـدس لولديـه ايلغازي وسقمان ابنـي ارتق حتى خـرج عسكر خليفة مصر فاستـولى على القدس بالامـان في شعبان سنـة تسع وثمانين واربعمائة، وسـار سقمان واخوه ايلغـازي من القـدس، فأقـام سقمان ببلد الـرها، وسار إيلغـازي إلى الفرات، وبقيـت القدس في ايدي المصريين إلى الآن فقصـدها الأفـرنج وحصروهـا نيفاً واربعين يـوما وملكـوهـا يـوم الجمعـة لسبع بقين مـن شعبـان مـن سنـة ثنتين وتسعين وأربعمائة، ولبث الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس اسبوعاً.

السادس فيما فعله الافرنج في القدس الشريف:

قال ابن الجوزي: وقـد اخذوا من حول الصخـرة اثنين واربعين قنديلاً من فضـة، كل قنـديل منها ثـلاثة آلاف وستمائة درهـم، وتنورا مـن فضة زنته أربعـون رطل بالشامـي، وثلاثة وعشريـن قنديلا من ذهـب، وذهب الناس على وجوههـم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين مـن الافرنج الى الخليفـة والسلطان، ومنهـم القاضي بـدمشـق أبو سعيـد الهروي، فلما سمع النـاس ببغداد بذلـك الأمر الفظيع هالهم ذلـك وتباكوا، وقـد نظم أبو سعيد الهروي كلامـاً قرىء على المنابر فجهر الناس بـالبكاء، وقد ترك الخليفة الفقهاء إلى الخروج ليحرضوا الملـوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس، فلـم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي تـاريـخ بيبرس: وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ورد المنهـزمـون من الشام في شهر رمضان إلى بغداد وصحبتهم القاضي أبو سعيد الهروي لائذيـن بحرم الخلافـة من الأفـرنج شـاكين مـافعلوه بـالقدس الشريـف

وماحوله، فأورد في ديوان الخلافة كلاما أبكى العيون واوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف العظيم من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد، ونهب الاموال، ولشدة ما أصابهم افطروا، فأمر الخليفة ان يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وابو بكر الشاشي، وابو القاسم الزنجاني، وابو الوفاء ابن عقيل، فاعتذر القاضي بكبر سنه، والزنجاني بمرضه، وتمنع الشاشي، وسار أبو الوفاء ابن عقيل، وأبو سعيد الحلواني، وأبو الحسين ابن السماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلانياسي، فعادوا من عير بلوغ أرب، وأخلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال المظفر الابيوردي في هذا المعنى أبياتاً:

مزجنا دما بالدموع السواجم
فلم نبق الاعرضة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فايها بني الاسلام ان وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

وكم نومة في ظل امن وغبطة
وعيش كنوار الجميلة ناعم

وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم
ظهور المذاكي او بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وانتم
تجرون ذيل الخفض فعل القوادم

وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة
يظل لها الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغب عن غمارها
ويسلم يقرع بعدها سن نادم

سللن بأيدي المشركين قواضبا
ستغمد منهم في الكلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة
ينادي بأعلى الصوت يا ال هاشم
ارى امتي لا يشرعون الى العدا
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أيرضى صناديد الاعارب بالاذى
وتغضي على ذل كماة الاعاجم
فليتهم اذلم يذودوا حمية
عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا في الاجر اذ حمي الوغى
فهلا اتوه رغبة في المكارم
لئن اذعنت تلك الخياشيم للبُرى
فلا عطسوا الا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة
الينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية
تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان انتم لم تغضبوا بعد هذه

رمينا الى اعدائنا بالجرائم(١)

وجرى ذلك كله باشتغال السلطان، بركياروق والاتراك بعضهم ببعض مع السلطان محمد على ماسنذكره في السنة الآتية ان شاء الله تعالى....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى على بيمند الفرنجي من ابن الدانشمند:

وابن الدانشمند هذا اسمه كمشتكين، وانما سمي ابوه بالدانشمند لانه كان معلما للتركمان، والمعلم عندهم اسمه الدانشمند، وكان اسمه فتقلبت الأحوال بابن الدانشمند حتى ملك ملطية وسيواس وغيرهما، وقصده الفرنج مع مقدمهم بيمند في خمسة آلاف فلقيهم ابن الدانشمند بالقرب من ملطية، وقاتل معه قتالاً شديداً، فهزمه وظفر المسلمون بالفرنج، وأسر بيمند، فاجتمع الفرنج وارادوا الخليصة ولم يقدروا.

وفي تاريخ ابن كثير: وفي هذه السنة اقبل ملك الافرنج في ثلاثمائة الف مقاتل، فالتقى كمشتكين المعروف بالدانشمند.

قال ابن كثير: واظنه اتابك الجيوش بدمشق الذي يقال له امين الدولة، واقف الامينية التي بدمشق وبصرى، لا التي ببعلبك، فهزم الافرنج وقتل منهم خلقاً بحيث لم ينج منهم إلا ثلاثة آلاف واكثرهم جرحى، وذلك في ذي القعدة، ولحقهم إلى ملطية فملكها واسر ملكها.

قلت: الظاهر بل الصحيح ان هذه القضية مع الفرنج غير القضية التي ذكرناها، وان كمشتكين الذي ذكره ابن كثير ان هو ذاك الذي ذكرناه آنفا، فليس يقال له ابن الدانشمند، فافهم.

وفي تاريخ بيبرس: ثم ان الأفرنج بعد انكسارهم من ابن الدانشمند ساروا الى قلعة تسمى انكوريا[٢] فاخذوها، وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا الى قلعة اخرى فيها اسماعيل بن الدانشمند وحصروها، فجمع جمعا كثيرا وقاتلهم وجعلهم كميناً فخرج عليهم الكمين فقتلهم وهزمهم

وكانوا ثلاثة آلاف فلم يفلت منهم سوى ثلاثمائة مجرحين.

ذكر بقية الحوادث

منها: ان جماعة من اهل الشام اتوا مصر هربا من الافرنج والغلاء والوباء، ومات بمصر في هذه السنة خلق كثير.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى من الفرنج:

وفي صفر منها أغار الفرنج من الرها على سرح الرقة وقلعة جعبر، فاستاقوا المواشي، وأسروا من وقع في أيديهم من المسلمين، وكانت جعبر والرقة لسالم بن مالك سلمها إليه السلطان ملكشاه.

وفي المرآة خرجت الأفرنج من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصدوا حران، والآخر الرقة، ونزل سقمان بن أرتق من ماردين، وكان سالم بن بدران العقيلي في بني عقيل نازلا على عين العروس فالتقوه واقتتلوا قتالا شديدا، واسر سالم بن بدران، وكانت الدائرة على الأفرنج، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها غزا سقمان وجكرمش الأفرنج، فلما استطال الأفرنج بما ملكوا من البلاد التي هي للمسلمين باشتغال عساكر الاسلام وملوكهم بقتال بعضهم بعضاً، وكانت حران لقراجا، أحد مماليك ملكشاه، فاستخلف عليها محمد الأصفهاني، فعصى عليه، وقعد في بعض الأيام في مجالس الشراب فلما سكر قتله مملوك يسمى جاولي من مماليك قراجا، فعند ذلك سار الأفرنج إلى حران وحصروها، فلما

سمع سقمان صاحب ماردين وغيرها وجكرمش اجتمعا وسارا إلى الخابور، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ فاقتتلوا قتالا شديدا، فأظهر أهل الاسلام الانهزام، فتبعهم الفرنج نحو فرسخين، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا، وامتلأت أيدي العسكر من الغنائم، لان سواد الافرنج كان قريبا، وكان معهم بيمند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردوا وراء جبل ليأتوا المسلمين من وراء ظهورهم، فلما خرجا رأيا الافرنج منهزمين فانهزموا معهم، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهم كثيراً، وأفلتا في ستة من الفرسان، وكان القمص بردويل صاحب الرها معهم فأسر وجاءوا به إلى الموصل، ففدى نفسه بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين اسيراً، وكانت عدة القتلى من الافرنج والاسرى اثني عشر ألف رجل، ثم رحل جكرمش إلى حران فتسلمها وعدة حصون.

وفي تاريخ ابن كثير: وفيها قصد الأفرنج ـ لعنهم الله ـ الشام، فقاتلهم المسلمون فقتلوا خلقاً كثيراً.

وفي تاريخ النويري: وفيها سار صنجيل ـ وقد وصله مدد الفرنج من البحر ـ إلى طرابلس فحاصرها وتسلمها بالأمان، ثم سار إلى عكا ووصل إليه جمع من القدس فحصروها، وكان الوالي فيها من جهة خليفة مصر زهر الدنيا نبا، وجرى بينهم قتال عظيم، وآخر الامر ان الافرنج ملكوها بالسيف وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة، وهرب نبا إلى الشام ثم إلى مصر، ثم إن الافرنج قصدوا حران، فاتفق جكرمش وسقمان بن أرتق والتقيا مع الافرنج على نهر البليخ، فذكره إلى آخر ماذكره الآن.

وفي المرآة: وفيها نزل بغدوين وقيل بردويل صاحب القدس على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركباً فحصروها من جميع الجهات،

وقاتل أهلها حتى ضعفوا عن القتال، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي، فعجز عنهم وطلب الأمان له وللمسلمين الذين بها، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان وقيل في شعبان، وجاء زهر الدولة منهزماً الى دمشق، فأحسن إليه اتابك طغتكين، ثم مضى إلى مصر.

وفي المرآة أيضاً: وفيها في رجب وردت مراكب الافرنج اللاذقية مشحونة بالمقاتلة في البحار، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل، وأقاموا أياما ورحلوا إلى جبيل، فأمنوا أهلها ودخلوها، ثم غدروا بأهلها فقتلوهم، وكان صنجيل صاحب أنطاكية[٣] قد بنى على طرابلس حصناً ليأخذ به طرابلس وشحنه بالرجال والأموال والسلاح، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة وهجم الحصن على غره فقتل من فيه ونهبه وأخذ منه المال والسلاح، والمتاع وكل شيء فيه، وهدمه وعاد إلى طرابلس سالما غانما.

ذكر بقية الحوادث:

منها ان بلك بن بهرام بن أرتق، وهو ابن أخي ايلغازي شحنة بغداد استولى على مدينة عانة الحديثة، وكان له مدينة سروج، فأخذها الفرنج منه، فسار عنها إلى عانة وأخذها من بني يعيش بن عيسى، فقصد بنو يعيش صدقة بن مزيد فاسترجعها منه في المحرم، وسلمها إلى أصحابها...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

شمس الملوك أبو نصر دقاق بن تاج الدولة تُتُش بن السلطان ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب دمشق، توفي في ثامن عشر شهر رمضان من هذه السنة ودفن بمسجد

قبة الطـواسين بظاهر دمشـق الذي على ظهر بـردى، وكان قد حصـل له مرض تطاول بـه وقيل إن أمه سمته في عنقـود عنب فلما توفي قام بـالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكـه وتزوج بأمه في حياة أبيه، زوجه أياها، وهو عتيق تتش المذكور.

وقال النـويري: لما توفي الملك دقـاق صاحب دمشـق خطب طغتكين الأتـابك بـدمشق لابـن دُقاق وكـان طفلا عمـره سنة واحـدة، ثم قطـع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة، ثم قطع خطبة بكتـاش وأعاد خطبة الطفـل، واستقر طغتكين في ملـك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ـــ والله أعلم ـ وأحسـن مع الناس السيرة، وبث فيهم العدل.

وفي المرآة: وفي هذه السنة عـرض لدقاق صاحب دمشـق مرض تطاول به، ووقع معـه تخليط في الغذاء فأوجـب انتقاله إلى علة الـدق، فمازال به حتى أشفى، فلما وقع اليـأس عن برؤه وانقطع الرجاء من عـافيته تقدمت إليـه والدتـه الخاتـون صفوة الملـوك بـأن يـوصي بما في نفسه ولايترك أمـر الدولة وولديه سدى، فنص على أتـابك طغتكين والحضانة لولده الصغير تتش بـن دقاق حتـى يكبر، ويتولى طغتكين أمـور دمشق، وأعمال دقـاق، وتوفي في اليـوم الثالـث والعشرين مـن رمضان ودفـن على الشرف الشمالي بدمشق بالخانكـاه التي يقال لها قبة الطواييس، وبعد قليـل توفي تتش بن دقاق الـذي اوصى بـالملك إليه، ودُقـاق بضم الـدال المهملة وبـالقافين بينهما ألف.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والتسعين بعد الأربعمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، ومات فيها السلطان بـركيـاروق، والأمير ايـاز، والأمير سقمان، وصنجيـل ملـك الأفـرنـج، فلنذكرهم واحدا واحدا.

الأمير سقمان بـن أرتق مـات في هـذه السنـة، وسبب ذلـك ان فخـر الدولـة ابن عمار صـاحب طرابلـس كان قد كـاتب سقمان يستـدعيه الى نصرته على الافـرنج، وبـذل له المعونـة بالمال والـرجال، فبينما هـو يتجهز للمسير إذا أتاه كتاب الاتـابك طغتكين صاحب دمشق يخبر انـه مريض قد أشفى على الموت، وأنـه يخاف وليس بدمشق من يحميها مـن الأفرنج، ويستدعيه ليـوصي اليه بما يعتمده في حفظ البـلاد، فلما سمع ذلك اسرع في السير عـازما على أخـذ دمشق، فلما وصـل القريتين مـات بالخوانيـق، وحمله أصحابه وعادوا به إلى حصن كيفا.

وفي تاريخ المؤيد: وفي هذه السنة تـوفي سقمان بن [ارتق بن] أكسب - بالباء الموحدة - وقيل اكسك -بالكافين -وهو الأصح، وكـانت وفاته في القريتين في صفـر من هـذه السنة، وقـام ابنه ابـراهيم مـوضعه، وحمل سقمان في تابـوت إلى حصن كيفا فـدفن بـه، ولما مات سقمان كان مـالكا لحصن كيفا وماردين.

أما ملكه لحصن كيفـا فقد ذكرناه من تسليم مـوسى التركماني صاحب الموصـل لما استنجد بـه على جكرمـش، وأما ملكـه لماردين فهـو أنه كـان السلطـان بركيـاروق وهبها هـي وأعمالها لانسان مغـن، ووقع حـرب بين كربوغـا صاحب الموصل وبين سقمان، وكـان مع سقمان ابن أخيه يـاقوتي وعماد الدين زنكـي بن آق سنقر، وهو إذ ذاك صبـي، فانهزم سقمان وأخذ

ابـن أخيه يـاقـوتي أسيراً، فحبسه كبروغـا في قلعة مـاردين، وبقي مـدة، فمضـت زوجه أرتـق الى كربـوغـا وسألتـه في اطـلاق ابن ابنهـا ياقـوتي، فأجابها كربوغا إلى ذلك، وأطلقه، فـأعجبت ياقوتي ماردين، وأرسل يقول لصـاحبها المغنـي: إن أذنت لي سكنـت في ربض قلعتـك وجبيت إليهـا الكسوبـات وحميتها مـن المفسديـن، ويحصل لـك بذلـك النفع فـأذن له المغني بـالمقام في الـربض، فـأقام يـاقوتي بها رديـن وجعل يغير مـن باب أخلاط إلى بغـداد، ويستصحب معه حفاظ قلعـة ماردين ويحسـن إليهم ويؤثـرهم على نفسـه، فاطمـأنوا إليـه وسار مـرة ومعه أكثـرهم فقبضهـم وقيدهم وأتـى الى باب قلعة ماردين ونادى من بها من أهليهـم وقال: إن فتحتم الباب وسلمتـم الي القلعة وإلا ضربت أعناقهم جميعهـم، فامتنعوا فـأحضر واحدا منهـم وضرب عنقـه ففتحوا البـاب لـه، وتسلـم ياقـوتي القلعة وأقـام بها، ثم جمع يـاقوتي جمعا وقصـد نصيبين ولحقه مـرض حتى عجز عن لبس السـلاح وركوب الخيل، وحمل الى فرسه وركبه، فـأصابه سهم فسقط ياقوتي منه ومات، ثـم ملك ماردين بعده اخوه علي وصار في طـاعـة جكـرمـش صـاحب الموصـل، واستخلـف على مـارديـن بعـض أصحـابه، وكـان اسمـه عليا ايضـا، فـأرسـل علي يقول لسقمان: إن ابـن أخيك يـريد ان يسلـم مارديـن الى جكرمـش فسار سقمان بنفسـه وتسلم مـاردين، فطـالبه ابـن اخوه علي بـاعـادتها اليه فلـم يفعل سقمان ذلـك، واعطاه جبل جـور عوضها، واستقرت ماردين وحصـن كيفا لسقمان حتى سـار إلى دمشق ومـات بالقـريتين، فصارت مـاردين لأخيـه ايلغازي بـن ارتـق، واستقرت لـولده ــ قال المؤيـد ـ إلى يـومنا هـذا، وهو سنـة خمس عشرة وسبعمائة.

صنجيل ملك الأفرنـج: هلك في هذه السنة، وكان صاحـب أنطاكية، وكـان قد صـالـح ابن عمار صـاحـب طرابلـس وهـادنه على ان يكـن لصنجيل ظاهر طرابلس، ولايقطع الميرة والمسافرين عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: هلك صنجيل في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقال: وفي هذه السنة ـ أعني سنة تسع وتسعين ـ هلك صنجيل عليه اللعنة في مدينة جبلة، وذلك انه ملكها في هذه السنة —أعني سنة تسع وتسعين— ثم سار وأقام على طرابلس يحصرها،وبنى بالقرب منها حصنا وبنى تحته ربضاً، وهو المعروف بحصن صنجيل، فخرج الملك ابن عمار، صاحب طرابلس، فاحرق الربض، ووقف صنجيل على سقوفه المحترقة فانخسفت به، فمرض من ذلك عشرة ايام، وهلك وحمل الى القدس ودفن فيها، وقام بالحصار بعده ابنه، ودام الحرب بين أهل طرابلس والأفرنج خمس سنين، وظهر من صاحبها ابن عمار صبر جميل، وقلت الأقوات بها، وافتقرت الأغنياء.

وذكر بيبرس في تاريخه هلاكه في السنة الآتية وقال: لما احرق ابن عمار ربض الحصن الذي بناه صنجيل عامه ذلك، فمرض ومات. وامر ملك الروم أصحابه الذين باللاذقية أن يحملوا الميرة إلى الذين يحاصرون طرابلس، فخرج إليهم اسطول طرابلس فجرى بينهم قتال شديد، فأخذوا الميرة والمراكب فتقووا بها إلى ان ملك السلطان محمد البلاد.

ذكر بقية الحوادث:

منها انه كانت حروب كثيرة بين عساكر مصر والأفرنج فقتلوا منهم خلقا كثيرا.

وفي تاريخ بيبرس: وسبب ذلك ان الافضل وزير مصر، كان قد سير ولده شرف المعالي في السنة الماضية إلى الساحل، فقهر الافرنج وأخذ الرملة، ثم اختلف المصريون والعرب وادعى كل واحد منهما ان الفتح له، فأتاهم سرية من الافرنج فتقاعد كل فريق منهما عن الآخر، وكاد الافرنج ان يظهروا عليهم، فرحل شرف المعالي إلى والده بمصر، ثم سير

ولده سناء الملك حسين في جماعة من الأمراء، منهم: جمال الملك نائب عسقلان، وأرسلوا إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجدونه، فأرسل إليهم اصبهبذ صبارو ومعه ألف وثلاثمائة فارس، وكان المصريون خمسة آلاف فارس، فقصدهم بردويل صاحب القدس وعكا ويافا في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، فوقع المصاف بينهم بعسقلان ويافا، فلم تظهر احدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان، ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك صاحب عسقلان، فعند ذلك وضعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان وعاد اصبهبذ صبارو إلى دمشق، وكان مع الأفرنج من المسلمين بكتاش بن تتش، وكان طغتكين قد عدل عنه بالملك إلى ولد أخيه دقاق وهو طفل، فدعاه ذلك إلى قصد الفرنج والركوب معهم.

ومنها: أنه كانت وقعة بين تنكري صاحب أنطاكية وبين الملك رضوان صاحب حلب، وسببها ان تنكري حاصر حصن أرتاح وبه نائبه، فأرسل إلى الملك رضوان يعلمه ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الرجالة والخيالة تقدير عشرة آلاف، فلما قرب من الافرنج ورأى تنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد ان يجيب فمنعه أصبهبذ صبارو وكان قد قصده وسار معه بعد قتل اياز، فامتنع من الصلح، واصطفوا للحرب، فانهزمت الافرنج من غير قتال، واشتغل المسلمون بالنهب فعاد الافرنج فحملوا على المسلمين، فلم يثبوا وانهزموا، وقتل من المسلمين خلق كثير مقدار عشرة آلاف نفس، وفتح المسلمون الحصن وأخلوه وتوجهوا إلى حلب فملكه الأفرنج، وهرب أصبهبذ إلى طغتكين أتابك دمشق فصار في خدمته.

ومنها أنه كان استيلاء الأفرنج على عكا، وذلك ان بردويل ملك الافرنج سار بجموعه إلى ثغر عكا ومعه الجنويون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها برا وبحرا وحاصروها وملكوها بالسيف، وكان

متوليها حينئذ زهـرة الدولة الجيوشي من جهة صـاحب مصر، فخرج منها هاربا إلى دمشق.

ومنهـا أنـه جـرت وقعة بين طغتكين الأتـابـك وبين الفـرنـج، فكسر طغتكين الأفرنج على بعلبك وفتح رفنيه وهدم أبرجتها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ما جرى بين المسلمين والافرنج من الحروب والوقائع:

منها انه كـانت الحرب بين طغتكين متولي دمشق وبين الفـرنج ، فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، ففي آخـر الأمر بنى بردويل حصنـا بينه وبين دمشق فخاف طغتكين من عـاقبة ذلك، فجمع عسكره وخرج ليقـاتلهم ويقدم إليهم، فاقتلـوا قتالا شديدا وفيهـم ملكهم القمص، فكانـت الهزيمة على الأفرنج، فتبعهم طغتكين بالقتـل والأسر إلى أن دخلوا الحصن الذي لهم، فحاصره طغتكين وأخذه بـالسيف، وقتل كل من كان فيـه، واستبقى من الفرسان مـائتي فارس في الأسر، وعاد طغتكين إلى دمشق مـؤيداً منصوراً، فزين البلد سبعة أيام.

ومنها ان الفـرنج ملكوا في هـذه السنة حصن أفـامية من بـلاد الشام، وسبب ذلـك أن خلف بن ملاعـب الكلابي، كان قـد تغلب على حمص، وكان الضرر به عظيما، ورجاله كانوا يقطعـون الطريق فكثر الحرامية عنده فأخذها منـه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنهـا، وتقلبت به الأحوال إلى أن دخل مصر فلم يلتفت إليه من بها، فإن المتولي بأفامية من جهة الملك

رضوان أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، فاستدعى من يسلم اليه الحصن منهم، وهو من أمنع الحصون، فطلب ابن ملاعب ان يكون هو المقيم به، وقال: إني راغب في قتال الأفرنج ومؤثر للجهاد، فسلموه إليه واخذوا رهائنه، فلما ملك خلع طاعتهم، وأرسلوا إليه يتهددونه بما فعل بولده الذي عندهم، فأجاب الجواب.. إني لا أنزل من مكاني وابعثوا إلي بعض أعضاء ولدي حتى آكله حتى أيسوا من رجوعه إلى الطاعة، وأقام بأفامية يقطع الطريق، ويخيف السبيل، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله، ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب، وأهلها يتغالون في التشيع، فلما ملكها الأفرنج تفرق أهلها وتوجه القاضي الى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه واحبه ووثق به، فأعمل الحيلة إليه، وكتب إلى أبي طاهر المعروف بالصائغ، وهو من أعيان الملك رضوان، ووجوه الباطنية ودعاتهم بالفتك بابن ملاعب وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان، فأتى أولاد ابن ملاعب إليه، وكانوا قد تسللوا من مصر وقالوا له: قد بلغنا عن القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر، وأحضره ابن ملاعب فأتاه وفي يده المصحف لأنه رأى امارات الشر فقال: أيها الأمير قد علم كل أحد أني جئتك خائفا فأمنتني وأعنتني فصرت ذا مال وجاه، فإن كان أحد ممن يحسدني منزلتي عندك وماغمرتني به من نعمتك سعى بي إليك، فأسألك ان تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت، فحلفه على الوفاء له والنصح وخلى سبيله، وأعاد القاضي مكاتبته الى ابي طاهر الصائغ واشار عليه ان يوقف ثلاثمائة رجل من أهل سرمين وينفذ معهم خيلا من خيول الأفرنج من رؤسائهم، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة، ويشكون من معاملة رضوان وأصحابه وأنهم فارقوه، فلقيتهم طائفة من الأفرنج فظفروا بهم، وكانوا قد اتفقوا على أنهم يحملون جميع ما معهم إليه، فإذا أذن لهم في المقام اتفقت آراءهم على أعمال الحيلة ففعل الصائغ ذلك، ووصل القوم إلى أفامية وقدموا إلى ابن

ملاعب مامعهم من الخيل فقبل ذلك منهم، وأمرهم بالمقام عنده وأنزلهم في ربض أفامية، فلما كان في بعض الليالي نام الحرس بالقلعة فقام القاضي ومن بالقلعة من أهل سرمين ودلوا الحبال وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم وقصدوا ابن ملاعب وبني عمه ليقتلوهم، وأتى القاضي ومعه جماعة إلى ابن ملاعب فأحس به، فقال: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت جئت لأقبض روحك وقتل أصحابه، وهرب ابناه فلحقا بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

ولما سمع الصائغ خبر أفامية سار إليها وهو لايشك أنهالـه، فقال له القاضي: إن وافقتني وأقمت معي فعلى الرحب ونحن نحكمك وإلا فارجع من حيث جئت، فأيس منه، وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين غضبان فهرب إلى الافرنج واستدعاهم إلى أفامية، وقال لهم: ليس فيها قوت غير شهر واحد، فأقاموا عليها يحاصرونها، فجاع أهلها فملكها الأفرنج وقتلوا القاضي المتغلب عليها والصائغ، وكان هذا هو الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام...

فصل فيما وقع من حوادث في السنة الثانية بعد الخمسمائة

ذكر ما فعله الأفرنج لعنهم الله:

منها ان طنكريد فتح حصن بانياس وسلمه إلى المازوير.

ومنها ان الأفرنج اخذوا طرابلس في هذه السنة، وقيل في السنة الآتية، اجتمع عليها ملكهم بيمند بن صنجبيل في ستين مركبا في البحر مشحونة بالمقاتلة، وطنكريد صاحب أنطاكية، وبغدوين صاحب القدس وشرعوا في قتالها وضايقوها من أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة، وايقنوا بالهلاك مع تأخر الاسطول عنهم من مصر، وكان كلما سار

الاسطـول نحوهـم دفعته الـريح إلى جهـة مصر، فلما كان في يـوم الاثنين هجمها الا فـرنج ونهبوها، واسروا رجـالها وسبوا نسائها، وسـاروا الى جبلة وبها فخر الملك ابـن عمار، فتسلموها بالامان في الثـاني والعشرين من ذي الحجـة، وخرج منهـا ابن عمار سـالما، ووصـل حينئذ الاسطـول المصري، وجاء ابن عمار الى شيـزر، فأكرمه صـاحبها علي بن منقذ واحترمـه وعرض عليه المقام عنده فـأبى وتوجه الى دمشق فأكرمـه طغتكين صاحب دمشق وانزلـه في داره، وأقطعه الـزبداني وأعمالـه، ووقعت مهـادنة بين بغـدوين صـاحب القـدس وبين طغتكين صاحـب دمشـق على ان يكون السـواد وجبل عوف مثالثة: الثلث للفرنج، والثلثين للمسلمين.

ومنها أنه كانت الحرب بين طغتكين صاحب دمشق والأفرنج.

ومنها أن طغتكين سـار إلى طبرية وقد وصل إليهـا ابن أخت بـردويل صاحـب القدس فتحـاربا واقتتـلا، وكان طغتكين في ألفـي فارس وكثير من الـرجالة، وكـان الفرنجـي في أربعمائة فارس وألفي راجـل، فلما اشتد القتـال انهزم المسلمـون ونادى طغتكين: يـاللمسلمين فشجعهـم فعـادوا للحرب وكسروا الأفرنـج، وأسر ابن أخت الملك وحمل إلى دمشـق فعرض عليه طغتكين الا سـلام فامتنـع وبذل في نفسه مـالا ثلاثين ألـف دينار، واطلاق خمسمائة أسير، فلـم يقنع طغتكين منه بغير الاسـلام، فلما لم يسلم قتله بيده، وأرسل إلى الخليفة والسلطـان الأسرى إلى بغداد ثم وقع الصلح بين بغدويـن ملك القدس وبين طغتكين على أن تضـع الحرب (أوزارها) أربع سنين، وكان ذلك لطف الله بالمسلمين.

ومنهـا أنه في شعبـان انهزم المسلمـون من الأفـرنـج، وسبب ذلـك أن حصن عرقة من أعمال طرابلس الشام كان بيد غلا م القاضي فخر الملك ابن عمار، فعصى على مولاه، فضاق بـه القوت وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الأفـرنج في نـواحيها، فـأرسل إلى طغتكين ليرسـل إليه مـن يتسلم

الحصن: فقد عجزت عن حفظه لئلا يأخذه الأفرنج والمسلمون أحق به، فسار إليها فاجتمع الفرنج الذين كانوا يحاصرون طرابلس وغيرها وكسروا طغتكين، وانهزم المسلمون إلى حمص، فغنم الأفرنج أثقالهم ودوابهم، ثم حصروا عرقة، فطلب من بها الأمان فأمنهم الأفرنج، وكان في الأسر مقدم يسمى اسرائيل، فقالوا له: لانخليك تروح حتى يسير إلينا طغتكين فلانا الأفرنجي بذلك، ففدى به طغتكين واطلقا جميعا.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها في عيد الفصح للنصارى نزل الأمراء بنو منقذ أصحاب شيزر للتفرج على عيد النصارى، فثار جماعة من الباطنية في حصن شيزر فملكوا قلعتها، وبادر أهل المدينة إلى الباشورة وأصعدهم النساء بالحبال من الطاقات وأدركهم الأمراء بنو منقذ، ووقع بينهم القتال فانخذلت الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد.

ومنها في شوال ملك الأمير سقمان القطبي صاحب خلاط مدينة ميافارقين بالأمان بعد أن حصرها وضيق على أهلها حتى عدمت الأقوات فسلموها بالأمان...

ومنها أن الأمير مودود استولى على الموصل هو والعسكر الذين أرسهلم السلطان محمد، وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوة، وقد ذكرنا استيلاء جاولي عليها في سنة خمسمائة وماجرى بينه وبين جكرمش والملك قليج أرسلان، وكان سبب غضب السلطان على جاولي أنه كان استولى على البلاد ولم يحمل إليه منها شيئاً، ولما وصل السلطان إلى بغداد لقصد سيف الدولة صدقة أرسل إلى جاولي يستدعيه إليه بالعساكر، وتكررت الرسل إليه فلم يحضر وغالط في الانحدار إليه، فلما فرغ السلطان من أمر صدقة وقتله كما تقدم أمر بتجهيز العساكر لقصد

الموصل فتقدم الى الامراء وهم: بنو برسق، وسقمان القطبي، ومودود، وأقسنقر البرسقي، ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي، وأبي الهيجاء صاحب إربل، بالمسير إلى الموصل وأخذها منه فتوجهوا فوجدوا جاولي عاصيا قد شيد سور الموصل وحصنها، وأعد الميرة والأقوات، فنزلوا عليها في شهر رمضان من هذه السنة وحاصروها وضايقوها، فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين ومقدمهم يعرف بسعد، فأتوا وقت صلاة الجمعة وصغدوا برجاً وقتلوا الجند الذين به، وأغلقوا بابه ونادوا بشعار السلطان محمد، وطلع مائتا فارس من العسكر فرموهم بالنشاب ونادوا بشعار السلطان، فعند ذلك زحف العسكر من كل مكان على البلد فملكوه ودخله الأمير مودود فنادى بالسكون ورفع النهب وأن يعود الناس إلى دورهم، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام فراسلت الأمير مودود في أن يفرج لها عن طريقها ويتسلم القلعة فأجاب إلى ذلك، فحلف لها وخرجت إلى أخيها برسق بن برسق ومعها أموالها وما استولت عليه، وولي مودود الموصل وما انضاف إليها.

وأما جاولي فإنه لما وصل عسكر السلطان إلى الموصل خرج عنها وأخذ القمص صاحب الرها الذي كان أسره سقمان وسار به إلى نصيبين وهي للأمير إيلغازي بن أرتق، وسأله الاجتماع به واستدعاه إلى معاضدته فلم يجبه ايلغازي الى ذلك، فرحل عن نصيبين وسار إلى ماردين وقصد دار إيلغازي، ولم يشعر الا وجاولي معه في القلعة وحده، وقصد ان يتألفه ويستميله، فلما رآه إيلغازي قام وخدمه، ولما رأى جاولي محسنا به الظن نزل معه وعسكر بظاهر البلد، فسار نحو الرحبة وإيلغازي يظهر لجاولي المساعدة ويبطن الخلاف وينتظر الفرصة لينصرف عنه، فلما وصلا إلى عربان من الخابور هرب إيلغازي، فسار جاولي إلى الرحبة، فلما وصل ماكسين أطلق القمص الفرنجي واسمه بردويل، وكان صاحب الرها وسروج وكان مقامه في الأسر خمس سنين وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق المسلمين الذين أسرهم وأن

ينصره متى طلبـه بنفسه وعسكره، فلما اتفق الحال سير القمـص إلى قلعة جعبر فسلمه إلى صاحبهـا سالم بن مالك، وأقـام جوسلين في قلعة جعبر رهينة عن القمص، فلما أطلقه سار إلى أنطاكيـة فأعطاه طنكريد صاحب أنطاكيـة ثلاثين ألف دينـار وسلاحـا وخيلا وغير ذلك، وأطلـق القمص من أسـارى المسلمين مائة وستين نفـرا كلهم من سـواد حلب فكسـاهم وسيرهم، وكـان صاحب أنطـاكية قد تسلم الـرها من أصحـاب القمص حين أسر، فلما وصل طلب ردها من صاحـب أنطاكية، فلم يفعل، فخرج من عنده غضبانـا الى تل باشر، ثم إن جاولي منّ على جـوسلين باطلاقه من الأسر لأنه فدى نفسه بمال، فاجتمعـا على تل باشر واتفقا على محاربة صاحـب أنطاكية، فسـار إليهما بعساكره فاقتتلـوا وعاد طنكريـد إلى بلاده من غير فصـل حال، فتوسـط البترك بينهما وقال لـه جماعة من البطـاركة والقسيسين: إن بيمنـد لما أراد ركـوب البحر قـال ان تعـاد على القمـص الرهـا إذا خلص من الأسر، فـأعادها عليـه في تاسع صفـر، وعبر الفرات ليسلم إلى أصحـاب جاولي المال، وكان بسروج ثلاثمائة مسلـم ضعفاء، ولما أطلق جاولي القمـص سار إلى الرحبة، فـأتاه أبو النجم بـدران، وأبو كامل منصور ابنا سيف الدولة صدقـة، وكانا بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك بقلعة جعبر فتعاهدوا على المسـاعدة والمعاضدة، ووعدهما أن يسير معهما الى الحلة، وعـزموا أن يقـدموا عليهـم بكتاش بـن تكش بـن ألب أرسلان، فعندما عـزموا على هذا الامر وصل إليهم اصبهبـذ صبارو الذي كان قصد السلطـان محمدا، واقطعه الرحبـة فاجتمع بجاولي واشـار عليه ان يقصد الشـام فإن بـلاده خالية مـن الجند، والافرنـج قد استـولوا على أكثرهـا، ومتى قصـد العراق والسلطـان بها لم يأمـن من شر يصـل اليه، فقبل قوله، وأصعد عن الرحبة، فوصـل اليه رسل سالم بن مالك صاحب جعبر يستغيـث به مـن بني نمير، وكـانت الـرقـة بيد ولـده علي بن سـالم فوثبـوا عليه فقتلوه، فبلـغ ذلك الملك رضـوان صاحب حلـب، فسار الى صفين، فصادف في صفين الـذين معهم مال القمـص صاحب الرهـا قد

سيره الى جاولي فـاخذه واسر الافـرنج، واتى الـرقة فصـالحه بنو نمير على مال فرحل عنهـم الى حلب، فاستنجد عند ذلك سالم بـن مالك جاولي، فقصـد الرقـة وحصرهـا سبعين يومـا، فضمن لـه بنـو نمير مالا، وخيـلا، ورحل عنهـم، ثم وصل إليـه الامير اتابـك، حسين بن قتلغ تكين يـأمره بتسليـم البـلاد، وطيب قلبـه عـن السلطـان، وضمـن له كـل جميـل إذا سـلم البـلاد، فقال جـاولي: سر إلى الموصل ورحـل العسكر عنهـا، وأنا أرسـل معك مـن يسلم ولـدي رهينة وينفـذ السلطـان من يتـولى امرهـا، ففعل حسين ذلـك، وسار ومعه صـاحب جاولي، فلما وصـل الى العسكر قبض الامير مودود على صـاحب جاولي، وأقام على الموصـل حتى فتحها كما ذكرنـا، وعاد حسين إلى السلطـان فأحسـن القول عـن جاولي، فسـار جاولي إلى مدينة بالس فملكها، وهـي من أعمال حلب، فعند ذلك كتب الملك رضوان إلى طنكريـد صاحب أنطاكية يعلمه انه قـاصد حلب وأنه إن ملكها لايبقى للافرنج معه مقـام بـالشام، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه، فأجابـه ولحق به وهو بمنبج، فوصل الخبر وهـو في هذه الحالة أن الموصـل أخذت، واستـولى عليهـا عسكر السلطـان، وملكـوا خزائنـه وأموالـه فاشتـد ذلك عليـه، ففارقه أكثـر عسكره، ومنهـم أتابـك زنكي وبكتـاش، وبقي مـع جـاولي نفـر يسير، فلما تقاربـوا وتصـافوا وكـان صاحـب أنطاكيـة في عسكر كثيـف من المسلمين والأفـرنج، فلما وقعـت العين على العين لم يثبت لهم جـاولي، فانهزم عسكـره منهم، وتـوجه نحـو بـلاده، وقتل مـن المسلمين خلق كثير، ونهبـت الأفـرنج دوابهم وأمـوالهم، وأما جـاولي فقصد الرحبة، فلما رأى الحال كـذلك علم انه لايقـدر يقيم في الجزيرة ولابـالشام، ولايقدر على شيء يحفظ بـه نفسه ويرجـع إليه غير قصد بـاب السلطان محمـد شاه، وكان واثقـاً من الأمير حسين بـن قتلغ تكين، فرحـل وسار إلى عسكـر السلطان، وكـان بالقـرب من أصفهـان، فوصل إليه في سبعة عشر يومـا، لانه جد السير، فلما وصل العسكر قصد الأمير حسينـاً، فحمله إلى السلطـان وكفنه في يـده، فـآمنه فـأتاه الأمـراء

يهنونه، وطلب منه السلطان الملك بكتاش بن تكش فسلمه إليه واعتقله بأصفهان...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة بعد الخمسمائة

ذكر ماجرى من الافرنج لعنهم الله في هذه السنة:

من ذلك ان الافرنج اخذوا مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال وغنموا الأمتعة والأموال، ثم أخذوا مدينة جبيل.

وفي تاريخ بيبرس: وفي سنة ثلاث وخمسمائة ملكت الا فرنج طرابلس وبيروت من الشام، وسبب ذلك انهم حاصروها خمس سنين، فلما طال المقام عليها وصاحبها فخر الملك ابن عمار سار إلى السلطان محمد شاه يستنجده، فلما خرج منها سلمها إلى ابن عمه أبي المناقب، فكاتب الأفضل وزير مصر وسلمها إليه كما ذكرنا، وكانت النجدة والميرة تتواصل من مصر والحكم لصاحب مصر وهو نائبه، فلما كان في أول شهر رمضان وصل اسطول كبير، واجتمع عليها ملوك الفرنج، وجاء بيمند بن صنجيل في ستين مركبا وطنكريد صاحب انطاكية وبغدوين صاحب القدس وضايقوها وزحفوا عليها لمساعدة السرداني ابن أخت صنجيل، فلما شاهد ذلك الجند وأهل البلد سقط في أيديهم وذلت نفوسهم لتأخر الاسطول المصري، لتغير الريح اليهم وتعذر الوسول اليهم (ليقضي الله أمراً كان مفعولا) [الانفال ٤٢] فشد الافرنج عليهم القتال والزحف فهجموا البلد وملكوها قهرا في يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ونهبوا مافيها واسروا وقتلوا وسبوا النساء والاطفال، ونهبوا

الامتعة والأموال، وسلـم الوالي الذي كان فيها وسلم الأمـوال، وسلم قوم من أهلهـا وجماعة مـن جندها كـانوا قد التمسـوا الأمان، ثـم رحلوا الى دمشق، واخذت الافـرنج دفائن اهل طـرابلس وذخائرهم، وعـاقبوا أهلها فلا حول ولاقوة الا بالله العلي العظيم.

ولما فـرغ الافرنـج من طـرابلـس سار طنكـريـد صاحـب انطاكيـة الى بلنياس وحصرها فـافتتحها، ثم نزلوا على جبيل وبها فخـر الملك ابن عمار صـاحب طـرابلـس، وكان القـوت بها قليلا، فحـاصروهـا وطلب أهلهـا الأمان فخرجـوا منها وملكها الأفرنج في الثاني والعشريـن من ذي الحجة، ثـم سار فخـر الملـك الى دمشق وانـزلـه طغتكين عنده فـأكـرمه واقطعـه الزبداني من عمل دمشق، وكان ذلك في المحرم من سنة اربع وخمسائة.

وفي هذه السنة ــ أعني سنة ثلاث وخمسمائة ـ ملكـت الافرنج بيروت، ومقدمهم بغدويـن صاحب القدس، ثم ساروا الى صيـدا فصالحوهم على ستة آلاف دينار فرحلوا عنها، وسار بغدوين الى القدس.

وفي هذه السنـة ايضا سـار طنكريد صـاحب أنطـاكية الى طـرطوس واخذها، ثم بعد ذلك قـرر على شيزر عشرة آلاف دينار، ثم تسلـم حصن الاكراد وعاد الى انطاكية.

وفي تـاريخ ابـن العميـد: وكانـت مدة حصار الافـرنج سبـع سنين، واستولـت عليها الافـرنج بعـد ان فني مـن فيها مـن المسلمين من شـدة المضـايقة والجوع، وكـانت مـدينة عظيمـة مملوءة مـن المسلمين والعلماء، وملكت ايضـا في هذه السنة حصـن عكار، وحصن المنيطـرة، وقرروا على حصن مصيـات، وحصن الأكـراد قطيعة معينة في كـل سنة، وفيهـا ايضا ملكت الافرنج بيروت بعد حصار شديد.

وفي المرآه: وفي هـذه السنة نهضت الأفرنـج على رفنية، وعـرف أتابـك طغتكين فسار بـالعسكر وخيم بازائهـم بحمص، فلم يقدروا على منـازلة رفنية، وترددت بينهـم مراسلات أفضت إلى تقريـر الموادعة على أن يكون لـلافرنـج ثلث مغـل البقاع، ويسلـم إليهم المنيطـرة وحصن عكـار، وأن لايتعرضـوا لحصن مصيات وحصـن الأكراد وأن يحمل إليهـم عنهما مالا، وكذا عن حصن الطوبان، فأقامـوا مدة يسيرة، ثم عاد الافرنج الى الفساد في البـلاد، ونزل بغـدويـن صـاحـب القـدس وابن صنجيـل على بيروت، وسـار إليهم جـوسلين صـاحـب تل بـاشر لمعـاونتهـم، وجاء الاسطـول المصري وفيه الرجـال والميرة فدخلوا بيروت فقويت نفـوس أهلها، وبعث بغدوين إلى الجنـوية فجاءوا في أربعين مركباً فـزحفوا برا وبحرا فـدخلوها قهراً بـالسيف فقتلوا ونهبـوا وسبوا وفعلـوا كما فعلوا بطرابلـس واستصفوا الأموال والذخائر، ثم رحل بغدوين فنزل على صيدا وراسل أهلها بتسليم البلد فاستمهلوا مـدة عينوها فأجابهم واخذ منهـم مالا، وعاد الى القدس بسبب الحج.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير قراجـا صاحب حمص توفي في هـذه السنة فملكها بعـده رجل يقـال له خيرخـان... وفي تاريـخ ابن العميـد: لما مـات قراجـا صاحـب حمص ملكها بعده صمصام الدين خيرخان ولد قراجا، وا لله أعلم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة بعد الخمسمائة

ذكر ما جرى من الافرنج لعنهم الله:

وقال بيبرس: وفي هـذه السنة ملك الافـرنج مدينـة صيدا من سـاحل الشام في ربيع الآخـر، وكان ذلك بالأمان، وقال بيبرس: وسبـب ذلك انه وصـل في البحر الى الشـام ستـون مـركبا لـلافـرنج مشحـونـة بـالرجـال والذخـائر مـع بعـض ملوكهـم ليحـج الى بيت المقـدس، ويغـزو بزعمـه المسلمين، فاجتمع بهم بغدوين صاحـب القدس، وتقررت القاعدة بينهم ان يقصـدوا بلاد الاسـلام، فرحـلا من القـدس، ونزلا على مـدينة صيـدا ثـالث ربيـع الآخر، فحـاصروها وضـايقوهـا برا وبحـرا، وكان الاسطـول المصري مقيما على صور، فلـم يقدروا على انجـادهم، فعمل الفـرنج بـرجا من خشب واحكموه وجعلوا عليه مـامنع من الحجارة والنار، وزحفوا فلما عاين أهل البلد ذلك ضعفت قلوبهم واشفقوا ان يصيبهم ماأصاب أهل بيروت وغيرها، فـأرسلوا قـاضيها ومعه جماعـة من شيـوخها إلى الافـرنج وطلبوا الامـان، فامنهم ملكهـم على نفوسهـم وأموالهم والعسكر الـذين عندهم، ومـن أراد المقام يقيم، ومن أراد المسير عنهم لايمنعـونه، وحلف لهم على ذلك، وخـرج الوالي وجماعـة كبيرة من أعيـان البلد في العشريـن من جمادى الاولى، فوصلوا دمشق، وأقـام بالمدينة خلق كبير تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يومـا، ورحل عنها الى القدس، ثم عاد الى صيدا فقرر عليهم عشرين ألف دينار، وأقرهم في بلدهم.

وفي هذه السنـة أيضا سار صـاحب أنطاكية مـع من اجتمع إليـه من الافرنج إلى الأثـارب، وهو بالقرب من حلـب وحصره ودام القتال بينهم، ثم ملكـوها بـالسيف، وقتلوا مـن أهلها ألفـي رجل، وأسروا البـاقين، ثم

ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى على أهلها ماجرى على أهل الأثارب، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوهما وقد أخلاهما أهلهما، فعادوا عنهما، وصالح الملك رضوان صاحب حلب الأفرنج على ثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الأفرنج، فبذل لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم، فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار.

وفيها غدر بغدوين صاحب القدس ونزل طبرية، وخرج طغتكين صاحب دمشق فنزل على رأس الماء، ثم استقر الأمر على أن يكون ماكان من البلاد مناصفة.

وفي تاريخ بيبرس: لما جرى ماذكرنا من الأفرنج عظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا بأن الفرنج يستولون على سائر الشام لعدم المحامي عنهم، فشرع أهل البلاد الاسلامية من الشام في الهدنة معهم، فاستنع الافرنج الا على قطيعة يأخذونها إلى مدة معلومة يسيرة أو الى الحصاد، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار وخيول وثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، فخرجت مركب تجار من مصر، فلما أقلعت خرج عليها مراكب الأفرنج، وأخذوا البضائع وأسروا التجار، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد يستنفرون الناس على الأفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بتجهيز العساكر للجهاد، وأرسل من دار الخليفة منبراً إلى جامع السلطان، فلما كانت الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد، فمنعهم صاحب الباب من الدخول فغلبوا عليه، ودخلوا الجامع

وكسروا الشباك، وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعة، وأرسل الخليفة الى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورقعه، فتقدم حينئذ إلى من معه من الامراء بالمسير الى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولده الملك مسعود مع الامير مودود صاحب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الامراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر الى الشام لقتال الافرنج. منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهز السلطان محمد شاه العساكر لقتال الافرنج، منهم: شرف الدين مودود صاحب الموصل، والأمير أحمديل صاحب مراغة، والأمير سقمان القطبي صاحب ديار بكر، والأمير ألبي والأمير زنكي ابنا برسق، والأمير ايلغازي صاحب ماردين، فاجتمعوا في حران، وكتب اليهم ابن منقذ صاحب شيزر وعرفهم ان طنكريد صاحب انطاكية قد نزل بأرض شيزر وشرع في بناء تل في مقابل شيزر، ويريد ان يبنيه حصناً، فقطعوا الفرات ونزلوا على تل باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان، فوصل وهو مريض واختلفت آراؤهم، ومرض سقمان وطمع أحمديل في بلاده، فعادوا عن تل باشر إلى حلب، وعاثوا في البلاد من أعمال حلب، وفعلوا أقبح من فعل الأفرنج، وتوقعوا خروج الملك رضوان صاحب حلب إليهم، أو خدمة يبعثها إليهم، فلم يلتفت وأغلق أبواب حلب، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة، واستعد للقتال، وقد كانوا لما قطعوا الفرات كاتبوا طغتكين صاحب دمشق بالوصول إليهم ليدبروا الأمور، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك، فجمع وحشد رجاله ورجال حمص وحماة ورفنية، وسار في جمع كثيف طلبا للجهاد، فوصل إليهم على حلب، فسروا بوصوله، وقويت

نفوسهم، فلم يرمنهم عزيمـة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد، وأما سقمان فعاد الى بلاده ومـات في طريقه قبل وصـوله في الطريق الى الفـرات، وأما البرسقي فكان بـه نقرس فحمل في محفة ولاقول له ولافعـل، وأما أحمديل فإن عزمه قد قوي على العود لأجل بلاد سقمان وطمعه في اقطاعه يأخذه من السلطان.

فقـال طغتكين لأتابـك: ارحلـوا الى المعرة، فـرحلـوا على كره، فقـال: انزلوا على طـرابلس، فتوقفوا ثم تسللـوا وتفرقوا تفرق أيـدي سبأ، ولم يبق منهم سوى شرف الـدين مودود، وكان مصـافيا لأتابك طغتكين مصـافاة صدق، فنـزلا على العاصي، وكان الأفـرنج قـد تفرقوا الى مـواضعهم، فلما تفرق المسلمون رجعوا وصاروا يدا واحدة على الاسلام، ونزل ابن منقذ من شيـزر الى طغتكين ومودود وخـدمهما، وحمل إليهما، وجاء الافـرنـج فنزلـوا على تل معشر مقابـل شيزر ليبنوا عليه حصنـا، ونازلهم طغتكين ومودود، وطمع الترك وتخطفـوهم، ومنعوا احـدا منهم ان يخرج من خيمتـه، وقتلوا وأسروا، فلما رأوا أحوالهم نـاقصة انكفـأوا راجعين الى انطاكيـة وطرابلـس والترك في آثـارهـم قتـلا وأسرا، واستحكمـت المودة بين طغتكين ومـودود صاحب الموصل.

وذكر بيبرس في تاريخه اجتماع من ذكرناهـم من الأمراء أصحاب البلاد وعبورهـم من الفـرات في سنة خمس وخمسمائة، وقـال: لما اجتمعوا سـاروا الى بلـد شبختان ففتحـوا عدة حصـون من بـلاد الافرنـج وقتلوا مـن بها منهم، وحصروا مـدينة الرهـا مدة، ثم رحلـوا عنها من غير أن يملكـوها، وسبب ذلك ان الافرنج اجتمع فـارسهم وراجلهم وساروا ليعبروا الفرات، ويمنعوا الرهـا من المسلمين، فلما بلغوا الفرات بلغهـم كثرة المسلمين فلم يتقدمـوا، وبلغ المسلمين ذلك، فرحلـوا الى حران ليعبر الافرنـج الفرات، فلما عبروا ووصلـوا إلى الرهـا ومعهـم الميرة والذخـائر، فجعلـوا فيها كـل مايحتاجون إليه بعد أن أشرفت على ان تـؤخذ، وأخذوا منها كل من عجز

ورجعوا فعبروا الفرات الى الجانب الشامي، وطرقوا بلاد حلب فنهبوا وأفسدوا فيها وأسروا وقتلوا خلقا كثيرا.

وأما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعود الافرنج عن الرها الى الفرات، رجعوا الى الرها وحاصروها، فرأوا سورها محكما، وقد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم، فلم يجدوا فيها مطمعا، ونزلوا على تل باشر، فلم ينالوا منها غرضا، ورحلوا الى حلب، فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ولم يجتمع بهم، ومرض الامير سقمان وتوفي في بالس فحملوه في تابوت إلى بلادهم، فقصدهم ايلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحملوا تابوته في القلب وقاتلوا فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه، وأراد الأمير أحمديل أن يطلب من السلطان ماكان لسقمان، ولما سمع الافرنج تفرق عساكر السلطان وابن منقذ صاحب شيزر، فسار الى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الافرنج وحرضهما على الجهاد، فرحلا الى شيزر، ونزلا عليها بالقرب منهم، وضيقوا على الافرنج الميرة ولزوهم بالقتال، والأفرنج يحفظون نفوسهم، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا الى أفامية وتحصنوا فيها، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوهم في ساقتهم، وعادوا الى شيزر.

وفي هذه السنة ايضا نزل الافرنج مدينة صور، واجتمعت عساكرهم عليها عندما تفرقت العساكر الاسلامية، وساروا اليها مع بغدوين صاحب القدس، ونازلوها وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب، علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل، وألصقوا أحدها بسور البلد، وكانت صور للآمر بأحكام الله صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الاعز، فأحضر أهل البلد وسألهم في حيلة يدفع بها شر الابراج، فقام شيخ من طرابلس وضمن احراقها، فعمد الى ألف رجل فألبسهم السلاح، ودفع الى كل واحد منهم حزمة حطب، فقاتلوا الافرنج حتى وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة، فالقى الحطب من جهاته، والقى فيه

النار، ثم خاف ان يشتغل الفرنج الـذين في البرج باطفاء النار ليتخلصوا، فرمـاهم بجرار مملـوءة من العذرة كـان أعدها لهم، فلما سقطـت عليهم اشتغلوا بمانـالهم من بين الروائح، فتمكنت النـار منه، فهلك كل مـن به الا القليل، وأخذ المسلمون منـه ماقدروا عليه بالكلاليـب، ثم أخذ قففا كبـارا مـلأهـا بـالحطـب المسقـي بـالنفـط والـزفـت، والـزيـت والكتـان والكبريت، فـرماهم بسبعين سلة منهـا، فأحرق البرجين الآخريـن، ثم ان أهل صـور حفروا سراديـب تحت الارض ليسقط فيهـا الفرنـج اذا زحفوا اليهم، فاستـامن الى الافرنج مـن أهل البلد نفر مـن المسلمين واعلموهم بما عملوا فحذروا.

وأرسـل اهل البلـد الى اتابـك طغتكين صـاحب دمشـق يستنجدونـه ويطلبـون ان يسلموا اليـه البلد، فسـار في عسكـره الى نواحـي بانيـاس، وسير إليهـم نجدة مـائتي فـارس ، فدخلـوا البلـد، فامتنـع من فيـه بهم واشتد القتال من الافرنج خوفـا من النجدات، وفني النفط، وظفروا بشيء منه في شرف من الارض لايعلم من خزنه.

ثم إن عـز الملك صـاحب صـور أرسل الى طغتكين ليكثـر من تجنيـد الرجال ويقصـدهم ليملك البلد، فـأرسل طغتكين طائرا فيه رقعـة يعلمه بوصـول المال، ويأمره ان يقيـم بمكان ذكره ليجـيء الرجال إليـه، فسقط الطـائر على مركـب للفـرنـج، فأخـذه رجـلان: مسلـم وأفرنجـي، فقـال المسلم: نـرسله لعـل ان يكون فيـه فرج لهم، فلـم يمكنه الافـرنجي مـن ارسالـه وحمله الى الملـك بغدويـن، فلما وقف عليـه سير مركبـا الى المكان الذي ذكـره طغتكين، وفيه جماعة مـن المسلمين الذيـن استأمنوا إليـه من صور، فوصل إليهم العسكر وكلموهم بـالعربي، فلم ينكروهم، فأخذوهم أسرى، وحملوهم الى الافرنج فقتلوهم وطمعوا في أهلها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن شمس الخلافة نائب عسقلان مات في هذه السنة، وسبب ذلك أن شمس الخلافة كان نائبا بعسقلان من جهة الآمر بأحكام الله، خليفة مصر، وكان الوزير الافضل ابن أمير الجيوش رتبه فيها، فلما كان في هذه السنة استولت الافرنج على البلاد اولا فاولا، فخاف منهم النائب شمس الخلافة، فراسل بغدوين صاحب القدس، وأهدى إليه هدايا وهادنه وامتنع من تحكم المصريين عليه الا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك، فوصلت الاخبار الى مصر بذلك فجهز جيشاً وأمره سرا ان يقبض عليه إذا نزل إليه، وأمره ان يقول: إنه تجهز للغزاة ويعلمه الحال، فلما وصل الجيش إليه امتنع من الخروج وجاهر بالعصيان، فلما علم الأفضل امتناعه أرسل إليه يطيب قلبه، وأقره على عمله، فلم يزل على هذه الحال، وأنكر أمره أهل البلد، فوثبوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر، ونهبوا داره، وأرسلوا إلى الافضل بصورة الحال فشكرهم على ذلك، وأرسل واليا عليهم عوضه، ووصاه بالرفق بهم والاحسان إليهم، فزال ماكانوا يخافونه.

ومنها أنه ورد رسول ملك الروم إلى السلطان محمد يستنفره على الافرنج ويحيثه على قتالهم ودفعهم عن البلاد، وكان وصولهم قبل وصول أهل حلب، وكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تستحي ان يكون ملك الروم اكثر حمية للاسلام منك حتى أرسل إليك في جهاد الافرنج؟ وكانوا يحرضونه بهذا القول ومثله.........

ذكر من توفي فيها من الاعيان

الأمير سقمان.. ويقال له سكمان أيضاً بالكاف موضع القاف ــ بن أرتق ، صاحب ديار بكر وخلاط، قد ذكرنا أنه مات في بالس عند

رجوعه من بلاد حلب الى بلاده، وكان قد مرض ومات فيها، فحمل تابوته الى خلاط ودفن بها، وقيل دفن في ميافارقين، وكان ملكا عادلا مجاهدا خيرا، وقيل مات في ميافارقين ودفن بها، والله أعلم، وكان أبوه أرتق مات بالقدس.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب البلاد على حالهم والعساكر السلطانية في بلاد الشام لأجل قتال الافرنج صحبة الامير مودود، صاحب الموصل، وجرى لهم ماذكرناه في السنة الماضية، وكانوا قد تفرقوا كما ذكرنا.

وكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها، وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق، وهو للفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل من كان فيه، وعاد إلى الأفرنج الذين على صور، وكانت الميرة تقطع عنهم في البر، فاحضروها في البحر، وخندقوا عليهم، ولم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا، وأغار على ظاهرها، وقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركبا على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر، والفرنج يلازمون قتالهم، وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات، فخاف الافرنج ان يستولي طغتكين على غلات بلادهم، فساروا عن البلد إلى عكا، وعاد عسكر طغتكين اليه، وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها، ثم أصلحوا ماتشعث من سورهم وخندقهم، وكان الأفرنج قد طموه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين وحشد لقصد صور، فكتب واليها وأهلها إلى أتابك طغتكين يستنجدونه ويسألونه ان يسلموها إليه قبل مجيء الافرنج لانهم أيسوا من نصرة أهل مصر، فبعث إليهم أتابك الفرسان والرجالة وسار إليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فقطع أشجارها وقاتلها أياما وعاد خاسرا وخرج طغتكين من دمشق وخيم ببانياس، وجهز الخيالة والرجال الى صور نجدة، فلم يقدروا على الدخول، فسار إلى السواد ونزل على الحبيس

وهو حصن عظيم وحاصره وفتحه عنوة، وقتل من فيه، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور، وزحف إليهم أتابك ليشغلهم عن صور، فخندقوا عليهم وهجم الشتاء، ولم يبال الافرنج لانهم كانوا في ارض رملة والمسلمون في ارض وعرة، وكانت المادة تصل إلى الافرنج من صيدا، فسار إليها أتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية، وغرق المراكب، ومع هذا فإنه يواصل أهل صور المكاتبة ويقوي قلوبهم، وعمل الافرنج برجين عظيمين، وزحفوا بهما الى السور، وكان طول البرج الكبير زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير نيفا وأربعين ذراعا، وزحفوا اول يوم من رمضان، وخرج أهل صور بالنفط والقطران لحريق البرجين، ورموا بها، فنزلت النار، فهبت الريح فأحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير، فأطفأها الافرنج، وأشرف أهل البلد على الهلاك، فتصدر شخص من المسلمين وتحيل في حريق البرج فاحترق وخرج المسلمون، فأخذوا منه من الآلات والأسلحة ما لاتوصف (كثرته) فحينئذ وقع يأس للفرنج فرحلوا وأحرقوا جميع ماكان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعلوفات وغيرها، وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلد ولاوفوا له، فقال: أنا مافعلت مافعلت إلا لله تعالى، لالرغبة في حصن ولامال، ومتى دهمكم أجبتكم بنفسي ورجالي، وكان من سعادته أنهم لم يسلموا إليه، لانه كان عاجزا عن حفظ صور ودمشق، وصور ماكان لهم بد من أخذها، ورحل عنها.

وذكر في المرآة أيضاً ان أهل صور لما كتبوا إلى طغتكين بتسليم البلد إليه من شدة ماقاسوا من الحصار والقتال وعدم نصرة أهل مصر، وكان والي صور عز الملك أنوشتكين الأفضلي، فجاء رسولهم إلى بانياس، وواليها سيف الدين مسعود فأخبره، فسار مسعود معه إلى دمشق، فوجد أتابك قد مضى الى ناحية حماة ليتفق مع الملك رضوان صاحب حلب، فخاف مسعود ان يتأخر الامر الى حين عودة أتابك من حماة فيسبق

بغدوين فينزل على صور، فيفوت الغـرض، فتحدث مع تاج الملك بوري بالمسير معه الى بانيـاس، وانتهاز الفرصة في تسليم صور، فـأجاب، فسار معه الى بانياس، وتم مسعود الى صور ومعـه من يعتمد عليه من العسكر، وبلـغ أتابـك فبعـث قطعة مـن الأتـراك إلى تقويـة صـور، فساروا إليهـا ودخلوهـا، وطابت نفـوس أهل صـور، ثم كتب إلى الأفضـل وزير مصر بـأن الأفرنـج نزلـوا على صور، وشـارفـوا على أخذهـا، وبعث أهلهـا الي يستنجدوننـي، واني أنجدتهم بنفسي، ومـالي ورجالي، ومتـى وصل إليهـم من مصر من يذب عنها سلمتها إليه، فلا تهمل حال الاصطول.

وجاء بغـدوين، فبلغـه الخبر فتوقـف وفات غـرضه، ولما فـات غرضـه شرع في الغارات على حـوران والسواد، وكثر فسـاده، ثم كتب أتـابك إلى مودود صـاحب الموصـل يخبره بالخبر، ويطلـب نجدتـه، وكانـا قد اتفقـا وتصادقا وتحابا محبة عظيمة كما ذكرنا.

فسـار مودود بعسـاكره فقطـع الفـرات، وخرج إليـه أتابـك طغتكين، فتلاقيـا عند سلميـة واتفق رأيهما على قصـد بغدويـن، وسارا مـن حمص ومعهما عساكـر الشرق وعساكـر حمص وحماة ودمشق، وجـاءوا على البقاع فنـزلوا الغـور عنـد الاقحوانـه، وجمع بغـدوين ونـزل على جسر الصنبرة، فتقدم بعض المتعلفة فـالتقوا الأفرنج، ونشب القتال، وجـاء أتابك وقطع الجسر واقتتلوا، فانهزم الأفرنج وقتل منهم نحـو ألفي فرنجي من الفرسان والشجعان والأبطال، وغنموا أثقالهم، وأفلت بغـدوين بعدما قبض وأخذ سلاحـه، وغرق أكثرهم في البحيرة، وبعـث أتابـك ومودود إلى السلطـان محمد شاه يخبرانه بهذا الفتح العظيم وبعـث سلاحهم، ثم أغار المسلمون على الضياع التـي بين القدس وعكـا، وأخربـوا ونهبوا وعـادوا إلى دمشق، ونـزل مودود في قصر الميـدان الأخضر، وبذل أتـابك طغتكين جهـده في التقدمـة، ودخل يـوم الجمعة الجامـع، وزار المصحف العثماني، ثـم ودعه وعاد إلى بلاده.

وذكر بيبرس هذا الذي ذكرناه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين إلى ههنا في سنة ست وخمسمائة... ومنها أن العظيمي ذكر في تاريخه ان الأفرنج فتحوا المرقب في سنة خمس وخمسمائة وهو الحصن المنيع الذي لايرام ولايقدر عليه، وذلك بسبب أن الغارات توالت عليه أربع سنين حتى ضعف أهله وهربوا وأخذ البلد من باقيهم بعد أن حوصر مدة، ثم فتحه الملك المنصور قلاوون من أيدي الأفرنج سنة أربع وسبعين وستمائة على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة بعد الخمسمائة:

وفيها سار الأمير مودود صاحب الموصل إلى الرصافة ورعى عسكره زرعها إلى سروج، وأهمل أمر الافرنج ولم يحترز منهم، فلم يشعر الا وقد كبسهم جوسلين صاحب تل باشر، وكانت دواب العسكر منتشرة، فأخذ الافرنج كثيرا منها، وقتلوا كثيرا من العسكر، فلما تأهب المسلمون للقائه عاد عنهم إلى سروج.

قلت: هذا جرى على الأمير مودود بعد أن عاد من بلاد الشام.

وفيها عاد جواب الأفضل وزير مصر إلى أتابك طغتكين في حديث مدينة صور برسول من عنده، وبعث بالاسطول فيه الميرة، ومال للنفقة للعساكر وغلات، وكان مقدم الاسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الأفرنج لها، فرخصت الأسعار واستقامت الأمور، وزال طمع الأفرنج عن صور، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لأتابك طغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه، ولمسعود الوالي بصور، وأرسل بغدوين إلى مسعود يسأله الموادعة والمسالمة

لتنحسم أسباب الأذى من الجانبين، فأجابه الى ذلك، وانعقد الامر بينهما على السداد واستقامت الأمور وأمنت السبل، ومشت التجار من جميع الأقطار.

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ومعرة النعمان ومعرة مصرين على حصن شيزر في عيد فصح النصارى، فوثب فيه مائة رجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا أبوابه، وكان بنومنقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وبلغهم الامر فجاءوا، وكانوا قد أحسنوا الى هؤلاء الذين وثبوا، وإنما رتبوا ذلك في المدة الطويلة، ودلت الحرم الحبال من القلعة وتسلقت رجال ونزلوا وفتحوا الأبواب، ودخل بنو منقذ فقاتلوهم وقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية، ووقع الاحتراز بعد ذلك، فما كان يغيب منهم واحد إلا ويحضر الآخر.

وقيل كان بنو منقذ خرجوا إلى الصيد، وفعلت الباطنية ماذكرنا لانتهازهم الفرصة.. ...

الأمير سقمان بن أرتق، قد ذكرنا وفاته في هذه السنة، ثم أربع وخمسمائة، وذكر المؤيد وفاته في تاريخه في هذه السنة، ثم قال: ولما توفي سقمان ملك خلاط بعده ابنه ظهير الدين ابراهيم بن سقمان، وسلك سيرة أبيه، وبقي في ملك خلاط إلى أن توفي سنة احدى وعشرين وخمسمائة، فتولى مكانه أخوه أحمد بن سقمان الى ان توفي في الولاية بعد أحد عشر شهراً، ثم تحكمت والدتها اينانج خاتون ابنة أركماز، وبقيت مستبدة بمملكة خلاط ومعها ولد ولدها سقمان بن ابراهيم بن سقمان، وكان عمره ست سنين، فقصدت اعدامه لتنفرد بالمملكة، فلما رأى كبراء الدولة سوء نيتها لولد ولدها المذكور اتفق جماعة منهم وخنقوها في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، واشتغل ابن ابنها شاه أرمن سقمان بن

ابـراهيـم بــن سقمان في الملــك إلى سنـة تســع وتسعين وخمسمائة على ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

بسيل الأرمنـي صاحب بـلاد الأرمن، هلـك في هذه السنة، فقصـدها صاحب أنطاكيـة الأفرنجي ليملك بلاد الأرمن المعـروفة الآن ببلاد سيس فمات في الطريق وملكها سيرجال.

طنكريد الأفرنجـي صاحب أنطاكية، هلك في هذه السنـة وهو قاصد بـلاد الأرمن كما ذكـرنـا الآن، وتـولى أنطاكيـة بعـده ابـن أخيه سيرجـال الافرنجي.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة بعد الخمسمائة:

استهلـت هذه السنـة والخليفة هـو المستظهـر باللـه، وبقية أصحـاب البـلاد على حالهم، غير أن صـاحب حلـب رضوان، وصـاحب الموصـل مودود ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاة رضوان صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في تـرجمته، هـو فخر الـدولة، ويقـال فخر الملـك رضوان بـن الملك تاج الدولة تتش ابن السلطـان أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، صـاحب حلب، ملك حلب في السنة التـي قتل أبوه فيها وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

الثاني: في سيرتـه، وكانت سيرته قبيحـة، وأموره غير مرضية، وكـان قد قتل أخويـه قبل موته، وهما: أبـو طالب، وبهرام، وكان يستعين بـالباطنية في كثير من أموره لقلة دينه.

وفي المرآة: وكان ظالما بخيلاً شحيحاً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة ولاشفقة على المسلمين، وكانت الأفرنج تغير وتسبي وتأخذ من باب حلب، ولايخرج إليهم، وهو أول من بنى بحلب دار الدعوة، وكان المستولي على أمره جناح الدولة حسين ففارقه، وقتل خواص أصحابه واحدا بعد الواحد.

الثالث: في وفاته، مرض أمراضا مزمنة ورأى العبر في نفسه، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وقال ابن خلكان: مات رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الأفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولما مات كان في خزائنه من العين والعروض ستمائة ألف دينار.

ذكر ولاية ألب أرسلان بن رضوان:

ولما توفي رضوان المذكور، ولي بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم، وكان الأمر والحكم إليه، ولم يكن لألب أرسلان غير الاسم، ولم يكن أخرسا، وإنما كان في لسانه حبسه أو تمتمة، وكانت أمه بنت ياغي سيان صاحب أنطاكية، وعمره حين ولي ست عشرة سنة، وكان يلقب بتاج الدولة، وكان فعله كفعل أبيه، فإنه قتل أخوين كانا له، اسم أحدهما ملك شاه، واسم الآخر مبارك قتلهما مكافأة لأبيه مثلما فعل بأخويه، وكانت الباطنية قد كثروا في حلب في أيام أبيه حتى خافه رئيسها ابن بديع وأعيان أهلها، فلما توفي رضوان قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والايقاع بهم فأمره بذلك فقبض على مقدمهم ابي طاهر الصائغ وعلى أصحابه، وقتل أبا طاهر وأخذ أموال الباقين وأطلقهم فتفرقوا، فمنعهم من قصد الأفرنج، ومنهم من توجه حيث شاء.

وفي تـاريخ العظيمـي: ووثـب صـاعد بـن بـديـع رئيس حلـب على الباطنية ومقدمهـم أبو طاهر وخواصه اسماعيل، وقتـل منهم جماعة، وملأ منهـم السجـون، وقتل مـن مقـدميهـم جماعـة ظفروا بهم، مقـدار مـائة وخمسين رجلاً، وكـان الحكيم المنجـم وأبو طاهـر الصائغ أول مـن أظهر هذا المذهب بالشام في أيام رضـوان، فمال إليهم خلق كثير من حلب إلى جبل السماق وسرمين والمعـرة وتلك النـواحي، فلما مـات رضوان قـرر ابن بديـع رئيس الأحـداث بحلب مـع ألب أرسـلان بن رضـوان على قتلهم وجرى ماذكرنا.

ذكر مقتل مودود صاحب الموصل:

والكـلام فيــه على أنـواع، الأول في تـرجمتــه: هـو الأمير مــودود بـن ألطنطاش التركـي، وكان ألطنطاش من ممـاليك السلاجقـة، وملك الأمير مودود الموصل وغيرها في سنة اثنتين وخمسمائة، أخـذها من الأمير جاولي، كما ذكرنا.

الثاني في سيرته: كان رجلا خيرا عادلا، صاحب سيرة حسنة.

الثالـث في مقتله: وقصته أنه اجتمـع في هذه ا لسنة المسلمـون، وفيهم الأمير مـودودهـذا وغيـزك صـاحب سنجـار والأمير ايـاز بـن ايلغـازي، وأتابك طغتكين صاحـب دمشق، ودخلوا بلاد الأفرنج وجمع الأفـرنج مع بردويل ملك القدس، وجوسلين صـاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين، وكان سبـب اجتماع المسلمين أن بردويل تـابع الغارات على بلـد دمشق، فأرسل طغتكين صـاحبها إلى الأمير مودود يعرفـه الحال ويستنجده ويحثه على سرعـة الوصـول إليه، فجمـع العسـاكر وسـار فعبر الفرات، فخـاف الأفرنج، وسمع طغتكين فسار إليـه ولقيه بسلمية، واتفق رأيهم على قصد صاحب القدس، فسـاروا فنزلوا عند الأقحوانة على الأردن، ونـزل الأفرنج

على الصنبرة بينهم نهر الأرردن، وهم مع ملكهم بردويل صاحب القدس، فاقتتلوا بالقرب من طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الافرنج انهزموا وكثر فيهم القتل، وأسر ملكهم بردويل ولم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الأفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت قلوبهم وعادوا إلى الحرب، فأحاط المسلمون بهم من كل جانب، فأقاموا ستة وعشرين يوما والمسلمون يرمونهم بالنشاب فيصيبون من قرب منهم، ومنعوا المسير عنهم، فلم يخرج [أحد] منهم، فسار المسلمون إلى بيسان فنهبوا بلاد الأفرنج مابين عكا والقدس وحرقوها، وقتلوا من ظفروا به من النصارى، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم فعادوا ونزلوا مرج الصفر، وأذن الأمير مودود للعساكر بالعود والاستراحة والاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه ودخل دمشق في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وأقام بها عند طغتكين إلى الربيع، فدخل هو وطغتكين الجامع فوثب عليه باطني فقتله وجرح الباطني أربع جراحات وقتل وقطع رأسه وأخذ فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائما فقيل له أفطر، فقال: والله لا لقيت الله الا صائما، فمات من يومه رحمه الله.

وقيل إن الباطنية خافوه فقتلوه، وقيل إن طغتكين وضع عليه من قتله، وهذا بعيد، والله أعلم، وكتب ملك الافرنج الى طغتكين: « إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها»، وتسلم غيزك صاحب سنجار ما معه من الخزائن، وحملها الى السلطان، ودفن مودود بدمشق في تربة الملك دقاق بن تتش صاحب دمشق كان، وحمل بعد ذلك إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة رضي الله عنه، ثم نقل إلى أصفهان.

وفي تـاريخ المؤيـد: ودخـل مـودود الجامع ومعـه طغتكين وأصحـابهما فصلوا الجمعة، وخرج طغتكين ومودود يمشيـان في صحن الجامع، فوثب بـاطني على مـودود وضربـه بسكين، وقتـل الباطنـي وحمل مـودود إلى دار طغتكين ومات من يومه ذلك.

وفي المرآة: لما عاد مـودود من قتـال الأفرنـج نزل في دمشـق في الميدان الأخضر، وكان يـدخل في كـل جمعة إلى دمشـق فيصلي في الجامع، ويتبرك بمصحـف عثمان رضي الله عنـه، فـدخل إلى الجامـع على عـادته، ومعـه طغتكين والغلمان حوله بالسيوف المسللـة وأنواع السلاح وأتابك طغتكين بين يـديه خـدمة لـه، فلما حصلا في صحـن الجامع وثـب رجل مـن بين الناس لايـؤبه له، ولايحفل بـه، فقرب من مودود كـأنه يدعو لـه ويطلب الصـدقـة، وضربـه بخنجـر أسفـل سرتـه ضربتين احـداهما نفـذت إلى خاصرتـه، والأخرى إلى فخـذه، والسيوف تأخـذه من كـل ناحيـة، وقطع رأسه ليعـرف شخصه ومـا عرف، فـأحرق، وعـدا أتابـك خطوات وقـت الكائنـة وأحاط به أصحـابه، ورجـع إلى مودود وهو يمشي متماسكـا حتى وقع عنـد الباب الشمالي من الجامع، وحمل إلى دار أتـابك وخيط جـرحه، فعـاش ساعـات يسيرة ومات في يـومـه، فقلق أتـابـك لوفـاته على هـذا الوجـه، وحزن حـزنا شديـدا، وكذا سائر النـاس، ودفن في مشهـد داخل باب الفـراديس، وشرع أصحابه في العـود إلى الموصل وغيرها مـن البلاد، وأمر لهم باطلاق يستـدعونه لسفرهـم واستصحبوا معهم أمـواله وجواريه وأسبابـه، ولم يزل مدفونـا حتى وصل مـن زوجته وولده من الموصـل - في شهر رمضان - مـن حمله في تابوت إلى الموصل، وشيعه أتـابك إلى الثنية، وبلغني أن أتابك سـأله أن يفطر في ذلك اليوم، وكان صـائما فلم يفعل، وقـال: والله مـالقيت الله إلا صـائما، وكتب بغـدوين ملـك الافرنـج الى طغتكين: «ان امـة قتلت عميـدهـا، في يوم عيـدهـا، في بيـت معبودهـا، لحقيق على اللـه ان يبيدهـا» وقول بغـدوين: «يـوم عيدهـا» يعني «يـوم الجمعة» وقيل انها كانت في سنة خمس وخمسمائة، وذكر بعضهم ان أتابك

خاف منه، فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد، وشق ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بمال جزيل.........

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة ببغداد المستنجد العباسي، وبمصر العاضد العلوي، ووزيره بمصر شاور، ولكنه قتل في هذه السنة على يد أسد الدين شيركوه حين فتح مصر على مانذكره الآن، إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح مصر على يد شيركوه وماجريات ماحدث له، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في سبب توجه شيركوه إلى مصر وسفره إليها، وهي المرة الثالثة، وقد ذكرنا سفرتين له قبل ذلك، وكان السبب في ذلك أن الفرنج لما جعلوا لهم شحنة بالديار المصرية تحكموا في أبوابها وسكنها أكثر شجعانهم على ماذكرنا، وطغوا وبغوا، واستحوذوا عليها، وأخرجوا منها غالب أهلها من دورها، ولم يبق إلا أن يملكوها بالكلية، ومع ذلك ركبت امدادهم من كل ناحية، وصاروا صحبة مري ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ماأخذوا مدينة بلبيس فقتلوا منها خلقا كثيرا وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم وجعلوها موئلا ومعقلا، وكان ذلك في مستهل صفر من هذه السنة، ثم صاروا من بلبيس، ونزلوا على القاهرة عاشر صفر من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس إلى القاهرة، فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد الى الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله يستغيث به،

وأرسل في الكتب شعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نساء المسلمين من أيدي الأفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين

شيركوه مقيما عنـدهم ولـه اقطاعات زائدة على الثلـث، فشرع نور الـدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية.

وفي تـاريخ بيبرس: قـدم الفـرنج مـن السـاحل إلى مصر طـامعين في ملكها لما بلغهم أن نور الدين بن زنكـي فرق عساكره وانشغل بالشام فيما هـو بصـدده، ورأوا خلو مصر مـن الجنـد وأن ليـس بها مانـع، وراسلـوا ملكهم مـري في ذلك فلم يجبهم إليـه، فقالوا: إن لنا بها قـوة، وان شاور كان لما فارقـه الفرنج ترك عنده بمصر جماعـة منهم يحرسونه ممـن يأتي إليه من عسكر الشـام، فقال لهم مري: فهذا لايتم لنا وإن ملكنـاهم لم تطغنا العامة والفلاحين، ويجيء عسكر نور الديـن فيأخذونها فيكون ذلك دماراً على الفرنـج ووهنا، فسـاروا وأظهروا أنهم قـاصدوا حمص، فلما سمـع نور الديـن بذلـك جمع عساكره وسـار الفرنـج من السـاحـل، فقدمـوا بلبيس ونازلـوها، فأرجـف الناس بـذلك، وشرع شاور في بنـاء حصن على مصر استعمـل فيه جميـع أهـل مصر، وحفر خنـدقا، وكـان في عسكـر الفرنـج جماعة مـن الأمراء المصريين ممن هرب مـن شاور: يحيى بن الخيـاط، وابن قزلجا، وعلم الملـك ابن النحاس، فملكوا بلبيس عنوة وسبـوا أهلها وقتلوا فيها خلقـاً كثيراً ، وأسروا ابن شـاور، وساروا طـالبين القاهـرة، ولما قربـوا منها أمر شاور بـاحراق مصر فأحرقت، وانتقل بعـض أهلها إلى القاهرة، وتفرق بعضهم في البلاد، ونهبوا أقبح نهب، وذهبت أموال أهلها، وبقيت النـار مستمرة الحريـق فيها أربعـة وخمسين يومـاً، ولما علم أهـل القاهـرة عجزهم عن مقـاومة الفرنج سير العاضد وشاور إلى نور الـدين بن زنكي يستغيثـون به مـن الفـرنج، وأرسلـوا إليه شعـور النسـاء في طي الكتـب، وأرسل شاور إلى مـري ملك الافرنج يبـذل له مالا على أن يرحـل ويزيح الافـرنج عـن القـاهرة ، وتقـرر الحال على ألف ألـف دينـار، فقال مـري لأصحـابه: نـأخذ هـذا المال نتقوى بـه ولانبالي بعـد ذلك بنـور الديـن، واستوثق شاور منـه بالايمان، وعجل له من المقرر مـائة ألف دينار وأخذ

يماطله بالباقي ويمنيه، وشرع شاور يجمع من أهل القاهرة مالا، فلم يحصل له شيء لضعف أهلها، ولم يجتمع له بالجهد والمصادرات سوى خمسين ألف دينار، وفي خلال ذلك كانت الرسل متواترة إلى نور الدين للاستعانة به والاستغاثة إليه، فجهز أسد الدين شيركوه.

وفي المرآة: وفي صفر خرج الأفرنج من عسقلان والساحل طالبين الديار المصرية، فنزلوا على بلبيس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج، وقتل البعض وهرب الباقون، ثم سار الفرنج من بلبيس، فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق فلم يجد شاور بدا من أن كاتب نور الدين بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا الى مصر في المرتين الأوليتين اطلعوا على عوراتها، وطمعوا فيها، ولما علم نور الدين بذلك استرجع وخاف عليها، فقال لشيركوه؛ خذ العساكر وتوجه إليها، وقال لصلاح الدين: اخرج معه، فامتنع وقال: ياMولانا يكفي مالقينا من الشدائد، فقال: لابد من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين، فساروا الى مصر.

وفي تاريخ الدولتين: لما أتى رسول العاضد إلى نور الدين بذلك أرسل الى أسد الدين يستدعيه من حمص وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، فأتى من حمص إلى حلب في ليلة واحدة، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسر، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في الخزائن وأمر العساكر، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين لكل فارس من العسكر

الذي مع أسد الدين عشرين دينار معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنصرين من الله عز وجل وذلك في منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه على رأس الماء، فأقام ينتظر بورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم، لما سمعوا بورود عسكر نور الدين ووصولهم.

وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان ــ يعني ــ صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وماخرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ [البقرة ٢١٦].

وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه، وقال صلاح الدين: لما قال لي عمي: تجهز يايوسف فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالاأنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب ومااحتاج إليه، فأعطاني ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت،

وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه، وحرضه أيضا حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة يمدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلا
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا
وللأعداء لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءتكم مصر تهادى
عروس بعلها هزبر هصور
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الاجناد سيروا
وراء لوائه تلقوا رشادا
فما كل امرىء صلى مع الناس
مأموما كمن صلى فرادا[٣]

فلما سافر صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة الى داره، فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي[٤]

ودار صلاح الـدين هـي التي وقفها ربـاطاً للصوفيـه بحارة قطـامش جوا قيسارية القصاع وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله.

الثاني: في وصول شيركـوه إلى البلاد المصرية، كان وصوله مـع العساكر إلى بـلاد مصر في السابـع مـن ربيع الآخـر مـن هـذه السنة، ولما وصلـوا وجـدوا الفرنـج قد انشمـروا عن القـاهـرة خائبين، فـدخل شيركـوه على العاضـد في ذلك اليـوم وخلع عليـه خلعة سنيـة فلبسها وعـاد إلى مخيمه بالخلع العـاضدية بظاهر البلـد، وفرح المسلمون بقدومه إليهـم، وأجريت عليهم الجرايات، وحملـت إليهم التحف والكرامات، وخـرج وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكـان ممن جاء إلى المخيم الخليفة العاضد متنكراً فـأسر إليه أمـورا مهمة منهـا قتل الـوزير شـاور، فقرر ذلـك معه، وعظم أمر شيركـوه بمصر، ولم يقدر الوزير على منع شيء مـن ذلك لكثرة الجيـش الـذي مـع أسـد الديـن، ولكـن شرع يماطـل فيما كـان قـرر لهم وللملك نور الدين بما كانوا التـزموا له ولهم، وهو مع ذلك يتردد الى أسد الدين، ويركب معه ويعده ويمنيه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قـرب شيركوه من القاهرة عاد الفـرنج عنها إلى بـلادهم، ومعهـم من الأسرى اثنـي عشر ألف نفـس من الجنـد والعامـة وغيرهم، ودخـل أسد الـدين القاهـرة لثلاث عشرة ليلـة بقيت مـن ربيع الآخر مـن هذه السنة، فلتقـاه العاضد وأجلسـه إلى جانبه، وخلـع عليه، وضربت البشـائر، وشرع في اطفاء النـار بمصر، وتقدم العـاضد بـأن ينزل على شـاطـىء النيـل بـالمقس، وقـام شـاور بعسكـر شيركـوه، وأقـام لهم الضيـافات، وأظهـر له ودا كثيرا، واعتمـد أن يتردد إليه كـل يوم، فطلـب شيركـوه منـه مالاينفقـه في عسكـره، فـدافـع في ذلك، فسير إليـه الفقيـه عيسى الهكاري يذكر له أن العسكر جيـاع، وقد طال مقامهم وأنا أخشى عليك منهـم، فلم يكترث شـاور بكلامه، فلما طـالت مطـالبتهم لـه عزم على أن يعمل دعـوة لأسد الـدين وجماعـة الأمراء الـذين معـه، ويقبض

عليهم ويستخدم من معه من الجند، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وقال: لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال له شاور: لئن عرفته ليقتلننا عن آخرنا، فقال له: صدقت، ولئن يقتلننا ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكنا الأفرنج فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لومشى العاضد لنور الدين ماأغاثه، ولاأرسل أحدا ويملكون البلاد. فترك ماكان قد عزم عليه، فسير العاضد أعلم شيركوه بذلك، ولما رأى الأمراء النورية مماطلة شاور خافوا شره، فاتفقوا مع صلاح الدين يوسف على قتله، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه.

وفي المرآة: وكان أرباب الدولة كل يوم يترددون إلى خدمة شيركوه، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة عساكره وميل العاضد إليه، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر، وبلغ أعيان دولة المصريين فاجتمعوا عند شيركوه، وقالوا: شاور هو فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج، فشرع في عمل دعوة لاسد الدين على ماذكرناه.

الثالث: في مقتل شاور.

ولما صدر من شاور ماذكرناه من سوء العزم في حق شيركوه، ورأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم عنه، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار في بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رحمه الله، وقصد شاور على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه،

فسار وهما معه قليلا، فـألقوه عن فرسه، فهرب أصحـابه وأخذ أسيرا، ولم يمكنهم قتلـه بغير أمر أسد الـدين، فسجنـوه في خيمة وتوكلـوا بحفظه، فعلـم أسـد الديـن الحال، فعـاد مسرعـاً، ولم يمكنه الا اتمام مـاعملـوه، وأرسل الـ ـاضد صـاحب مصر في الوقـت إلى أسد الـدين، يطلـب منه رأس شاور، ويحثـه على قتله، وتتابـع الرسل بذلـك فقتل شاور في يـومه وهو سـابع عشر ربيـع الآخر، وحمل رأسه الى القصر، ودخـل أسد الـدين القاهرة، فـرأى من كثرة الخلق واجتماعهـم ماخاف منه على نفسـه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمـركم بنهب دار شـ ـاور، فقصدها النـاس ينهبونها، فتفرقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابـن شداد: وأقـام أسد الـدين بها يتردد إليـه شاور في الأحيـان، وكان وعدهم بمال في قبـالة ماخسروه من النفقة، فلم يـوصل إليهم شيئا، وأنه يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وعلموا أنه لاسبيل للاستيلاء على البلاد مع بقاء شـاور، فاجتمع أمرهم على قبضه إذا خـرج إليهم، وكانوا هـم يترددون إلى خـدمتـه دون أسـد الـدين، وكـان يـركـب على قـاعـدة وزرائهـم بـالطبـل والبـوق والعلـم، فلـم يتجـاسر منهـم على قبضـه إلا السلطان نفسه، يعني صـلاح الدين يوسف بن أيـوب، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخـذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبـض شاور وأنزل في خيمة مفردة، وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عـادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مـن قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته، وأنفذ رأسه إليهم.

وفي المرآة: واختلفـوا في كيفيـة مقتـل شـــاور على أقـوال: أحـدهـا أن الأمـراء اتفقوا على قتلـه لما علمـوا بمكـاتبته الفـرنـج، وأن أسـد الديـن تمارض، وكان شـاور يخرج إليه كـل يوم والطبـل والبوق يضرب بين يـديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه.

والقول الثاني أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله، وأخبرا أسد الدين فنهاهما عن ذلك وسكتا، واتفق أن أسد الدين ركب إلى زيارة الشافعي فأقام عنده، وجاء شاور على عادته إلى أسد الدين، فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا: انزل هو في الزيارة فامتنع فجذباه فوقع إلى الأرض فقتلاه.

والقول الثالث: أنهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، وسجنه الغلمان في الخيمة وانهزم أصحابه إلى القاهرة ليجيشوا عليهم، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول له: في رقبتي أيمان وأنا خائف عليك من الذين عندي فلا تجيء، فلم يلتفت وجاء على عادته فجذبوه وألقوه عن فرسه، وأدخله جرديك إلى الخيمة وحز رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به، ودعا العاضد ولد شاور الكامل، فقتله في الدهليز، وقتل أخاه، واستوزر شيركوه على مانذكره الآن، ان شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: ودخل أولاده إلى القصر مستجيرين بالخليفة، فأخذوا وعوقبوا أشد العقاب، ثم قتلوا وهم: الكامل، والمعظم، وركن الاسلام.

الرابع: في ترجمة شاور.

هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث ابن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يحنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وفي هذا نظر لقصر هـذا النسب بالنسبة إلى بعد المدة، والله أعلم، قلت: أبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصره بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، السعدي، وكان شاور يلقب بأمير الجييوش، وهو الـذي انتزع الوزارة من أيدي بني رزيك ـ كما قلنـا ـ وهو أول من استكتـب القاضي الفاضل، استـدعى به من اسكنـدرية مـن باب السـدرة، فحظي عنـده، وانحصر منه الكتـاب بالقصر لما رأوا مـن فضيلته، وكـان شاور على تـوليه الصعيـد، ولاه الملك الصالح طـلائع بن رزيك ـ كما ذكـرنا ـ ولما جرح الصـالح، وأشرف على الوفـاة كان يعد لنفسه ثـلاث غلطات: أحدها تـولية شاور، والثانيـة بناء الجامـع المعـروف به على بـاب زويلـة، وكـان قـد بقي عـونـا لمن يحاصر القاهـرة، والثالثـة خروجـه إلى بلبيس بـالعساكـر ورجوعـه بعد أن أنفـق عليهم أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم سيره إلى بلاد الشام ويفتح البيت المقدس، ويستـأصل شأفة الفرنـج، وقد ذكرنا أن شـاور قد تمكن في الصعيـد، وكـان ذا شهامـة وفـروسيـة، وكـان قد قـدم الصعيـد على الواحـات ، واخترق تلك البراري إلى أن خـرج عند تـروجه بـالقرب مـن الاسكندرية، وتـوجه إلى القاهرة ودخلهـا يوم الأحد الثاني والعشريـن من المحـرم سنـة ثمان وخمسين وخمسمائة وهـرب العـادل رزيـك وأهلـه مـن القاهـرة ليلة العشرين مـن المحرم وقتل العادل بـن صالح وأخـذ شاور موضعـه من الوزارة واستـولى، ثم لما خرج أبو الأشبـال ضرغام بن عـامر توجه إلى الشـام مستنجدا بنور الدين محمـود، وذلك في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ـ كما ذكرنـاه ـ وتولى ضرغام الوزارة مكـانه، فأنجده نـور الدين بالأمير أسد الدين، والقصة مشهـورة، ثم آل الأمر إلى أن قتل شاور يوم الأربعاء السـابع عشر، وقيل الثـامن عشر من ربيـع الآخر من سنـة أربع وستين وخمسمائة، ودفـن في تربـة ولـده طي، وهـي في القـرافة الصغـرى بالقـرب من تربـة الفاضل القاضي، وللفقيـه عمارة فيه مدائح مـن جملتها قوله من قصيدة:

ضجـر الحديـد مـن الحديـد وشـاور
مـن نصر آل محمـد لم يضجـر
حلـف الـزمـان ليـأتين بمثلـه
حنثـت يمينـك يـازمـان فكفـر

وقال عماره اليمني: قضى قدوم الغُزّ برحيل الأفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغُزّ بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ماهو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يُربّ أحد رجال الدولة مثلما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته مدة تسعة أشهر، مدة حمل الجنين، ولاأتلف أموالهم مثل آل شاور، وهو الذي أطمع الغز والفرنج في الدولة حتى انتقلت من أهلها، ولما عاد من اسكندرية أكثر سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم يسحب القتلى إلى خارج الدار.

الخامس: في وزارة أسد الدين شيركوه.

ولما جرى على شاور ماذكرناه دخل شيركوه على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية وولاه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلعة إلى دار الوزارة، وهي الدار التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وأمر بنهب مافي دار شاور، وعظم شأنه، وقوى أمره، وأرسل أسد الدين يطلب إلى القصر كاتبا له، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل، رجاء أن يقتل معه إذا قتل، فيما كانوا يؤملون، وشرع في بعث العمال إلى الأعمال، وأقطع الاقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حمامه وانقطع أمله.

وفي تاريخ بيبرس: لما قتل شاور أرسل العاضد فاستدعى أسد الدين من المخيم، فدخل القاهرة من وقته، ودخل القصر، فرأى اجتماع الناس، وكثرة العوام فخافهم على نفسه، فقال لهم: إن مولانا العاضد أمركم بنهب دور شاور فتفرقوا عنه، ومضوا إليها فنهبوها، ومثل شيركوه بين يدي العاضد فخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليدا.

وفي تاريخ الدولتين: وزارة أسد الدين عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر.

أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيرا، وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاور ومن قبله من الوزراء، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للامور مقرر لها، وزمام الأمر مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتيه وسياسته.

وقال ابن خلكان: وكانت ولايته الوزارة يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة.

السادس: في نسخة التقليد المنشأ عن العاضد بتفويض الوزارة إلى أسد الدين شيركوه: «الحمد لله القاهر فوق عباده، الظاهر على من جاهر بعناده، القادر الذي يعجز الخلق عن فهم ماأودع ضمائر القلوب من مراده، القوي على تقريب ماقضت الهمم باستبعاده، المليء بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده، يؤت الملك من يشاء بها أسلفه من ذخائر ارشاده، ونازعه ممن يشاء بها اقترفه من كبائر فساده، ينجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم، واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم، وفعلت له المهابة مالا تفعله الهمم، وخلعت آثاره على

الـدنيا تخلعـة الأنوار على الظلـم، وعدمـت أنظاره بها وجـد من محاسنـه التي فـاق بها ملوك العرب والعجـم، وانتقم اللـه به من ظلـم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلـم، وزاد عن موارد الدين من هـو بها أولى، ويأبى الله الا امضاء ماحتم، مؤيد أمير المؤمنين بإمـام أقر الله به عينه، وقضى على يده مـن نصرة الدين دينـه، ﴿لو أنفقـت مافي الأرض جميعا مـاألفت بين قلوبهم ولكـن الله ألف بينهم﴾ [الأنفـال ٦٣] والحمد لله الـذي خص جـدنا محمـد بشرف الاصطفـاء والاجتباء، وانهضـه مـن الرسـالـة بأثقـل الاعبـاء، ووفـر لـه مـن شرف المقام المحمـود أوفـر الانصبـاء، وأقـام بـه القسطـاس، وطهر بـه الادناس، وأمـده بالصـابريـن في البأسـاء والضراء «وحين البـأس» وألبـس شريعتـه مـن مكـارم الافعـال والاقـوال أحسـن لباس، وجعل منه النور ساريا في عقبه لاتنقصه كثرة الاقتباس، ذلك من فضل الله علينـا وعلى الناس، والحمد لله الـذي اختار لأمير المؤمنين من يقوم في أمته مقـامه ويهدي بمراشد نـوره الى دار المقامه، وأوضح بـه منار الحق وأعـلامه، وجعلـه شهيد عصره، وحجـة أمره، وبـاب رزقه، وسبيـل حقه، وشفيـع أوليائه، والمستجـار في الخطوب بلوائه، والمضمـونه لـه وبه العقبـى، والمسؤول لـه الأجر في القـربـى، والمفترض له الطـاعة على كـل مكلف، والغـاية التـي لايقصر عنها بـولائه من تـأخر في مضمار النجـاة وتخلف، والمشفوع الذكـر بالصلاة والتسليم، والهادي الى الحق والى صراط مستقيم، لايقبل عمل الا بخفـارة ولائه، ولاينجح أمل الا بسفارة آلائه، ولايضل من استضـاء بأنجم هدايتـه اللامعة، ولادين ولا دنيـا الا معه، ليتضح النهج للقاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد، وليتبين الذين اختلفوا فيـه، وليعلموا انما هـو إلـه واحد، يحمـده أمير المؤمنين على مـاحباه مـن التـأييـد الـذي ظهـر فبهر، وانتشر فعـم نفعـه البشر، والاستظهـار الـذي استنـزل فيه جنـود السماء والأرض، الذي عقـد اللـه منه عقـدا لاتدخـل عليه أحكـام النقض، والانتصار الـذي أبان به معنـى قوله:﴿ولـولا دفع الله ـاس بعضهم ببعض﴾ (البقـرة ٢٥١) ونسألـه أن يصلي على جده

محمد الأمين المبعوث رسولاً في الأميين، الهادي إلى دار الخلود، والمستقل باستقلال عواثر الجدود، وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وامام شيعته، وباب علمه، وسيف نصره، ولسان حكمه، وقسيمه في النسب والسبب، ويد الحق التي حكم لها بالقلب، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم، ومصابيح الظلم، ومفاتيح النعم، وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله إليه من ايالة الخليقة، ومنحه من كرم السجية وشرف الخليقة، وظاهر له من الكرامات التي زادت على أمنية كل من تمن، وائتمنه من أسرار النبوة التي رآه لها أشرف مودع وأكرم مؤتمن، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب، وتسهيل الطلاب، وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب، يواصل شكر هذه النعم التوائم، ويعرف بعوارفها الفرادى والتوائم، ويثق بوعد الله إذا استهلكته المصابر، ويضرع الى الله اذا فرغ الصابر، فما اعترض ليل كربة الا انصدع له عن فجر وضاح، ولاانتقض عهد غادر الا عاجله الله بأمر فضاح، ولاانقطعت سبيل نصره الا وصلها عزه، يرسل ارسال الرياح، ولاانصدعت عصا ألفة الا تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح، وإذا أعدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والآيات المعلومة، والكفايات المحتومة، والسعادات المقسومة، والعادات المنظومة، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً، وأعلاها حضرا، وأقضاها للامة وطرا، فليهنيك أنك حزب الله الغالب وشهاب الله الثاقب، وسيف الله القاضب، وظل أمير المؤمنين الممدود، ومورد نعمته المورود والمقدم في بيته، وماتأخرت الا لأجل معدود، نصرت حين تناصر الضلال، وهاجرت اليه هاجرا برود الزلال وبرد الظلال، كشفت الغماء وهي مطبقة، ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقة، وغضضت أعنة الطغيان وهي مطلقة، وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابها المونقة، وأنقذت الاسلام وهو على جرف هار، ونفذت حين لاتنفذ السهام عن

الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار، ونصرت حق الله بنصرتك له، وكم من أناس لابرؤيته بأنصار، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لايتقيه وكذبه، ومايومك في نصر الاسلام بواحد، ولاأمسك بمجحود وإن رغم أنف الجاحد، أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائما بها في غمرة بعد غمرة، وافترعت صهوة هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات في لحاقك، وكنت البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ نجحه، المذعورة أعداء أمير المؤمنين إن فوق سهمه وأشرع رمحه، ولقد استشرفتك الصدور، وتطلعت اليك عيون الجمهور، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور، نصرت الاسلام بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله، وناهضت الكفرة بالباع الأشد، ونادتهم سيوفكك «ولاقرار على زئير سن الأسد» فأدال الله بك ممن قدم على قدم، وندم فما أغنى عنه الندم، حين لج في جهالته، وتمادى في ضلالته، واستمر في استطالته، وتوالت عنه عثرات ماأتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدولة رجالاً، وضيق من أرزاقهم مجالا، وسلب من ذخائرهاذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتسعت هفواته عن التعديد، ومالعهد منها ببعيد، وقد نسخ الله بك حوادثها فواجب أن تنسخ أحاديثها، وأتى الامامة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها، ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار، وتحقق أنك ممن يتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار، واختارك على بينة من أن الله يحمد فيك عواقب الاختيار، وكنت حيث رجا وأفضل، ووجدت بحيث دعا وأعجل، وقدمت فكتب الله لك العلو وكبت بك العدو، ونمع على التوفيق لك طر في الرواح والغدو، ولو لم يلبس الكافر لسهامك جنة الا الفرار، وكان ﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾ [ابراهيم ٢٦] فلله درك حين قاتلت بخبرك قبل

عسكرك، ونصرت بـأثرك قبل طلوع عثيرك، وأكـرم بك من قادم خطـواته مبروزة وسطواتـه للاعـداء مبيرة، وكل يـوم من أيـامه بعـد يسيرة، فإنـك المبعوث الى بـلاد أمير المؤمنين بعث السحـاب المسخر، والمقـدم في تقدم النية وإن كنت في الـزمان المؤخر، ولما جرى من جرى ذكـره على عادته في ايحاشك والايحاش منك بكواذب الظنون، وقرب رجعتك عن الحضرة وقد قربـت الدار وقرت العيـون، وكان كما قال اللـه في كتابه المكنـون: ﴿لقد ابتغوا الفتنة مـن قبل وقلبوا لك الأمـور حتى جاء الحق وظهر اسـم الله وهم كارهون﴾ [التـوبة ٤٨]، وأخذه من أخذه ألم شديـد، وعدل فيه من قال: ﴿وما ربك بظلام للعبيـد﴾ [فصلت ٤٦] ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق ٣٧].

قـال العماد الكاتـب: وكتب لأسـد الـدين منشـور من القصر، بسيـط الشرح، طويـل الطي والنشر، كتب العاضـد في طرته بخطه، ولاشـك انه بـاملاء كتـابه: «هـذا عهد لم يعهـد لوزيـر بمثله، وتقلـد أمانـة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجـة عليك عند الله بما أوضحه لك مـن مراشد سبله، فخذ كتـاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخـار بأن اعتزت خدمتـك إلى بنوة النبـوة، واتخذه للفوز سبيـلا ، ﴿ولاتنقضوا الايمان بعـد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ [النحل ٩١] ونسخة المنشور.

«من عبد الله ووليـه محمد العاضد لدين اللـه أميرالمؤمنين،إلى السيد الاجـل الملك المنصـور، سلطـان الجيـوش، ولي الأئمة، مجير الأمـة، أسـد الدين، كـافل قضاة المسلمين، وداعي دعـاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الـدين، وأمتع ببقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سـلام عليك، فإنـه يحمد إليـك الله الذي لا إلـه الا هو، ويسـأله أن يصلي على محمـد خـاتـم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آلـه الطاهريـن، والأئمة المهديين، وسلم تسليما». ثـم ذكر باقي المنشـور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليـل، على عادة الكتاب المتأخرين

الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بجوامع الكلم».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية، فولي كاتبا بالاسكندرية على باب السدرة، ثم اتصل بالكامل بن شاور، فاستكتبه وزاحم به كتاب القصر، فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتبا، أرسل به إليه، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه، فنخلص من مزاحمته لنا، فكان من أمره ماكان، واستمر في الدولة، ولم يزدد كل يوم الا تقد ما، بصدقه ودينه، وحسن رأيه، وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين، أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب

ياشيركوه بن شادي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب

جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المراقي العلى ما حزت بالخبب

تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب

فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كثب

أنت الذي هو فرد من بسالته
والدين من عزمه في جحفل لجب

في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى
والقلب في شجن والنفس في شجب

إلى أن قال:

مــن شر شــاور أنقــذت العبــاد فكــم
وكــم قضيــت لحزب اللــه مــن أرب
هــو الــذي أطمــع الافــرنــج في بلــد الــ
اســلام حتــى سعــو اللقصــد والطلــب
ومــا غضبــت لــديــن اللــه منتقما
الا لنيــل رضــى الــرحمن بــالغضــب
وحين سرت الى الكفــار فــانهزمــوا
نصرت نصر رســول اللــه بــالــرعــب
يــا محيــي الامــة الهادي بــدعــوتــه
للــرشــد كــل غــوي منهــم وغبــي

الى ان قال:

فــالجد والجد مقــرونــان في قــرن
والحزم في العــزم والادراك بــالطلــب
فطهــر المسجــد الاقصــى وحــوزتــه
مــن النجــاســات والاشراك والصلــب
عســاك تظفــر في الــدنيــا بحســن ثنــا
وفي القيــامــة تلقــى خير منقلــب(٥)

السابع: في وفاة أسد الدين شيركوه.

لما استقـر شيركوه في الـوزارة ولم يبق لـه منازع واستعمـل على الأعمال من يثـق به من أصحـابه وأزلامه عـرض له مـرض شديد بعلـة الخوانيق، وكـانت وفـاتـه في الثاني والعشريـن من جمادى الآخـرة مـن هذه السنـة، فكانت وزارته شهـرين وخمسة أيام، وحملت جثته إلى المدينـة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، ودفن بها.

وفي تاريخ الدولتين: توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله.

وفي المرآة: ودفن بظاهر القاهرة، إلى أن مات أخوه نجم الدين أيوب، فحملا جميعا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فدفنا في رباطيهما.

وفي تاريخ ابن كثير: ويقال إنه مات يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بالقاهرة، ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول عليه السلام بعد مدة بوصية منه، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر.

الثامن: في ترجمة شيركوه.

هو أبو الحارث، أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب بالملك المنصور، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان هو ونجم الدين أخوين ابنا شادي المذكور، وكان أيوب أكبرهما، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهم من بلد دوين، بلدة من أعمال أخلاط.

وقال ابن خلكان: وكان شادي بن مروان من أهل دوين، ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور،

وكان بينهما من الاتحاد كما بين الاخوين، فجرت قضية لبهروز في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها وخصاه، فلما مثل به لم يقدر على الاقامة بالبلد، وقصد خدمة بعض الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن السلطان محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الأمور،فتقدم عنده، وتميز، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاده، فأنكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه، وشكر دينه وعفته ومعرفته، ثم صار يسير إلى السلطان في الأشغال، فخف على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه وأرصده لمهماته، وسلم إليه اولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما خوله الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه مانسيه، فلما وصل بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق ان السلطان رأى توجيه مجاهد الدين المذكور الى بغداد، واليا عليها ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي المذكور، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، وتولى ولده نجم الدين أيوب المذكور، فنهض في أمرها، وسكن بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه شيركوه ـ كما ذكرنا ـ ثم اتفق ان بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين وأخيه شيركوه، وهي تبكي، فسألاها عن ذلك، فقالت: أنا داخلة في الباب الذي للقلعة فتعرض لي الاسفسهلار، فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للاسفسهلار وضربه بها فقتله.

فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى بهروز وعرفه بصورة الحال ليفعل فيه مايريد ومايراه، فوصل إليه جوابه: لأبيكما علي حق،

وبيني وبينـه مودة متأكـدة، وما يمكنني ان اكـافيكما بحالة سيئـة تصدر مني في حقكما، ولكن اشتهـي منكما ان تتركا خدمتي وتخرجـا من بلدي، وتطلبا الـرزق حيث شئتما، فلما وصلهما الجواب ماأمكنهما المقام بتكـريت وقصدا والد الملك العـادل نور الدين محمود بن زنكـي، وذلك لما كان قد تقدم لهما عنـده، وذلك ان زنكـي دخل تكريـت عندهما حين هـرب من قـراجا السـاقي، وأحسنـا إليـه وخدمـاه خـدمة بليغـة، ولما دخل أيـوب وشيركوه عنـد أتابـك زنكي في الموصـل أحسن هـو أيضا إليهما، وزاد في اكرامهما والانعام عليهما، واقطعهما اقطاعا حسنـا، ثم لما ملك زنكي قلعة بعلبك استخلـف بها نجم الـدين ايـوب، واقره بعـده نور الـدين محمـود ولده، فحظيـا عند نور الـدين كما كانا عنـد والده زنكي، وصـار شيركوه أكبر امراء نور الديـن وأخصهـم عنده، وكان قد أقطعه الـرحبة وحمص مع مالـه عنده من الاقطـاعات، وذلك لشهـامته وصرامته وجهـاده في أعداء الله الفـرنج وغيرهـم في أيام معـدودات، ووقعات معتبرات، ولاسيما يـوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك مافعله بديار مصر.

ثم أرسله نور الـدين إلى مصر مرة بعد أخرى كما ذكرنـا حتى ملكها وتولى الوزارة فيها عـوضا عن شاور يوم الأربعاء سـابع عشر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهريـن وخمسة أيام، ثم توفي في التاريخ الذي ذكرناه.

وفي تاريخ الـدولتين: وكان شيركوه شجاعـا بارعا قويـا جلدا في ذات الله، شـديدا على الكفـار، وطاعتـه عظيمة، في ذات اللـه صولتـه، عفيفا دينا، كثير الخير، وكـان يحب أهل الديـن والعلم، كثير الايثار، حـدبا على أقاربـه وأهله، وكـان فيه امسـاك، وخلف مـالا كثيرا، وخلف مـن الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف خمسمائة مملوك، وهـم الاسدية، وكان مشيدا قواعد الدولة الشاديه والمملكة الناصرية رحمه الله.

وقال ابن عساكر: ولي أسد الدين دمشق مدة، وأقام يحارب الفرنج، وفتح حصونا كثيرة، وكان شجاعا مقداما، صارما مهيبا، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وقال الشيخ شهاب الدين: وإلى أسد الدين شيركوه تنسب الخانقاه الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين، والمدرسة الاسدية بالشرف القبلي رحمه الله، وشيركوه بكسر الشين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف، وكسر الراء المهملة، وضم الكاف، وسكون الواو، وهو في آخره هاء، وهو لفظ أعجمي مركب من: شير يعني الاسد، وكوه، يعني الجبل، وشادي بالشين المعجمة وبعد الألف الساكنة دال مكسورة، وفي آخره ياء، آخر الحروف، وهو اسم أعجمي، ومعناه بالعربي فرحان.

التاسع: في وزارة صلاح الدين.

لما توفي أسد الدين شيركوه طمحت نفوس الامراء النورية الذين كانوا صحبته الى الوزارة، وخطبها كل منهم إلى نفسه، وهم: عين الدولة الياروقي، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين يوسف، فأشار على العاضد خاصته ونصحاؤه بتولية صلاح الدين لطواعيته، وماجرت به الاقدار من سعادته، فاستدعاه وجلّده وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك الناصر، فأنف الأمراء المذكورون من طاعته والإقامة في خدمته، وفارقوه إلى الشام الا البعض منهم، فإن الفقيه عيسى الهكاري سعى في الصلح بينه وبينهم واستمالهم بالعطاء وبذل الأموال لهم ولسائر الأجناد، فاجتمعوا عليه، ومالت قلوبهم إليه، وتخلوا عن العاضد، فضعف أمره.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما توفي شيركوه في التاريخ المذكور أشار الامراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه،

فولاه الخليفة العاضد الوزارة، وخلع عليه ولقبه الملك الناصر، وأطاعه جميع الامراء النورية غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: لاأخدم صلاح الدين، وعاد الى الشام، وثبتت قدم صلاح الدين في الوزارة، على أنه نائب لنور الدين محمود صاحب الشام، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما له.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم: عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي ابن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه لايجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين، وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها: «إن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل» فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الامر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال

إلى صلاح الـدين، ثـم قصد شهاب الـدين الحارمـي وقال لـه: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لـك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في اخـراجه عنه، فلا يصل إليك، ولم يـزل به حتى أحضره ايضا عنـده وحلفه لـه، ثم عـدل الى قطب الـدين وقـال له: إن صـلاح الديـن قد أطـاعه النـاس، ولم يبق غيرك وغير اليـاروقي، فعلى كـل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصلـه من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعـده وزاد اقطاعه، فأطـاع صلاح الدين ايضـا، وعدل الى عين الدولة اليـاروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثـرهم جمعا، فلم ينفعـه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقـال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعـاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكـر عليهم فراقه، وقـد فات الامر، ﴿ليقضي الله أمـرا كان مفعـولا﴾ [الانفال ٤٢] وثبتـت قدم صـلاح الـدين ورسـخ ملكه، وهـو نائب عن الملك العـادل نور الدين، والخطبة لنور الـدين في البلاد كلها، ولايتصرفـون الا عـن امـره، وكـان نـور الـديـن يكتـب إليـه: «الامير الاسفهسلار صـلاح الدين وكـافة الامراء بالـديار المصرية يفعلـون كذا»، واستمال صـلاح الديـن قلوب النـاس وبـذل لهم الأموال مما كان أسـد الدين قـد جمعه، وطلب من العـاضد شيئا يخرجه فلـم يمكنه منعه، فمال الناس إليـه وأحبوه، وقـويت نفسـه على القيام بهذا الأمـر، والثبات فيـه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وأرسل صلاح الديـن يطلب من نور الدين أن يرسل إليـه أخوته فلم يجبه إلى ذلـك وقال أخـاف أن يخالف أحد منهـم فيفسد البـلاد، ثم إن الفرنج اجتمعـوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكـر وفيهم أخوة صلاح الـدين منهم شمس الدولة تـورانشـاه بن أيوب، وهـو أكبر من صلاح الـدين، فلما أراد أن يسير قـال له: إن كنـت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يـوسف الذي كان يقـوم في خدمتك وأنت قـاعد فلا تسر فإنـك تفسد البـلاد، وأحضرك حينئذ وأعـاقبك بما تستحقـه، وإن كنت تنظـر إليه أنـه صـاحـب مصر وقائم فيهـا مقـامـي وتخدمه بنفسـك كما

تخدمني فسر إليه وساعده على ماهو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد الكاتب: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم، والخلل لايلتئم، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السيادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك، وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأمضى رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ماجمعه أسد الدين في حياته، وأنارت على منار العلى انارة آياته [ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبوه ولم تزل محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم][٦] كأنهم ذوو قرابته، وضم من أمر المملكة ماكان منشوراً، وكتب له العاضد صاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال والعذب الزلال، ثم ذكر العماد عبارات حسنة وقال: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبدلت عقودها وماانتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام بما تسنى له من المرام، وترددت كتب صلاح الدين بذكر الأشواق، وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش و برح القلوب العطاش، فإن أصحابنا و إن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمة لايعرفونها، بل ينكرونها ولايألفونها، ورأوا وجوها هنالك لهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتابا أوله:

يا أيها الغائبون عني وأن كنـ
ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لاأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه ان اكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لا يفارق الأظعانا
ملكوا مصر مثل قلبي وفي هـ
ـذا وتلك أصبحوا اسكانا
فاعدلوا فيهما فانكم اليوم
ملكتم عليهما سلطانا
لا تروعوا بالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقانا

الأبيات:

وبعد فإن وفود الهناء وامداد الدعاء متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الولاء الى عالي جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس، فليهنيه الظفران بالملك وبالعدو، وفرع هضاب المجد والعلو، وكيف لا يكون النصر مساوقا لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم به نجاحه وفلاحه:
فالشام يغبط مصر مذ حللت بها
كما الفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفوا ما الملوك به
عنوا قديما وراموه فما نيلا

وقال العماد: ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين، وعزيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تضعضع في هذا المصاب المباغت
من الدين لولا نوره كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة
لنا خلفا من كل مود وفائت
فما بال الناس بدي التصام غفلة
وداعي المنايا ناطق غير صامت

نــــؤمـــــل في دار الفنـــاء بقـــــاء نـــــا
ونــرجـو مــن الــدنيا صـداقـة مـاقــت

ومــا النــاس الا كــا الغصـــون يــد الــردي
تقترب منهـــا كـــل عـــود لنـــا حــــت

لقــد أبلغــت رســل المنــايــا وأسمعــت
ولكنهـــا لم تحظ منــــا بنــــاصــــت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمد:

مـــا بعـــد يـــومــك للمعنـــى المدنـــف
غير العـــويـــل وحسرة المتـــأســـف

مــا أجــرأ الحدثــان كيــف سطــا على الا
ســـد المخـــوف سطـــا ولم يتخـــوف

مـــن ذا رأى الأســـد الهصـــور فـــريســـة
أم ابصر الصبـــح المنير وقـــد خفـــي

مـــن ثـــابـــت دون الكماة ســـواه ان
زلـــت بهم اقـــدامهـــم في الموقـــف

مـــاكــــان اسنـــى البـــدر لـــو لم يستتر
مـــاكـــان أبهى الشمـــس لـــو لم تكســـف

مـــاكنـــت اخشـــى ان تلـــم ملمـــة
يـــومـــا وأنـــت لكـــربها لم تكشـــف

أيـــام عمـــرك لم تـــزل مقســـومـــة
للـــــه بين تعفـــــف وتعـــــرف

متهجــــدا العبـــاده او تــــاليـــا
مـــن آيـــة او نـــاظـــرا في مصحـــف

فجـع النــدى والبــاس منــك بحــاتـم
وبحيـــدر والحلـــم منـــك بـــأحنـــف

بـــا الملــك فــزت وحــزتــه عــن قــدرة
ومضيـــت عنـــه بسيرة المتعفـــف

ووصفــــت يــــا أســد الــدين محمــد
مــدحــا بها ملــك بـــه لم يــوصـف

وفي تاريخ الدولتين: فوض الامر لصلاح الدين بعد أسد الدين، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذلت الاموال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وماعاد عنه، ومازداد الا جدا الى ان توفاه الله الى رحمته.

العاشر: في صفة خلعته التي خلعت عليه للوزارة.

قال الشيخ شهاب الدين في الروضتين: صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين رحمه الله: عمامة بيضاء تنيسية بطرف ذهب، وثوب دبيقي بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة بثمانية آلاف دينار، وعليها سرج ذهب وسرفسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة بذهب، وفيها مشدة بيضاء بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى، ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان يوما مشهودا، وسار الجيش بكماله في خدمته، ولم يتخلف عنه منهم سوى عين الدولة الياروقي - كما ذكرنا - وسار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على ذلك، وأقام صلاح الدين بصفة نائب الملك نور الدين يخطب له على المنابر بالديار المصرية.

الحادي عشر: في نسخة التقليد المنشأ بتفويض الوزارة لصلاح الدين.

«من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى

السيد الأجل الملك الناصر مصطفى الأئمـة، منجد الأمة، صلاح الدين، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي المظفر يوسف العاضدي، عضد اللـه به الدين، وأمتـع بطول بقائه أمير المؤمنين، سلام عليـك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك اللـه الذي لا إله الا هو، ويسـأله أن يصلي على محمد خاتـم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الأئمة الطاهـرين المهديين، وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فالحمـد لله مصرف الاقـدار، ومحصي الأعمال والأعمار، وعالم سر الليـل وجهر النهـار، وجاعـل دولة أمير المؤمنين فلكا دوارا تتعـاقب فيـه أحوال الأقمار بين انقضـاء واستقبـال سرار، وروضاء إذا ذوت فيـه الـدوحـات أينعت الفروع، سابقة النوار، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصـولها، والجواهر المستخـرجة مـن أمضى نصـولها، والقائم بنصر دولته، فلا تزال حتى يرث الارض ومن عليها قائمة على أصولها.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين ودلـه على مكان الاختيار، وأغناه بـاقتضاب الالهام عـن رؤية الاختيـار، وعضد بـه الديـن الذي ارتضـاه، وعضده بمن ارتضـاه، وأنجز له من وعـد السعادة ماقضاه قبـل اقتضاه، ورفع محله عن الخلع فكلهم مضـاف إلى الخلق غير مضاه، وجعل مملكته الأسد وشبلـه ونعمته ميراثا أولى بـه ذوي الارحام من بنـي الاولاد وأهله، وأظهر في هـذه القضية مـاأظهر في كل القضـايا مـن فضل أمير المؤمنين وعـدلـه، فأوليـاؤه كـالآيـات التـي سبق ذراري أفقهـا المنير، ونسـق درر عقـدتها النظم النضير، ﴿مـانسخ مـن آية أو ننسهـا نأت بخير منهـا أو مثلها ألم تعلـم أن الله على كـل شيء قديـر﴾ [البقرة ١٠٦] والحمـد لله الـذي أتم لـه الـرشاد، وجعلـه أولى مـن خلق سـاد وللحـق شاد، وآثـره بـالمقام الـذي لاينبغي الا لـه في عصره، وأظهر لـه من المعجـزات لنصره مـالايستقـل العـدد بحصره، وجمع له ولمن والاه مـن رفـع قـدره، ووضـع أصره، وجعل الامامة مـوضوعة في عقبه، والمعقبات تحفظه بـأمره، وأودعه

من الحكـم التي رآه لها أحوط من أودعـه، واطلع من وجهه أنـوار الفجر الذي جهل من ظـن ان من غير مطلعه، وآتاه مالم يؤت أحـدا، وأمات به غياً وأحيا رشدا، وأقـامه للدين عاضدا فأصبـح به معتضدا، نحمده على ماآتاه من توفيق يذلل الصعب الجامح ويدني البعيد النازح، ويخلف على الدين مـن صلاحه الخلف الصـالح، ويلزم آراءه جدد السعـود الواضح، ويـؤتيه آيـات الارشاد فـأية نـار قدح القـادح، ونصلي على النبي محمـد الذي أنجـى أهل الايمان ببعثـه، وطهر بهديـه من رجـس الكفر وخبثـه، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادت يده بلسان ذي النعال الحاد[٧] وعلى الائمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الالحاد.

ومنه:

وإن اللـه سبحانـه وتعالى مـاأخلى دولـة أمير المؤمنين التي هـي محط الهدى، مـن لطف تـلافى الحادثـة بشعبهـا، ولما لم تكد تنسـى الحادثـة في الأجـل الملـك المنصور أسـد الـديـن شيركـوه رضي الله عنـه، نظـر أمير المؤمنين في اصطفائك أيها السيد الاجل الملك النـاصر لخدمته بعده لتسد في تقـدمـة الجيوش مسـده، وتلحـق بـه في المجـد أولك، ونحمـد فيـك العواقب ولـك، فاعلم هذا مـن أمره ورسمه، واعمل بمـوجبه وحكمه إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

الثاني عشر: في مجيء نجم الدين أيوب الى ولده صلاح الدين بمصر.

لما ملك صـلاح الديـن الديار المصريـة بالوزارة أرسـل الى نور الـدين يطلـب أباه أيـوب وأخـوته وقـرابتـه، فـأرسلهم مكـرمين مـع جماعة مـن ألـزامهم وأهـل مودتهم، وشرط عليهـم السمع والطـاعة لـه واستقر أمـره هنالك، وتمكن سلطانه، وخرج العاضد بنفسه للقاء أبيه أيوب، وبالغ في احترامـه والاقبـال عليـه وقـال: ﴿ادخلـوا مصر إن شـاء اللـه آمنين﴾

[يوسف ٩٩] ولما اجتمعوا قرأ بعض المقرئين: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾إلى قوله: ﴿توفني وألحقني بالصالحين﴾[يوسف: ١٠٠ - ١٠١].

ثم بعد ذلك أخذت دولة المصريين في الضعف، والدولة الايوبية في القوة، ولما اجتمع صلاح الدين يوسف مع أبيه سلك معه الأدب، وفوض إليه الأمر كله، فقال له: ياولدي مااختارك الله لهذا الأمر الا وأنت جدير به، فلا ينبغي ان تعبر مواقع السفارة، وحكمه في الخزائن كلها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على الخليج، وأعطاه وأهله الاقطاعات الجليلة بمصر، وتمكن صلاح الدين من البلاد، وضعف أمر العاضد بالكلية.

الثالث عشر: في ذكر ماجرى بين نور الدين وصلاح الدين.

قال صاحب تاريخ الدولتين: إن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين، ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره وقال: كيف أقدم صلاح الدين ان يفعل شيئا بغير أمري، فكتب في ذلك عدة كتب فلم يلتفت إليه الملك الناصر صلاح الدين، الا انه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه مافارق قبول رأيه واشارته.

وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان كثيراً مايقول: ملك ابن أيوب، ولما ملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفرق عماله، واعطاه تل باشر، ثم أخذها منه، ولقد كان يتألم للملك الملك الناصر ذلك، ويقال: إنه لما مرض قال: ماأخطأت الا في انفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها، ومايحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت الى

أصحابه فقال: إذا مـا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فـإنه لايبقى عليه غيرها.

وقال ابن أبي طي ولقـد كان يبلغ الملك الناصر من أقـوال نور الدين وأقوال أصحـابه أشياء تؤلمه وتمضـه، غير أن يلقاها بصدر رحـب، وخلق عـذب، قال صـلاح الـدين: ولقـد كـان يعتمد نـور الـدين في مخاطبـاتي ومراسـلاتي الأشياء التي لايصبر على مثلها لعلي أتضـور أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

وقال صاحب تـاريخ الدولتين: قد وقفت على كتاب بخـط نور الدين يشكر فيـه من صلاح الديـن، وذاك ضد ماقـاله ابن أبي طي، كتـب نور الـدين ذلـك الكتاب الى الشيـخ شرف الديـن بن أبي عصرون رحمه اللـه وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته:

«حسبي اللـه وكفى، وفق اللـه الشيخ الامـام شرف الدين الى طـاعته وختـم له بخير. غير خـاف عن الشيـخ ماأنـا عليه وفيـه، وكل غـرضي ومقصودي في مصـالح المسلمين ومايقربنـي إلى الله، والله ولي التـوفيق، والمطلع على نيتي، وأنـت تعلم نيتي كما قال عز من قـائل ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد ٤٣].

أنت تعلـم أن مصر اليوم قـد لزمنا النظـر فيها، فهـي من الفتـوحات الكبار، اللـه تعالى جعلها دار اسـلام بعدما كـانت دار كفر ونفـاق، فلله المنة والحمـد، الا ان المقدم على كـل شيء أمور الديـن التي هـي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلـم أن مصر واقليمها ماهي قليلة، وهي خـالية من أمـور الشرع، ومـاتـدخـر الـدمـوع الا للشـدائد، وأنـا مـاكنـت أسخـى ولاأشتهـي مفـارقتـك، والان قـد تعين علي وعليـك أيضـا ان ننظـر الى مصالحها، ومـا لنا أحد اليوم لها الا انـت، ولا اقدر اولي امورها واقلـدها

الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ماتعلم أنه يقربك الى الله، وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لاتبقى عليّ حجة، تصل أنت وولدك إلى عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام .

بموافقة صاحبي واتفاق منه، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيرا وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما»

الرابع عشر: فيما فعله صلاح الدين من المعروف بعد توليته.

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم مايستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابه سجل به من ديوان الانشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين تتقدمه، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف اردب غلة، فسامح بجميع ذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، وأنهي إليه مايستأدى بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع، فأغاث أهل الحجاز وأوسعهم من العين والغلة، وذلك كله باشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

الخامس عشر: في قتل المؤتمن الطواشي زمام الدار.

قال العماد: وشرع صلاح الدين يوسف في نقص اقطاع المصريين،

فقطع منهم الزوائد مـن أجل من معه من العساكـر، وكان بالقصر خصي يـدعى مـؤتمن الخلافـة متحكم في القصر، فـأجمع هـو ومن معـه على أن يكاتبـوا الفرنـج ويقبضوا على الأسـديه والصـلاحية، لأن صلاح الديـن يخرج بمن معه، فيؤخذ من بقي من أصحـابه بالقاهرة، ويتبع من ورائه، فتكون عليهـم الدائرة، فكاتبوا الفـرنج، واتفق أن رجـلا من التركمان عبر بالبئر البيضاء، فـرأى مع انسان ذي خلقان نعلين جديديـن ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبه الفـرنج فيهما مـن أهـل القصر يرجـون بحركتهـم حصـول النصر، فأخـذ الكتاب وقال: دلـوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي مـن الرهط، فلما أحضروه ليسـألوه ويعـاقبوه على خطـه، نطق بـالشهادة قبـل كلامـه، ودخل في عصمة اسلامه، وثبت اعتصامه وعرف استسلامه، ورأى اخفاء هذا السر واكتتـامه، واستشعـر الخصي العصي، وخشي أن يشق على شـق العصي العصي، فما صـار يخرج مـن القصر مخافـة، وإذا خـرج لم يبعـد مسافـة، وصلاح الـدين عليـه مغضب، وعنـه مغض لا يـأمر فيـه ببسط ولاقبض، إلى أن استرسـل واستسبل، وظـن أن مانسلـه من الشر العقيـم نصـل، وكان لـه قصر في قريـه يقال لها الخرقـانية، وهـي بقرب قليـوب، فخـلافيه يـوما للـذته، ولم يـدر أنه يـوم ذلته وانقضـاء ساعتـه بانقضـاء دولته، فـأنهض صلاح الـدين مـن أخذ رأسـه، ونزع مـن حياتـه لباسـه، وذلك يـوم الأربعاء الخامس والعشريـن من ذي القعدة سنـة أربع وستين وخمسمائة.

وفي تـاريـخ بيبرس: خـرج مـؤتمن الخلافـة ذات يـوم إلى بستـان لـه بقليوب، فسير إليـه جماعة من أصحـابه فقتلوه وأتـوا برأسه، ثـم استعمل على أذمـة القصور قـراقوش، وهـو خصي من ممـاليـك عمه أسـد الديـن ليطالعه بما يجري في القصور.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان له قصر على النيل بالخرقانية من أعمال قليوب ذو بساتين، فخرج إليه للتنزه، فعلم صلاح الدين بذلك، فأرسل إليه جماعة فقتلوه وأتوا برأسه في التاريخ المذكور الآن. ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يلون خدمة القصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش الأسدي.

السادس عشر: في وقعة السودانية.

ولما قتل مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، ثار السودان عند القصر ونادوا، وكانوا يزيدون على خمسين ألف، فنهض إليهم صلاح الدين، وكانت الوقعة بين القصرين، وقامت الحرب بينهم يومين، وصار السودان كلما التجأوا الى محلة أحرقت عليهم، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورة، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم جميعا، فلما أتاهم الخبر بذلك هزموا وركبتهم السيوف، وقتل منهم خلق كثير، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك، فمضوا إلى الجيزة، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف ، وضعف أمر العاضد بالكلية، وتلاشى حاله، وخربت محلتهم، واتخذت بستانا، فأصبح أمرهم كأن لم يكن، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولاكبيرة الا بأمر صلاح الدين، وكان صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئا من المال والرقيق والخيل، حتى أنه أرسل إليه يوما، وهو في بستان له يسمى الكافوري، يطلب منه فرسا، فقال: والله ماعندي الا هذا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما، وأرسل الفرس إليه، ولزم العاضد بيته من ذلك اليوم حتى كان منه ماكان.

وقال ابن كثير: وحين قامت الحرب بينهم، كان العاضد ينظر من القصر، وقد قذف الجيش الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقيل كان ذلك بأمر العاضد، وقيل لم يكن بأمره، فأمر شمس الدولة تورانشاه، وكان حاضرا للحرب باحراق منظرة العاضد، ففتح بابها ونودي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بلادكم، فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا.

وفي تاريخ بيبرس: وأقاموا على الحرب أربعة أيام ليلا ونهاراً، وقتل من الجمعين خلق كثير، ولما علموا المغلوبية هربوا بأجمعهم إلى الجيزة، فندب إليهم صلاح الدين أخاه تورانشاه فقاتلهم وهزمهم ولم ينج منهم الا الشريد، وأرسل إلى نواب البلاد بقتل من وجد منهم، وكان جوهر هذا سببا لزوال ملك الفاطميين، وكان سبب ملكهم اولا جوهر أيضا، وهو جوهر القائد الذي أرسله المعز من المغرب، كما ذكرنا مفصلا.

وقال العماد: ولما قتل مؤتمن الخلافة غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، فحسبوا ان كل بيضاء شحمة، وان كل سوداء فحمة، فثار أصحاب صلاح الدين الى الهيجاء ومقدمهم أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاطت به العسكرية من الجانبين، ودام الشر فيه يومين حتى حس الاساحم بالحين، وكلما لجأوا الى محلة احرقوها عليهم، وحووا ماحواليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من شدة، ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا، وأينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة وكانت لهم المعمرة المعمورة، فأتى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكـان قد وصل إلى صـلاح الدين قبـل هذه النوبـة أخوه الأكبر فخر الديـن شمس الدولة تورانشاه بـن أيوب أنفذه إليه نور الـدين من دمشق يشـد أوده بمصر لما سمع بحـركة الفـرنج، وأهـل القصر، فوصـل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها اثر عظيم.

السابع عشر: فيما مدح به صلاح الدين.

قال العماد: ومما مدحـت به صلاح الـدين في ذلك التـاريخ تهنيـة له بالملك وتعزية له:

أيـا يـوسـف الحسـن والاحسان خير مـن
حـوى الفضـل والافضـال والنهـي والأمـرا
ومـن للهـدى وجـه النجـاح بـرأيـه
تجلى وثغـر الثغـر مـن عـزمـه أفترا
حمى حـوزة الـديـن الحنيـف بحـوزه
مـن الخالـق الحسني ومـن خلقه الشكـرا
أبـوه أبـى الا العـلاء وعمـه
بمعـروفـه عـم الـورى البـدو والحضرا
وطـال الملـوك شيركـوه بطـولـه
ومـا شـاركـوه في العلى فحـوى الفخـرا
بنـو الأصفـر الافـرنـج لاقـوا ببيضـه
وسمـر عـواليـه منـايـاهـم حمرا
ومـا ابيـض يـوم النصر واخضر روضـه
مـن الخصب حتـى اسـود بـالنقـع واحمرا
رأى النصر في تقـوى الالـه وكـل مـن
تقـوى بتقـوى اللـه لا يعـدم النصرا

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب انبائه فيها كتاب ضمنه هذا البيت:

ماكنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابها أبياتا منها:

ياهل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة محمودة ورجوع

مذ غبتم عن ناظري ما أذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع

كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت اطلب طيفكم بشفيع

أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل منه كتاب ايضا ضمنه هذا البيت:

وأنثر دمع الدر من قبل أبيضا
وقد حال مذ بنتم فاصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه ابياتا منها:

هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا

وما كان فيها قبل يوسف شاورا
يماثل الا قتل داود جالوتا

وقلت لقلبي ابشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ماشئتا

ومما كتبه العماد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها:

بـــا الملـــك النـــاصر استنـــارت
في عصرنـــا أوجـــه الفضـــائل
على مـــن حقـــه فـــروض
شكـــرا الماجـــاد مـــن نـــوافـــل
يـــوســـف مصر الـــذي إليـــه
تشـــد آمـــال النـــا الـــرواحـــل

أجـــريـــت نيلين في ثـــراهـــا
نيـــل نجيـــع ونيـــل نـــائل
ومـــا نفيـــت الســـودان حتـــى
حكمـــت البيـــض في المقـــاتـــل

الأبيات:

قال العماد: وأنفـذ صلاح الدين مـن مصر خلعا لجماعة مـن الأعيان، وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:

يـــا صـــلاح الـــديـــن الـــذي أصلـــح الفـــا
ســـد بـــالعـــدل منـــه خطـــوب الـــزمـــان
أنـــت أجـــريـــت نيـــل مصر الى الشـــا
م نـــوالا أم ســـال نيـــل ثـــاني
وعلى نيلهـــا الكفيـــك فضـــل
فهما بـــالنضـــار جـــاريتـــان
وصلـــت أعطيـــاتـــك الغـــر غـــزرا
فتلقـــت آمـــال النـــا بـــالتهـــاني
خلـــع راقـــت العيـــون وراعـــت
وغـــلا وصفهـــا عـــن الامكـــان

مـــذهبـات كـــأنها خلـــع الـــرضـــوان
قـــد أهـــديـــت لاهـــل الجنـــان
مشرفـــات بطـــرزهـــا الـــذهبيـــا
ت الحســـان الـــرفيعـــة الاثـمان
فـــالعمامـــات كـــالغمامـــات والطـــر
ز تـــروق كثيرة اللمعـــان
والموالي بها مـــن التـــه والفخـــ
ـــر على الـــدهـــر ســـاحبـــوا الاردان
كيـــف خـــص العماد بـــالادون المخـــ
ـــلق مـــن دون عصبـــة الـــديـــوان

الأبيات:

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:
عبـــدك شمـــس الـــدولـــة المرتجا
منتظـــر تشريفـــك المذهبـــا
وأعتـــب صـــلاح الـــديـــن في حـــالتـــي
عســـاه بـــالاصـــلاح ان يعتبـــا
عـــرفـــه مـــا تـــم فـــإني أرى
مـــن فضلـــه للفضـــل ان يغضبـــا
وكيـــف يـــرضـــى ذاك بعـــض الـــرضـــى
ومجده بـــأبـــاه كـــل الابـــا
وقـــل لـــه جـــاءتـــه ملبـــوســـة
تخلفـــت مـــن تبـــع في سبـــا
عمامـــة رقـــت ورثـــت فما
نشـــرتهـــا الاوطـــارت هبـــا

قال المؤرخ: فوصل من صلاح الديـن عمامة مذهبة، وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها.

وقال عرقلة في صلاح الدين وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا
شقي لم يبت الا حريصا
أتى منك السلام لنا عموما
وجودك جاءني وحدي خصوصا
وكنت كيوسف الصديق لما
تلقى منه يعقوب القميصا(٨)

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي
زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدي
بها في يدي قبل المهات تصير
وهيهات والافرنج وبينكم
سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الايام انك ذو غنى
بمصر ومثلي بالشآم فقير(٩)

وقال ايضا:

قل للصلاح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الالف دينار
أخشى من الاسر ان حاولت ارضكم
وما تفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغي أبو الطاري

حمراكـــأسيـــافكـــم غبراكخيلكـــم
عتقـــاثقـــالاكـــأعـــدائي وأطماري[١٠]

وأنفذ له عشرين دينارا من مصر فقال:
يـــامـــالكـــامـــابـــرحـــت كفـــه
تجودبـــــالمال على كفـــــــي
أفلـــح بـــالعشريـــن مـــن لم يـــزل
في رأس عشريـــن مـــن الكهـــف
يـــاألـــف مـــولاي ولكنهـــا
محســـوبـــة مـــن جملـــه الألـــف[١١]

وذكـر العماد في الخريدة أن العـرقلـة قصـد صلاح الـديـن إلى مصر، فأعطاه ذلك، وأخـذ له من أخوته مثل ذلـك، فعاد الى دمشق وهومسرور محبور، وكان ذلك ختـام حياته، ودناء أجل وفاته، ومـات بدمشق في سنة ست أو سبع وستين وخمسمائة رحمه الله.

الثـامن عشر: في أشيـاء ملتقطة فيما يتعلـق بالأبـواب المذكورة في أمـر شاور.

وكـان متـولي قوص والصعيـد الأعلى، فلما دفـن الصـالح طـلائع بـن رزيك واستـوزر ابنه رزيك أرسل إلى عمـة العاضد فخنقهـا، واجتمع الى رزيك أولاد عمتـه ومن جملتهـم عز الـدين حسـام، فعزل شـاور، فعصى عليه، وجمع العربـان وأهل الصعيد، وسار إلى القاهرة، وخـرج إليه جماعة من أمرائهـا كانوا كاتبوه، فخـرج رزيك تحت الليل فضل الطـريق وتاه، فـوقع عنـد أطفيـح وثـم بيوت عـرب، فقبضـوا عليـه وحملوه إلى شـاور، وأخرجت إليـه خلع الوزارة وتم أمـره، وأكرم شاور رزيك وصلـب الذي أتى به، ونادى عليـه: هذا جزاء من لايرعى الجميل، وكـان للصالح إليه احسان، وتفرق آل رزيـك في البلاد، ونجا حسام الذي كـان سبب هلاك

بني رزيك، بأموال، وصار إلى حماه فأقام بها، واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردوها عليه، ثم أراد تقي الدين أخذها منه فقال: من العجب أن الفرنج تفي لي بردها وتأخذها أنت مني فكف عنه.

وكان لشاور ثلاثة أولاد: طيّ، والكامل، وسليمان، فتبسطوا على الناس فمجوهم، وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك، فلما شاهدا ميل الناس عن شاور بسبب اولاده أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته الى الوزارة، وبلغ ذلك طيا، فدخل على أبيه فأخبره بهذا، ثم قال: تلاف حالك بقتلك رزيك، فأنكر عليه، فتركه ولده طي، ودخل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور فقامت قيامته، ونمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثارا من استحلفاه من الامراء وزحفا بالعساكر الى شاور، فانهزم وخرج من باب القاهرة، وهرب الى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلهما وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم وحفظ له جميلا، واستقر ضرغام في الوزارة، وخلع عليه ولقب بالملك المنصور، ثم بلغه أن جماعة من الامراء حسدوه وكاتبوا شاور وهو في الشام، فأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا، ولم يتعرض إلى أموالهم ولا لمنازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميرا، ويقال إنه جعلهم في توابيت، وكتب على كل تابوت اسم صاحبه، فكان ذلك أكبر الاسباب في هلاكه وخروج دولة المصريين، لانه اضعف عسكر مصر بقتل الامراء.

وأما شاور فإنه لما وصل الى بصرى اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة الى تلقيه، وأنزله بجوسق الميدان الاخضر، وأحسن ضيافته، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أمر نور الدين لجماعة من أعيان دمشق أ ن يذهبوا

إليه ويسألوه عن حاجته، فاجتمعوا به، وقال بعد كلام طويل: ان رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فأجاب نور الدين الى ان يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته في أحسن زي، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين الى قلعة دمشق، واخذ في وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الامر أنشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك ابن النحاس يظهر فيه الطاعة، فاظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرفيق الفرنجي، وأخذ جميع ماكان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار إلى مصر.

التاسع عشر: فيما يتعلق بأسد الدين.

ولما توجه أسد الدين إلى مصر وقرب منها نزل بمن معه على تل في الجوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسط، وضربوا خيامهم هناك، ولما علم ضرغام بذلك جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجمع العساكر، وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر، وهو على يومين من القاهرة فإنهم لايثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، فأمر ضرغام الامراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر قال لشاور: ياهذا لقد غررتنا وقلت: إنه ليس

بمصر عسكر فجئنا في هذه الشرذمة، فقال شاور: لايهولنك ماتشاهده من كثرة الجموع فأكثرهم الحمالة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب، وأما الامراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم وقف الفريقان مصطفين من غير حرب، إلى أن حمي النهار، والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس فنزلوا على القاهرة وقاتلوا أياما وارسل شاور الى العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وأما ضرغام فإنه خرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فلحقه رجل من أهل الشام فطعنه وأرداه ونزل إليه وحز رأسه، وحمله إلى أسد الدين فصعب على أسد الدين، وأوجعه ضربا وأراد قتله، فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم، وكان معتقلا فيها، وكذلك خرج معه القاضي الفاضل، وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيام ،وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه: شاور ثلاثين ألف دينار ،وقال: ترحل الآن في أمن الله ودعته فلما سمع أسد الدين ذلك ارسل اليه: إن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، وقال شاور: أنا ماقررت شيئا، أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا الى الشام، وقد سيرت إليكم نفقة

فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين: انا لايمكنني مخالفة نور الدين ولا انصرف الا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق أبواب القاهرة، واخذ في الاستعداد للحرب، واستعد أسد الدين ايضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش الى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الافرنج مري يستنجده ويقول له: ان أسد الدين طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصل في البلاد طمع فيها، ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يكن لكم معهم عيش ولاقرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار، وقرر له شيئا لقضيم دوابه وشيئا لاسبتاريته، فخرج مري من عسقلان في جموعه الى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرون ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة جاء إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر، واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبيس وأحاط بها محاصرا لاسد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، فتشوش من ذلك، ثم عمل حيلة حيث جمع أعلاما للفرنج، وكان قد أخذها منهم وأعطاها إلى نجاب وقال له: تحيل حتى تدخل إلى بلبيس وتعطي هذه الاعلام لاسد الدين ينشرها على أسوار بلبيس، فإن ذلك مما يفت في اعضاد الكفار، ففعل ذلك، فلما رأى الأفرنج الأعلام خافوا على بلادهم وسألوا الاذن من شاور في الانفصال، فانزعج شاور لذلك واستمهل منهم أياما وجمع أمراء المشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل الامير شمس الخلافة بذلك، فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى، وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلا ثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصدا الشام، وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك خرج

يترقب خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، فأحسّ أسد الدين بذلك، وسلك طريقا من خلف المكان الـذي هو فيه، وشق الى الغور، وخرج الى البلقـاء، وسلمه اللـه منه، ودخـل دمشـق، واجتمع بنـور الديـن، وأخبره بالاحوال.

وأما شـاور فإنه بعـد رحيل أسد الـدين والفـرنج إلى بلادهـم عاد الى القاهرة، وتتبع مـن علم أنه بينه وبين أسد الدين معـرفة أو صحبة، وكان استفسد جماعـة من عسكر أسد الـدين منهم خشترين الكـردي، وأقطعه شطنوف وقتل جماعة مـن أهل مصر وشرد آخرين، ثم توجـه أسد الدين في ربيع الاول لسنـة اثنتين وستين قاصـدا الديـار المصرية، وكتـم أخباره، فما راع شاور الا ورود كتـاب مري يعرفـه فيه بأن أسـد الدين قصـد ديار مصر وخرج عن دمشق، فطلب شاور منـه إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على مـاكان في العام الماضي، فسار مري في عساكـر الفرنج الى مصر، وخـرج شاور بعسـاكر مصر واجتمـع به، وقعـدوا جميعا في انتظـار أسـد الديـن، وعلـم أسد الـديـن باجتماعهـم على بلبيـس، فنكب عـن طريقهم وأم الجبل، وخرج على أطفيح وشـن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره، فسار في عساكره والفرنج صحبته يقفـون أثره، ولما علم أسد الدين بذلك اندفـع من بين أيديهم حتى بلغ شرونة مـن صعيد مصر، وتحيل في مـراكـب ركبها، وعـدَّى إلى البحـر الغـربي، وأدرك شـاور بعض سـاقتـه ومسقطي عسكـره فأوقع بهم، وأحضر أيضاً مـراكب، وقطع النيـل في أثر أسد الديـن بجميع جيوشه وجيوش الفـرنج، وسار أسد الـدين الى الجيزة وخيـم بها مقـدار خمسين يـومـا، واستمال قـومـا يقـال لهم الجعفـريـون والطلحيون القـرشيون، فأنفـذ أسد الدين الى شـاور يقول له: أنـا احلف باللـه وبكل يمين اني لاأقيم ببلاد مصر ولاأعـاود إليها أبدا، ومـا أساءل منـك الا نصر الاسـلام فقط، وهـذا العـدو قـد حصل في هـذه البـلاد، والنجدة عنه بعيـدة وخلاصه عسير فتجتمع معـي نستأصل شأفتـه، وما

أظـن ان يكون غنيمـة أبـدا في الاسلام مثـل هذه، فقتـل شـاور الرسـول وقال: ماهؤلاء فرنج هؤلاء فرج، ثم أعلـم الفرنج بذلك، ونزل شاور بعد ذلـك في اللوق والمقسـم، وأمـر بعمـل الجسر بين الجيزة والجزيـرة، وأمـر بالمراكـب فشحنت بـالرجال وأمـرهم أن يجيئوا مـن خلف عسكـر أسد الدين، ولما رأى أسـد الدين ذلك، كتب إلى أهل الاسكنـدرية يستنجد بهم على شاور لأجـل ادخاله الفـرنج الى دار الاسـلام، فقاموا معـه وأمروا عليهم نجم الـدين ابن مصال، وهو ابـن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيـا، فظهر في هذه الفتنة، وكان قـد أرسل الى اسد الديـن خزانة من السـلاح مع ابن أخـت الفقيه ابن عوف، ثـم وصل الى أسد الدين رسـول ابن مدافع وأخبره بقرب شاور، وبـأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيـام والمطابخ وماثقل حمله، وسـار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة، فأمر بنهبها فنهبت، وسار ليلا بالمشاعل حتى أتى على الأشمونين، وأمر عسكـره أن يقفوا على تعبئـة وأصبحوا على ذلـك والتقوا، فقتـل من أصحاب أسـد الديـن جماعة كثيرة، وانهزموا وكـان أسد الـدين قـد فرق أصحابه فريقين: فـريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الـدين، وأنفذه ليأتي من خلـف عسكر شـاور، فداخلهـم الضعف مـن هذا الطـريق، ثـم إن أصحاب أسد الـدين تجمعوا وتماسكوا وعلمـوا ان لامنجا لهم الا الصبر، فتحالفـوا على الموت وحملوا، وطلع صـلاح الديـن من ورائهم، فلـم تزل الحرب قائمـة الى الليل، فـولت عسـاكر الفـرنج والمصريين الادبـار، وكاد ملك الفرنج مـري أن يؤسر، وصار شاور ومن معه الى منيـة ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم الى الاسكنـدرية فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنـج الذيـن أسرهم، وكان فيهـا ابن الـزبير متوليـا ديوانها، فحمل الى أسـد الديـن الأموال وقـواه بالسـلاح، وخاف أسـد الديـن أن يحصره شاور والفـرنج ، فـأمر صـلاح الدين بـالمقام بـالاسكندريـة وترك عنده جماعة مـن العسكر، ومن به مرض أو جـراح او ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية، ورحل في أقويـاء العسكر قاصدا الى الصعيد، ونزل

الفـرنج وشـاور على الاسكندريـة وحـاصروها مـدة ثـلاثة أشهـر بأشـد القتال، ولما سـار أسد الـدين بـالصعيد حصّـل من تلـك البلاد أمـوالا عظيمة، ولم يزل هنـاك حتى صام رمضان، واتصل بـه اشتداد الامر على الاسكندرية فرحـل من قوص الى جهتها، واتبعه جماعة كثيرة مـن العربان وأهل تلـك البلاد، وبلـغ ذلك شـاورا، فرحـل هو والفـرنج واضطـر الى الصلح، وضجـرت الفرنج أيضـا، وتوسط ملـك الافرنج في ذلـك، فتقرر امر الصلـح على ان شاورا يحمـل الى اسد الـدين جميـع ماغـرمه في هـذه السفرة، ويعطـي الفرنج ثـلاثين الف دينـار، ويعود كل منهـم الى بلاده، وطلب صـلاح الدين مـن ملك الافرنـج مركبـا يحمل فيها الضعفـاء من أصحابه، فأنفذ اليه عدة مراكب.

قال الشريـف الادريسي: كنت في الجملة ممن خـرج في المراكب، فلما وصلنا الى مينـاء عكا اخـذونا واعتقلـونا في معصرة القصـب الى ان وصل الملـك مري فـأطلقنـا، فخـرجنا الى دمشـق، وخـرج صـلاح الديـن مـن الاسكندرية[الى عمـه] ثم سارا من بـلاد مصر وفي قلب أسد الديـن من مصر، لما شاهدها وشاهد من مغلاتها.

العشرون: في ذكـر عـود الفـرنـج إلى مصر، وعـود أسـد الـديـن إليهـا وماجرى بعد ذلك.

وفي هذه السنـة أعني سنـة أربع وستين طمـع مُرِي ملـك الأفرنـج في مصر وعـول على الـدخـول إليهـا والاستيلاء عليهـا، فجمـع إليـه ملـوك الفرنج وكبراء الداوية والاسبتارية فـأجابوا إلى الخروج معه، فأحضر وزيره وأمره بـاقطاع بلاد مصر لخيالتـه وفرق قراها على أجنـاده، وكان اللعين لما دخـل ديار مصر أقـام من أصحـابه مـن كتب لـه أسماء القرى جميعهـا، وتعرف لـه خبر ارتفاعهـا، ثم سـار حتى نـزل الداروم، فلما سمـع شاور بذلـك قامـت قيامته وأرسـل أميرا من أمـرائه يقال له بـدران فسألـه عن

سبب مجيئه فتلكأ عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يوري عنهم ولايكشف لشاور حالهم، ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم الحيلة على المصريين ويعلم شاورا إنه انما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما سمع شاور بذلك أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار، وقال له: بدران غشني ولم ينصحني وأنا واثق بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مُري، وكان بينهما مؤانسة، فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغدار، والا ماالذي أقدمك الينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى زوج أخت الملك الكامل ابن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض العهد، فقال له الملك: القول الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على آرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرجنا نتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة: فأي شيء طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له الملك: نحن ننزل على بلبيس إلى ان تعود، ثم انه سار خلفه لايلوي على شيء حتى خيم على بلبيس في شهر صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم: علم الملك ابن النحاس، وابن الخياط يحيى وابن قرجلة، ثم قاتل بلبيس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب أكثرها، وأحرق جل آدرها، ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته قد أطلقتكم شكرا لله عز وجل على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فانني قد ملكتها بلاشك، ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى

فـاقتسموهـم، وبقي أهـل بلبيس الـذين أسروا أكثـر من أربعين سنـة في ملـك الفرنـج، وهلك أكثـرهـم في أيديهم، وأفلـت منهم اليسير، والملـك النـاصر لما ملـك ديـار مصر وقـف مغل بلبيـس على كثـرتـه على فكـاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه.

ولما جـرى ذلك وبلـغ شاور، اجتمـع بالعـاضد وقـال: إن البلاد قـد أخذت منا فاكتـب الى نور الدين واطلب منه المعونـة، فكتب جميع ذلك، وسخـم شاور أعـالي الكتـب بالمداد، ولما بلـغ نـور الديـن ذلـك انزعـج انزعاجا عظيما وانفذ اسد الدين وكان من ذلك ماذكرناه.

وأما الفـرنج فسـاروا إلى جهة مصر، وبلغ أجـرة الجمل ثـلاثين دينارا، وتـرك الناس اكثـر أمـوالهم فنهبت واحـرقـت مصر في تـاسع رجـب كما ذكرنـا، ثم إن الافـرنج نزلـوا في بركـة الحبش وتخطفوا مـن ظفروا بـه، ثم رحلوا فنـزلوا على بـاب البرقيه نزولا قـاربوا به البلـد حتى صـارت سهام الجرخ تقـع في خيمهم، فقـاتلوا البلـد أيـاما، فلما تيقـن شاور الضعـف عدل إلى طريق المخادعة إلى ان تصل عسـاكر الشام، فأنفذ الى مري لعنه الله رسـالة طـويلة وفيها: ان هـذا بلد عظيـم وفيه خلـق كثير، ولايمكن تسليمـه إليـك ولا أخـذه الا بعـد ان يقتل مـن الفـريقين عـالم عظيـم، وماتعلم انـت ولا أنا لمن الدائرة، والرأي ان تحقن دماء اصحـابك ودماء اصحابي، وتحصل شيئا ادفعه لـك، واستقرت المصانعة على اربعمائة ألف دينار، وقيـل الفي ألـف دينار، فعجـل له منهـا مائة ألـف دينار فـأجاب مري الى ذلك، وانعقدت الهدنة، ورحل إلى بـركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة الف دينـار، ثم اخذ يماطله بالبـاقي انتظارا لقدوم العسـاكـر، ويوهم انه يجمع الاموال، فلم يشعر الفـرنج الا بهجوم عسكر الشام عليهم، فلما رأوهـم رحلوا الى بلبيس، ونزل أسد الدين بـالمقس، ثم رحل ملك الافرنج ونـزل على فاقـوس، واتبعه أسـد الديـن ونزل على بلبيـس، ثم لما رحلـت

الفرنج بالكلية نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق، وأخرج إليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ثم بعد ذلك جرى ماذكرنا في الابواب الماضية.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن نور الدين محمود بن زنكي ملك قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام ملكشاه، وهي من أمنع القلاع مطلة على الفرات من الجانب الشرقي وسبب ملكه إياها ان صاحبها نزل يتصيد فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه الى نور الدين في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه فخر الدين مسعود بن ابي علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء، فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين ابن الداية، وهو رضيع نور الدين وأكبر أمرائه، فحصرها أيضا فلم يبد لها فيها مطمع فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه بأن يأخذ من نور الدين العوض ولايخاطر بنفسه في حفظها فقبل قوله وسلمها، وأخذ العوض عنها: سروج وأعمالها، والملاحة التي من بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، وكان مالك العقيلي هذا آخر بني مالك بالقلعة المذكورة.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

ياروق بن ارسلان التركماني: توفي في هذه السنة، وكان مقدما كبيرا واليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة، وكان

يسكن بظاهر حلب، وبنى على نهر قويق هو واتباعه عمائر كثيرة، وتعرف الآن بالياروقية، وهو مشهور هناك.

وقال ابن خلكان: ياروق بن ألب ارسلان التركماني، كان مقدما جليل القدر في قومه، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطىء نهر قويق، فوق تل مرتفع هو وأهله واتباعه ابنية كثيرة وعمائر متسعة، وتعرف الآن باليـاروقيـة، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي مسكونة آهلة يتردد أهل حلب اليها في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضرة، وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والانس، وياروق بفتح الياء آخر الحروف، وبعد الالف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي آخره قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء آخر الحروف، وفي آخره قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف.

مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مات في هذه السنة ببغداد، ودفن بداره التي عند النظامية، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والستين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد بالله، وصاحب مصر العاضد، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد كتب الى نور الدين محمود بن زنكي يستنجد على الفرنج لانهم حاصروا مدينة دمياط في صفرمن هذه السنة خمسين يوما بحيث ضيقوا على اهلها وقتلوا منهم خلقا لايحصون، وهم في أمم لايحصون كثرة، قد اجتمعوا من البر والبحر

رجاء ان يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف.

وكتب صلاح الدين الى نور الدين يطلب منه ان يرسل اليه بامداد من الجيوش فانه ان خرج من مصر خلفه اهلها بسوء، وان غفل عن الفرنج اخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم يتقوون به على اخذ مصر، فارسل اليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضا، واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد اليها في جيشه فجاس خلال الديار، وقتل من رجالهم وسبى من نسائهم واطفالهم شيئا كثيرا، واجلت الفرنج عن دمياط لانه بلغهم ان نور الدين رحمه الله قد حصر بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم وسبى كثيرا من نسائهم، وغنم مالا جزيلا من اموالهم.

ولما اجلت الفرنج عن دمياط فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحا شديدا، وانشد الشعراء في ذلك كل منهم قصيدا.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها، وذلك أن أسد الدين لما ملك مصر خاف الفرنج بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال فنزلوا دمياط ظنا أنهم يملكونها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برا وبحرا، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك، ويشكو إليه أنه إن خرج من القاهرة مايأمن أن تنقض الشيعة أمرنا، فسير إليه نور الدين عسكرا نجدة، وسار بنفسه لقصد الفرنج، فصعد الى الكرك وحاصرها، وجاءت الفرنج، الى بيسان، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم، فرجعوا الى عكا، فعاد نور الدين الى دمشق، ولما سمع فرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا واشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار

مـن المسلمين، واسروا صاحبـه، وكان مملـوكا لنـور الديـن يسمى ختلـج العلم دار وأولاده.

وفي المرآة: وفيهـا نزلـت الفرنـج على دمياط يـوم الجمعة ثـالث صفـر، وجدوا في القتال وأقـاموا عليها ثلاثـة وخمسين يوما يضربونها بـالمجانيق، ويـزحفون اليهـا ليـلا ونهارا، ووجه اليهـا صـلاح الديـن العسـاكر مـع شهاب الـدين خـاله، وطلـب من العـاضد مـالا فبعث اليـه بشيء كثير، فكان صلاح الدين يقول: مارأيـت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

واشعل نـور الدين بـلاد الفرنج بـالغارات، ووقـع فيهم الفناء فـرحلوا بعد أن مات منهـم خلق كثير وكان رحيلهم في ربيـع الآخر، وفي شعبان سـار نور الـديـن الى الكرك فنـازلـه وضربـه بالمجـانيـق، واجتمع ملـوك الساحل وجاءوه، فتأخر الى البلقاء.

وقال القاضي ابن شداد: لما رأى نور الـدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنـزل على الكرك محاصرا لها في شعبان، وقصده فرنـج الساحل فـرحل عنها، وقصد لقـاءهم فلم يقفـوا له، ثم بلغـه وفاة مجد الدين ابن الـداية بحلب في رمضان فاشتغل قلبه لانـه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشـام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التـي خربت كثيرا من البـلاد، وسار يطلـب حلب فبلغـه موت أخيـه قطـب الديـن بالموصـل، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط، أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال الفرسـان والميرة والآلات والسلاح ماأمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بـامدادهم بالعساكر والآلات وازعـاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبـالغ في العطايا والهبات، وكان وزيـرا متحكما لايرد امره في

شيء، ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين رحلوا خائبين خاسرين، فأحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد، بحمد الله تعالى.

وقال العماد: وأقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان الى دمياط فدخلها، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها، واتصل الحصار، وتواصلت الأنصار، ودب في الفرنج الفناء وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي عشرين من ربيع الأول.

قال صاحب تاريخ الدولتين: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يبتسم لتتم السلسلة على ماعرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لاستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وبلغني ان اماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعلم نور الدين ان الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة فقال: يارسول الله ربما لايصدقني فاذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ماسجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولاتنصر محمودا، ومن هو محمود الكلب حتى تنصره، قال: فانتبهت ونزلت الى المسجد، وكان من عادة نور الدين ان ينزل اليه بغلس ولايزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة الا انني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها، والح علي في ذلك، فقلتها

فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا، وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وأرسل نور الدين الى العاضد كتابا يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وقد كان ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك في مصر، والاقتصار على أسد الدين وألزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليه الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الا سنهام الاتراك، فان الفرنج لايرعبون الا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية ولحصلوا منها على الامنية، فلعل الله ان ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التي لاتحصى ولعمارة اليمني قصيدة منها قوله:

من شاكر والله اعظم شاكر
ما كان من نعمى بني ايوب
طلب الهدى نصرا فقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا الى دمياط عند حصارها
عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة
لو لم يجلوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها
عتقاؤهم من نازح وقريب

ان لم تظن الناس قشرا فارغا
وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

مصر بيوسفها أضحت مشرفة
وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها
فللمصالح من أيامه نمط(١٢)

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه أبطل الأذان بمصر «حي على خير العمل» وأمر صلاح الدين ان يذكر في الخطبة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ومنها أن شهاب الدين محمد بن ايلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة، سار في عسكره، وهو مائتا فارس الى نور الدين، وهو بعشترا، فلما وصل الى قلعة اللبوة من عمل بعلبك ركب متصيدا، فصادف ثلاثمائة فارس من الافرنج قد شنوا الاغارة على بلاد الاسلام فانفصلوا واقتتلوا فانهزم الفرنج، وأكثر شهاب الدين فيهم القتل والاسر، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى الى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر للقائه، وكان في جملة تلك الرؤوس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، ولانه كان شجا في حلوق المسلمين، وكذلك ايضا كان فيها رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازدادوا سرورا، وكان ذلك في سابع عشر شوال من هذه السنة.......

ومنها أن في ليلة عيد الفطر رزق السلطان صلاح الدين ولده الملك الافضل نور الدين علي، وفرح به فرحا عظيما، وخلع واعطى وتصدق بما بهر به العقول.

ومنها أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان مسيره من دمشق

الى ولده صلاح الدين بمصر في هذه السنة وقد ذكرناه في السنة الماضية، ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم في ذلك قوله:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه
وكل أبنائه شهب فلا أفلوا

جاءوا كيعقوب والاسباط إذ وردوا
على العزيز من ارض الشام واشتملوا

لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزغ ولا زلل

وملكوا ملك مصر في شماخته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

ومنها ان نور الدين رحمه الله خرج في هذه السنة إلى داريا فأعاد عمارة جامعها، ومشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

قال في المرآة: وفي هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني فأحرقه الافرنج لما نزلوا على داريا في أيام مجير الدين آبق، فعمر نور الدين ــ في هذه السنة ــ هذا الجامع في وسط القرية.

ذكر الأمور المزعجة:

منها الزلزلة الكبرى:

قال ابن الأثير : وفي ثاني عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس مايخرج عن العد

والاحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ماانهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد وبخراب أسوارها وخلوها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم الى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج، ولاسيما بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البته، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا، ثم أتى الى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ماليس بغيرها من البلاد، فإنها قد أتت عليها، وكانوا لايقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهرها من الفرنج، فلما شاهد ماصنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال مالايقدر قدره.

وأما بلاد الفرنج - خذلهم الله - فإنها ايضا فعلت فيها الزلزلة قريبا من هذا، وهم ايضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الافرنج المجاورة لبعرين كحصن الاكراد وصافيتا والعريمة وعرقة وقد وافقت الزلزلة الفرنج يوم عيدهم في الكنائس، ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون﴾ [النحل ٢٦]، وذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة:

هل لعاني الهوى من الأسر فادي
ولساري ليل الصبابة هادي

جنبوني خطب البعاد فَسَهْل
كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من البين حتى
صاح يوم الاثيل بالبين حادي
قد حللتم من مهجتي في السويدا
ومن قلبي محل السواد

إلى أن قال:

أتمنى بالشام أهلي ببغداد
وأين الشام من بغداد
وما اعتياضي عن حبهم يعلم الله
تعالى الا بحب الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العادل
محمود الكريم الجواد
أنا منه على سرير سروري
راتع العيش في مراد مرادي

إلى أن قال:

هم نعم الملاذ من نائب الدهر
ونعم المعاذ عند المعاد
جل رزء الفرنج فاستبدلوا منـ
ـه بلبس الحديد لبس الحداد
فرق الرعب منه في أنفس الكفـ
ـار بين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأرض
وهدت قواعد الاطواد
أخذتهم بالحق رجفة باس
تركتهم صرعى صروف العوادي

خفضت من قلاعها كل عال وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض مظهر سر غيبه فهو بادي

وفي المرآة: وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا أخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام وحلب والعواصم وأنطاكية، ونزلت الى اللاذقية وجبلة، وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل أصابه حجر وهو على درج جيرون لان أهلها خرجوا الى الصحراء، ثم امتدت الزلزلة، وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وسنجار ونصيبين والرها وحران والرقة وماردين وغيرها، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة وجميع بلاد العراق، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم.

ومنها نزول الافرنج على دمياط وقد ذكرناه مفصلا...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والستين بعد الخمسمائة:

ماجريات نور الدين محمود:

وهي أنه سار الى الرقة فأخذها، وكذلك نصيبين، والخابور، وسنجار، وسلمها الى زوج ابنته ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، ثم سار الى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يوما وأقرها لابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الاخرى، وأمر بعمارة جامعها وتوسعته ووقف على تأسيسه بنفسه وجعل له خطيبا ودرسا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبي بكر البرقاني تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وكتب له منشورا بذلك، ووقف على الجامع قرية من قرى الموصل، وذلك كله باشارة الشيخ الصالح العابد عمر الملاء، وكانت له

زاوية يقصد فيها، وله في كل سنة دعوة في شهر المولد، يحضر عنده الملوك والامراء والعلماء ويحتفل بذلك، وقد كان الملك نور الدين صاحبه يستشيره في اموره ومايعتمده من المهمات، وهو الذي أشار عليه في مدة مقامه بالموصل بجميع مافعله من الخيرات، وأسقط عنهم المكوسات والضرائب، وأخرج من بين أهلها الظالم الغاشم فخر الدين عبد المسيح، وسماه عبد الله، وأخذه معه الى دمشق، فأقطعه اقطاعا حسنا وكان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهر الاسلام، وكان يقال: ان له كنيسة في جوف داره، وكان سيء السيرة في حق العلماء. وخاصة المسلمين، وكان نور الدين لم يدخل الموصل حتى قوي الشتاء فأقام بها كما ذكرنا أربعة وعشرين يوما، فلما كان آخر ليلة أقام بها، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال اعداء الله، فنهض من فوره الى السفر، وماأصبح الا وهو سائر الى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان على سنجار ونصيبين والخابور فاستناب فيها ابن أبي عصرون نوابا من أصحابه.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة اتصل بنور الدين أن شهاب الدين غازي ابن أخيه صاحب الموصل قد فوض أموره الى فخر الدين عبد المسيح، وأنه استولى وقام بالامر وتحكم، فأنف لذلك وكرهه وعظم عليه لانه كان يبغض فخر الدين المذكور لما بلغه من خشونة سياسته، وقال: انا أولى بتدبير اولاد أخي، وسار عند انقضاء الغزاة جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك نصيبين، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا، وكثر جمعه، وكان قد ترك عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المناجيق وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين، وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول إليهم، فسار الى

الموصل فأتى مدينة بَلَد، وعبر الدجلة فسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى، ويوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي ابن أخيه قد أرسل عز الدين مسعود بن قطب الدين أخاه الى أتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وأذربيجان وبلد الجبل وأصفهان والري وتلك الأعمال يستنجده على عمه نور الدين، فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض للموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لاولاد أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا بالفرنج، وهم أشجع العالم، ولي مثل ربع بلادك، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم ولايحل لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا حفظ ماأهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

وعزم من بها من الامراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد لنور الدين، فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين في تسليم البلد اليه على ان يقر بيد سيف الدين غازي، ويطلب لنفسه الامان، فأجابه الى ذلك وشرط ان يأخذ فخر الدين معه الى الشام، ويعطيه عهده اقطاعا يرضيه، فسلم البلد في جمادى الاولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر، ثم وهب الموصل لسيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر بعمارة جامعها، ورتب فيها خصيا له يقال له كمشتكين، وأمره بأن لاينفرد عن سيف الدين غازي بقليل من الأمور ولابكثير، وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يوما، وعاد الى الشام.

وفي تاريخ الدولتين: وجعل نور الدين سعد الدين كمشتكين دزدارا في قلعة الموصل، ثم قسم جميع ماخلفه أخوه قطب الدين بين اولاده

بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخلها خلعها على سيف الدين.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال: أنست بك، وأمنت إليك، وأنا غير مختار لفرقتك، وأمره ان يروح في الرسالة الى الخليفة، فمضى وسار على البرية بخفير من بني خفاجة، فوصل الى الخليفة، وقضى حاجته، ثم رجع الى نور الدين، وهويحاصر سنجار، فأخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

قال: وحضر مجاهد الدين قيماز صاحب اربل الى خدمة نور الدين بالموصل.

ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب:

منها: أن صلاح الدين عزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، واستناب في سائر الاعمال شافعية.

وفي تاريخ قضاة مصر: ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمذاني الماراني الكردي الموصلي، وكان قاضي الغربية، قدم من المشرق الى مصر فولاه صلاح الدين رحمه الله، وكان عنده بمكان.

وفي تاريخ الدولتين: ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ومنها: ان صلاح الدين خرج الى الغزاة واغار على الرملة وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع الى القاهرة.

وفي تاريخ بيبرس: في هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير الى الساحل غازيا، فمضى واغار على عسسقلان والرملة، فأتاه ملك الفرنج فقاتله وهزمه، ونجا بنفسه، ثم رجع الى القاهرة.

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفق عليها، وأحب ان يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الاول، وكانت بأيلة قلعة في البحر، قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب حملها الى ساحلها على الجمال، وركبها الصناع هناك وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الاول من ربيع الآخر، واستحلها واستباح بالاسر والقتل أهلها، وملاها بالعدد والعدد وحصنها بأهل الجهاد والجلاد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الاولى.

و منها أنه سار الى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعم أهلها باحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

ومنها انه كان بمصر سجن يعرف بدار المعونة، فهدها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعية، وبنى بها أيضا مدرسة للمالكية، وكانت دار العزل، وكان ذلك في النصف من محرم هذه السنة، واشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارا كانت تعرف بمنازل العز، فجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة وحمام الذهب وغيرها، وكان ذلك في النصف من شعبان، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان على العربان بالصعيد، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

ومنها أن صلاح الدين شرع في هذه السنة في عمارة سور القاهرة لانه كان قد تهدم اكثره وصار طرقا لايرد داخلا ولاخارجا، وولى أمره لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الاذان «حي على خير العمل» وشرع في تمهيد اسباب الخطبة لبني العباس كذا ذكره ابن أبي طي.

ومنها أن شمس الدولة طلب من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وزاد على اقطاعه نويش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

ومن جملة الحوادث في هذه السنة أن في نصف شعبان هبت ريح شديدة عظيمة، ورعدت السماء بقعقعة لم يسمع بمثلها، فخر الناس على وجوههم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والخليفة بمصر العاضد، والوزير بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ولكنه في الحقيقة سلطانها، وليس لأحد معه كلام لا من أمرائها ولامن أعيانها، والعاضد تحت حكمه وقهره، ومع هذا قطعت الخطبة باسمه وخطب باسم المستضيء الخليفة، وعقيب ذلك مات العاضد، والكلام فيه مفصلا على أنواع:

الأول: في قطع خطبته:

قطعت خطبته من ديار مصر في محرم هذه السنة، وسبب ذلك ان صلاح الدين لما ثبت ملكه في البلاد، وأمن السودان والأجناد، وضعف أمر العاضد، وصار قراقوش حاكما في قصره، كتب نور الدين إلى صلاح

الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، وقطع خطبته، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، وكان المستضيء قد راسله في ذلك، ولما وصل رسول الخليفة الى نور الدين بذلك سيرنور الدين كتاب الخليفة وكتابه إلى صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأهله والخطبة للامام المستضيء فجمع صلاح الدين الامراء وشاورهم في ذلك، فمنهم من خوفه، ومنهم من هون عليه، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليسع الجامع يوم الجمعة سابع المحرم وصعد المنبر قبل طلوع الخطيب، ودعا للامام المستضيء فلم ينكر أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضيء.

وفي تاريخ الدولتين: استفتح صلاح الدين سنة سبع وستين وخمسمائة باقامة الخطبة في الجمعة الاولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها.

وقال فيه أيضاً: إن صلاح الدين لما تمكن في الديار المصرية وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك الزاما لافسحة فيه، واتفق ان العاضد مرض، واستشار صلاح الدين الامراء فاختلفوا فيه كما ذكرنا، وكان قد دخل في مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم.

قال ابن الأثير: وقد رأيناه بالموصل كثيرا، فلما رأى ماهم فيه من الاحجام قال: انا ابتدىء بها، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد عليه ذلك، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح

فيهـا عنزان، وكتـب بذلـك إلى سـائر الديـار، وكـان العاضـد قد اشتـد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الايـام التي قد بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بذلك على مانذكره إن شاء الله تعالى.

ولما انتهى الخبر إلى نور الـدين بالشام أرسل الى الخليفـة ببغداد يعلمه بـذلك مـع شهـاب الـدين أبي المعـالي بـن أبي عصرون، فـزينت بغـداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فـرحا شديدا، وكانت الخطبة لبنـي العباس قـد قطعت مـن ديار مصر مـن سنة تسـع وخمسين وثلاثمائة في خـلافة المطيـع العباسي حين تغلـب الفاطميـون عليها أيـام المعز الفاطمي باني القاهرة إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

وقـال ابن الجوزي: ووصـل يوم السبـت ثاني عشريـن المحرم ابـن أبي عصرون رسولا يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر وضربت السكة باسمه، وخلع على الرسول وأنكمدت الروافض، وقـد صنفت في هذا كتابا سميته «النصر على مصر» وعرضته على الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

وقال العماد: وشيـع نور الـدين شهـاب الديـن أبا المعـالي المطهر بـن الشيخ شرف الـدين بـن أبي عصرون بهذه البشارة، وأمـرني بانشـاء بشارة عليه، تقرأ في سائر بـلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديـوان العزيز بحضرة الامام في مدينة السلام.

قال: ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:

قـــد خطبنـــا للمستضيء بمصر ... نـــائب المصطفـــى إمـــام العصر

وخـــذلنـــا لنصرة العضـــد العـــاضد والقـــاهـــر الـــديـــن بـــالقصر

وأراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء.

وقال العماد في الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا المدعي يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمي في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عد وحصر

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صندل — وهومن أكابر الخدم ـ المقتفوي، ومعه التشريف لنور الدين والكتاب للعماد ليقرأه، فتناوله منه الموفق ابن القيسراني وكان عنده في مقام الوزير، فقرأه.

وذكر في «عبرة أولى الأبصار»(١٣) أن الخليفة سير إلى نور الدين الخلع ومعها سيفان، اشارة الى تقليد مصر والشام، وسير معها طوقا زنته ألف دينار، وبعث أيضاً الى صلاح الدين تشريفا أقل من تشريف نور الدين، فلبس صلاح الدين ذلك التشريف، فركب به في الديار المصرية، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بني عبيد عليها، وأما نور الدين فكذلك لما لبس التشريف خرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى الى الميدان الاخضر، ثم عاد.

. الثـاني: في كتاب صـلاح الديـن الى الخليفـة المستضيء بخط القـاضي الفاضل يهنيه بفتح مصر، أوله:

﴿سلام قولا مـن رب رحيـم﴾[ياسين ٥٨] ﴿يبشرهـم ربهم بـرحمة منه ورضوان وجنـات لهم فيها نعيـم مقيم﴾ [التـوبة ٢١] وصلـوات الله التي تنزل بها الـروح الأمين وتشيعها الملائكـة بالتـأمين على مولى الأمـة ومولى النعمـة، ووالي الامر المصـون بقاؤه في عقبـه، وولي اللـه الذي ﴿لاخـوف عليهم﴾ [البقـرة ٢٦٢] ولاخوف به، الخليفـة على الحقيقة، والامـام الذي يحمـي مـن دون اللـه الحقيقـة على الحقيقـة، ووارث السقـايتين: زمـزم والكـوثـر، والـولايتين: السريـر والمنبر، والـدعـائين: اليـوم وفي المحشر، والشرفين: المشعـر والمعشر، والطـرفين: المشهـد الاول والمشهـد الاكبر، والمقامين: مقام ابـراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما وسلـم أبدا سرمدا، والشعـاريـن: الابيـض في القلـب والاسـود في اليـد، والخلـديـن: في دار السلام ودار السلامـة، والموطنين: مقام الامامة ودار المقـامة، والشفاعتين: سـالفا في أهـل العمار، وآنفا في أهـل النـار، والسلامين: سـلام لكم مـن ألسنة الابرار و﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعـم عقبى الدار﴾ [الرعد ٢٤] على الخليفـة ابن الخلائف، على رغـم من رضي أن يكـون مع الخوالـف، وابن الأئمة المشهورين في المناظر والمواقف .

مولينا ومـولانا الامام المستضيء باللـه أمير المؤمنين، صلوات الله على تلك الأنوار القـدسية يتضوع عن نسيـم الأنفاس الفردوسية، والحمـد لله الذي وفى الـدين دينه المسـؤول، وأغمد عـن أهله سيف الفتنـة المسلول، فأورث أمير المؤمنين حقـا كان بـه ممطولا، وأطال يـده إلى استيفاء طـائلة كـان دم الحق بها مطلـولا، وكتـاب المملـوك صـادر الى المقـر الأشرف الأصيل، مـن شرفه لشرف الرسـول رسيل، والاسم الشريـف المستضيء به قـد صـدحـت منـابـره وعـروشـه، وطـرزت المدائن والملابـس والـدنـانير

والدراهم رقومـه ورقوشه، وجهزت إلى بلاد الكفار في العـام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه، والزمن قد وقرته السكينة لا الوجوم، والكواكب قد همت بأن تتساقط ايثـار الضرب لاايثار الرجوم، ونشأة الدعـوة المنيفة قد أشبهـت ولاية النبـوة الشريفـة، وقد طـالـع وزير أمير المؤمنين بتفصيـل ماأجمله، وتحصيل مـامنعته الجلالة أن يستوفيه ويستكمله، راجيـا ان يناله من الملاحظـات النبويـة مايجعل لـه سلطانـا، ويمكن في قلـوب الاعداء والاولياء مكانا، حتى يحفظ على الخلافـة من لايعنيه الا إياها، وينفذ على الثقلين في الخافقين أوامـرهـا وقضـايـاهـا، ويستضيـف لها نصرا الى نصر، ويستنجز لها مـاكتب ﴿في الزبور مـن بعد الذكر﴾ [الأنبيـاء ١٠٥]، نوه اللـه باسـم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى، وطبـق بدعـوتـه المعمورة حتـى لايستثنى مكان بألا، وقلص به الامة ضـلالة ومد عليه ظلا، ان شاء الله تعالى......»

وفي أيام العـاضد وصل اسطول الفـرنج الى الاسكندرية، وكـان معهم مـن الخيل الـف وخمسمائة فرس، وفي الاسطـول ثـلاثون ألـف مقاتـل في مائتي شينـي، ومعهم آلات الحرب والحصار، ومعهم أربعون مـركبا اخرى تحمل الازواد، وفيها من الرجـال والغلمان تتمة خمسين الف رجل، وكشفوا المسلمين عـن البر، وطلعـوا فضربـوا خيـامهم وكـانـت ثـلاثمائة خيمـة، وحاصروا الاسكندرية أياما، ففتح المسلمـون أبواب المدينة بالليل وكبسوا الفرنـج على غفلة فأفنـوهم قتـلا وأسراً، وغنموا جميع مـاأحضروه، وغنموا بعض المراكب واحرقوا بعض المراكب الباقية.....

الثامن: فيما جرى بعد موته.

قـال ابن كثير رحمه الله : لما مـات العاضـد، استحـوذ الملك النـاصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردهـالهم، وأجرى عليهم الارزاق والنفقات الهنيـة عوضا عما فـاتهم من

الخلافـة، واستعـرض حـواصـل القصريـن، فـوجـد فيهما مـن الحواصـل والامتعة والآلات والثيـاب والملابس شيئا كثيرا بـاهرا، وأمرا هـائلا، فمن ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر وقضيب زمـرد طوله اكثر من شبر وسمكه نحـو الابهام، وجبل مـن يـاقوت، ووجـد فيـه ابريـق عظيـم من الحجـر المائع، وطبل للقـولنج، فـاتفق أن بعض أمـراء الاكراد اخـذه في يده، ولم يدر ماشأنه، فلما ضرب عليه حبق فـألقاه من يده فكسره فبطل أمره، وأما القضيب الزمـرد فان السلطان كسره ثلاث فلق فقسمـه بين نسائه، وقسم بين الامراء شيئـا كثيرا من قطـع البلخش واليـاقوتـت والذهـب والاثاث وغير ذلك، واستمر البيـع فيما كان هنالك من الاثاث والامتعـة نحوا من عشر سنين، وأرسل الى الخليفـة ببغداد هـدايا عظيمـة سنية، وكـذلك الى الملك العادل نور الـدين، وأرسل إليه جانبا كبيرا صـالحا، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واحد وثلاثون مثقالا، والاخرى ثمانية عشر مثقالا والثالثة دونهما، مع لآلىء كثيرة وستون ألف دينار وعطر لم يسمع بمثله، ووجـد في القصر أيضاً خزانة كتـب ليس في دار الاسلام مثلها تشتمل على نحو الفي ألف مجلـد، ومن عجائب ذلك انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري[١٤].

وقال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبا من مائة وعشرين الف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، وأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قـال: وقسـم القصر الشمالي بين الامـراء فسكنوه، وأسكـن أبـاه نجـم الـدين في قصر عظيـم على الخليـج، الذي يقـال له اللـؤلـؤة، الذي فيـه بستـان الكـافـوري، وسكـن أكثـر الامـراء في دور مـن كـان ينتمـي الى الفاطميين، وصار لايلقـى أحد من الاتراك أحـد من أولئك الذيـن كانوا بها من الاكابر الا شلحوه ثيابـه ونهبوا داره حتى تمزق كثير منهم في البلاد وتفرقوا شذر مذر، وصاروا أيادي سبأ.

وقال ابن أبي طي: ولم يوجد في القصر من المال كثير، لان العاضد قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات العديدة، ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، فانفذه السلطان الى بغداد.

وجعل السلطان أهل العاضد في موضع خارج القصر، وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حرا، وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الامراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئا كثيرا، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوب وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدة عشر سنين.

قال: ومن جملة ماباعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الايام بجملتها بعد ان كانوا قد احتووا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه ويحدثه، عمل دعوة لشمس الدولة ابن أيوب أخي السلطان، بعد القبض على القصر وأخذ مافيه، وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا، وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء، فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدثني بأعجب ماشاهدته من أمر القوم، قال: نعم طلبني العاضد يوما

وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهما أقبية مثل أقبيتكم وقلانس مثل قلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: ياأمير المؤمنين ماهذا الزي، الذي مارأيناه قط؟ قال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا.

وفي تاريخ الدولتين: أخبرني أبو الفتوح أن السلطان جعل أهل العاضد في دار برجوان، في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها وأبعدوا عنها.

التاسع: في ذكر كتاب كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين الى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين أبي المضاء:

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الائمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد، بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما، وأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا، والخلافة إذا ذكرها أهل الخلاف لم يخروا عليها صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الامة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الاقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آتيهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس

السيف عمن سواهـم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليـل عن سير اليهم بنائم، ولاخفاء عن المجلس الصاحبي أن مـن شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر إلى أن يشكر مـانصح، ويقلد مافتح، ويبلغ مـااقترح، ويقدم حقه ولايطرح، ويقرب مكـانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفـة، وتواصل إليه امـداد التقدمـات الجليلة اللطيفة، وتلبـى دعوتـه بها أقام مـن دعوة، وتوصل عـروته بها وصل من عروة، وتـرفع دونه الحجب المعترضـة، وترسل اليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عـوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهـه لنصرها، وجرد سيفه لـرفع منارها والقيـام بأمرها، وقـد أتى البيـوت من أبـوابها، وطلـب النجعة مـن سحـابها، ووعد آمـالـه الواثقـة بجـواب كتـابها، وأنهض لايصال ملطفـاتـه، وتنجـز تشريفاتـه خطيـب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالامر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الـذي جمع الله عليه السواد الاعظم، امـلا انـه يعود اليـه بها يطـوي الـرجـاء فضل عقبـه، ويخلـد الشرف في عقبه......»

ذكر ماجريات نور الدين:

منها أن نـور الدين استدعى ابن أخيـه صاحـب الموصل، فـوصل بالعسـاكر إلى خدمته، وكـانت غزوة عرقـه فأخذهـا نور الدين ومعـه ابن أخيه، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وقال ابـن أبي طي: جمع نـور الديـن عساكـره وخرج الى عـرقة ونـازلها وقاتلهـا أياما حتـى فتحها واحتوى على مافيهـا كلها وغنم النـاس غنيمة عظيمة.

وقال ابـن الأثير: خرجت مـراكب من مصر إلى الشـام، فأخذ الافـرنج

من اللاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم باعادة ماأخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور لاطائل تحتها، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكيية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فاخذهما وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقة، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثلما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ماأخذوه من المركبين وتجدد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم.

ومنها أن نور الدين أمر في هذه ا لسنة باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته وبعدت بلاده، وكانت من حد النوبة الى باب همذان لايتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم قد بلغوا الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده واجرى الجرايات لها ولمربيها، فوجد بها راحة كبيرة، كانت الاخبار تأتيه لوقتها، لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوا لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو فيها في ساعته فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه، فانحفظت الثغور بذلك.

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين باسقاط المكوس

والضرائب عن أهل مصر والقاهرة، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الاشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر من هذه السنة، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار.

وفي تاريخ الدولتين: قرئت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر على المنبر بالقاهرة في التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين، فهو كان الآمر، وذاك المباشر.

ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين:

وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة بلاد الافرنج في السواحل، فأحل بهم بأسا شديدا، ثم عزم على محاصرة الكرك، وكتب الى صلاح الدين أن يلاقيه بالعساكر المنصورة الى بلاد الكرك ليجتمعا هناك على المصالح فيما يعود نفعه على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين، وخاف أن يكون لهذا الامر غائلة يزول بها ماحصل له من التمكين، ولكن ركب في جيشه من الديار المصرية ليقصد امتثال المرسوم، فسار أياما، ثم كرّ راجعا معتلا بقلة الظهر والخوف من اختلال الديار المصرية إذا بعد منها، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور الدين، فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه، وعزم على الدخول الى الديار المصرية وانتزاعها من يد صلاح الدين وتولية غيره فيها، ولما بلغ هذا الخبر الى صلاح الدين ضاق ذرعه بذلك، وذكره بحضرة الامراء والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر فقال: والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ماأقول لك، والله ما هاهنا أحد أشفق عليك مني، ومن خالك هذا - يعني شهاب الدين الحارمي - ولو رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الارض بين يديه، ولو كتب الي ان ابعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف

والذهـاب، فلما خلا بـابنه قـال: أمالـك عقل، تـذكر مثـل هذا بحضرة هؤلاء، ويقـول ابن أخيك مثـل هذا الكلام، وتقـره عليه، فلا يبقـى عند نور الـدين وجه أهم عنـده من قصدك وقتالـك، ولكن ابعث إليه وتـرقق لـه، وتواضـع له، وقـل: أي حاجـة إلى مجيء مولانـا، ابعث الي بنجـاب أجيء معه الى بين يـديك، فانك اذا فعلت هذا تمادى الـوقت بما تحصل به الكفاية من الله تعالى، ففعل صـلاح الدين ذلك، وكان كما قال نجم الدين أيوب: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الاحزاب ٣٨].

وقـال العماد: وكان صـلاح الديـن واعـده نور الـدين أن يجتمعـا على الكـرك والشـوبـك يتشـاوران فيما يعود بـالصـلاح المشترك، فخـرج مـن القاهرة في الثاني والعشرين من المحـرم، فلقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد الى القاهرة في النصف من ربيع الاول.

وفي تاريخ بيبرس: تجهـز صلاح الدين من مصر الى الكـرك، وكان قد قدر مع نور الـدين ان يخرج من دمشق ويجتمعا على غزو الافـرنج، فسبق صلاح الـدين، وخرج نور الـدين من دمشـق، فأوجس صلاح الـدين في نفسه خيفـة منه أن يعزلـه عن مصر ويوليها غيره، فـرجع عائدا وقـد بقي بينـه وبين الكرك مسـافة قـريبة، وأرسـل الى نـور الديـن رسولا وأصحبـه هدايـا كثيرة، وتحفا جليلة، وكتـب اليه يعتـذر بأن والده ضعيـف، وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكاري، فلاطفـه نور الدين وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الـدين: حفظ مصر عندنا أهم مـن غيرها، وفطن لما قصده برجعته، وعز ذلك عليه في باطنه.

وقال ابن الأثير: لما نصـح نجم الدين ولـده صلاح الدين وأشـار عليه بأن يرسـل رسولا الى نور الدين يستعطفـه، فأرسل إليه بذلـك، عدل نور الدين عن قصده، وكان من جملة ماقـال نجم الدين لولده صلاح الدين: الايام تنـدرج، والله كـل وقت في شـان، وكان الامـر كما قال، تـوفي نور

الديـن، ولم يقصد صـلاح الديـن، ولا أزاله، وكـان هذا الـرأي من نجـم الدين من أحسن الآراء وأجودها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والستين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات نور الدين:

منها: ان نوز الـدين برز الى الافرنج وكـانوا قد اجتمعوا بـالشام لقصد مدينة زرا، فـوصلوا الى سمكين، فهربوا مـن نور الدين الى الغـور، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث نور الديـن سرية إلى طبرية فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا، ورجعت الفرنج خائبين.

ومنها: أن نور الـدين فتح في هذه السنة مرعـش في ذي القعدة، وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها.

ومنها: أن كلب الـروم اللعين خرج في جنوده الشياطين، فقصـد الغارة على ناحية زرا من حوران، ونزلوا بقريـة تعرف سمكين، فركب نور الدين وهو نـازل بالكسـوة إليهم، فلما عرفـوا وصولـه رحلوا إلى الفـوار، ثم إلى السواد، ثم نزلـوا بالشلالة، ونزل نور الديـن عشترا فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتنموا خلوهـا، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخـاضة، فوقف الشجعان حتـى عبرت السرية، ورحل نور الـدين من عشترا فنزل بظـاهر زرّا.

قال العماد: وكنـت راكباً في لقائهم مـع الملك العادل، وهـو يقول لي: كيف تصف ماجرى فمدحته بقصيدة منها:

عقـــــدت بنصرك رايـــــة الايمان
وبـــدت لعصرك آيـــة الفـــرســـان
يـــاغـــالـــب الغلـــب الملـــوك وصـــائد الـــ
ـــصيد الليـــوث وفـــارس الفـــرســـان
يـــاســـالـــب التيجـــان مـــن أربـــابها
حـــزت الفخـــار على ذوي التيجـــان
محمـــودا المحمـــود مـــابين الـــورى
في كـــل اقليـــم بكـــل لســـان
يـــا واحـــدا في الفضـــل غير مشـــارك
اقسمـــت مـــالـــك في البسيطـــة مـــن ثـــان

ومنها:
وجلـــوت نـــور الـــديـــن ظلمـــة ظلمهـــم
لما أتيـــت بـــواضـــح البرهـــان
وهـــزمتهـــم بـــالـــرأي قبـــل لقـــائهـــم
والـــرأي قبـــل شجـــاعـــة الشجعـــان
أصبحـــت لـــلاســـلام ركنـــا ثـــابتـــا
والكفـــر منـــك مضعضـــع الاركـــان

وهي قصيدة طويلة مدح فيها أمراءه الحاضرين للجهاد معه.

ومنها أن نـور الديـن سار قـاصدا جـانب الشمال، فسـار إلى بعلبك، ومنها الى حمص، ثـم حلب، وفعـل في كل منهـا من المصـالح مـاوجب، وقصـد بـلاد قليـج أرسـلان ملك الـروم، وكـان العماد معـه، ووصـل الى مرعش، وكان الزمان في أطيب فصـوله، وهو زمن المشمش، وكتب العماد الى صديق له بدمشق:

كتـــابي فـــديتـــك مـــن مـــرعـــش
وخـــوف نـــوائبهـــا مـــرعشي

ومــــامــــرّ في طـــــرفهـــــامبصر
صحيـــــح النـــــواظـــــر الا غشي
ومــــاحــــل في ارضهــــاآمــــن
مــــــن الضر والضيــــــم الاخشي
تـــــرنحنــــي نشـــوات الغـــرام
كـــأننــي مــــن كـــاســـه منتشي
اسر وأعلــــــن بــــــرح الجوى
فقلبــــــي يسر ودمعــــــــي يشي
بـــذلـــت لكـــم مهجتـــي رشـــوة
فحــــاكـــم حبكـــــم مـــــرتشي
وكيــــــف يجد الكـــــرى مغـــرم
بنـــار الغـــــرام حشــــاه حشي
بمــــرعــــش أبغــــي وبلــــوطهـــا
مضــــاهـــاة جلـــق والمشمـــش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة، ونمى حديثها الى نور الدين، فاستنشدنيها فأنشدتها إياه ونحن سائرون في واد كثير الأشجار وزدتها بيتين بدهتهما في الحال:

وبـــا لملـــك العــــادل استـأنســت
نجــاحـــامنـــي كـــل مستـــوحـــش
ومـــافي الانـــام كـــريـــم ســـواه
فـــإن كنـــت تنكـــر ذا ففتــــش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه واقصرا، عازما على حربه وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطيه وسيواس وغيرهما من تلك البلاد، قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده،

وأخرجه عنها طـريدا، فسار إلى نور الدين مستجيرا بـه وملتجئا إلى ظله، فـأكرم نـزلـه وأحسن إليـه، وحمل لـه مايليـق أن يحمـل للملوك، ووعـده النصر، والسعي في رد ملكه إليه، وأرسل إلى قليج أرسلان وشفـع إليه في اعادة ماغلبه عليـه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نـور الدين نحوه، فابتدأ بكيسـوم وبهسنا ومرعش، ومـرزبان فملكها ومابينهـا من الحصون، وسير طائفـة من عسكـره إلى سيواس فملكـوها، وكـان قليج أرسـلان لما بلغـه قصد نـور الديـن بـلاده قد سـار مـن أطرافهـا التي تلي الشـام إلى وسطهـا، خوفـا وفـرقا، وراسـل نـور الـدين يستعطفـه ويسـأله الصلـح والصفح عنه، فأجـابه الى الصلح، وكان في جملة رسالة نـور الدين: إنني اريد منك أمورا وقـواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثـة أشياء: أحدها ان تجدد اسلامك على يد رسولي، حتـى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فـإني لاأعتقـدك مـؤمنـا، وكـان قليج أرسـلان يتهـم بـاعتقـاد مـذاهـب الفلاسفة، والثـاني إذا طلبت عسكرك الى الغزاة تسيره، فانـك قد ملكت طرفا كبيرا مـن بلاد الاسلام، وتركت الـروم وجهادهم وهادنتهـم، فاما ان تكون تنجـدني بعسكرك لاقـاتل بهم الفرنـج، واما ان تجاهـد من يجاورك من الـروم، وتبذل الـوسع والجهد في جهـادهم، والثـالث ان تـزوج ابنتك لسيف الدين غازي ابن أخي، وذكر امورا غيرها.

فلما سمع قليج أرسـلان الرسالة قال: مـاقصد نور الديـن الا الشناعة علي بالزنـدقة، وقد أجبته الى ماطلـب، أنا أجدد اسلامي على يـد رسوله، واستقـر الصلح، وعـاد نـور الديـن، ونزل عسكـره في سيـواس مع فخـر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها الى ان مات نور الدين، فرحل العسكر وعاد قليج ارسلان وملكها.

ومنهـا أن مليح بـن لاون، مقدم بـلاد الارمـن التجأ إلى نـور الديـن، وتقـوى بـه على الروم والارمـن، وكـانـت الدروب تحت اذنـة والمصيصـة وسيواس يحميها كلـب الروم ويضبطها بجنده، حتى استـولى عليها مليح

ابـن لاون فكسرهم وقتـل وأسر، وسـاق لنـور الديـن مـن مقـدمي الـروم ثلاثين أسيرا، فـأرسل نـور الديـن القاضي كمال الـدين بـن الشهرزوري بالأسرى والهدايا الى الخليفـة المستضيء بأمر الله، ومعـه كتاب يشرح هذه الكسره، ومافتح من البلاد.

ومنها أنه وصل شهـاب الدين ابن أبي عصرون من بغداد ومعـه توقيع لنور الديـن بدرب هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنـانير النثار التي نثرت يـوم دخل الشهـاب الى بغداد بالبشـارة بالخطبـة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكـانت نـاحيتا درب هـارون وصريفين من أعمال العـراق لزنكـي والد نـور الدين قـديما من انعام أمير المؤمنين، فسـأل نور الـدين احياء ذلـك الرسـم في حقه، فـأنعم بهما الخليفـة عليه، ووجـه بهما، وكان مراده رحمه الله ان يستـوهب ببغداد على شاطىء دجلة ارضـا يبني عليها مدرسـة للشافعية، ويقف عليهـا الناحيتين، فعاقـه امر القدر عن قـدرته على الأمر.

ومنها ان نـور الديـن أرسل الى صـلاح الديـن الموفق خـالد القيسراني ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلـك لانه استقل الهدية التي ارسل بها إليه من خزائن العاضد، ومقصوده ان يقـرر له على الديار المصرية خراج يحمل اليه كل سنة.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها: أن صـلاح الديـن بعث الى نور الـدين هـدية منهـا: فيل وحمارة عتابي، فبعث بها نور الدين الى بغداد، وخـرج الناس للقائها، وعجبوا من خلقة الحمارة.

وقال العماد: خرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر.

قال: ووصل ذلك الينا ونحن بحلب بالميدان الاخضر، وأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين هدية الى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

ومنها أن صلاح الدين نزل في هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها، وفرق عنها عربها وخرب عمارتها، وبعث سراياه على أعمالها، وأرسل كتابا بذلك الى نور الدين.

وقال ابن الأثير وابن شداد: هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لانها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، فخرج صلاح الدين في أثناء السنة فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها، فلم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة، وحصل ثواب القصد.

وفي المرآة: وفي هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل، وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد، وتصدق بمال عظيم، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكره، فحصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين، وقتل البعض وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك، وكتب كتابا الى نور الدين يخبره بما جرى من العربان، وأنه لم يبق منهم أحد، فإنهم كانوا آفة على المسلمين، ودليلا للكفار على الاسلام،

ثـم عاد صـلاح الـدين الى مصر، وعـاد نـور الديـن مـن الموصل وقطـع الفرات، وقصد بلاد الروم، وقد ذكرناه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير نجـم الديـن أيوب والـد السلطان صـلاح الـدين يـوسف بـن أيوب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هـو أبو الشكـر أيوب بـن شادي، والـد الملوك بنـي أيوب، الكـردي الزرزاني، وهـم خيار الأكـراد من بلاد دويـن، بشمال بلاد أذربيجـان، مما يلي الكرج، ومنهـم من يقـول: أيوب بـن شادي بـن مروان بـن يعقوب، وأغرب بعضهم فزعـم أنهم من سلالة مروان بن محمـد الجعدي آخر بني أمية، وهذا ليـس بصحيح، والذي عليه الجمهور أنه لايعـرف بعد شادي أحد في نسبهـم، والذي نسـب الى بني أميـة ادعاء هـو الملك أبـو الفداء اسماعيل بن طغتكين بـن أيوب بن شادي، ويعرف بابـن سيف الاسلام، وقـد ملك اليمـن بعـد أبيه فتعـاظم في نفسـه، وادعـى الخلافة، وتلقـب بالامام الهادي بنور الله، المعز لـدين الله، أمير المؤمنين، وزعم انه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه، ولهجوا بذلك، وقال هو في ذلك ايضا.

وإني أنـــا الهادي الخليفـــة والـــذي
أدوس رقـــاب الغلـــب بـــالضمـــر الجرد

ولابـــد مـــن بغـــداد أطـــوي ربـــوعهـــا
وأنشرهـــــــــــــا نشر السماسرة البرد

وأنصـــب أعـــلامـــي على شرفـــاتها
وأحيـــي بها مـــاكـــان أسســـه جـــدي

ويخطـــب لي فيهـــا على كـــل منبر
وأظهـــر ديـــن اللـــه في الغـــور والنجـــد

وهـذا الادعـاء ليس بصحيـح، ولا لـه أصـل يعتمد عليـه ولامستنـد يستند إليه.

قـال ابن أبي طـي: لايعـرف في نسـب نجم الـديـن أكثـر من والـده شادي، وحدثنـي أبي قال: كان تقي الديـن عمر يزيد فيقـول شادي بن مروان، وسمعت أنا من يقول: شادي بن مروان بن يعقوب.

قال: وأجمع الجماعـة من آل أيوب ان دعـوى ابن سيـف الاسلام أنهم من بني مـروان بن محمد الجعدي آخـر خلفاء بني أمية كـذب، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جدا فوق شادي.

قال: وكذلك أخبرني السلطان الملك الظـاهر، قال: وصحة دليل ذلك أني وقفت على كتـاب وقف رباط النجمي بـدمشق ولم يزد فيـه على نجم الـدين أبي سعيـد أيـوب بن شـادي العـادلي، والمقصود أن الأمير نجـم الديـن والأمير أسد الدين شيركـوه كانا أخويـن، وكان نجم الديـن أسن من أسد الدين، ولدا بأرض الموصل.

وقال ابن أبي طي في تـاريخه الكبير: كان مولد نجم الديـن أيوب ببلد شبختان، وقيل انه ولد بجبل جور وربي في الموصل، ومولد أبيه شادي في بلد دوين.

الثاني: في بيـان ابتداء أمـره وانتسابـه واتصالـه بالـدولة، وهـو أن أباه شادي كان من أعيـان أهل دوين وكان له صاحب يقـال له جمال الدولة مجاهد الـدين بهروز، وكـان من أظـرف الناس وألطفهـم، وكان بينـه وبين شادي أخـوة أكيدة، فجـرت لبهروز قضية في دويـن، فخرج منهـا حياء، وذلك انـه اتهم بزوجة بعـض الأمراء بدوين، فـأخذه صاحبهـا فخصاه،

فلما جرى له ذلك لم يقدر على الاقامة، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية وهو مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لاولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الامور، فتقدم عنده وفوض إليه أموره، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، فرآه السلطان يوما مع اولاده فانكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته، ثم صار يسيره الى السلطان في الاشغال، فخف على قلبه فلعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده، واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه، وسلم إليه أولاده، وأرصده لمهماته، وسار ذكره في تلك النواحي فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة وليقاسمه ماخوله الله تعالى، وليعلم أنه مانسيه، فلما وصل إليه بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور الى بغداد واليا ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد، يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولى مكانه نجم الدين أيوب، فنهض في أمرها، وشكره بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه أسد الدين شيركوه، ثم إن شيركوه رأى يوما امرأة تبكي، فقال لها: مايبكيك؟ فقالت: أنا داخلة من باب القلعة فتعرض لي الاسفهسلار، فقام شيركوه وتناول حربه الاسفهسلار وضربه بها فقتله فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وعرف بهروز بذلك، فوصل جوابه: لابيكما علي حق، وبيني وبينه مودة متأكدة مايمكنني ان اكافيكما بسيئة، ولكني اشتهي ان تتركا خدمتي، وتخرجا من بلدي وتطلبا رزقكما، فلما وقفا عليه خرجا ووصلا إلى الموصل، فأحسن إليهما الاتابك عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود بن زنكي، واقطعهما اقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الاتابك قلعة بعلبك ـ كما ذكرنا ـ استخلف بها نجم الدين أيوب، ثم بعد مدة انتقل الى دمشق،

وأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، ثم لم يزل معه في السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده، فصار لايقطع أمرا دونه، ثم إن نور الدين أرسل أخاه شيركوه الى الديار المصرية ثلاث مرات - كما ذكرناه - وكان معه في كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

ولما جرى ماجرى من أمور المصريين، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف، وصار أمر الديار المصرية إليه - كما ذكرناه مفصلا - طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين فأرسله إليه مع أهله وحاشيته - كما ذكرنا.

وقال العماد الكاتب: لما دخل فصل النيروز استأذن نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وخيم بظاهر البلد ثم سار فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسمائة، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله، ووصف ذلك عمارة اليمني في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله:

صحت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم تغن بطبيب

عجبا المعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب

رد الاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب

جاءته أخوته ووالده الى
مصر على التدريج والترتيب

فاسعد بأكرم قادم وبدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

وفي تاريخ الدولتين: وكان بهروز المذكور، أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس، فأقر نجم الدين في ولاية تكريت وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود.

ثم إن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود طمع في أخذ بغداد، ووصل الخبر إلى قراجا الساقي وهو أتابك السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، فانهزم زنكي، وقتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ماكان معه في عسكره، وجاء إلى تكريت وبه عدة جراحات، وعلم مكانه الامير نجم الدين وأخوه شيركوه، فأحسنا إليه وداويا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر، حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسلم معه من أمتعته، فكان زنكي يرى لنجم الدين أيوب هذه اليد، ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ماذكرنا تلقاه زنكي بالرحب والسعة واحترمه احتراما عظيما.

وقال صاحب تاريخ الدولتين: وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعا باسلا ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لايفارق القلعة ولاينزل منها، فاتفق ان اسد الدين شيركوه نزل يوما لبعض شأنه، ثم عاد الى القلعة، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلا نصرانيا، فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسد الدين صاعدا الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة، فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد الى القلعة، وكان مهيبا، فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأخذ النصراني برجله فألقاه من القلعة، وبلغ ذلك الى بهروز وحصل عنده من خوَّفه جرأة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن

أخاه نجم الـدين قد استحوذ على قلوب الـرعايا، وأنه ربما كـان منه أمر تخشى عـاقبته، ويصعـب استدراكه، فكتـب إلى نجم الـدين ينكـر عليه ماجرى مـن أخيه، ويأمره بتسليم القلعة الى نـائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين ذلك بالسمع والطـاعة، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها مـن أهل ومال، واجتمـع هو وأخـوه أسد الديـن وصمما على قصد عماد الدين زنكي بـالموصل، فخرجا واتصلا به كما ذكـرنا، وقيل ان أسد الديـن خرج إلى الموصل قبل نجـم الدين، ثـم إنه جرى بين أسد الـدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة حتـى حلف كل واحد منهما للآخر ان يقوم بأمره في حياته وبعد وفاتـه، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأخيه نجـم الدين حتى قـربهما من قلب أتـابك، وجعلهما عنده بالمنـزلة العظيمـة، وخـرجا معـه إلى الشـام، وشهـدا معـه حروب الكفـار وقتـال الافـرنج لعنهـم الله، وكـان لاسد الـدين في تلـك الوقـائع اليد البيضـاء والفعلة الغراء.

وقال ابن أبي طي: حدثني أبي عن سعد الدولة أبي الميامن عن حسام الديـن سنقر غلام نجم الـدين أبي طالـب، وكـان في خدمة نجم الـدين أيوب، قال: لما دخـل نجم الدين أيـوب الديار المصرية الى ولـده صلاح الدين كنت معـه في خدمته، وكانا قد اجتمعـا في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بـأرباب الدولتين إذ تقدم نصراني كان في خدمة نجم الـدين، فقبل الارض بين يديهما وقال لنجم الديـن: ياًمولانا هذا تأويـل مقالتي لك حين ولد هـذا السلطان - يعني صـلاح الدين - فضحك نجم الدين وقال: صدقـت والله، ثم التفت الى الجماعة الذين حـوله مـن أكابـر العلماء والقضـاة والامراء، وقـال: لكلام هـذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أني ليلة رزقت هـذا الولد - يعني السلطان صلاح الدين ـــ أمرني صاحب قلعة تكريـت بالرحلة عنها بسبـب أخي شيركوه مـن قتلـه ذلـك النصراني، وكنـت قـد ألفـت هـذه القلعـة وصـارت لي كـالوطـن، فثقل علي الخروج منهـاجـدا، وفي ذلك الـوقت جـاءني البشير

بولادة هذا ــ يعني صلاح الدين ـ فتشاءمت بـه وتطيرت لما جرى عليّ، وخرجنا من القلعة وانا لاسميتـه ولا التفت إليه، وكان هذا النصراني معي كـاتبـا لي، فلما رأى مـانـزل بي قال: يـامـولاي أي شيء لهذا المولـود مـن الذنب، وبما استحـق ذلك منك وهو لايضر ولاينفع، وهـذا الذي جرى عليـك قضاء من اللـه تعـالى، فما يدريـك أن هـذا الطفـل يكون سببـا لوصـول الخيرات إليك ويكـون هو ملكا عظيـم الصيت، جليـل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قـد جرى ماقال لي، فتعجب الحاضرون من ذلك، وحمد السلطـان ووالده الله تعـالى وشكراه، ولعمارة اليمنـي في نجم الدين مدائح ومراثي منها:

ثغـر الـزمـان بنجـم الـديـن مبتسـم
ووجهـه بـدوام العـز متسـم

يقول فيها:

أضحـى بـك النيـل محجـوجـا ومعتمـرا
كـأنما حـل فيـه الحل والحرم

إلى ان قال:

والنـاصر ابنـك كـافي كـل معضلـة
إذا الحوادث لم تكشـف لها غمـم

الثالث: في سيرته.

وكان شجاعا باسلاً أميناً، خيرا محسنا، ناصحا عظيما في أنفس الناس بالخير والدين وحسـن السياسة، وكان لايأتي أحد من أهـل العلم والدين من مـدينة الا انفذ إليـه، وقد ذكره العماد الكاتـب وذكر من دينـه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة.

وقال ابن خلكان: وكـان نجم الدين رجلا مباركـا كثير الصلاح مائلا

للخير، حسـن النية، جميـل الطويـة، وظهـرت ثمرة بـركته في أولاده، ولـه خانقاه بدمشـق تعرف بالنجمية، وخانقاه بالديـار المصرية ومسجد وقناة خارج باب النصر من القـاهرة، وخانقاه أخرى لطيفة ببعلبـك بناها حين كان نائبا بها عن عماد الدين زنكي.

وفي المرآة: وكان نجـم الدين رجلا عـاقلا حازما شجـاعا حليما رحيما، جوادا، عاطفا على الفقراء والمساكين، محبـا للصالحين، قليل الكلام جدا، لايتكلم الا عن ضرورة.

ولما قدم مصر سألـه ولده صلاح الدين ان يكون هـو السلطان، فقال: أنت أولى، وكان يلعب بالاكرة دائما.

وقال القاضي ابن شـداد: وكان شديد الركض بالخيـل، يلعب بالاكرة، ومن يراه يقول: مايموت الا من وقوعه من ظهر الفرس.

الرابع: في وفاته

خرج نجم الدين يوما من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، فشبت به فرسه، فـألقاه في وسط المحجة، وذلك يوم الاثنين ثـامن عشر ذي الحجة مـن سنـة ثمان وستين وخمسمائة، وحمل إلى داره، وبقي متـألما إلى أن تـوفي يوم الاربعـاء سابع عشريـن الشهر المذكـور، ويقال في الثامـن والعشرين منه.

وفي تاريخ بيبرس: وكان سبـب وفاته أنه تقنطر عن فـرسه، فحمل إلى داره فمات بها.

وفي تاريخ الدولتين: وعاش ثمانية أيام بعـد وقوعه من الفرس، وكانت وفاتـه يوم الثلاثـاء السابع والعشرين مـن ذي الحجة، وكان ولـده صلاح الدين غائبا عنه في بلاد الكرك والشوبك على الغزاة.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة نجم الدين أبيه، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه، ماعظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت بغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبي، وانحدرت العبرة، فياله فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء، وتخطفته يد الردى في غيبتي، هبني حضرت فكنت ماذا أصنع.

قال: فدفن نجم الدين الى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنين الى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الاصفهاني وزير الموصل، وكان جمال الدين المذكور مواخيا لاسد الدين شيركوه كما ذكرنا.

وفي تاريخ القاضي الفاضل: وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة يخبر بوصول تابوت الامير نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، واستقرارهما بتربتهما مجاورين الحجرة المقدسة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

الخامس: فيما يتعلق به.

خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الاسلام طغتكين ، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون، وقال عمارة اليمني يرثيه:

صفـــو الحيـــاة وإن طـــال المدى كـــدر
وحـــادث الـــدهـــر لا يبقـــي ولا يـــذر
ومـــا يـــزال لســـان الـــدهـــر ينـــذرنـــا
لـــو أثـــرت عنـــدنـــا الآثـــار والنـــذر
كـــم شـــامـــخ العـــز ذاق الموت مـــن يـــدهـــا
مـــا أضعـــف القـــدر ان ألـــوى القـــدر
أودى علي وعثمان تخلبهـــــــــــــا
ولم يفتهـــا أبـــو بكـــر ولا عمـــر
ومـــن أراد التـــأسي في مصيبتـــه
فللـــورى في رســـول اللـــه معتبر
لا قـــدســـت ليلـــة كـــادت مصيبتهـــا
الأكبـــاد حـــزنـــا على أيـــوب تنفطـــر
كـــأنها صـــور اللـــه الكمال بـــه
شخصـــا ويـــوســـف منـــه السمـــع والبصر
إذا الليـــالي تجافـــت عـــن حشـــاشتـــه
فـــالجرح منـــدمـــل والـــذنـــب مغتفـــر
يـــا نـــاصر الحق والايـــام خـــاذلـــة
إن الغـــريـــب بغير الـــدمـــع ينتصر
مـــامـــات أيـــوب الا بعـــد معجـــزة
في الحق لم يـــؤتها مـــن جنســـه بشر
مضـــى حميـــدا مـــن الـــدنيـــا وليـــس لـــه
في رتبـــة ارب منهـــا ولا وطـــر
صلى الالـــه على نجـــم اضـــاء لنـــا
مـــن نسلـــه النيران والشمـــس والقمـــر

وهي قصيدة طويلة، وله قصيدة أخرى في مرثيته واولها هو قوله:

هـــي الصـــدمـــة الاولى فمـــن بـــان صبره
على هـــول ملقـــاهـــا يضـــاعـــف أجـــره
أذم صبـــاح الاربعـــاء فـــإنـــه
تبســـم عـــن ثغـــر المنيـــة فجـــره

أصـــــاب الهدى في نجمـــــه بمصيبـــــة
تـــــداعـــــى سماك الجو منهـــــا ونسره

فـــلا تعـــذلـــونا واعـــذرونـــا فمـــن بكـــى
على فقـــد أيـــوب فقـــد بـــان عـــذره

أقـــــام بـــــأعمال الفـــــرات وخيلـــــه
يـــــراع بهانيـــــل العـــــزيـــــز ومصره

إلى ان رمـــــاهـــــا مـــــن أخيـــــه بضيعـــــم
فـــرى نـــابـــه أهـــل الصليـــب وظفـــره

تعـــــاقبتها مصرا تعـــــاقـــــب وابـــــل
يبيـــت بقطـــر النيـــل ينهـــل قطـــره

وواخيتـــــه في البر حيـــــا وميتـــــا
فقبرك في دار القـــــــــــــرار وقبره

وقـــد شخصـــت أهـــل البقيـــع اليكما
والا فسكـــــان الحجـــون وحجـــره

هنيئـــا الملـــك مـــات والعـــز عـــزه
وقـــدرتـــه فـــوق الـــرجـــال وقـــدره

وأدرك مـــن طـــول الحيـــاة مـــراده
ومـــا طـــال الا في رضـــى اللـــه عمـــره

وأسعـــد خلـــق اللـــه مـــن مـــات بعـــدمـــا
رأى في بنـــي أبنـــائه مـــا يسره

رعـــى اللـــه نجما تعـــرف الشمـــس أنـــه
أبـــوهـــا ونـــور البـــدر منهـــا وزهـــره

وأبقـــى المقـــام النـــاصري فـــانـــه
لـــدولتكـــم كنـــز الـــرجـــاء وذخـــره

....

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، غير أنه توفي إلى رحمة الله في هذه السنة، على مانذكره عن قريب ان شاء الله تعالى.

فلنبدأ أولا بما جريات صلاح الدين ثم ماجريات نور الدين، ثم نذكر وفاته ان شاء الله.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها أنه ارسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها وارتفاعها مائة ألف دينار، ثم تجهز منها وسافر، ووصل زبيد، وقتل ابن المهدي صاحبها، وكان يلقب أمير المؤمنين، فلما قتله سير نواب الحصون مفاتيحها إليه، وهي واحد وأربعون حصنا.

وقال العماد: وفي رجب توجه توران شاه أكبر أخوة صلاح الدين الى اليمن فملكها، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني، شاعر القصر، وكان كثير المدح لتوران شاه، فتجهز وسار إلى مكة، ثم الى زبيد فملكها، وقبض على الخارجي بها وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ، ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد أخوته وقوة بأسهم، وكان بلغه ان باليمن انسانا

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم انه ينتشر ملكه الى الارض كلها، فاستتب أمره، فرأى ان يسير إليها اخاه الاكبر الملك المعظم توران شاه، وكان كريما اريحيا، حسن الاخلاق، فمضى اليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها، وكان اخو هذا الخارجي باليمن قبله.

وقال ابن أبي طي، وكان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا، وكان اقطاعه بمصر لايقوم بفتوته، ولاينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد الى مصر ومدح اصحابها، فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه، وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة اموالها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ومن جملة شعره قوله في القصيدة التي أولها:

العلم مذ كان محتاجا الى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم

كم تترك البيض في الاجفان ظامئة
الى الموارد في الاعناق والقمم

امامك الفتح من شام ومن يمن
فلا ترد رؤوس الخيل باللجم

فعمك الملك المنصور سومها
من الفرات الى مصر بلا سأم

الأبيات:

وله قصيدة أخرى منها قوله:

أفاتح أرض النيل وهي منيعة
على كل راج فتحها ومؤمل

متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل

الأبيات:

وقال ابن أبي طي: ووافق ذلك أن كاتبه رجل من أهل اليمن يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه لان صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه وتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ماكان في نفسه، وأصحبه جماعة من الامراء، ومقدار الف فارس خارجا عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر: في البر العساكر وفي البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات، فوصل الى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا، ثم خرج متوجها منها الى اليمن، فوصل زبيد في أول شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الاشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل الى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاها عز الدين بن الزنجيلي، ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد فيها الا شيخا او امرأة عجوزا، فأقام بها ثمانية ايام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة، فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك بن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ فساد أمره، فرأى المصلحة في قتله فقتله ابن منقذ بزبيد،

فلما بلغ شمس الـدولة قتله استصوبـه، ولما دخل شمس الدولـة في زبيد انفذ اليه صاحب الحمام[١٥] وصالحه هو وباقي الملوك على اداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقـلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بـذلك الى اخيه الملك النـاصر صلاح الدين، فـارسل الى نور الـدين يخبر بذلك، فـأرسل نور الـدين مهـذب الديـن أبا الحسـن علي بن عيسـى النقاش بـالبشارة بذلك الى بغداد.

وذكر العماد الأمير مجد الدين سيـف الدولة المبارك بن كامـل بن منقذ المستناب ووصفه بأنه من الكفاة الـرماة والدهاة وذوي الآراء، وانه فاضل من أهل بيت فضل، كتب الى العماد من شعره:

لما نـزلـت الـديـر قلـت لصـاحبـي
قـم فـاخطـب الصهبـاء مـن شماسـه
فـأتـى وفي يمنـاه كـأس خلتهـا
مقبـوسـه مـن نبراسـه
وكـان مـا في كـاسـه مـن خـده
وكـأنما في خـده مـن كـاسـه
وكـأن لـذة طعمهـا مـن ريقـه
وأريجهـا الفيـاح مـن أنفـاسـه
لم أنـس ليلـة شربها بفنـائه
إذ بـات يجلـوهـا على جـلاسـه
إذ قـام يسقيتـا المدام وكلما
عـاتبتـه ردا الجواب بـراسـه

ومدحه ابو الحسن بن الذروي المصري بقصيـدة غراء ذالية ماأظن انه نظم على قافية الذال ارق منها لفظا وأروق معنى، اولها:

لـك الخير عـرج على ربعهـم فـذي
ربـوع يفـوح المسك مـن عـرفهـا الشـذي
مبـارك عيـس الـوفـد بـاب مبـارك
وهـل منقـذ القصـاد غير ابـن منقـذ

وفي المرآة: لما سار شمس الدولة الى اليمن، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه ان يبعث اليهم بعض أهله، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صاحبها الى أبي قبيس فتحصن فيه بقلعة بناها عليه، وأغلق باب الكعبة، وأخذ المفاتيح، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصلى ركعتين، وصعد الى باب الكعبة وقال: اللهم ان كنت تعلم اني جئت الى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهيدها فيسر علي فتح الباب، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فلا تفتحه، ومد يده فجذب القفل بها، فدخل شمس الدولة الى البيت وصلى ودعا، فلما بلغ امير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتذر وقال: خفت منك، والآن فانا تحت طاعتك، فقال: إذا اخذت منك مفاتيح مكة فلمن اعطيها؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم وسار الى اليمن، فانهزم عبد النبي بين يديه الى زبيد، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد، وقتل خلقا كثيرا، وشق بطون الحوامل، وذبح الاطفال على صدور امهاتهم، وكان يرى رأي القرامطة، ويظهر انه داعية لصاحب مصر، ويتستر بالاسلام، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين وملك بعده ولده عبد النبي، ففعل باليمن أشد مما فعله أبوه وسبى نساءهم واستعبدهم، وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة وصفح حيطانها بالذهب الاحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها، وجعل فيها قناديل الذهب، وستور الحرير، ومنع أهل اليمن من زبيد الى حضرموت ان يحجوا الى الكعبة، وامرهم بالحج الى قبر أبيه، وكانوا يحملون اليه من الاموال كل سنة ما لايحد ولايوصف ويطوفون حوله مثلما يطاف بالكعبة، ومن لم يحمل مالا قتله، وكانوا يقصدونه من البحر فاجتمع فيه أموال عظيمة، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور وذبح الاطفال وسفك الدماء وسبى النساء الى ان دخل شمس الدولة الى اليمن، وجاء الى زبيد، فيقال انه حصر عبد النبي فيها وأمنه وقيده وقتله، ويقال انه انهزم بين يديه وجاء الى قبة ابيه فهدمها، وأخذ ماكان

فيهـا مـن المال والجواهـر والفضـــة، وكـان على ستمائة جمل ونبـش القبر وأحرق عظـام أبيه وذراهـا في الريح ومضـى الى صنعاء، فحلـف شمس الدولـة ان لاينتهي عنه حتـى يقتله ويحرقه كما فعـل بأبيه، وصـار خلفه فرجع الى زبيد، وعاد شمس الدولة اليهـا فظفر به وأخذ ماكان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه.

وفي تاريخ ابـن كثير: ولما وصل شمس الدولة الى زبيد خـرج اليه عبد النبي فقاتله فانهزم، وأسر شمس الـدولة، وأسر زوجته الحرة وكانت ذات أموال جزيلة، فـاستقرها على أشياء جزيلة وذخـائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثـم سار الى عـدن فقاتلـه صاحبها نـاشر فهزمـه توران شـاه وأخذ البلد بيسر ومنـع الجيش مـن نهبها وقـال: ماجئنـا لنخرب البـلاد، وانما جئنـا لعمارتهاوملكهـا، ثم سـار في النـاس سيرة حسنـة عـادلة فـأحبـوه، واستوثـق له ملك اليمـن وخطب فيهـا للخليفة العباسي المستضيء بـأمر الله، وقتل الداعي المسمى بعبد النبي.

ومنها ارسال صلاح الدين بالهدايا الى نور الدين رحمه الله.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسـول نور الدين، وهو الموفق ابـن القيسراني، واجتمع بـالملك النـاصر، وانهى اليه رسـالة نـور الديـن، وطالبـه بحساب جميـع ماحصل وارتفـع اليه مـن ارتفاع البـلاد، فصعب ذلك على السلطـان واراد شق العصا، لولا مـاثاب اليه من السكينـة، ثم امـر النـواب بعمل الحسـاب وعـرضـه على ابن القيسراني، واراه جـريـدة الاجناد بمبلـغ اقطاع وكميات جـامكيتهم ورواتب نفقـاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك ارسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفـت على برنـامج شرحهـا بخط الموفـق ابن القيسراني، وهـي خمس ختمات: احداهـا ختمة ثـلاثون جزءا مغشـاة بأطلـس أزرق مضببة

بصفائح ذهب وعليها اقفـال ذهب مكتوبة بذهب بخـط يانس، وختمه بخـط راشد مغشـاة بـديباج فسستقـي عشرة اجـزاء، وختمـه بخط ابـن البواب، في مجلـد واحد بقفـل ذهب، و ختمه بخـط مهلهل جـزء واحد، وختمه بخط الحاكـم البغدادي، وثلاثة احجار بلخش: حجـر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجـر وزنه اثنا عشر مثقـالا، وحجر وزنه عشرة مثـاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: قصبـة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقـالان وثلث، وقصبـة وزنها مثقالان ونصـف وقصبـة وزنها ثلاثـة عشر مثقالا وثلـث وربع وقصبة وزنها ثـلاثة مثـاقيل، وحجر وزنـه سبعة مثـاقيل، وحجـر أزرق وزنـه ست وخمسـون مثقـالا وسـدس ومائة عقـد حوهر مختـومة وزنها ثمانمائة وسبعون مثقالا،وقارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وقطعة جزع، وذكر تفصيلها ابـريق يشم، طشت يشـم، سقرق مـذهب، صحـون صيني وزبـادي وسكـارج وأربعون قطعـة عود طيـب: قطعتين كبار كرتـان وزن احداهما ثلاثون رطلا بـالمصري، والاخرى واحد وعشرون رطلا، ومـائة ثوب أطلس وأربعـة وعشرون بقيارا مذهبـة، وأربعة وعشرون ثوبـا حريري، وأربعـة وعشرون ثوبا من الـوشي حريريـة بيض. وحلة فلفلي مذهبة، وحلـة مرايش صفراء مذهبة. وذكـر غير ذلك انواعا من القماش قيمتها مـائتان وخمسة وعشرون الف دينار مصريـة، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه.

قـال: وخرجـوابهذه الهدية فلـم تصل الى نـور الديـن لانه اتصـل بهم وفاتـه، فمنها ماأعيد ومنهـا مااستهلك لان الفقيه عيسـى وابن القيسراني وضعا عليهـم من نهبهم واستبـدا بأكثـرها، وقيل انها وصلـت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردها.

قال: وحـدثني من شـاهد هذه الهدية انـه كان معها عشرة صنـاديق مال لايعلم مقداره.

ومنها أن صلاح الدين صلب في رمضان منها جماعة من أعيان المصريين، فإنهم قصدوا الوثوب عليه، واعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم، فمنهم: عبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الشافعي.

وفي تاريخ ابن كثير: اجتمع نجم الدين عمارة الشاعر اليمني الفقيه الشافعي مع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا حكاما، فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، وكتبوا الى الافرنج يستدعونهم اليهم، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين، ووزيرا وامراء في غيبة السلطان صلاح الدين ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئه، وحرض عمارة اليمني شمس الدولة تورانشاه على المصير الى اليمن ليخف الجيش ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج تورانشاه، ولم يخرج عمارة الى اليمن بل أقام بالقاهرة يفيض في هذا الحديث ويداخل المتكلمين فيه، وكان من أكابر الدعاة اليه المحرضين عليه، هذا وقد أدخلوا معهم في هذا الامر بعض من ينسب الى الملك الناصر، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهم، فخانهم احوج ماكانوا اليه وهو الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ، جاء الى السلطان الملك الناصر فأخبره بما تمالأ القوم عليه، وبما انتهى أمرهم اليه، فأطلق له السلطان اموالا جزيلة، وافاض عليه حللا جميلة، ثم استدعاهم السلطان واحدا واحدا فقررهم فأقروا له بذلك فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوه بقتلهم وتبدد شملهم، فعند ذلك امر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون اتباعهم وغلمانهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين الى اقاصي البلاد، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته في دار، فلا يصل اليهم اصلاح ولافساد، وأجرى عليهم من الارزاق كفايتهم، وقد كان عمارة معاديا للقاضي الفاضل، فلما احضر بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل فاجتمع بالسلطان ليشفع فيه، فتوهم انه يكلمه فيه، فقال: يامولانا السلطان لاتسمع منه، فغضب القاضي الفاضل ونهض

وخرج من القصر، فقال لـه السلطان: انه كان قد شفع فيـك، فندم ندما عظيما ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك:

عبـــد الـــرحيـــم قـــد احتجـــب
ان الخلاص هـــــو العجـــــب[١٦]

وفي تاريـخ الدولتين: وكان صلـب المذكوريـن يوم السبت ثـاني شهر رمضـان، وكان الـذيـن صلبوا منهـم: الفضـل بـن كامـل بـن الكامـل القـاضي، وابن عبـد القوي الـداعي، والعـويـرس، وكان قـد تولى ديـوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشهريـا كاتب السر، وعبد الصمد أحد امراء المصريين، ونجـاح الحمامـي، ورجـل منجـم نصراني أرمني قـال لهم: ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قال العماد في البرق: ووصل من صلاح الديـن يوم وفاه نور الدين إلى دمشـق كتـاب يتضمـن هـذه القضيـة، وهو بخـط ابـن قـريـش، يعنـي المرتضى.

وفي قضية عمارة يقول العلامة تـاج الدين الكند ي رحمه الله، قال أبو شامة: نقلته من خطه:

عمارة في الاســـلام أبـــدى خيـــانـــة
وبـــايـــع فيهـــا بيعـــة وصليبـــا
وأمســـى شريـــك الشرك في بغـــض أحمد
فـــأصبـــح في حـــب الصليـــب صليبـــا
وكـــان خبيـــث الملتقـــى إن عجمتـــه
تجد منـــه عـــودا في النفـــاق صليبـــا
سيلقـــى غـــدا مـــا كـــان يسعـــى لأجلـــه
ويسقـــى صـــديـــدا في لظـــى وصليبـــا

قلت: والصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع هودك العظام، وقيل هو الصديد أي يسقى مايسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وقال ابن أبي طي: وكان داعي الدعاة يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليعلم بها فامتنع من ذلك، فمات واندرست.

ذكر ماجريات نور الدين رحمه الله:

منها: أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح ابن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل الى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن قفجاق، صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من البلاد، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم من الفرات، فبذل له صاحبهاخمسين ألف دينار على سبيل الجزية ثم عاد إلى حلب، وأراد ان يسرع الى دمشق، فتوقف لمرض سريته، فتصدق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على أيدي الرجال، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه، ثم سار على طريق سلمية، فجاء الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرقوا، ودخل دمشق.

ومنها أنه في جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان، وكتب بذلك منشورا وعلامته بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن سنتنا العادلة، وسير آبائنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، واغاثة الملهوف. وانصاف المظلوم، واعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائرات الرسوم، ومانزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون في حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق مانعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بشيوع المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ماجرت، العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير، وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه طلبا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهربا من انتقامه وأليم عقابه، وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره، والاستغفار من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره، وابطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعدها على تعاقب الايام والسنين».

ومنها أن نور الدين تكلف في هذه السنة بافادة الألطاف والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة نسوة الأيامى في أيامها، واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذل وعون الضعفاء، وتقوية المقترين بعدله.

ذكر وفاة نور الدين: والكلام فيه على أنواع.

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الجليل الملك العادل، أبو الغنائم نور الدين محمود بن الملك الأتابك، قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي ابن الملك الأتابك أقسنقر، الملقب بقسيم الدولة، أيضاً المعروف بالحاجب، ابن عبد الله، وكان آقسنقر مملوك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كما ذكرنا، فنور الدين أيضا تركي سلجوقي ولاء.

ولد قبل طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة احدى

عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرها من البلدان الكثيرة، وتعلم الفروسية والرمي.

الثاني: في ألقابه.

السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط نور الدين، وعدته ركن الدين، وسيفه قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومقرها، ورضي الامامة وأمرها، فخر الملة ومفتخرها، شمس المعالي وفلكها، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاما ودعا له فيه، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لاعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر، ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا مايدخله كذب ولامزيد، فكتب نور الدين على رأسها بخطه: مقصودي أن لايكذب على المنبر، أنا بخلاف كل مايقال، أفرح بما لاأعمل.

الثالث: في صفته:

قال ابن خلكان: كان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

وقال ابـن كثير: كان حلو العينين، واسـع الجبين، تركي الشكـل، ليس له لحية الا في حنكه.

وفي المرآة: وكان معتـدل القامة، واسـع الجبهة بلحيته شعـرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة.

الرابع: في سيرته.

كان ملكـاً مهيباً متواضعـاً، عليه جلالة نـور الاسلام، وتعظيم قـواعد الشرع.

وقال ابن خلكان: وكان ملكاً عـادلاً، زاهداً ، عابداً، ورعاً ، مستمسكاً بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهدا في سبيل الله.

وفي تـاريـخ الـدولتين: ولقـد كـان مـن أوليـاء اللـه المؤمنين، وعبـاده الصـالحين، وجمع اللـه لـه مـن العقـل المتين والـرأي الثـاقـب الـرصين، والاقتداء بسيرة السلـف الماضيين، والتشبه بـالعلماء الصالحين والاصغـاء لسيرة مـن سلف منهـم في حسن سمتهـم، والاتبـاع لهم في حفظ مـالهم ودقتهم، حتى روى في حـديث المصطفى صلى الله عليـه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعـه وجمعه حرصا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحـديث، رجـاء أن يكون ممن حفـظ على الأمة أربعين حـديثا، كما جاء في الحديث.

فمن رآه شاهد مـن جلال السلطنة وهيبة الملك مايبهـره، فإذا فاوضه رأى من لطـافته وتـواضعه مـايحيره، يحب الصـالحين ويـواخيهم، ويـزور مساكنهـم لحسن ظنـه فيهم، وإذا احتلم ممـاليكه أعتقهـم وزوج ذكرانهم بانـاثهم ورزقهم، ومتى تكـررت الشكاية إليـه من واحد من ولاتـه أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكايته، فمـن لم يرجع منهم إلى العدل قابله

باسقاط المنزله والعزل، فلما جمع الله لـه من شريف الخصال يسر له جميع مايقصده مـن الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقـلاع، ومكن له في البلدان والبقاع.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكـان ملكاً عظيماً جليـلاً، عابداً سخيـاً كريماً صالحاً، معدوداً من الأبدال.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكما اشتهـر من قلة ابتهـاجه بالشعـر لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمـر بن عبد العزيز رضي الله عنه، زاهد الخلفاء.

قال يحيـى بن محمد الـوهراني، في مقامة لـه، وقد سئل في بغـداد عن نور الدين: هـو سهم للدولة سديد، وركن للخلافـة شديد. وأمين زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعـده الافلاك، وتعضـده الجيـوش والاملاك، غير أنـه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيـل، وبالمحل الجدب للشاعر الاديب، فما يرزى ولايعـزى، وما لشـاعر ﴿عنده مـن نعمة تجزى﴾ [الليـل ١٩] واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطـانـنـا زاهـد والنـاس قـد زهـدوا ... فكـل على الخيرات منكمـش

أيـامـه مثـل شهـر الصـوم طـاهـرة ... مـن المعـاصي وفيهـا الجوع والعطـش (١٧)

وقال صـاحب التـاريخ: ماكـان يبذل أمـوال المسلمين الا في الجهاد، ومايعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حـق عبد الله بن محيريز، وهو من سادات التابعين بـالشام، قال يعقوب بن الحافظ: حـدثنا ضمرة عن الشيباني قـال: كان ابـن الديلمي مـن أنصر الناس لأخوانـه، فذكـر ابن محيريز في مجلســه، فقال رجل: كـان رجلاً بخيـلاً، فغضب ابن الـديلمي وقال: كـان جوادا حيث يحب اللـه، بخيلا حيـث تحبون، وأما شعـر ابن

منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليله الميلاد يمدح نور الدين:

في كـل عـام للبريـة ليلـة
فيهـا يشـب النـار بـالايقـاد

لكـن لنـور الـديـن مـن دون الـورى
نـاران نـار قـرى ونـار جهـاد

أبـداً يصرفهـا نـداه وبـأسـه
فـالعـام أجمع ليلـة الميـلاد

ملـك لـه في كـل جيـد منـة
أبهى مـن الأطـواق في الأجيـاد

أعلى الملـوك يـدا وأمنعهـم حمى
وأنـداهـم كفـاً أبـذل تـلاد

يعطـي الجزيـل مـن النـوال تبرعـا
مـن غير مسـألـة ولاميعـاد

لازال في سعـد وملـك دائم
مـادامـت الـدنيـا بغير نفـاد(١٨)

ولقد أكثـر ابن منير وابـن القيسراني والعماد الكاتـب وغيرهم في مـدح نور الدين بـالكرم والجود وذلك كله يرد قول الـوهراني وابن منقذ، على أن ابن منقـذ قد رددنا شعره بشعـره كما تراه، وإنما الشعراء وأكثـر الناس كما قال الله في وصف قوم ﴿فإن أعطـوا منها رضوا وإن لم يعطوا﴾ في القرآن العظيم قوله: ﴿منها إذا هم يسخطون﴾ [التـوبة ٥٨] وما كل وقت يتفق العطاء، ويفعل الله مايشاء.

الخامس: في شجاعته.

كـان يقال: إنـه لم ير على ظهـر الفرس أحسن ولا أثبـت منه، وكـان حسن اللعب بالأكرة، وربما ضربها ثم يسـوق وراءها ويأخذها من الهواء بيده ثم يرميهـا إلى آخر الميدان، ولم ير جو كانـه يعلو على رأسه، ولايرى الجوكـان في يـده لان الكم سـاتـر لها، وكـان شجاعـا صبـورا في الحرب

يضرب بـه المثل في ذلـك، وكان يقـول: قـد تعرضـت للشهادة غير مـرة، فقال لـه مرة الفقيـه قطب الـدين النيسـابوري: بـالله يـامولانـا لاتخاطر بنفسك، فـإنك لـو قتلت قتـل جميع مـن معك وأخـذت البلاد، فقـال: اسكت ياقطب الـدين، من هو محمود، ومن كـان يحفظ البلاد قبلي ﴿الله الذي لاإله إلا هو﴾ [الحشر ٢٢] قال: فبكى من حضر.

وكـان إذا خضر الحرب شـد تركـاشين، وحمل قـوسين، وبـاشر الحرب بنفسـه، وشجاعتـه ظاهـرة في غزواتـه، وفتـوحاتـه على ماذكـر في السنين المتقدمة.

السادس: في ورعه وزهده.

وقال ابـن الأثير في تاريخه: قد طـالعت تـواريخ الملوك المتقـدمين من قبل الاسـلام إلى يومنا هذا فلـم أر فيها بعد الخلفـاء الراشدين وعمـر بن عبد العـزيز رضي الله عنهـم ملكا أحسن سيرة مـن نور الديـن، ولاأكثر تحريا للعدل والانصاف منه.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه اللـه: وكان لايأكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه الا من ملـك اشتراه من سهمه من غنـائم الكفار، وكان يحضر الفقهـاء ويستفتيهم فيما يحل لـه مـن تناول الأمـوال فـأفتـوه من جهـات عينوها فلـم يتعد الى غيرها، ولم يلبس حـريرا قط ولاذهبا ولافضـة، ومنع من بيع الخمـر في بلاده، وكان يحدّ شاربها، والناس عنـده سواء في ذلك، وكـان كثير الصيـام ولـه أوراد في الليـل والنهـار، وكـان يقـدم أشغـال المسلمين عليها، ثم يتم أوراده، وكان قد تـزوج الخاتون بنت معين الدين أنـر، فطلبت منـه زيادة نفقـة، وقال: وقـد فـرضت لها مـايكفيها، واللـه لاأخـوض جهنم بسببهـا، وهذه الأمـوال ليست لي وإنما هـي للمسلمين وأنا خـازنهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمـص ثلاث دكاكين اشتريتهـا من الغنائم قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.

وكان أول من بنى دار العدل بدمشق وسماها دار الكشف، وسببه أن الامراء لما قدموا دمشق اقتنوا الاملاك واستطالوا على الناس وخصوصاً أسد الدين شيركوه، وكثرت الشكاوى الى القاضي، فلم يقدر على الانصاف من أسد الدين، فشكوا إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه وديوانه وقال: إن نور الدين مابنى هذه الدا ر الا بسببي وحدي لينتقم مني، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب واحد منكم لاصلبنه، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى على جميع مافي يدي، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني نور الدين بعين الظالم ويسوي بيني وبين آحاد العوام، ففعلوا وأرضوا الخصوم، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي: ماأرى أحدا يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد فقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا، وكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل اسبوع أربعة ايام أو خمسة، ويحضر عنده العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويساءل الفقهاء عما أشكل عليه.

وكان إذا مات أحد من جنده، أو قتل وله ولد فإن كان كبيرا أقر الاقطاع عليه، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره الى ان يكبر، وما كان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيبته، فإذا دخل فيه فقير أو عالم أورب خرقة قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الاموال، فإذا قيل له في ذلك، يقول: هؤلاء لهم حق في بيت المال، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

وأسقط ماكان يؤخذ من دار البطيخ وسوق الخيل والغنم والكيالة وجميع المكوس، وعاقب على شرب الخمر، وكان كثير المطالعة في الكتب

الدينيـة متبعا الآثار النبويـة مواظباً على الصلوات الخمـس في الجماعات عاكفـاً على تلاوة القرآن، حريصـاً على فعل الخير، عفيف البطـن والفرج، مقتصدا في الانفـاق، متحريا في المطعـم والمشرب والملبس، لم تسمـع منه كلمة فحـش قط لا في رضاه ولا في غضبـه، هذا مـع ماجمع الله فيـه من العقل المتين والرأي الصائب الرصين، والاقتـداء بسنة السلف الصالحين، حتى روى حـديث المصطفى وأسمعـه، وكان قـد استجيز له ممـن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير ونشر السنة والتحـديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمـة أربعين حديثـا كما جاء في الحديـث، وكان يكتـب خطا حسنـا، وكان عـارفـا بمـذهب أبي حنيفـة رضي اللـه عنـه، وليس عنـده تعصب على أحد، والمذاهب كلها سواء.

وقال ابن الأثير: كان يـوما يلعب بالاكره في ميدان دمشـق، فجاء رجل فوقف بازائه وأشار إليه، فقال للحاجب: اسـأله ماحاجته؟ فسأله، فقال لي مـع نور الـدين حكـومة، فـرمى الصـولجان من يـده وجاء إلى مجلـس القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك: لاتنزعج واسلك معه مـاتسلكه مع آحاد الناس، فلما سوى بينه وبين خصمه وتحاكما، فلم يثبـت للرجل عليه حق، وكان يـدعي ملكاً في يد نور الدين، فقال نور الديـن للقاضي والعدول: هل ثبت له عليّ حق؟ قالوا: لا، قال: فـاشهدوا أني قد وهبت له هذا الملـك، وقد كنت أعرف أنه لاحـق له عنـدي، وإنما حضرت معه لئـلا يقال عنـي أني دعيت الى مجلس الشرع فأبيت.

قال: ودخل يوما إلى خزائنه فـرأى مالا كثيراً فقال: من أين هذا؟ قال خازنـه: بعث بـه القاضي كمال الـدين مـن فائض الاوقـاف، فقال: ردوه اليـه وقولـوا لـه: إن رقبتـي دقيقة لاتقـدر على حملـة غـدا، وأنت رقبتـك غليظـة تقدر على حملـه، وكان لـه برسـم نفقته الخاص في كـل شهر مـن

الجزية مـايبلغ ألفي قـرطاس يصرفها في كسـوته وملبوسـه ومأكولـه حتى أجرة خيـاطه وجـامكية طبـاخه، ويستفضـل منها مـايتصدق بـه في آخر الشهر، ويقـال ان قيمة القـراطيس مـائة وخمسون درهما، وقيـل كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار.

قال ابن الأثير: وما كـان يصل إليه من هدايا الملـوك وغيرهم يبعثه الى القاضي كمال الـدين يبيعه، ويعمـر به المسـاجد المهجورة ولايتنـاول منه شيئاً.

وقال ابن الجوزي: وكان يتـدين بطاعة الخلافة، والطرق آمنـة في أيامه، والمحامد كثيرة، وكان يميل إلى التواضـع ويحب العلماء وأهل الدين، وقد كاتبني مرارا، وقد صنف له كتابـا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومـواعظ، وغير ذلك، وصنـف نور الديـن أيضا كتابـا في الجهاد وهو بدمشق.

وقال السبط رحمه الله: كـانت له عجائز بدمشق وحلـب، وكان يخيط الكوافي ويعمل السكاكر للابـواب وتبيعها العجائز ولايدري أحد، فكان يوما يصوم ويفطر على اثمانها.

وحكى شرف الـدين يعقـوب ولد المبـارز المعتمد ان في دارهـم سكرة من عمل نور الدين، وهي باقية الى سنة خمس وستمائة يتبركون بها.

وفي المرآة: قال: حكـى لي رجل صالح مـن أهل حران، قـال: لما قتل أتابك زنكي على قلعة جعبر، وملك نـور الدين قلعة حلب تصدق وأزال المكوس، ورد المظالم، وأنـا حديث عهد بعـرس، وقد ركبني دين، فقـالت لي زوجتـي قد سمعـت أوصـاف نـور الديـن واحسـانـه الى الناس، فلـو قصدته وأنهيت إليـه ذلك لقضى دينك، قال: فخرجـت من حران وليس معي سوى درهمين، فتركـت عندها درهما وتزودت بدرهـم وأتيت الفرات

وقت القائلة فعبرت جسر منبج وأبعدت عن أعين الناس، وخلعت ثيابي ونزلت فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين وإذا إلى جانبي شخص ملفوف في عباءة، فقال لي: يافقير من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وإلى أين؟ قلت: إلى حلب، قال: وماتصنع فيها؟ فقلت: أنا فقير مديون، وقد بلغني احسان نور الدين إلى الخلق فقصدته لعله يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نور الدين، ومن يوصلك إليه، كم عليك دين؟ قلت: خمسون دينارا فأخرج يده من العباءة وبحث الرمل وأخرج منه قرطاساً وألقاه إلي، وقال: خذ هذا فاقض به دينك وارجع إلى أهلك، قال: فأخذته فعددته وإذا به خمسون ديناراً، فالتفت فلم أره، فبهت وبت في مكاني أتفكر هل أرجع إلى حران أم أمضي إلى حلب، وترجح عندي المضي إلى حلب، وقلت في نفسي: فهذه أوفي بها ديني فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح، وقعدت تحت القلعة، وإذ فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والامراء بين يديه حتى جاء الى الميدان، فلما أراد ان يدخل نظر الي فرمقني طويلا وأشار الى خادم بين يديه، فجاء الخادم إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي الى القلعة، قال: فندمت على مجيئي حلب، وقلت: ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح، ولعل نور الدين توهم أني اسماعيلي.

قال: فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين الى القلعة وجلس في الإيوان، ومد سماط عظيم، ولم يمد يده اليه، وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل فوضعه بين يديه، وفيه غضارة عليها رغيف فتأملها من بعيد وهي ثردة فتناول منها شيئا يسيرا وأكل الناس وأكلت معهم، وصرف الناس وبقيت قاعدا خائفا فأومأ إليّ، فقمت وأتيت الى بين يديه وانا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وما الذي أقدمك؟ قلت: علي دين وبلغني احسانك إلى الناس فقصدتك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلت:

خمسون ديناراً، قال: أما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات خمسين ديناراً، هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير فلا يطلب شيئاً آخر، ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادته وكانت زرقاء، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة.

قال: فبكيت بكاء كثيراً وقلت: لا آخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، قال: هو أمر لايلزمك، فقلت: يامولاي أنا غريب وضيف ولي حرمة، فبالله عليك أخبرني، فقال: احلف لي أنك لاتتحدث بهذا في حال حياتي فحلفت له، فكشف القباء وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال: أنا ذاك الفقير، فقلت: بالله الذي أعطاك هذه المنزلة بأي شيء وصلت إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الانبياء ١٠١]، قال: لما التقينا بالافرنج على حارم ونصرنا الله عليهم وعدت إلى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي، وقال: يامحمود أنت من الأبدال، وقد أعطاك الله الدنيا فاشتر بها الآخرة وسله مهما شئت، ثم علمني كلمات، وقال: إذا طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: فبالله من أنت؟ فقاتل: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمت على أمرٍ أو أردت أن أذهب إلى مكة أو المدينة أو إلى أي بلد شئت لبست العباءة، وتكلمت بتلك الكلمات وأغمض عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال السبط أيضاً: وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام، أحد عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله، قال: لما ملك الأشرف ابن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة وأفرده عن الدور، قال: وما صلى فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء إلى الآن، فقلت له: الله الله يامولانا مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات الخمس، فقال: من أين لك هذا؟ قلت: حدثني والدي ـ وكان من

أكابر عدول دمشـق، وكان أبوه يلقب بالسعيد ـ أنه لما نـزلت الفرنج على دمياط بعد وفـاة أسد الدين شيركـوه رحمه الله، وضايقوهـا وأشرفت على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايفطر الا على الماء، فضعف وكاد يتلـف ، وكان مهيبـاً لايتجاسر أحد أن يخاطبـه في ذلك، وكـان له إمـام يقال لـه يحيـى ضرير يصلي بـه في هذا المسجـد، وكـان يقرأ عليـه القرآن، وله عنـده حرمته، فاجتمع إليه خـواص نور الدين وخدمـه وقالوا له: قـد خفنا على السلطان ونحـن من هيبته مانقـابله، وأنت تـدل عليه، ونحن نسألـك أن تسأله أن يتناول شيئا ممـا يحفظ به قوتـه فقال: نعم إذا صليت به غـداة الفجر سألته، قال: فلما كان في تلـك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول اللـه صلى الله عليه وسلم يقول له: يـايحيى بشر نور الديـن محمود برحيل الفـرنج عن دميـاط، قال: فقلت: يارسـول الله ربما لايصدقني، وأريد له أمارة، قال: قل له: «بعلامة يوم حارم».

قال: فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم شرع يـدعو، ففاته أن يتحـدث معه، فقال لـه نور الدين: يـايحيى، قال: لبيك يامولانا، قال: تحدثني أو أحدثك؟ قال: فارتعد يحيى وخرس فقال له: أنا أحـدثك، رأيت النبي صلى الله عليه وسلـم في هذه الليلة، وقال لـك كذا وكذا، فقال: نعـم يامولانـا، فقال: يامـولانا مامعنى قـوله عليه السلام: «بعـلامة يوم حارم» فقـال له نور الديـن: لما التقى الصفان يـوم حارم خفـت على الاسـلام لأني رأيت مـن كثـرة الفرنـج مـاهالنـي، فـانفـردت عـن العسكـر ونـزلـت فمـرغـت وجهـي على التراب وقلـت: ياسيـدي من محمود في الـدين، الدين دينـك، والجند جندك، وهـذا اليوم هو، فافعل مايليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

السابع: فيما فعله من الخيرات ومابناه من بيوت العبادات وغيرها.

وكان نـور الديـن رحمه الله بنى المدائن وأوقـف الاوقاف، وبنـى سور

دمشق والمساجد والمدارس، ووقف أوقافا على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان في دمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحاج، وأمر باكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من أُحد من عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والخانات والقناطر، وجدد كثيراً من قني السبيل، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه، وأول من بنى دار العدل بدمشق، وقد ذكرناه، وبنى جامعا في الموصل، وفوض عمارته الى الشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، وإنما سمي الملاء لانه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الاجرة فيتقوت بها، وكان لايملك شيئا من الدنيا، وكان عالما بفنون العلوم، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل بمولد رسول الله عليه السلام في كل سنة، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ماشرع أحد في عمارتها الا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالا كثيرة، يقال ستون ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما تمّ جاء نور الدين إلى الموصل ــ وهي المرة الاخيرة ـ فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج، وقال: يامولانا أشتهي ان تنظر فيها، فقال له نور الدين: ياشيخ نحن عملنا هذا لله دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالأوراق في الدجلة.

وقال ابن الأثير: وبنى جامع حماة على العاصي وهو من أحسن الجوامع.

قال: ووقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ففدى نفسه بمال

عظيم، فشاور نور الدين أمرائه فأشاروا ببقائه في الاسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين، فعند وصوله الى مأمنه مات، وطلب الأمراء سهمهم من المال، فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لانكم نهيتم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسنيين: الفداء وموت اللعين، وخلاص المسلمين منه، فبنى بذلك المال مارستان دمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق، ووقف عليها الاوقاف.

قال ابن الأثير: وبلغني ان اوقاف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا، صحيح الشراء.

وقال السبط: أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه وتغيرت صفاته، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته

وقال ابن الأثير: وفي سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والاوقاف، وعمارة المساجد المهجورة، واسقاط كل ماكان فيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج وماتحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج:.

قال [العماد]: وأمرني بكتابة المناشير، فكتبت أكثر من ألف منشور وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور فكان ثلاثين الف دينار.

وقال العماد: بنى جامع قلعة دمشق ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرماحين، ومسجد سوق الصاغة ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، ومسجداً بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أخر.

وقال ابن الجوزي: وكان من عزمه أن يفتح البيت المقدس، فعمر

منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي قبل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب.

وحكي عن الشيخ أبي عمر شيخ المقادسة رحمه الله قال: كان نور الدين رحمه الله يزور والدي الشيخ أحمد رحمه الله في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن.

وقال ابن خلكان رحمه الله: وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل: دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج، والرحبة، وبنى جامع الرها، وجامع منبج، ودار الحديث بدمشق.

وقال النويري في تاريخه: وأحصيت أوقافه، وكانت في كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل: أما من إرث والده أو من سهمه في الغنيمة، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل: دمشق، وحمص وحماه، وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها، لما هدمت بالزلازل.

وقال ابن كثير: وبنى المارستان الذي بدمشق، وهو أحسن مابني من المارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها الا فيه، فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه مستوصفا، فلايمنع من شرابه،، ولهذا جاء نور الدين إليه وشرب من شرابه.

وقال ابن كثير: ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد النار فيه منذ بني الى زماننا هذا والله أعلم، وقد بنى الخانات في الطرقات والابراج والخفر في الاماكن المخوفة، وفيها الحمام الهوادي التي تطالع بالاخبار في أسرع مدة، وبنى الربط والخانقاهات.

وقال ابن الأثير: وهـو أول من بنى دار الحديث، ووقـف على من يعلم الايتـام الخط، وجعـل لهم نفقـة وكسوة، وعلى مـن يقـرأ آي القـرآن وعلى المجاورين بالحرمين، وكان الجامع بـدمشق دائراً، فولى نظره للقاضي كمال الديـن محمد بـن عبد اللـه الشهرزوري الموصلي الـذي قدم عليـه، فولاه قاضي القضاة بدمشـق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعـة، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترق في سنة احدى وستين وأربعمائة.

وأضاف إلى أوقـاف الجامع الاوقـاف التي لايعـرف واقفوهـا، ولاتعرف شروطهم فيهـا، وجعلها قلما واحـدا، وسمي مـال المصالـح ورتب عليـه ذوي الحاجـات والفقـراء والمسـاكين والارامل والايتـام ومـا أشبـه ذلـك، وأحاط السـور على حارة اليهود وكـان خرابـاً، وأغلق باب كيسـان، وفتح باب الفرج ولم يكن هناك قبله باب بالكلية.

وحكى الشيخ شهاب الدين أن نور الـدين وقف بستان الميدان سوى الغيط الـذي قبليه، نصفـه على تطييب جـامع دمشـق، والنصف الآخـر يقسـم على أحـد عشر جزءاً جـزآن على تطييـب المدرسـة التي أنشـأهـا للحنفيـة والتسعة الاجـزاء الباقيـة على تطييـب المساجـد التسعة، وهـي: جامع الصالحيـة بجبل قاسيون، وجامع القلعـة، ومسجد عطية، ومسجد ابن لبيد بالفسقار، ومسجد الرمـاحين المعلق، ومسجد العباسي بالصاغة، ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جـدده نور الدين بجوار بيعة اليهود، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءاً من النصف.

الثامن: في فتوحاته وبلاده.

قال النويـري: وكأن قد اتسع ملكه جدا، وخطـب له بالحرمين ومصر والشـام وحلب وديـار بكـر والجزيرة، وكـذلك بـاليمـن لما ملكها الملـك المعظم تورانشـاه بن أيوب بن شادي، وطبق ذكـره الارض بحسن سيرته

وعـدله وكـرمه وصـدقاتـه، وتصدق في شهـر واحد بثـلاثين ألف دينـار، وقسم في يوم واحـد مائتي ألف دينار خلاف الـدواب والسلاح والخيام، وكان يحضر أماثل البلد عنده ويعطيهم الـذهب ويقول: تصدقوا به على من تعرفونه في جواركم من الارامل والايتام.

وقال ابن الجوزي: ولي نـور الدين الشام سنين وجاهد بـالثغور، وانتزع من أيـدي الكفار نيفـا وخمسين مدينة وحصنـا، منها: الـرها، وكـان محبا للعلماء وأهـل الديـن، وكاتبنـي مـراراً، وعاهـد ملـك الافرنـج صاحـب طرابلـس، وقد كـان في قبضته أسيراً، على أن يطلقـه بثلاثمائة ألـف دينار وخمسين ومائة حصـان، وخمسمائة زدرية ومثلهـا أتراس أفـرنجية، ومثلهـا قنطاريـات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وأنـه لايغير على بلاد الاسـلام سبع سنين وسبعـة أشهر وسبعـة أيام، وأخـذ منه في قبضتـه على الوفـاء بذلـك مائة من اولاد كبراء الافـرنج وبطـارقتهم، فإن نكـث أراق دمهم، وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية في شوال من هذه السنة.

وذكـر الحافظ ابـن عساكـر رحمه الله فتـح نـور الديـن رحمه الله نيفـا وخمسين حصناً، منها: تل باشر وعينتاب، واعـزاز، ومرعش، وبهسنى، وتل خالد، وحارم، والمرزبـان، ورعبان، وكيسون، والرها، وكسرابرنـس انطاكية وقتله، وقتـل معه ثـلاثة آلاف ، وأخذ مـن القومـض ثلاثمائة الـف دينار وخمسمائة زرديـة، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير، واتسـع ملكه، ففتـح الموصـل والجزيـرة وديـار بكـر والشام، والعـواصـم، ودمشـق، وبعلبـك وبانيـاس، ومصر، واليمن، وخطـب له في الـدنيا، وأظهـر السنة بحلـب، وأزال الأذان بحي على خير العمل، وكان يتعـرض للشهادة، ويسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

التاسع: في وفاته:

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهر قصيدة منها:

عيدان فطر وطهر
وفتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه
حقاً هناء وأجر
وفيهما بالتهاني
رسم لنا مستمر
طهارة طاب فيها
أصل وفرع وذكر
نجل على الطهر نام
زكا له منك نجر
محمود الملك العا
دل الكريم الاغر
وبابنه الملك الصا
لح العيون تقر
مولى به اشتد للد
ين والشريعة ازر

وهي قصيدة طويلة آخرها:

هذا الطهور ظهور
على الزمان وأمر
وذا الختان ختام
بمسكه طاب نشر

قال: وفي يوم العيد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالاسعاد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان

الاخضر، ورمى القبـق، وكان قد ضرب خيمتـه في الميدان القبلي الاخضر، وأمر بوضـع المنبر، وخطب له القاضي شمـس الدين بن الفـراش، قاضي العسكر، بعد ان صلى به، وعاد الى القلعـة وأنهب سماطه العام، على رسم الاتراك وأكابر الاملاك.

قـال: ثم حضرنـا على خوانـه الخاص في يوم الاثنين ثـاني العيد، بكـر وركب ودخل الميـدان والعظماء يسايرونه وفيهـم همام الديـن مودود، وكان قديما في أول دولته والي حلـب، فقال لنور الدين في كـلامه عظة لمن يغتر بأيـامه: هل نكون هـاهنا في مثل هذا اليـوم في العام القابل؟! فقـال نور الـدين: قـل: نكـون بعد شهـر، فـإن السنـة بعيدة، فجـرى على منطقهما ماجـرى به القضـاء السابـق، فإن نـور الديـن لم يصل إلى الشهـر، وهمام الدين لم يصل الى العام.

ثم شرع نور الـدين في اللعب بالاكـرة، فاعترضه أمير يقال لـه يرنقش وقال له: بـاش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، وكـان ذلك على خلاف مذهبـه، ونهره وزجره، ثم ساق ودخـل القلعة واحتجب فبقي اسبـوعا في منزله، ثم اتصل به مرض، وأشار عليـه الاطباء بالفصد فامتنع من ذلك، وكان مهيبـاً فما روجع، وانتقـل يوم الاربعـاء حادي عشر شـوال من دار الفناء الى دار البقاء.

وقال ابن شـداد: وكانت وفاة نور الـدين بسبب خوانيـق اعترته عجز الاطباء عن علاجها.

وقـال ابن الاثير: وكـان نـور الـدين قـد شرع بتجهيـز المسير الى مصر لاخذها من صلاح الـدين، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنـج من ناحيته فـأرسل الى الموصـل وديـار الجزيرة وديـار بكر يطلـب العسـاكر ليتركهـا بالشـام لمنعه من الافـرنج، ليسير هو بعسـاكره الى مصر، وكان المانـع من

صلاح الـدين من الغزو الخوف مـن نور الديـن، فإنه كان يعتقـد ان نور الديـن متى زال عـن طريقـه الفرنـج أخذ البـلاد منه، فكـان يحتمي بهم عليه، وكـان نور الـدين لايـرى الا الجد في غزوهـم بجهده وطـاقته، فلما رأى اخلال صلاح الـدين بالغزو، علـم غرضه فتجهز للمسير إليـه فأتاه أمر الله الذي لايرد.

قال: وحكـى لي طبيب بدمشـق يعرف بالـرحبي، وهو أحـذق الاطباء قـال: استدعـاني نـور الديـن في مـرضـه الذي تـوفي فيـه مع غيري مـن الاطبـاء، فـدخلنـا عليـه وهو ببيـت صغير بقلعـة دمشـق، وقـد تمكنـت الخوانيـق منه، وقـارب الهلاك، فلا يكـاد يسمع صـوته، وكـان يخلو فيـه للتعبـد في أكثر أوقـاته، فـابتدأ بـه المرض، ينتقل عنـه، فلما دخلنا عليـه ورأينا مـابه قلـت: كان ينبغي أن لايـؤخر إحضـارنا عنـدك إلى أن يشتد المرض الى هذا الحد، فـالآن ينبغي ان تنتقل الى مكـان فسيح، فلـه اثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء، ومات عن قريب.

قال ابن عسـاكر: وتوفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شـوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل الى تـربة تجاور مدرسته التي بنـاها لاصحـاب ابي حنيفة رضي اللـه عنـه جوار الخواصين في الشـارع الغربي.

وقال العماد: قلت في ذلك:

عجبـت الى الموت كيـف اهتـدى ... الى ملـك في سجـايـا ملـك

وكيـف ثـوى الفلـك المستـديـر ... في الارض والارض وسـط الفلـك

وقال ابن كثير: حصلت له علـة الخوانيق ومنعته عن النطق، فمات في التاريخ المذكور، وصلي عليه بجامع القلعـة ودفن بها حتى حُول الى تربته

التي بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية وقبره بدمشق مشهور، يزار ويخلق شباكه فيستطيب رائحته كل مار، وإنما يقول الناس: نور الدين الشهيد، لما حصل له من الخوانيق، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد، ويلقب بالقسيم، وكانت الافرنج يقولون له ابن القسيم.

وقال ابن خلكان: ويقول أهل دمشق ان الدعاء عند قبره مستجاب، وقال القاضي: ولقد جربت ذلك فصح، وكان عمره حين مات ثمانيا وخمسين سنة، وله في الملك ثمان وعشرون سنة.

العاشر: فيما رثي به، وما قيل له من الاشعار:

قال العماد: ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة:

لفقد الملك العادل
يبكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفا
ق لاشمس ولاظل
ولما غاب نور الديـ
ـن عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير
وزاد الشر والمحل
ومات الباس والجود
وعاش الياس والبخل
وعز النقص لما هان
أهل الفضل والفضل
وما كان لنور الديـ
ـن لولا نجله مثل

وقال أيضاً:

يـــاملـــــك أيـــامـــــه لم تـــزل
لفضلـــــه فـــاضلـــة فـــاخـــره
ملكـــــــت دنيـــــاك وخلفتهـــــا
وسرت حتـــــى تملـــك الآخـــرة

وكان الواعظ أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد الواسطي من الصالحين الكبار أنشد لنور الدين بقوله:

مثـــل وقـــوفـــك أيها المغـــرور
يـــوم القيـــامـــة والسماء تمور
إن قيـــل نـــور الـــديـــن رحـــت مسلما
فـــاحـــذر بـــأن تبقـــى ومـــالـــك نـــور
نهينـــت عـــن شرب الخمـــور وأنـــت في
كـــاس المظـــالم طـــافـــح مخمـــور
عطلـــت كـــاس ســـالـــف المدام تعففـــا
وعليـــك كـــاســـات المظـــالم تـــدور
مـــاذا تقـــول إذا انقلبـــت الى البلى
فـــردا وجـــاءك منكـــر ونكير
وتعلقـــت فيـــك الخصـــوم وأنـــت في
يـــوم الحســـاب مسحـــب مجرور
وتفـــرقـــت عنـــك الجنـــود وأنـــت في
ضيـــق اللحـــود مـــوســـد مقبـــور
وددت أنـــك مـــا وليـــت ولايـــة
يـــومـــا ولا قـــال الانـــام أمير
وبقيـــت بعـــد العـــز رهـــن حفيرة
في عـــالم الموتـــى وأنـــت حقير
وحشرت عـــريـــانـــا حـــزينـــا بـــاكيـــا
قلقـــا ومـــالـــك في الانـــام مجير
أرضيـــت ان تحيـــى وقلبـــك دارس
عـــافي الخراب وجسمـــك المعمـــور

أرضيت ان يحظى سواك بقربه
ابدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها
يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمعها الملك نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر البلاد، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على نور الدين استعانته في الحروب بأموال المكوس، قال: وكيف تنصرون وفي عسكركم الطبول والخمور والزمور؟!

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد، وقال: هذا تفسير رؤياك، وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ويقول: إنما صرفت في قتال أعدائكم من الكفرة، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين، وكان يقول في سجوده: اللهم أنا العشار المكاس.

الحادي عشر: في تملك ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الاتابك زنكي بن آقسنقر.

ولما توفي نور الدين في التاريخ المذكور، ملك ولده المذكور دمشق وما معها بعد أن حلف له الامراء والمقدمون بدمشق، وكان عمره احدى عشرة سنة، وأطاعه أهل الشام، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر وضرب السكة باسمه، وأظهر له الطاعة، وتولى تربيته وتدبير دولته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، وقال له كمال

الـدين بـن الشهرزوري ولمن معـه مـن الامراء والمقـدمين: قد علمتـم أن صلاح الديـن صاحب مصر من أصحاب الشهيـد، والمصلحة ان نشاوره في الذي نفعلـه ولانخرجـه من بيننـا فيخرج عـن طاعتنـا، ويجعل ذلـك حجة علينا وهـو أقوى منا، لانه انفـرد اليوم بملك مصر، فلم يـوافق هذا القول أغراضهم، وخـافوا ان يدخل صلاح الدين فيخـرجهم، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنيه بالملك، وأرسـل دنانير مصر عليها اسمه، ويعـرفه أن الخطبة والطاعـة له كما كانت لأبيه.

ولما سار سيف الـدين غازي بن قطـب الدين، صاحـب الموصل، إلى الجزيرة وملـك البلاد الجزريـة على مانـذكره أرسـل صلاح الـدين يعتـب الملك الصـالح حيث لم يعرفـه قصد سيف الديـن ابن عمه بـلاده قبل أخذهـا ليحضر في خدمتـه ويكفه عنـه، وكتب إلى الشهـرزوري والأمراء يقول لهم: لو كان نـور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقـامي أو يثق إليه ثقته إلي لسلـم إليه مصر التي هـي أعظم ممالكـه وولاياته، ولـو لم يعجل إليه الموت لم يعهد إلى أحـد بتربيته لولده والقيام بخـدمته غيري، وأراكم قد تفردتـم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خـدمته وأجازي انعام والـده بخدمة يظهـر أثرها له، وأجـازي كلا منكم بسـوء صنيعه في تـرك الذب عـن بلاده، وتمسـك ابن المقـدم وجماعـة من الأمـراء بالملـك الصالح ولم يـرسلوه إلى حلب خوفـا أن يغلب عليهم شمس الـدين علي ابـن الدايـة، فإنـه كان أكبر الامـراء النـورية، وإنما منعـه من الاتصـال بخدمتـه مرض لحقـه، وكان هـو وأخوه بحلب وأمـرها إليهـم وعساكـرها معهم في حياة نور الدين وبعده.

ولما عجز عن الحركـة أرسل إلى الملك الصالح يدعـوه إلى حلب ليمنع به البـلاد الجزرية من سيف الـدين ابن عمـه، فلم يمكنه الامراء الـذين معه من الانتقال إلى حلب.

وفي المرآة: وكان الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكان أبيه، وحضر القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري وشمس الدين ابن المقدم، وجمال الدين ريحان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمير الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأن شمس الدين بن المقدم إليه تقدمة العساكر وتربية الملك الصالح، ووصل كتاب صلاح الدين، من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه:

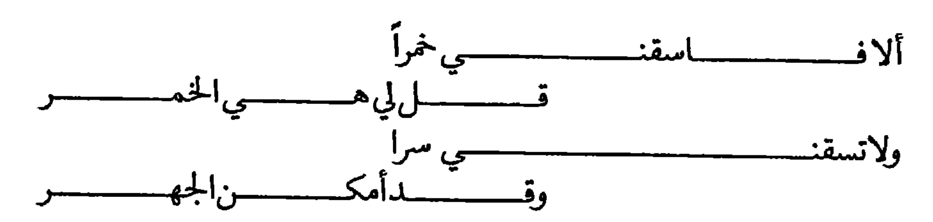
أدام الله أيام مولانا الملك الصالح، ورفع قدره، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره، أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وفيه أقيمت الخطابه بالاسم الكريم، وصرح بذكره في الموسم العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولاتأثيم، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه، ويديم النعمة عليه.

وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية:

وقال العماد: أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل، وهو مجذوذ الذوائب مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوفى كل قلب حزنه فاستوحش، وبعد ان تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته: «اسماعيل ابن محمود» وفيه: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل مذب الشام بل الاسلام، حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدم الجهاد ومقتني فضيلته ومؤدي فريضته، ومحيي سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعز ان يرى الزمان نظيره، وما هاهنا مايشغل السر ويقسم الفكر الا أمر الفرنج خذلهم

الله، وما كان اعتماد مولانا العادل وسكونه إليه الا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادخره لكفايات النوائب، وأعده لحسم ادواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله الا صورة، والمعنى باق، والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر».

وفي تاريخ ابن كثير: لما مات نور الدين، وتولى ابنه المذكور، اختلف الامراء، وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وانتشرت الفواحش، حتى ان ابن أخيه سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود صاحب الموصل لما تحقق موت عمه، وكان محصوراً منه نادى مناديه بالبلد بالمسامحة في اللعب واللهو والشرب والطرب، ومع المنادي دف وقدح ومزمار، وتحقق حينئذ قول الشاعر:



ألا فاسقني خمراً
وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سرا
وقد أمكن الجهر

وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الافرنج على قصد دمشق، فبرز إليهم الاتابك ابن المقدم فواقفهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالا جزيلة عجلها لهم، ولولا خوفهم من قدوم السلطان الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الديار المصرية لما هادنوه، ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب الى الامراء، وخاصة الى ابن المقدم يلومهم على ماصنعوا من المهادنة ودفع الاموال الى الافرنج وهم أقل وأذل ، وأنه عزم على قصد البلاد لحفظها من الافرنج، فردوا إليه كتابا فيه غلظة، وكلاما فيه بشاعة، فلم يلتفت

إليهـم، ومن شـدة خوفهـم منه كتبـوا إلى سيف الـدين غـازي صاحـب الموصل ليملكـوه عليهم ليـدفعوا بـه الملك النـاصر صلاح الـدين، فلـم يفعل لانه خاف أن تكون مكيدة منهم لـه، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي سعـد الدولـة كمشتكين الذي كان قـد جعله عنـده نور الـدين عيناً عليه، وحافظاً له من تعـاطي مالايليق عليه، فلما سمع الخادم بموت استـاذه خاف أن يمسكـه، فهـرب سراً، فحين تحقـق غازي مـوت عمـه بعث في طلب الخادم ففاته، فاستحوذ على حـواصله، ودخل سعد الدولة حلب، ثـم سار الى دمشق فـاتفق مع الأمـراء على أن يأخذ ابـن استاذه الملك الصـالح اسماعيل إلى حلب فيربيـه هنالك، وتكون دمشـق مسلمة إلى الاتابك شمـس الدين ابن المقدم والقلعة إلى الطـواشي جمال الدين ريحان، فسـار معـه الأمـراء والأكـابـر مـن دمشـق وذلـك في الثـالـث والعشرين من ذي الحجـة من هذه السنة، وحين وصلـوا إلى حلب جلس الصبي على سرير مملكتهـا، واحتاطوا على بني الداية شمـس الدين وعلى أخيه مجد الـدين الذي كـان رضيع نور الـدين وأخوتـه الثلاثة، وقـد كان شمس الديـن ابن الداية يظن أن يسلـم إليه ابن نور الديـن ليربيه، لانه أحق الناس بذلك، فخيبوا ظنـه وسجنوه وأخوه في الجب، فكتب صلاح الديـن إلى الامراء يلـومهم على مـافعلوا مـن نقل الـولد إلى حلـب، ومن سجن لبني الـداية، وقد كانـوا من خيار الامراء، ورؤوس الأمـراء الاكابر، ولم ماسلموا الولد إلى مجد الدين بن الـداية الذي كان أحظى الناس عند نور الدين.

فكتبوا إليـه يسيئون الادب عليـه، وكل ذلـك مما يـزيده حنقـاً عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشـه إليهم، ولكنه في هذا الوقت في شغـل شاغل بما دهم بـلاده من الأمر الهائل، كما سنذكـره إن شاء الله تعـالى في السنة الآتية، إنه على ذلك قدير.

-١١١٨٦-

ذكر الأمور المزعجة:

ومنهـا أن ملـك الـروم خـرج مـن القسطنطينيـة، وقصـد بـلاد قليـج أرسلان، فجرت فيهـا حرب استظهر فيها المسلمـون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كبيرة.

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ثـم عادوا عنها، وقد قلنا إن هذا كان بعد مـوت نور الدين، وأن شمـس الدين محمـد بن عبد الملك خـرج من دمشق، وراسل الافرنج وبذل لهم، فعادوا.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السبعين بعد الخمسمائة:

ذكر تملك صلاح الدين دمشق وأخذها من الملك الصالح بن نور الدين:

ولما مات نور الدين في التاريخ الذي ذكرناه، وتولى عوضه ولده اسماعيل، وطمعت الفرنج في بلاد الشام، واختلفت آراء أمراء الشام، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى الشام لأخذها وحفظها من الأفرنج، ولكن عرض عليه أمران: الأول مجيء الافرنج إلى بلاد مصر، والثاني مخالفة الكنز المقدم بأسوان، فلنذكر الامرين اولا، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق.

أما الأمر الأول، فقد قال ابن كثير: استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول الى الشام ليحفظه من أيدي الافرنج المخذولين، ولكن قد دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج قدموا الى ساحل البلاد المصرية في اسطول لم يسمع بمثله في كثرة مراكبه ومافيه آلات الحصار، وكثرة الرجال والمقاتلة من جملة ذلك مائتا شيني في كل منها مائة وخمسون مقاتلاً، وأربعمائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر اسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها فقاتلوهم دونها قتالا شديداً، واستمر القتال أياماً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق مانصبوه من المنجنيقات والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الافرنج وفت في أعضادهم، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم فقتلوا من أحبوا وأرادوا وغنمواماشاءواواختاروا، وانهزم الكفار في كل وجه ولم يكن لهم ملجأ إلا

البحر والقتل، أو الأسر، واستحوذ المسلمون على أموالهم وأثقالهم وخيولهم وما ضربوه من الخيام لنزولهم، وبالجملة قتلوا خلقاً من الرجال وغنموا شيئا كثيراً من الاموال، وركب من بقي منهم في الاسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة قصد الافرنج ثغر الاسكندرية وجاءوا في مائتي شيني وطريدة، وأمد الملك الناصر صلاح الدين أهل الثغر بالعسكر وتحرك ليتوجه إليهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب فعادوا خائبين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ الدولتين: أما وصول الاسطول إلى اسكندرية فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين، وأرسل صلاح الدين كتاباً الى بعض الامراء بالشام وفيه وصول أول الاسطول وقت الظهر، ولم يزل واصلا الى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر، لا على خفاء من الخبر، واستنزلوا خيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب، فكانت الخيل ألفين وخمسمائة فارس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل، وكانت عدة الطرائد مائتا شيني، في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الازواد للرجال أربعين مركبا، وفيها من الرجال المتفرقين وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية مايتم خمسين ألف راجل، ولما تكاملوا نازلين على البر حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة ماينا هز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرخ، وجدفت مراكب الافرنج داخلة

الى الميناء، وكـان به مراكـب مقاتلة، ومراكـب مسافرة فسبقهـم المسلمون فخسفوها وغرقـوها وغلبوهم على أخذها وأحرقـوا مااحترق منها، واتصل القتال إلى المسـاء فضربوا خيامهم بـالبر، وكانت عدتهم ثـلاثمائة خيمة، فلما أصبحوا زاحفـوا وضايقوا وحاصروا ونصبـوا ثلاث دبابات بكبـاشها، وثلاثة مجانيق كباراً تضرب بحجارة سـوداء اصحبوها معهم من صقلية، والـدبابـات تشبه الابـراج في جفاء أخشـابها وارتفـاعها وكثرة مقاتلتهـا واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السـور، وألحوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منـزلة العسـاكر بفاقـوس يوم الثلاثـاء ثالـث يوم نزول العدو على جنـاح الطائر، فاستنهض السلطان العساكـر إلى الثغرين اسكندريـة ودمياط، وأما اسكندريـة فإنهم فتحوا على غفلة وخـرج منها من كـان بها من الأمراء، فأحـرقوا الدبـابات المنصوبة، وأنـزل الله النصر على المسلمين والخذلان على الكفـار، واتصـل القتال الى العصر مـن يـوم الاربعاء، وانهزم الافرنـج، واستمر القتل والجرح فيهم، ولم يسلـم منهم الا مـن نزع لبســه، ورمـى في البحر نفسـه، وتقحـم المسلمون في البحـر على بعض المراكـب فخسفوهـا وأتلفوها، فـولت بقية المراكـب هاربـة، وبقي العدو بين قتل وغـرق وأسر، واحتمى ثلاثمائة فارس في رأس تـل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا، وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس».

وذكر ابن شداد أن نـزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكـانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة مابين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك.

وأما الأمر الثاني: فهو نوبة الكنز.

وقـال بيبرس في تـاريخه: وفي هـذه السنـة خـالـف الكنـز بـأسـوان، وهومقدم من المصريين كـان قد انتزح إلى أسوان، فأقام بها، ولم يـزل يدبر أمره، ويجمـع السودان عليه، ويخيـل لهم أنه يملـك البلاد ويعيد الـدولة المصرية ويقطع خطبة الناصر صلاح الديـن، ويخطب لداود بن العاضد،

فاجتمع إليـه جمع وافر من السودان، وقصد قـوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى الملـك الناصر، فجـرد عسكـراً إليه، وقـدم عليـه أخـاه الملك العـادل وتوجه صحبته أبو الهيجاء السمين، فسـار إلى الكنز وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والـرعية وعربان البـلاد، فالتقوا وقتلوا الكنـز، وأبادوا جموعه، واطمأن الصعيد، وعـاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهـرة، ولقب من ذلـك الحين بـالملك العـادل، والكنـز المذكـور مـن قبيلة ربيعـة، وكـان مسكنهم بجزيـرة العرب ومستقرهم منها باليمامـة، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتـوكل العباسي، فسكنـوا بيوت الشعر في صحـارى هذه الأعمال، وكـانت البجـاة تشـن الغارات في كـل وقـت، فمنعوهـم مـن ذلك، ثـم تزوجوا عندهم، وظفروا بمعدن الذهب بالعلاقي، فتمولوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ومما عوق الملك النـاصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بـالكنز، وسماه بعضهم عباس بـن شادي، وكان من مقـدمي الديـار المصرية، ومن الـدولة الفاطميـة، وكان قد انتـزح إلى أسوان وجمع عليـه خلقاً مـن الـرعـاع من الحاضرة والعـربـان، وزعـم لهم أنه سيعيـد الدولة، ويدحض الدولة التركية، ثم ذكر قريباً مما ذكرناه.

وقال ابن أبي طـي: خرج بقرية مـن قرى الصعيد يقال لها طـود رجل يعرف بعباس بن شادي، وثار في بـلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس، واتصـل ذلك بـالملك العادل سيـف الديـن أبي بكر بـن أيوب، وكان السلطان استنابـه بمصر، فجمع له العساكر، وأوقع بـه وبدد شمله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بـأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

وأما توجـه السلطان صلاح الديـن إلى الشام فقد كان في هـذه السنة، فخرج إلى البركـة في مستهل صفر، وأقام حتـى اجتمع العسكر، ثـم رحل إلى بلبيس في ثـالث عشر ربيـع الاول، وكان عنـده رسل شمـس الديـن

صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين ابن المقدم، ثم سار الى إيلة، ثم أناخ على بصرى فاستقبله صاحب بصرى، ولم يزل في خدمته الى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول، وسار في عسكره حتى دخل دمشق، ودخل إلى دار العقيقي، وكانت مسكن أبيه، وكان في قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم، فاستماله صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضاً، ونزل في القلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاء لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ ماله من المصالح، وجاء إليه أعيان البلاد منهم: القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فأكرمه السلطان وبالغ في اكرامه والامراء والاجناد والاتراك والاكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر، وفي بعض كتبه:

«وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول».

وفيه: «ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين، والأمير سعد الدين بن أنر يوم السبت السابع والعشرين منه، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء باطابة النفوس وإزالة المكوس».

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة خرج الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق، واستناب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية، وكان السبب في ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن ممدود صاحب الموصل، وإلى أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ليجتمعوا جميعاً على قصد صلاح الدين، وأخذ الديار المصرية منه.

فأما أخوه عماد الـدين زنكي فانه امتنع منه لأن صلاح الـدين كان قد كـاتبـه وأطمعـه في ملـك والده بحكـم أنـه الكبير، فحملـه الطمـع على الامتناع على أخيـه، فلما رأى أخوه امتناعـه سار إليه الى سنجـار وحاصره بها، وامتنع عماد الديـن، وجد في حفظ البلد والذب عنهـا، فدام الحصار عليـه فبينا هـو يحاصرها أتـاه الخبر بانهزام عسكـره الذي مـع أخيه عـز الديـن مسعود مـن صلاح الديـن، لأنه كـان عند مسيره إلى سنجـار قد رتبه مع عسكر بدمشق، وصحبتـه أمير كبير يسمى عز الدين محمود، فلما وصل صـلاح الدين إلى دمشق أخـذها وانهزم العسكر الذي بها، فـراسل الملك الصالـح أخاه عماد الدين وصالحه على مابيـده، ورحل إلى الموصل إلى سيف الـدين ابـن عمه ليستنجـده على صلاح الـدين، فسـار بنفسه، وسار صلاح الـدين من دمشق إلى حمص، واستخلف عليهـا أخاه سيف الاسلام طغتكين، وقاتـل أهل حمص يوما واحدا فملكهـا وامتنعت القلعة عليه، فسـار عنها إلى حماه وبها عـزالدين جـورديك، وهومـن مماليـك نور الديـن فامتنع من التسليـم، فسير إليه صلاح الديـن يذكر أنه في طـاعة الملك الصالح، وأنـه ماخرج الا لحفظ البلاد من الفـرنج، فاستحلفه على ذلك، وسلم إليـه البلد، فلما تسلمها سار منها إلى حلـب فحاصرها وبها الملك الصـالح بـن نور الـدين، واتفق وصـول سيف الـدين غـازي من الموصـل منجداً لـه، وتقدمـت عسـاكره لقتـال صـلاح الديـن، فبذل لـه صلاح الدين تسليم حمص وحماة، وأن يقر بيـده مدينة دمشق ويكون فيها نائباً من جهـة الملك الصالح، فلم يجبه إلى ذلك، وقـال: لابد من تسليم جميع مـاأخذه مـن بلاد الشـام وعوده الى مصر، أو القتـال، وكان صـلاح الدين في أثنـاء المراسلة يجمع عساكـره ويتأهب للقائه، فلما امتنـع سيف الدين من اجـابته لما بذل، سار بعسكره فالتقى هووعسكـر سيف الدين غـازي على قرون حماه، فهـزمهم وتبعهـم حتـى حازوا معسكـرهم، وغنـم منهم غنـائم كثيرة ودوابا وسـلاحا، وعـاد العسكر السيفـي منهز مـا إلى حلب فتبعهـم صلاح الـدين إليهـا، ونزل عليهـا محاصراً لها، فراسلـوه في

الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام، ولهم مابأيديهم من بلاد حلب معاً، فأجابهم وانتظم الصلح، ورحل عن حلب في شوال منها، وقطع خطبة الملك الصالح من بلاده وأزال اسمه عن السكة.

وفي تاريخ النويري: وفي هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب كمشتكين الطواشي يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها، فسار الصالح إليه، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهورئيس حلب، واستبد كمشتكين بتدبير الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه، فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ووصل إلى دمشق، واستقر فيها، ولم ينتطح فيها عنزان، ولااختلف سيفان، وذلك أن نائبها شمس الدين ابن المقدم كان قد كتب إليه أولاً فأغلظ ورمى الكتاب، فلما رأى أمره متوجهاً جعل يكاتبه ويستحثه على القدوم، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجد لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد، فنزل السلطان أولا في دار والده، وهي دار العقيقي، وهي التي بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس رحمه الله، ولما ثبت أمره بها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وأخذ ما في القلعة من الأموال، ثم سار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، ونزل عليها في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه، وإنما هو نائبه، وقصد جرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار جرديك إلى حلب للرسالة، واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب

قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم بذلك أخوه سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب، فنازلها على جبل جوشن وحصرها، فاجتمع أهل حلب، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب، ثم رحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، وذلك أن أهل حلب راسلوا القومص صاحب طرابلس، ووعدوا له بأموال جزيلة إن هو رحل عنهم السلطان صلاح الدين، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين ومعتقلاً مدة عشر سنين، ثم فاداه على مائة ألف دينار، وألف أسير من أسارى المسلمين، وكان لاينسى ذلك لنور الدين، فركب القومص لعنه الله من مدينة طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين، بل قصد حمص ليأخذها بغتة، وركب إليه السلطان، وقد أرسل سرية الى بلده، فقتلوا منها وأسروا وغنموا، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه، وكر راجعا الى بلده، وتراءى انه قد أجاب الى ماسألوا، فوصل صلاح الدين الى حماة، وسار الى حمص، فرحل الفرنج عنها، وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان المعظم، ثم سار إلى بعلبك فملكها، ولما استقر صلاح الدين في هذه البلاد أرسل الملك الصالح ابن نور الدين الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي، وجعل مقدم جيشه أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود، ولقبه سلفندار، ووصلوا إلى حلب، وانضم إليه عسكر حلب، وساروا الى صلاح الدين، وأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وأن تبقى بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح بن نور الدين، وانما فعل ذلك صلاح الدين لقلة الجيش الذي معه بالنسبة لجيش هؤلاء، فامتنع من المصالحة الخادم كمشتكين الا ان يجعل لهم الرحبة التي بيد ابن عمه

ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه، فقال: ليس لي ذلك ولا أقدر عليه، فأبوا الصلح وأقدموا على القتال، فجعل صلاح الدين جيشه كردوساً واحداً، وذلك يوم الاحد التاسع عشر من شهر رمضان عند قرون حماه، فصبر صبراً عظيماً، وجاءه في أثناء الحال ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ومعه أخوه فرخشاه في طائفة من الجيش، وقد ترجح دسته عليهم وخلص رعبه إليهم، فانهزموا مدبرين وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، فأسر منهم من أسر من رؤسائهم، ونادى ان لايتبع مدبر، ولايذفف على جريح، ثم أطلق من وقع في أسره، وسار على الفور حتى نازل حلب، فانعكس عليهم الحال، فبالامس كان يطلب منهم المصالحة، واليوم هم طلبوا منه أن يكف عنهم ويسير عنهم على أن له المعرة وكفر طاب وبارين زيادة على مابيده من أراضي حماة وحمص وبعلبك مع دمشق، فقبل منهم وكف عنهم وحلف أن لايغزو بعدها الملك الصالح، وأن يدعو له على سائر منابر بلاده وممالكه، وشفع في بني الداية أخوة مجد الدين أن يخرجوا من السجن، ففعلوا ذلك، ثم رجع مؤيدا منصوراً، فلما وصل الى حماه وصل إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه الخلع السنية والتشريفات العباسية، والاعلام السود وتوقيع من الديوانِ بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وأفيضت الخلع على أهله وأقاربه وأصحابه وأصهاره وأعوانه وانصاره، وكان يوما مشهوداً، واستناب على حماه ابن خاله وصهره ابن الامير شهاب الدين محمود، ثم سار الى حمص فاطلقها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، كما كانت لأبيه من قبل، ثم الى بعلبك، ثم الى البقاع، ثم الى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة.

وفي المرآة : لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق في مجيئه من مصر التقاه أهل دمشق بأسرهم، ونثروا عليه الدراهم والدنانير، وأحسن صلاح الدين إلى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري، ومشى إلى دار كمال الدين فانزعج وخرج إلى لقائه، ودخل صلاح الدين فجلس

وباسطه وقال: ياكمال الدين لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، وكـان كمال الدين يكرهه وكان كـل واحد منهما ينقض على الآخر أحكـامه، فقال لـه صلاح الدين: مـامشيت إليك إلا لأزيـل مافي خاطـرك من الوهم وأعـرفك أن مافي قلبي لـك ماتكره، فطب نفساً وقر عيناً، فالامر أمرك، والبلد بلدك.

وأكثـر الشعراء في أخـذ صلاح الـديـن دمشق، ثـم كتب إلى الملـك الصالـح كتاباً تـواضع فيه له، وخـاطبه بمولانـا ابن مولانـا، ويقول: إنما جئت من مصر خدمة لأؤدي مايجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حـولـك فتفسـد أحـوالك وتختـل أمـورك ومـاقصـدي إلا جمع كلمـة الاسلام على الافـرنج، فعـرض كتابـه على أرباب دولتـه وفيهم خـالد بـن محمد بـن القيسراني وغلمان أبيه وابن العجمي، فـأشاروا عليه بأن يكـاتبه بالغلظـة، فكتب إليه ينكـر عليه وينسبـه إلى كفر النعمة وجحـد احسان والده، ووعـده وتهدده، وبعث بالكتاب يتـال بن حسان صاحـب منبج، فأغلـظ لصلاح الـدين الجواب وقـال: السيوف التـي ملكتك مصر هـي التي تردك، وأشار إلى سيفه، فغضب صلاح الـدين وقال: والله لولا أنك رسول لضربت عنقـك، والله ماجئت إلى هـاهنا شرها ولاطمعاً في الـدنيا وفي مصر كفاية، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك، فأنتم سبب زوال دولته، ثم طـرده بغير جواب، فعاد إلى حلب، واستناب صلاح الـدين بدمشق أخـاه سيف الاسلام ظهير الديـن طغتكين، وسار إلى حمص فـأخـذهـا، وفتـح حماه، وسـار إلى حلـب فـاستعـانـوا عليـه بالاسماعيليـة وأعطوهـم مالاً وضيـاعاً، فأرسلـوا إليه جماعـة من فتـاكهم، ورآهم نـاصر الدين خمار تكين صـاحب أبي قبيـس، فعرفهم لانـه كان مثاغـراً لهم، وأنكر عليهـم مجيئهم، وسبق إلى خيمـة صلاح الـدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة، ثم أرادوا الهجـوم على صلاح الدين، وكان أمير جنـدار سيف الـديـن طغرل هنـاك، فجذب سيفـه وقتـل واحداً منهـم، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم، ورحل صـلاح الدين عن حلب في

أول رجب وجاء إلى حمص، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريحاني، ووصل عسكر الموصل إلى حلب وانضاف إليهم عسكر حلب، ونزلوا على تل السلطان، فساق عليهم صلاح الدين وبغتهم، وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا إلى حلب، وغنم أثقالهم، وأسر أبطالهم، وجاء فحصر حلب وهذه هي المرة الثانية من حصار حلب، والمرة الاولى من كسرة المواصلة، ورجع صلاح الدين فنزل بارين، وأخذها من ابن الزعفراني، وكان من أكابر أمراء نور الدين، ولقبه فخر الدين واسمه مسعود، واعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد السلطان الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين من الموصل، واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل ان ابن المقدم كتب إلى السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والاحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ماكان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرمات(١٩).

وقال صاحب الروضتين: وكان قد كتاب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهن أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة ونـدا

لاتستقـل الـذي صنعـت فقـد
قمـت بفـرض الجهـاد مجتهـدا
وجسـت أرض العـدا وأفنيـت مـن
أبطـالهم مـا يجاوز العـددا
ومـا رأينـا غـزا الفـرنـج مـن الـ
ـملوك في عقـر دارهـم أحـدا
فسر إلى الشـام فـالملائكـة
الابـرار يلقـاك جمعهـم مـددا
فهـو فقير إليـك يـا أمـل أن
يصلـح بـالعـدل منـه مـا فسـدا
واللـه يعطيـك فيـه عـاقبـة النصر
كما في كتـابـه وعـدا
فما حبـاك الـورى وألهمـك العـدل
وأعطـاك مـا ملكـت سـدى

ومدح وحيش الاسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها هو قوله:

قـد جـاءك النصر والتـوفيـق فـاصطحبـا
فكـن لأضعـاف هـذا النصر مـرتقبـا
للـه أنـت صـلاح الـديـن مـن أسـد
أدنـى فـريسـة الايـام إن وثبـا
رأيـت جلـق بعـز لا نظير لـه
فجئتهـا عـامـراً منهـا الـذي خـربـا
نـادتـك بـالـذل لما قـل نـاصرهـا
وأرفـع الخلـق مـن أوطـانها هـربـا
أحييهـا مثلما أحييـت مصر فقـد
أعـدت مـن عـدلها مـا كـان قـد ذهبـا
هـذا الـذي نصر الاسـلام فـاتضحـت
سبلـه وأهـان الكفـر والصلبـا

ويـــوم شـــاور والايمان قــــد هـــزمـــت
جيـــوشــــه كـــان فيــــه الجحفــل اللجبـــا
ويـــوم دميـــاط والاسكنـــدريــــة قــــد
أصــــارهـــم مثـــلاً في الارض قـــد ضربـــا
والشـــام لـــو لم يــدارك أهلـــه انـــدرســـت
آثـــــاره وعفـــت آيـــــاتـــــه حقبــــا

ولما نزل السلطان صلاح الدين على حلب أشير على ابن نور الدين أن يجمع أهل حلب في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة، وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: ياأهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجىء إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الاب وشابكم عندي بمنزل الاخ، وصغيركم عندي حل محل الولد، وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة وعلا نشيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أن يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على عادتهم القديمة، وأن يجهروا بحي على خير العمل، والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

وقال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحي على خير العمل، وصلى أبي في الشرقية مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا

في الأسواق، وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وصلوا على الاموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الامامية إليه وفعلوا جميع ماوقعت الايمان عليه.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم في هذه السنة العماد الكاتب، وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له: غدا تأتيك تراجم الاعاجم ومايحلها مثل العماد، فقال: مالي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا اسكتبت غيرك تحدث الناس، فقال الفاضل: هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك فإذا غبت قام مقامي فاستكتبه.

وقال العماد: وأول ماأهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان من هذه السنة بقصيدة منها قوله:

عاينت طود سكينة ورأيت شمـ
ـس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
ببيانه ذيل الفخار كوائل
أبصرت قساً في الفصاحة معجزاً
فعرفت أني في فكاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل
وجميع مافي الارض سبعة أبحر
وبحوره تسمى بعشر أنامل

في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق آجل

الأبيات:

ومنها أن أخا السلطان المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وصل من اليمن الى دمشق وأقام بها مدة، ثم حضر الى الديار المصرية.

ومنها أن في غيبة صلاح الدين بالشام اجتمعت بالقاهرة طائفة من جند الارمن والاسماعيلية وجند المصريين، وغلمان العادل أبي بكر، ونادوا بشعار أبي طاهر بن العاضد، فلما سمع العادل بذلك أوقع بهم وقتل منهم جماعة، واعتقل جماعة، ونفى آخرين، وكان الذي حملهم على ذلك الشريف ابن هانیء...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين مقيم بمرج الصفر، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة، فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم السلطان أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جدباً، فأذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوا خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد ومدحه العماد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يريشا
فنسأل رب العلى أن تعيشا
من الناس بالبر صدت الكرام
وبالباس في البر صدت الوحوشا

وكم سرت من مصر نحو العريش
فهدمت للمشركين العروشا
سراياك تبعث قدامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العداة
كما طيرت بالفلا الريح ريشا

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازي بن مودود صاحب الموصل

وأصل ذلك أن غازي هذا الذي هو ابن أخي نور الدين كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ماوقع بينهم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة، وأرسل رسولاً إلى صلاح الدين، ودفع له كتابين: أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهدا للمواصلة ويكشف ماعنده، والكتاب الثاني إلى الحلبيين يلومهم على الصلح ويخبرهم أنه واصل بعساكر الشرق، ولما دخل الرسول على صلاح الدين غلط ودفع كتاب الحلبيين إليه، وذلك لسعادة صلاح الدين، فتأمله صلاح الدين وعلم أن الرسول غلط، فلم يقل له شيئاً، وفهم الرسول، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك، وكتب صلاح الدين إلى مصر إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية إلى الشام بسرعة، وجمع غازي العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عاصياً عليه، مائلا لصلاح الدين، فصالحه، وكان أخوه عز الدين مسعود وعسكره انهزموا في العام الماضي، لما التقوا بصلاح الدين ــ كما ذكرناه ـ فصالح غازي فاجتمع معه عسكر كثير، عدته ستة آلاف فارس، وسار إلى نصيبين في ربيع الاول، وأقام بها حتى انقضى الشتاء، فضجر العسكر وفنيت نفقاتهم، فصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر، ثم سار الى حلب والتقاه الملك الصالح بن نور الدين، فاعتنقه

سيف الـدين غـازي، وبكى ونزل بظـاهر حلـب بعين المباركـة، وصعد القلعة جريدة، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته.

وفي تاريخ النويري: وكان غازي في عشريـن ألف مقاتل، ثم رحل إلى تل السلطان، ومعه هؤلاء العساكـر: عسكر الشرق، وديار بكر، والحلبيون، وبلغ صلاح الديـن وهو بدمشق، ولم يكن عنده سـوى ستة آلاف فارس، كذا في المرآة.

وفي تاريـخ النويري: وسـار صلاح الدين نحـوهم ومعه ألـف فارس، ولكـن الجيوش قـد خرجـت من الـديار المصريـة وفي جحافـل كالجبـال ووصـل الى حماة، ونزل بها، وتـرك أثقـالـه بها، وساق الى جبـاب التركمان، وجاءه رسول الحلبيين بأنهم يخوفونه بأسهم، ويـأمرونه بالرجوع إلى أن قال رسولهم: فـوافيته وهو في خيمـة صغيرة، وهو على بساط، وتحتـه سجادة، وبين يديـه مصحف وهو مستقبل القبلـة، وإلى جانبه زرديتـه وسيفه بين يديـه، وقوسـه وتركـاشه معلـق في عمود الخيمـة، قال: فلما رأيتـه وقع في خاطري أنـه المنصور، لأني فارقت سيـف الدين غازي والأمـراء وهم على طنافـس الحرير والخمور تـروق وليس في خيـامهم خيمة الا وفيهـا أنواع المحـرمات، فـأديت إليـه الـرسالـة، وجـاء وقت الظهـر فضج العسكـر لصوت الاذان، وفي كل خيمـة إمام، فقال لي: الحق بأصحـابك وقل لهم يستعدون للقائي فإني عند طلوع الشمـس نازل عليهم و﴿يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ [الاعراف ٨٧].

قال: ففارقته وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم، وسقت عامة الليل فوافيتهـم وقت الفجر وهـم سكارى، فطلبت سيـف الدين غـازي فقيل لي: هو نائم، قـال: فوالله ماانبسطـت الشمس الا واعلام صلاح الـدين قد أقبلـت والكوسات تخفـق وأصحابنا نيـام، فقاموا مسرعين، وكـان يوم الخميس العـاشر من شوال، وكـانت مـلاقاتهم على تل السلطـان، وكان

على ميمنة السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى ميسرته صاحب بصرى، وهو في القلب، وكان في ميمنة المواصلة مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وعلى ميسرتهم الحلبيون وسيف الدين غازي في القلب.

وفي المرآة: وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها، ونزل صلاح الدين من التل، ورأى أن يباشر الامر بنفسه، وإلا اختل الامر، فساق عليهم، واتفق وصول العساكر المصرية في تلك ا لساعة مع تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات وحسن الاطلاب، والعدد الوافرة، والخيل العربية، فانخذلوا وولوا منهزمين.

وفي تاريخ النويري: وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة، فكانت باذن الله الهزيمة، فقتلوا من الحلبيين والمواصلة خلقاً، وأخذت مضارب سيف الدين غازي وحواصله وأسر جماعة من رؤوسهم، فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الافرنج في حال القتال، وليس هذا من صنيع الصناديد.

وفي تاريخ بيبرس: وكان غازي قد سبق، ووصل صلاح الدين وقت العصر، وقد تعب هووأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم على الارض ليس فيهم حركة، وأشار على غازي جماعة من أصحابه بقتالهم في تلك الساعة، فتأخر إلى الغد، فلما التقوا من الغد انكسر عسكر سيف الدين ورجع إلى حلب، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد، وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب، وسار إلى الموصل وهويظن أنه لاينجو، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة الحميدية

فمنعـه من ذلـك، وثبـت قلبـه، وعزل عـز الـديـن عن إمـارة العسكـر، واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز.

وفي تـاريخ النـويري وغيره: ووجـد السلطـان صلاح الـدين في مخيـم غـازي شيئا مـن الاقفـاص التي فيهـا الطيور المطـربـة وذلك في مجلس شرابه، وكيـف ينصر من كان هـذا مسلكه، ومذهبه، فـأمر صلاح الـدين بردها عليه وقـال للرسول: قل له: اشتغالك بهذه الطيـور أحب إليك من الوقـوع فيما رأيت مـن المحذور، وغنـم السلطان مـن أموالهم شيئـا كثيرا، ففرقه على أصحابه وأنعم بخيمة الملـك سيف الدين غازي على ابن أخيه عز الـدين فرخشـاه بن شاهنشاه بـن نجم الديـن أيوب، ورد وطاقـه من الجواري والمغنيـات، وقد كـان معه أكثـر من مـائة مغنية، ورد الاقفـاص وآلات اللعب الى حلـب، وقال: قولوا لـه: هذه أحب إليـك من الحرب، ووجد عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والملاهي.

وفي المرآة: ولما انهزم غازي ومن معه ساق صـلاح الدين وراءهـم وأسر أمراءهـم، ونجا غـازي بنفسه، وعـاد صلاح الـدين إلى خيـامهم، فـوجد سرادق سيـف الـدين غـازي مفـروشـا بـالـرياحين والمغـاني جلـوس في انتظـاره، والخمور تـروق، ومطابخـه بقدورهـا، وفيه أقفـاص الطيور فيهـا أنـواع من القماري والبـلابـل والهزارات، ثم فـرق صـلاح الديـن الخزائن والخيل والخيـام على أصحابه، وأعطـى عز الـدين فرخشـاه سرادق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاءا حسناً.

ذكر ماجرى لصلاح الدين بعد انتصاره:

قال النـويري: لما رجـع الحلبيون الى حلـب وهم منهـزمون نـدموا على نقضهم الايمان، ومخالفتهم لطـاعة الرحمن، وشقهم العصـا على السلطان، وتحصنوا بالبلـد خوفاً من وثـوب الاسد ابن أخي الاسـد، وأسرع صاحب

الموصل فوصلها وماصدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ماغنم أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التي حول البلد، ثم نعود إليهم فلا يمتنع علينا أحد منهم، فشرع يفتح الحصون حصنا حصنا ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بزاعة ثم سار إلى أعزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخلت طائفة منهم في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هي باللامة فسلمه الله، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان ليذبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوا رأسه، ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل ثم هجم آخر على بعض الامراء فقتل أيضاً، وهرب الرابع فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد ففتحه وأقطعه ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب لما أرسلوا من الفداوية، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن، وضرب خيمته على رأس الياروقية وذلك في خامس عشر ذي الحجة من هذه السنة، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ومنع أن يدخل البلد شيء أو يخرج منها شيء واستمر حصاره، إياها حتى انسلخت هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس: لما انهزم غازي وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره، سير طائفة إلى بزاعة فحصروها وقاتلوا من بها وأخذوها، ورتب بها من يحفظها، وسار إلى منبج فملكها عنوة وأخذ صاحبها أسيراً، وكان بينه وبين صلاح الدين عداوة قديمة، وهوقطب الدين ينال ابن حسان المنبجي، ثم أطلقه فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين

غازي الرقة، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها وهي من أحصن القلاع، وقتل عليها كثير من العسكر، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها.

وفي المرآة: لما نزل صلاح الدين على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان، فقاتله واتفق وقوع ثلمة في السور، فطلب الامان لنفسه، فآمنه فخرج سليباً وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة ألف دينار، وعرض عليه المقام عنده فامتنع، وسار الى صاحب الموصل، كما ذكرناه، ثم سار السلطان ففتح حصن بزاعة، ثم نازل أعزاز فأقام عليها ثمانية وعشرين يوماً، وفتحه في ذي الحجة من هذه السنة.

وفي تاريخ الدولتين: وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي أفضاله
حلو الجنا على السنا وضاحه
عاد العدو بظلمه في ظلمة
في ليلة ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال وما درى
أن الذي يجني عليه سلاحه

وقال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء.

وقال العماد: نظمت قصيدة والابيات منها:

نصر أنار لملكهم برهانه
وعلا لذلة شانيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبو المظفر يوسف سلطانه
الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه

والـــدهـــر يـــأتي بغير مـــرادكـــم
فعلى القضـــاء لأجلكـــم جـــريـــانـــه

فكـــأنما اللــــه في أحكـــامــــه
فلـــك على ايثـــاركـــم دورانـــه

فخـــراً بنـــي أيـــوب إن فخـــاركـــم
بـــذ الملـــوك السـابقين رهـــانـــه

يكفـــي حســـودكـــم اعتقـــالا همه
فكـــأنما أشجـــانـــه أشجـــانـــه

الـــديـــن عـــز الـــديـــن عـــز بنصركـــم
والكفـــر ذل بعـــونكـــم أعـــوانـــه

قـــد كـــان جيشهـــم كبحـــر زاخـــر
والـــلابســـون جـــواشنـــا حيتـــانـــه

الأبيات:

وقال العماد أيضاً في فتح منبج قصيدة منها قوله:

نـــــزولـــــك في منبـــــج
على الظفـــــــر المبهـــــــج

ونجحـــــــــــك في المرتجي
وفتحـــــك للمـــــرتـــــج

دليـــل علـــى نجـــح مـــا
تحاول أو تـــــــــــرتجي

أمـــــورك فيما تـــــروم
واضحـــــــة المنهـــــــج

وشـــانيـــك دامـــي الشـــؤ
ون منـــك شقـــي شجـــي

وقال ابن أبي طي: لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه، وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله

ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ماناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفاته فرأى مكتوباً على الاكياس والآنية يوسف، فقيل له ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له، فقال السلطان: أنا يوسف، وقد أخذت ماخبىء لي، فتعجب من ذلك.

وقال العماد أيضاً قصيدة في فتح أعزاز منها:

أعطاه رب العالمين دولة
عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها

إلى أن قال:

تهن من فتح عزاز نصرة
أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها
كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قيمازها

ذكر بقية الحوادث:

منها: أنه في رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام وأمره أن يكون في وجه الفرنج، لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج على عادتهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر لحلب، وقد ضجر الناس من طول الحصار، فترددت الرسل بينهم، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح ابن نور الدين، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب فسألوه الصلح فصالحهم على أن تكون حلب وعملها للملك الصالح بن نور الدين فقط، وكتب بذلك الكتاب، فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عزاز، وأرسل بأخت له صغيرة وهي الخاتون بنت نور الدين ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله، فحين رآها صلاح الدين قام قائماً وقبل الارض وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئا كثيرا.

ذكر رحيل صلاح الدين عن حلب:

ولما تعاقدوا على ماذكرنا رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشربقين من المحرم، وقصد بلد الاسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصيات، فقتل وخرب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، الذي كان نائب دمشق جماعة من أسارى الافرنج الذين عاثوا بالبقاع في غيبة السلطان واشتغاله بحصار مصيات، فجدد

له العزم على غزو الافرنج، فصالح الاسماعيلية أصحاب سنان ثم كر راجعاً إلى دمشق.

وفي تاريخ الدولتين: وكان الأسرى أكثر من مائتي أسير، وقال ابن أبي طي: وكان أكبر الدواعي في مصالحة صلاح الدين لسنان مقدم الاسماعيلية وخروجه من بلادهم خوفه من الفرنج أن يهيجوا في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

وقال العماد: وكان خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الافرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر السلار، ووصل السلطان إلى حماه واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الاخوان في المخيم بالميدان...... قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة، وعزم إلى مصر السفر... وفي هذا الشهر تزوج صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر، وكانت زوجة الملك نور الدين الشهيد رحمه الله، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرمة، وولي تزويجها منه أخوها الامير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومعه جماعة من العدول، وبات السلطان عندها تلك الليلة والليلة التي بعدها ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها.

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر:

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول، ونزل بمرج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين.

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة:

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين إلى عند بحر القلزم ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولاسيما من المآكل المتنوعة.

ذكر ماصدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة:

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب في القصر كل اسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وكانت كتب كثيرة جداً، قالوا إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار مايشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، وكانت خزائن مملوءة بها في القصر، وكان الحاكم على القصر ومتولي أموره الأمير بهاء الدين قراقوش، ولما حضرت الناس للشراء، كان الدلالون يخرجون عشرة من كل فن، كتباً مميزة وتباع بالهون، وتسام بالدون، وربما كان دلال يشارك مع واحد فتقوم عنده بعشرة ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة.

قال العماد: ولما رأيت الامر حضرت واشتريت كما اشتروا، واستكثرت من ذلك، ولما عرف السلطان بذلك، وكان بمئين، أنعم بها عليّ، وأبرأ ذمتي من ثمنها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ماعينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها، وقال: كنت طلبت كتباً عينتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت كلها وما استغني عنها فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقل نوال.

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة، ودور السور تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراع بالهاشمي.

وفي تاريخ الدولتين: ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لايمنعها، وقال: إن أفردت كل واحدة بسور أحتاج إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم.

وقال العماد: ومبلغ السور وهو دائر بالبلدين: مصر والقاهرة، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك مابين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل وقطع الخندق وحفر واديه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها، ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع، والعمارة مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

ومن ذلك أن السلطان رحمه الله أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها، وتولاه الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وأمر أيضاً باتخاذ دار في القصر بيمارستاناً للمرضى ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفاً كثيرة.

ذكر خروج صلاح الدين إلى الاسكندرية:

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب معه ولديه الافضل عليا والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط فأقام بظاهرها يومين، ثم وصل إلى ثغر الاسكندرية.

قال العماد: وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد السلفي، وسمعنا عليه ثلاثة أيام :الخميس والجمعة والسبت رابع عشر شهر رمضان. قال: وشاهدنا مااستجده السلطان من السور الدائر وماانصرفنا حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

وقال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها، رأى ان لايخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد اخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الاسطول وجمع له الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد مايحتاج الاسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له اقطاعاً مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب الى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الاسطول وأن لايمنع من أخذ رجاله ومايحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لايبارح البحر، ويُغزى إلى جزائر البحر.

ذكر مجيء الرسل إلى صلاح الدين:

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل، ورسول صاحب حصن كيفا، ورسول صاحب ماردين، فأولا جاءوا الى دمشق فاستوثقوا

بتحليف أخـي السلطان صـلاح الديـن وهوشمـس الدولـة تورانشـاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب الحصن في الأسر.

وقال ابن أبي طـي: وصل رسول صاحب الموصل القـاضي عماد الدين ابن كمال الديـن الشهر زوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقـائه وأكرمه السلطـان واحترمه وقـدم بعده رسـول نور الـدين قـرا أرسلان، ورسـول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعـوا في دمشق وخرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهـم الفرنج، وأسر رسول صـاحب الحصن ولم يـزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه وأحسن إليه.

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس من أعمال مصر:

قـال العماد: ثـم خـرج السلطـان إلى مـرج فـاقـوس مـن أعمال مصر الشرقية لارهـاب العدو، وهو يركـب للصيد والقنص، ويتطلـع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص.

وقال في الخريـدة : كنا مخيمين على مـرج فاقـوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلـت أساطيل ثغري دمياط والاسكندريـة تسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل في قيـد الاسار، وسنذكر خروجه في الغزاة في السنة الآتية إن شاء الله.

وفي هذه السنة أبطـل صلاح الدين الـذي كان يؤخذ مـن الحج بجده مما يحمـل في البحر، وعوض صـاحب مكـة عنها في كل سنـة ثمانية آلاف اردب قمحا تحمل إليه في البحر ويحمل مثلها فتفرق في أهل الحرمين.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن صاحب المرآة ذكـر أن في هذه السنة كانت نوبـة الكنز مقدم

السودان بـالصعيد، جمع كـل أسود بـالصعيد، وسـار إلى القاهـرة في مائة ألف ليعيـد الدولة المصريـة، فخرج إليه الملك العـادل سيف الديـن أبو بكر، وأبو الهيجاء الهكـاري، وعز الدين موسك، والتقـوا فقتل الكنز ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ماذكـره في المرآة أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبـك، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعـروف بابن المقدم بها، فخرج وكمن لهم في الشعاري والغياض وأوقع بهم وقتل وأسر نحو مائتي رجل.

ومنهـا أن الروم قصـدت بـلاد قليج أرسـلان بـن مسعود في جمع مـن الحشود فالتقـاهم وكسرهم وقتل منهم جماعـة وأسر أسرى كثيرين، وبعث بـرؤوس القتلى وببعـض الأسرى إلى الامـام المستضيء بـأمـر اللـه أمير المؤمنين.

ومنها أنـه عصى شهاب الـدين محمد بـن نزار صاحـب شهرزور على سيف الـدين غازي، وكان في طـاعته وتحت حكمه وكان سبـب ذلك أن مجاهد الـدين قـايماز كان متـولي مدينـة إربل، وكـان بينه وبين ابـن نزار عداوة فأرسل إليه وزير سيف الدين كتابـا حسناً يأمره بالعود إلى الطاعة، والرجوع عن المخالفة والمعصيـة، فلما وصل الكتاب إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل فأوجب ماجرى من ابن نزار.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضـاة الشهرزوري: أبـو الفضل محمد بـن أبي محمد عبـد الله ابـن أبي أحمد الشهرزوري، الملقـب كمال الديـن الفقيه الشـافعي، قـاضي القضاة بـدمشق، وكان فـاضلا ديناً أمينا ثقـة ورعاً، ولي القضاء بـدمشق لنور الـدين محمـود بن زنكـي، واستوزره أيضـاً فيما حكاه ابـن الساعـي، قال: وكـان يبعثه في الرسائل، كتـب مرة على أعلى القصة: محمد بـن عبد

الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك: صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب، وعمر له المارستان والمدارس وغير ذلك من الأمور.

وقال ابن خلكان: وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل، وتوفي يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وقال: ولما ملك صلاح الدين الشام أقره على ماكان عليه في أيام نور الدين، وكان شهماً جسوراً كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وبنى بالموصل مدرسة للشافعية ورباطاً بمدينة الرسول عليه السلام، وتولى القضاء بالموصل أيضاً وله نظم جيد، فمن ذلك قوله:

ولقد أتيتك والنجوم رواصد
والفجر وهم في ضمير المشرق

وركبت من أهوال كل عظيمة
شوقاً إليك لعلنا أن نلتقي

وفي المرآة: قدم بغداد وتفقه على أسعد الميهني بالنظامية، وسمع الحديث ببغداد والموصل، وكان رئيس أهل بيته، وولي القضاء بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين وكان إليه أمر المدارس والمساجد والاوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنكية دمشق إليه، ولى فيها بعض غلمانه، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين، وكانت بينهما مضاغنة، وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها، فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين، وطيب قلبه، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أول من سكن جبل قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها، فاشترى كمال

الـديـن قـريـة الهامـة بـوادي بـردى، ووقـف نصفهـا على الشيـخ أحمد والمقادسـة والنصف الآخـر على الاسارى، وهي بـاقية إلى هلـم جرا، ولما مرض كمال الديـن وهو بدمشق بلغ ابن أبي عصرون، وهـو بحلب، فقدم دمشق ودخل على القـاضي كما الدين وعانقه وبكيا، فلما تـوفي كمال الدين تـولى ابن أبي عصرون أمـره، وخـرج في جنازتـه ماشيـاً هـو وجميع الملـوك مشاه: سيـف الاسلام، وتقي الديـن عمر، وشمس الدولـة وغيرهم وصلى عليه بجامع دمشـق وحمل إلى قاسيون فدفن بسفحه قـريبا من الجادة عند مسجد البصار، ولم يكـن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنـده ابن أخيه ضياء الديـن أبو الفضائل، وكان كمال الـدين قد تصدق بجميـع ماكان عنده، وأوصى بمالـه ووقف أوقافا كثيرة على أبواب البر، وقيـل إنه لم يكن له كفن فكفن في احرامه، وأوصى بالقضـاء إلى ابن أخيه ضياء الدين مع وجود ولده، وكان لكمال الدين ولد اسمـه محمد بن عبد الله، ولقبه محيي الـدين، وكـان أبـوه ضياء الـدين قـاضيـا على حلب، وهـو تـاج الديـن الشهرزوري.

وفي تاريخ الدولتين: ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلـت هـذه السنـة والخليفـة هو المستضيء بـأمـر اللـه العبـاسي، والسلطان صلاح الديـن مخيم بمرج فاقوس ثم عـاد إلى القاهرة وأقام بها، ثـم قصد أنه يسير الى غزة وعسقلان.

ذكر غز وصلاح الدين عسقلان والرملة:

وفي جمادى الأولى سار السلطـان صلاح الـدين مـن مصر إلى ساحـل الشام لغزو الافرنـج، فوصل الى عسقلان والرملة في الـرابع والعشرين من الشهـر فنهـب، وتفـرق عسكـره في الاغـارة، وبقـي السلطـان في بعـض

العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليهم، فقاتلهم، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد حسن الصورة لما بدت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الافرنج، فحمل عليهم وقاتلهم وأثر فيهم أثراً كبيراً، فعاد سالماً، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج للسلطان، فمضى منهزما الى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للاغارة أسرى، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الاخر كما ذكرنا، فحزن على المقتول والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب وناح كما ناح داود، وكذلك أسر الفقيهان الاخوان: ضياء الدين عيسى وظهير الدين، وكانا من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين فافتداها السلطان بعد سنتين بسبعين ألف دينار، ووصل السلطان الى القاهرة في نصف جمادى الآخرة.

وفي المرآة: خرج صلاح الدين في جمادى الاخرة من مصر بالعساكر، ونزل على عسقلان، ثم نزل يريدتل الصافية، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج، فثبت تقي الدين عمر وقاتل ثم غلب، وقتل من المسلمين خلق كثير وانهزمت عساكر الاسلام، وأسر كثير منهم الفقيه عيسى وغيره، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد، وسار صلاح الدين في الليل إلى مصر من غير دليل ولاماء ولازاد، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة وكاد يتلف جوعاً وعطشاً، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله، وكان مقدم الفرنج أرناط، وكان من أكبر ملوك الافرنج، وماأتلف عسكر المسلمين الا انهم كانوا تفرقوا في الغارات، وكانوا زيادة على عشرين ألفاً، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين، ولم يكن لهم

حصن يأوون إليـه، فدخلوا الرمـل وتبعهم الفرنج قتـلا وأسرا، ومن سلم منهم مات جـوعاً وعطشاً، وكان يومـاً عظيماً على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين، ورجع أرناط بجمعه إلى حماه كما نذكره ان شاء الله الآن.

وقال ابن الأثير: كتب صـلاح الدين بخط يده إلى أخيه تـورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله:

ذكـــرتـــك والخطـــي يخطـــر بيننـــا
وقـــد نهلـــت منـــا المثقفـــة السمـــر

ويقول فيه: لقـد أشرفنا على الهلاك غير مرة ومانجانا الا اللـه سبحانه وتعالى منه، إلا لأمر يريد سبحانه[١٩]

ذكر حصر الفرنج حماه: وذلك أنـه وصـل من الفـرنج كنـد كبير في البحر، فرأى صلاح الـدين وقد عاد منهزماً إلى مصر فـاغتنم خلو البلاد، وليس بها إلا شمـس الديـن تورانشـاه بن أيـوب نائبـا عن أخيـه، وليس عنده كثير من العسكر، فجمـع الكند من بالشام من الفـرنج، وفرق فيهم الأمـوال، وسـار الى مـدينـة حماة وبها شهاب الـديـن محمـود بـن تكـش الحارمي خال صـلاح الدين، وهو يومئـذ مصاب بمرض شديـد، وكانت طائفة من العسكر الصلاحي بالقـرب منها، فدخلوا إليها وأغاثوا من بها، وقاتلوا الفرنـج قتالا شديداً، ودخل الفرنج البلد، فـاجتمع العسكر وأهل البلد وقـاتلوهم حتى أزاحـوهم منها وأخرجـوهم إلى ظاهرهـا، فساروا الى حارم، واتفقـت وفاة شهـاب الديـن الحارمي على مـانذكـره إن شاء اللـه تعالى.

قال العماد: ومن شرط هـدنة الفرنج أنـه متى جاء ملك مـن ملوكهم كبير لايمكنهـم دفعه، فـإنهم يقـاتلون معـه ويـؤازرونـه وينصرونه، فـإذا انصرف عنهم عـادت الهدنة كما كانت، فقصـد هذا الملك وجملة الفـرنج معه مدينة حماة وصاحبها شهاب الديـن مريض، ونائب دمشق ومن معه

من الامـراء مشغولون بلـذاتهم فكادوا يأخذون البلـد، ولكن هزمهـم الله تعالى بعد أربعـة أيام، فانصرفوا إلى حصـن حارم فلم يتمكنوا مـن أخذه وكشفهم عنه الملك الصالح صاحـب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ماطلبه الكفرة النصارى.

وقال العماد أيضـاً: ووصل في هذه السنة إلى السـاحل من البحـر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طـواغيت الكفر، قلت: هذا هو الـذي ذكرناه الآن، الذي جرى منه ماجرى.

ذكر توجه صلاح الدين الى الشام:

لما سمع السلطـان بنزول الفـرنج على حـارم برز مـن الديـار المصرية قـاصـداً إلى بلاد الشـام لغـزو الفـرنـج، ونـزل في البركة حتـى خـرجـت العساكر، ورحـل من البركة يوم عيـد الفطر بعساكره، ووصـل إلى أيلة في عـاشر الشهـر، واستنـاب أخـاه بمصر الملـك العـادل، وأقـام بها أيضـاً القـاضي الفاضـل بنيـة الحج، وسافـر العماد معـه، ووصل السلطـان إلى دمشق في الـرابع والعشرين مـن شوال وبها أخـوه شمس الدولـة مشغولا بلذاتـه ولهوه، وكان قد بعـث إلى الفرنـج بمال مصانعة، فعـز على صلاح الديـن ولامه وقبـح فعله، وقـال: أنت مشغـول باللعـب وتضييع أمـوال المسلمين، وأقام صلاح الدين بدمشق.

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كمشتكين مدبر دولته:

قـال العماد: وقعت المنافسـة بين الحلبيين مدبـري الملـك الصالـح، واستولى على أمـره العدل ابـن العجمي أبـو صالـح، وكان سعـد الديـن كمشتكين الخادم مقـدم العسكـر وأمير المعشر، وهـو صـاحـب حصـن حـارم، وقد حسـده أمثالـه مـن الأمراء والخدام فسلمـوا لابن العجمـي

الاستبـداد بتدبير الـدولة، فقفـز الاسماعيليـة يوم الجمعـة بعد الصـلاة في جامع حلب فقتلـوه، واستقل كمشتكين بالأمر فتكلم فيه حسـاده، وقالوا للملك الصالـح: ماقتل وزيرك ومشيرك ابـن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسـن ذلك للاسماعيليـة، وقالوا لـه: أنت السلطان وكيـف يكون لغيرك حكـم أو أمر، فما زالـوا عليه حتـى قبـض عليه، وطـالبوه بتسليـم قلعـة حارم، فكتـب إلى نوابـه بها وأبـوا، فحملوه ووقفـوا به تحت القلعـة وخوفوه بالصرعة، فلما طال أمره قصر عمره.

ونزل عليه الأفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولى بها مملوكاً يقال له سرخك.

وقـال ابـن الأثير: سـار الملـك الصالـح مـن حلـب إلى حـارم ومعـه كمشتكين، فعاقبـه ليأمر من بها بـالتسليم، فلم يجب إلى ما طلـب منه، فعلقوه منكوسـاً ودخن تحت أنفه، فمات، وعاد الملك الصالـح عن حارم ولم يملكها، ثم إنه أخذها بعد ذلك.

قـال ابن شـداد: أمـا الملـك الصالـح فـإنـه تخبط أمـره، وقبـض على كمشتكين صـاحب دولتـه، وطلـب منه تسليـم حـارم إليـه، فلم يفعـل، فقتلـه، ولما سمع الفـرنـج بقتله نـزلوا على حارم طمعـاً فيها، وذلـك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصـالح العساكر الأفرنجية، ولما رأى أهل القلعـة حصرها مـن جانب الفـرنج سلموهـا إلى الملك الصـالح في العشر الأخير مـن رمضـان، ولما عـرف الفـرنج ذلـك رحلـوا عـن حـارم طـالبين بـلادهم، ثـم عـاد الصـالـح إلى حلـب، ولم يزل أصحـابـه على الاختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أنـه اجتمعت طائفة مـن الافرنج وقصـدوا أعمال حمص، فقتلوا

وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه إليهم وسبقهم ووقف على طريقهم مكمنا لهم، فلما وصلوا خرج عليهم هو والكمين، ووضع السيف فيهم، فقتل أكثرهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا مثخنا بالجراح واسترجع منهم جميع ماأخذوه، ورده على أصحابه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان من خيار الامراء وشجعانهم، وقد أقطعه ابن أخته حماه حين فتحها، وقد حاصره الفرنج هناك وهو مريض، وكادوا يأخذون البلد ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام كما ذكرنا، فانصرفوا خائبين، وتوفي شهاب المذكور بعد ذلك في هذه السنة، وأعطى صلاح الدين حماه لناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب صهيون، وقيل إنما أعطاها لتقي الدين عمر، وكان ناصر الدين نائباً عنه والله أعلم.

كمشتكين الخادم، خادم نور الدين محمود بن زنكي، وكان من أكابر خدامه ولاه قلعة الموصل نيابه عنه، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، وأقطعه الملك الصالح حارم، وأقام بها وعصى عليه، فلما حصره الفرنج صالحه كما ذكرناه، ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين بالشام، وجاءه كتاب من القاضي الفاضل وهو بالديار المصرية يهنيه بولود مولود له وهو أبو سليمان داود، وهو موف لاثني عشر ولداً، وقد ولد بعده عدة ذكور أيضاً، فإنه توفي عن سبعة عشر ولداً

ذكراً، وابنة صغيرة وهي مؤنسة خاتون التي تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن الملك العادل كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وذكر هذا في تاريخ الدولتين في السنة الماضية، نقلا عن العماد الكاتب.

وفي رمضان وصلت الخلع السنية من الخليفة إلى السلطان صلاح الدين، وهو بدمشق، وزيد في ألقابه: معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيه تورانشاه ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة أسقط صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، وربما فاته الوقوف بعرفه، وعوض السلطان أميرها بمال يحمل إليه من مصر وبغلال في كل سنة ثمانية آلاف اردب ليكون عوناً له ولاتباعه، وقرر أيضاً قدر ذلك للمجاورين يحمل إليهم في كل سنة.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله:

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم ببعلبك، وكان صلاح الدين قد أعطاه إياها، وقدم صلاح الدين إلى دمشق فأرسل يطلبه فاعتذر خوفاً من شمس الدولة لأنه طلب منه بعلبك فامتنع، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلبك، وأقام سبعة أشهر يحاصرها فنفد ماعنده، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض، فأعطاه بارين وكفر طاب، وخرج شمس الدين بن المقدم إليها، وسلم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين نازلاً على ظاهر حمص ولم يجيء إلى خدمته ابن المقدم المذكور لانه بلغه أن أخاه تورانشاه طلب بعلبك منه فأطلقها له، فامتنع ابن المقدم من الخروج إليه لذلك، وجاء السلطان إلى دمشق ثم حضر إلى بعلبك بنفسه فحصره فيها من غير قتال حتى

جاءت الامطار والثلوج والبرد، فعاد إلى دمشق في رجب ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال، ثم حصل التعويض، فخرج كما ذكرنا.

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الافرنج:

وفي هذه السنة جهز صلاح الدين المذكور بين يديه لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين، وعاثوا في نواحي دمشق وقراها بالفساد، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ولايقاتلهم حتى يقدم عليه، فلما التقوا عاجلوه بالقتال فكسرهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وهو الكنفري، وكان من أكابر ملوكهم، وركب صلاح الدين رحمه الله في أثر ابن أخيه، فما وصل الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى.

وفي المرآة: بلغ صلاح الدين أن الكنفري يريد أن يغير على دمشق، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق، وقال له يقيم عند مرج عيون، فإن جاءوا فأرسل كتب الطيور إليّ ولاتواقعهم حتى آتيك، فسار ونزل مرج عيون، فلم يشعر الا بطلائع الكنفري قد خالطته، ووقع القتال فلم يقدر فرخشاه على اعلام صلاح الدين فقاتلهم بنفسه، وجرح الكنفري جراحة موثقة فأخذوه وانهزموا، وغنمهم فرخشاه، ومات الكنفري بعد أيام، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب، وبعث السرايا والغارات إلى بلد الافرنج.

ذكر بناء الافرنج قلعة عند بيت الاحزان:

وفي هذه السنة بنت الفرنج لعنهم الله قلعة عند بيت الاحزان للداوية، فجعلوه مرصاداً لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم، ونقضت ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا

على نواحي البلدان من كل جانب ليشغلوا المسلمين عنهم، وتتفرق جيوشهم فلا تجتمع في بقعة واحدة، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر بثغر حماه، ومعه شمس الدين ابن المقدم، وسيف الدين علي ابن أحمد المشطوب، وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، وبعث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهو الملك العادل نائب مصر، يأمره أن يرسل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الافرنج، وكتب إلى الافرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن الذي بنوه للداوية فامتنعوا الا ان يبذل لهم ماغرموه عليه، فبذل لهم ستين ألف دينار، فلم يقبلوا، فوصلهم إلى مائة ألف دينار، فأبوا، فقال له ابن أخيه تقي الدين عمر: ابذل هذه في أجناد المسلمين، وسر إلى هذا الحصن، ففعل ذلك.

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة:

كان السلطان صلاح الدين نازلا بجيشه على تل القاضي ببانياس، ثم قصده الافرنج بقضهم وقضيضهم، فنهض إليهم فالتقاهم، فماهو الا ان تواجه الفريقان حتى أنزل الله تعالى نصره، فانهزمت الافرنج، وقتل منهم خلق كثير، وأسر منهم جماعة من ملوكهم منهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب الرملة، وصاحب طبرية، وقسطلان يافا وآخرون من ملوكهم، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ومن فرسان القدس جماعة كثيرون، تقريباً من ثلاثمائة أسير من فرسان النصارى.

وفي تاريخ بيبرس: وكان فيمن أسر بادين بن بارزان، وأود بن القومصية، وأخو صاحب جبيل، فحملوا إلى قلعة دمشق فاعتقلوا بها، فأما بن بارزان فاستفك نفسه بجملة عظيمة، وبألف أسير، واستفك ابن القومصية أيضاً، ومات أود في السجن.

وقال العماد الكاتب: لما أسر هؤلاء استعرضهم السلطان في الليل حتى أضاء الفجر، وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء، وقد كان السلطان ليلتئذ جالساً في نحو العشرين، وهم في هذه العدة، فسلمه الله منهم، ثم أرسلهم إلى دمشق ليعتقلوا بقلعتها، فافتدى ابن بازان صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية واطلاق ألف أسير من بلاده، وكذا افتدى جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة وتحف جليلة، ومنهم من مات في السجن فانتقل منه إلى سجين.

واتفق أنه في اليوم الذي ظفر فيه السلطان على الفرنج بمرج عيون هذا ظهر الاسطول على بطسة للافرنج في البحر وأخرى معها، فغنموا منها ألف أسير من السبي، وعاد إلى الساحل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فرحاً، وسروراً، وقد كان الملك المظفر تقي الدين عمر غائباً عن هذه الوقعة مشتغلاً بما هو أعجب منها، وذلك أن ملك الروم قليج أرسلان بعث يطلب حصن رعبان، وزعم أن نور الدين محمود اغتصبه منه، وأن ولده قد أغضى له عنه، فلم يجبه إلى ذلك السلطان، فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فالتقوا بهم فهزموهم باذن الله، فاستقرت يد الملك الناصر صلاح الدين على حصن رعبان، وقد كان قديما مما عوض به ابن المقدم عن بعلبك، وكان تقي الدين عمر يفتخر بهذه الوقعة، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفاً، وقيل ثلاثين ألفاً بثمانمائة، وكان السبب في ذلك أنه بيتهم وأغار عليهم وهم غارون، فما لبثوا أمامه بل فروا منهزمين عن آخرهم، فأكثر فيهم القتل واستحوذ على جميع ماتركوه في خيامهم.

ثم ركب صلاح الدين في جحافله إلى الحصن الذي كانت الفرنج قد

بنـوه في سنــة أربع، وسبعين وخمسمائة وحفـروا فيــه بئـراً وسلمــوه إلى الداويـة، فقصده السلطـان فحاصره ونقبه مـن جميع جهـاته، وألقـى فيه النيران فجعله دكاً وخـربه إلى الأساس، وغنم مافيه مـن الحواصل، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكل كل شيء، وأخذ منه سبعمائة أسير، فقتل بعضـاً وأرسل إلى دمشـق الباقين، ثـم عاد إلى دمشـق مؤيـداً منصوراً، غير أنـه مات من أمرائه عشرة بسبـب مانالهم من الحر والـوباء في مـدة الحصار، وكـانـت أربعة وعشريـن يومـاً، وعـاد الناس إلى زيـارة مشهد يعقـوب عليه السلام على العادة القـديمة، وكان الحصـن المذكور الـذي بنـاه الافرنـج قـريبـا مـن صفـد، وكان عـرض سـوره عشرة أذرع، وارتفاعـه أربعون ذراعـاً، وكان بيـت الاحزان الـذي يزعمـون ان يعقوب عليـه السلام كـان ينفرد فيـه ويبكي على يـوسف، عليـه كنيسة، فجعلـه السلطـان مسجداً، وقـد امتدحـه الشعـراء، فقال بعضهـم وهو أحمد بـن نقاده الدمشقي:

هـــلاك الفـــرنـــج أتـــى عـــاجـــلا
وقـــــد آن تكسير صلبــــــانها
ولـــو لم يكـــن قـــد دنـــا حتفهـــا
لما عمـــرت بيـــت أحـــزانها

ذكر الأمور المزعجة:

منها كـان غلاء شـديد بسبب قلـة المطر وعـمّ العراق والشـام وديار مصر واستمـر إلى سنـة خمس وسبعين، فجـاء المطـر ورخصـت الاسعـار، ولكن تعقب ذلك وبـاء شديد وعم البلاد مرض واحـد وهو البرسام، فما ارتفع إلا في سنـة بست وسبعين، فمات في ذلـك الوبـاء خلق كثير وأمـم لايعلم عددهم الا الله عز وجل.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم متوكلين على الله لأنهم كانوا عدة قليلة، وصدقوا القتال فنصرهم الله، وانهزمت الافرنج وكثر القتل والاسر واستردوا منهم ماغنموا، ووصل صلاح الدين إلى حماه، فأمر باحضار الاسارى وقتلهم، فأحضروا وقتلوا.

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين، ويعرف بابن المجاور معلماً، وتسلم فرخشاه بعلبك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والسبعين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله:

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل إلى رعبان منجداً لنور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان بن مسعود ملك الروم، وسبب ذلك أن نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان، ثم أحب مغنية وتركها نسياً منسياً، فشكت حالها إلى أبيها، فعزم على قصد بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستنجده ويسأله كف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان في ذلك، فأعاد الجواب: إنني كنت عند تزويجه ابنتي دفعت إليه عدة حصون، ولابد من اعادتها إليّ، وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج فسار في عساكره نحو بلاد قليج أرسلان وهي: ملطية، وسيواس، وقونية، ومابينها، فلماسمع قليج أرسلان بقربه منه أرسل إليه بعض أمرائه، وذكر له بعض الحديث الذي جرى منه، فقال صلاح

الـدين للـرسـول: قـل لصاحبـك لئـن لم تـرجع عـن بـلاده لاسيرن إلى ملطية ، ولاأنزل عن فـرسي الا في الباب، وكان الرسول قد عـاين جيشاً عظيما، وكـان عاقـلاً أريباً، فقـال لصلاح الـدين: أريـك أقول للسلطـان كلاماً لم يرسلنـي به استاذي؟ فقال له: تعطيني الأمـان؟ فقال: قل وأنت آمن، فقـال: يامـولانا أما هـو قبيح بمثلك وأنـت أعظم السـلاطين قدراً وأكبرهم شأنا ان يسمع الناس عنك أنـك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصـالـح المملكـة، وأعرضـت عـن كـل مـافيـه صلاح لـك ولـرعيتـك وللمسلمين عامة، وخسرت أنـت وعسكرك الأموال العظيمة لأجـل قحبة مغنية، مـايكون عذرك عنـد الله تعالى، ثـم عند الخليفة وملـوك الاسلام، وكافة العالم، وهـب أن أحداً مايواجهك بهذا، أما يعلمـون ان الامر كذا، ثم احسب أن قليـج أرسلان مات وهذه ابنته قـد ارسلتني إليك تستجير بك وتسألك أن تنصفها من زوجهـا، فإن فعلت فهو الظن، وإن لم يكن أفيحسن بك أن تـردها، فقال صلاح الديـن: الحق ببلدك وإن الامر لكما تقول، ولكـن هذا الرجل دخـل علي واستجار بي، ويقبح بي تركـه، ولكن اجتمع بـه وأصلح الحال بينكـم على ماتحبون وأعينكـم عليه، ووعـد من نفسه بكـل جميل، واجتمـع الرسـول بنور الـدين بـن قرا أرسـلان، وترددا القـول بينهم فـاستقـر له أن يخرج المغنيـة بعـد سنـة، وإن لم يفعل ينـزل صـلاح الديـن عـن نصرته ويكـون هو وقليـج أرسـلان عليه، ولما تقـرر الحال على ذلك قصـد صلاح الدين بـلاد ابن لاون، وذلك أنه كـان قد استمال قوماً مـن التركمان وبذل لهم الامان وأمرهم أن يرعـوا مواشيهم في بـلاده، وهـي بـلاد حصينـة منيعـة كثيرة الـوعـر، ثـم غـدر بهم، وسبى حريمهـم وأخذ أمـوالهم، وأسر رجالهم وقتـل منهم جماعـة، فنزل صـلاح الدين على النهر الأسود، وبـث الغارات على بلاده، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبـل أن يؤخذ، فخربـه وأحرقه، وهو يسمـى حصن المناقير، وسمـع صلاح الـدين بذلـك فأسرع السير فـأدركه قبـل أن ينقل مافيه من ذخـائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه، فـأطلق ابن

لاون من عنـده من أسرى التركمان، وأعاد السبـي والأموال، وعـاد صلاح الدين، وتوجـه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازي، والملـك العزيز ولداه واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أخيه.

ومنها أنـه في رجب قـدمت رسـل الخليفة النـاصر لديـن الله ومعهـم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق، وزينت له البلاد، وكان يوماً مشهوداً.

وفي المرآة: وفيهـا وصـل شيـخ الشيـوخ وصحبتـه رسـول الخليفـة إلى الملـك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بـن أيوب، ومعهما خلـع وهدايـا، فلبس السلطان الخلع بدمشق وزينت له المدينة، وكان يوما مشهوداً.

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الـديار المصرية لينظر في أحوالها وأمورها ويصوم بها رمضـان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلـك إلى بيت الله الحرام، واستناب على الشـام ابن أخيـه عز الديـن فرخشـاه بن شـاهنشاه ابن أيوب، وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمـن ومكه يعلمهم بعـزم السلطان على الحج في هـذا العام إلى المسجـد الحرام ليتأهبـوا للملك ويهتمـوا به، واستصحـب السلطان معـه صدر الدين أبـا القاسم عبد الرحيم بن شيخ الشيـوخ ببغداد، الذي قدم في الرسـالة مـن جهة الخليفة ليكـون في خدمتـه الى الديـار المصرية، وفي صحبته الى الحجاز الشريف، فدخـل السلطان مصر وتلقاه الجيش، وكان يومـا مشهوداً، وأما صدر الـدين فانـه لم يقم بها الا قليلا حتى تـوجه الى الحجاز الشريف في البحر، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام.

وفي المرآة: وإنما ركب شيـخ الشيوخ البحر من مصر ومضـى الى مكة لنذر كان عليه، وأقام إلى أيام الموسم وحج وعاد الى بغداد.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وأقام في الملك عشر سنين وشهوراً، وأصابه مرض مزمن، وتوفي يوم الاحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود.

وقال ابن كثير: وكان سيف الدين غازي شاباً حسنا مليح الشكل، تام القامة مدور اللحية، مكث في الملك عشر سنين ومات عن ثلاثين سنة وكان عفيفا في نفسه مهيباً وقورا لايلتفت إذا ركب ولا إذا جلس، غيورا لايدع احدا من الخدم يدخل على النساء، وكان لايقدم على سفك الدماء، وينسب الى شيء من البخل.

فأجلس مكانه في المملكة أخوه عز الدين مسعود، وجعل مجاهد الدين قيماز نائبه ومدبر مملكته، وجاءت رسل الخليفة يلتمسون من صلاح أن يبقي سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين بيده كما كانت في يد أخيه، فامتنع السلطان من ذلك، وقال: هذه البلاد هي حفظ ثغور الاسلام، وإنما كنت تركتها في يده ليساعدنا على غزو الافرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك.

وفي تاريخ بيبرس: وكان مرض غازي السل، وأراد أن يعهد بالملك إلى ابنه الأكبر معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يجبه أخوه مسعود إلى ذلك، فأشار عليه أكابر دولته بأن يجعل الملك في أخيه عز الدين مسعود، وأن يجعل لولديه بعض البلاد، وأن يكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما، والمتولي لأمرهما مجاهد الدين قيماز، ففعل ذلك، وأعطى جزيرة

ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، وقلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين، وكان مجاهد الدين قيماز الحاكم في الجميع.

وقال ابن الأثير: كان قد علق به سل، وطالت علته وأجدبت البلاد قبل موته، وخرج الناس يستسقون، وخرج سيف الدين معهم فاستغاث إليه الناس، وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطي والمظالم بيننا، فقال: قد أبطلتها، ورجعوا الى البلد وفيهم رجل صالح يقال له أبو الفرج الدقاق، فأهرق الخمور لاغير، ونهب العوام دكاكين الخمارين، فاستدعى الدقاق إلى القلعة وقال له: أنت جرأت العوام على السلطان وضرب على رأسه، فانكشف رأسه وأطلق بعد قليل: ونزل مكشوف الرأس، فقيل له غط رأسك، فقال: والله لاغطيته حتى ينتقم لي ممن ظلمني، فمات الدزدار والذي ضربه بعد قليل، ومرض سيف الدين وتوفي.

ذكر حكايته مع الشيخ أبي أحمد الحداد الزاهد:

كان أبو أحمد قد انقطع في قرية من بلد الموصل يقال لها الفضلية ومنها أصله، وهي على فراسخ من الموصل، قال السبط: حدثني أبو بكر القديمي واسماعيل الشعار، وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد، قالا: كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد، فقال له يوما: ياسيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات، وتمكس المسلمين، فإن كنت تدع هذا وإلا فلا تجيء إلى عندي، فقال: ياسيدي انا تائب إلى الله من جميع ماقلت وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه.

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيء من دمشق، قال: فبينما نحن عنده يوما إذا بسيف الدين قد أقبل وصعد على الدرج، فقال: يا أبا بكر أغلق الباب في وجهه وقل له: عندي شغل وادفعه إلى أسفل الدرج، قال أبو بكر القديمي: فخرجت فاستحييت منه، فقال

لي سيف الدين: ياشيخ افعل بي مـا أمرك الشيخ، وأدار ظهره اليّ، فدفعت في ظهره حتى أنزلتـه إلى أسفل الدرج فقعد يبكي وصاح الجنـد بأسرهم، فأشار إليهم أن اسكتوا، ثم قال لي: يـاشيخ اصعد الى الشيخ وقل له: فما لي توبـة؟ قال: فصعدت إليـه وأخبرته، فقال: قـل له يجوز قد أذنـت له، قال: فخرجـت وقلت له: بسم اللـه، فدخل على الشيخ فبكـى وقبل يده وتاب إلى الله تعالى، وعاد إلى الموصل، وأقـام مدة يسيرة ومات يوم الاحد ثالث صفر، ولم يبلغ ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً.

وأراد أن يعهد إلى ابنـه سنجرشاه فـامتنع أخوه عـز الدين مسعـود من ذلك، وقـال له مجاهـد الدين قيماز وأكـابر الأمـراء: قد علمـت استيلاء صلاح الديـن على البلاد وقربه منـا، وسنجرشاه صبي لارأي لـه، وأخوك عز الـدين كبير السن صـاحب رأي وشجاعة فـاعهد إليه واجعلـه وصياً على أولادك ففعـل، وكانـت الرعيـة قـد خافـت مـن عز الـدين مسعـود لاقدامه على سفـك الدماء وحدته، فلما ولي تغيرت اخلاقـه، فصار رفيقاً بالرعية قريباً منهم محسناً إليهم، ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حـدود الروم فـأرسـل إليه مجاهـد الـدين قيماز الفقيـه أبـا شجاع بـن الدهان البغـدادي، فطلب منه أن يكون مـع عز الدين كما كـان مع أخيه سيف الدين ويبقي عليـه الجزيرة ومابيده من حران والرها والـرقة وخابور ونصيبين وقاطـع الفرات، فقال صـلاح الدين: أما مـاخلف له مـن بلاد الموصل فهو باق على حاله، وأما ماذكـره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعـة الخليفة على شرط أن يقوي ثغـور المسلمين بالمال والعساكـر، أما الآن فالخليفة قد فوض أمرها إليّ، لا أفعل الا ماأراه من المصلحة.

الملك المعظم تورانشاه:

مات في هذه السنة.

قال ابن كثير: السلطان الأكبر، الملك المعظم شمس الدين تو رانشاه ابن أيوب، الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فمكث فيها حيناً، واقتنى منها أموالاً جزيلة ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه، وكان قدومه إليه في سنة احدى وسبعين وخمسمائة كما ذكرنا، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على اسكندرية، فلم توافقه وكان يعتريه القولنج فمات بها في هذه السنة فدفن فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بتربتها التي بالشامية البرانية بدمشق، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، والمؤخر قبرها رحمها الله، والتربة الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وهي إلى جانب المدرسة من غربيها.

وقد كان الملك تورانشاه كريما جواداً ممدحاً شجاعاً باسلا عظيم الهيبة كبير النفس، واسع الصدر، وقال فيه ابن سعدان الحلبي:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عبداه

وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه

ولذ بذراه مستجيراً فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه

ولاتحمـــل للسحـــائب منـــة
إذا هطلـت جـودا سحـائب جـدواه
ويـــرســل كفيــه بما اشتــق منهما
فلليمــن يمنـــاه ولليسر يسراه

ولما بلغ خبر موتـه إلى أخيه السلطان صلاح الـدين وهو مخيم بظـاهر حمص، حزن حـزناً شديـداً عليه وجعل ينشـد باب المراثي مـن الحماسة، وكانت محفوظته.

وقال ابن خلكـان: وكانت وفاة تـورانشاه يوم الخميس مستهـل صفر، ويقال خـامس صفر سنة سـت وسبعين وخمسمائة، وتورانشاه بضـم التاء المثناة مـن فوق، وسكـون الواو، وبعدهـا راء مهملة ثـم بعد الألـف نون ساكنـة وبعدهـا شين معجمة وألـف ساكنـة وهاء، ومعنـاه ملك الشرق، وشـاه لفـظ أعجمـي ومعنـاه الملك، وتـوران اسـم بـلاد الترك، والعجـم يسمون الترك تركمان، ثم حـرفوه فقالوا: توران، وقد علـم أن المضاف إليه يقدم على المضاف في لغتهم، فافهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة والخليفة هو الناصر لدين اللـه، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن الملـك الصالح بـن نور الـدين محمود مـات في هذه السنة.

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الملك الصالح اسماعيل بن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وماوالاها، وكان أبوه نور الدين رحمه الله قد عهد بالملك له، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، وكان مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب.

الثاني: في سيرته.

قال ابن خلكان: كان محسناً محمود السيرة.

وقال النويري: وكان من أعف الملوك، ومن يشابه أباه فما ظلم، وصف له الاطباء في مرضه شرب الخمر، فاستفتى بعض الفقهاء في شربها تداويا فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال: لا، قال: فوالله لاأشربها وألقى الله وقد شربت ماحرمه علي.

وفي تاريخ بيبرس: أفتاه بذلك فقيه من مدرسي الحنفية، فقال: أرأيت إن قدر الله قرب الاجل، أيؤخره شرب الخمر، فقال الفقيه: لا، فقال له ماذكرنا.

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد به المرض وضعف، وصف له الاطباء قليل خمر، فقال: لاأفعل حتى أسأل الشافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل.

وقال السبط: أخطأ الكاساني فإن الخمر لايباح عند أبي حنيفة رضي الله عنه وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا إن الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها.

وفي تاريـخ المؤيد: وكـان عفيف اليـد والفرج واللسـان ملازمـاً لامور الدين، لايعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب.

الثالث: في وفاته.

وقال ابـن خلكان: وتـوفي يوم الجمعة الخامـس والعشرين مـن رجب سنـة سبع وسبعين وخمسمائة، وذكـروا أنه لم يبلـغ عشريـن سنة ودفـن في المقام الـذي بالقلعـة، ثم نقل إلى ربـاطه المعـروف به تحت القلعـة، وهو مشهور هناك.

وفي المرآة: وكان مرضه القولنج بدأ به في تاسع رجب

وقال المؤيد في تاريخه: في رجب توفي الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنـة، ولما اشتد بـه مـرض القولنـج وصـف لـه الاطباء الخمـر، فمات ولم يستعمله.

وفي تاريخ ابن كثير: وكـانت وفاته بقلعة حلب ودفـن بها، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الديـن سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنـب في الصيـد، وقيل بـل سقـاه يـاقوت الأسـدي في شراب، وقيـل في خشكنانكة، فاعتراه قـولنج، فمازال كذلك حتى مات وهـو شاب حسن الصورةبهي المنظـر، ولم يبلغ عشريـن سنة، ولما يئس مـن نفسه استـدعى الامراء فحلفهـم لابن عمـه عز الـدين مسعـود صاحـب الموصل، لقـوة سلطانـه وتمكنه ليمنعها مـن صلاح الديـن، وخشي أن يبايع لابـن عمه الآخر عماد الـدين زنكي صـاحب سنجار، وهـو زوج أخته وتربيـة والده فلايمكنـه حفظها مـن صلاح الـدين، فلما مـات استدعـى الحلبيون عـز الديـن مسعود بـن قطب الـدين مـودود صاحـب الموصل، فجـاء إليهم، فدخل حلـب في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلـك في العشرين من شعبان من هـذه السنة، فتسلم خزائنهـا وحواصلها ومافيهـا من السلاح،

وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج فهرب إلى حماة فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي، وقال: بيننا وبينه أيمان وعهود، وأنا لاأغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وتزوج بأم الملك الصالح في شوال ثم سار إلى الرقة فنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه ثم رضي على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج وغير ذلك من البلاد، وعاد عز الدين مسعود إلى حلب، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الامور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى الفرات.

وفي تاريخ بيبرس: تسلم عماد الدين صاحب سنجار حلب عوضاً عن سنجار، وذلك أنه لما رحل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه، عماد الدين يطلب أن تسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار فلم يجبه إلى ذلك فقال: إن لم تسلموا إليّ حلب، وإلا سلمت أنا بسنجار إلى صلاح الدين، فأشار الامراء على عز الدين بتسليم حلب إليه، فاستقر الأمر على تسليمها إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضا عنها، وبلغ ذلك صلاح الدين فخاف على دمشق، وبرز من مصر وسار إلى الشام في محرم السنة الآتية على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر بقية ماجريات صلاح الدين:

منها: أنه لما استهلت هذه السنة كان صلاح الدين مقيماً بالقاهرة مواظباً على سماع الاحاديث، جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه يهنيه بما منّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وبأن

الشـام مخصب بـإذن الله جبراً مـن اللـه تعالى لما كـان أصابهم في العـام الماضي من الجدب والغلاء.

ومنها: أنه في شـوال منها توجه صـلاح الدين إلى الاسكندريـة، وخيم بظاهرها عنـد عمود السواري، فشاهد ماأمر بـه من تحصين سورها وعمارة أبراجهـا وقصورهـا، وسمع موطـأ الامام مـالك رحمه اللـه على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطرطـوشي، وسمع ذلك معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة يهنيه بهذا السماع.

ومنهـا أنه ولـد لصـلاح الديـن ولدان وهما الملـك المعظـم تورانشـاه، والملك المحسـن أحمد، وكان بين ميـلادهما سبعة أيـام، ، فزينـت البلاد، واستمر الفرح والسرور.

وفي تاريخ الدولتين: الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول مـن هذه السنـة، وهو لأم الاشرف، والملـك المعظم أبـو منصور تـورانشـاه فخر الـدين ولـد بمصر في ربيـع الأول من هـذه السنة، ومات سنـة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنة التي أخـرب العدو من التتار مدينة حلب وغيرها.

ذكر بقية الحوادث:

منهـا أن الأفـرنـج غـدرت ونقضت عهـودهـا، وقطعـت السبـل على المسلمين براً وبحراً، سراً وجهـراً، فأمكن الله من بطسـه عظيمة لهم فيها نحو ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدوديـن، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط، قبـل خروج السلطان صلاح الدين مـن مصر، فأحيط بها فغرق بعضهم، وحصل في الاسر ألف وسبعمائة منهم.

ومنها أن فـرخشاه ابـن أخي السلطان صـلاح الدين ونـائبه بـدمشق،

سار إلى أعمال الكرك ونهبها لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لان يسيروا إلى مكة وإلى المدينـة على سـاكنهـا أفضـل الصـلاة والسـلام، فجمـع العسـاكـر الدمشقيـة، وسار إلى بلدهـم ونهبه وخربـه، وعاد إلى بلاد الاسـلام، وأقام بها ليمنع البرنـس من التعـرض إلى المسلمين، وأما الذيـن سيرهم الفـرنج إلى الحجاز، فأهلك الله تعالى جميع من سيروا، وقتلوا وأسروا.

ومنها أنـه استوت عدة جيـش صلاح الديـن على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين طواشية وقراغلامية.

ومنها أن صـاحب مـاردين حصر قلعـة البيرة وكانـت لشهاب الـدين الارتقي، وهـو ابن عـم قطب الـدين ايلغـازي بن ألبـي بن تمرتـاش بن ايلغازي بن أرتـق صاحب ماردين، وكـان في طاعة نور الديـن محمود بن زنكي، فمات شهاب الـدين الارتقي، وملك القلعة بعـده ولده، وصار في طاعة عز الـدين مسعود صاحب الموصل، فلما كـان في هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين مسعود يستأذنـه في حصر البيرة، وأخذها فأذن له فسار فنـزل شميشاط وكانت له، وأرسل عسكـره إليها فحصرها، فسير صـاحبهـا إلى صلاح الـديـن يطلـب منه أن ينجـده، فسير رسـولا فشفع فيه فرحل صاحب ماردين عن البيرة.

ومنها أن المسلمين فتحـوا الشقيف مـن الفرنـج، وذلك أن الفـرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشـام جمعوا له وحشدوا الفارس والـراجل، واجتمعـوا بالكـرك بالقـرب من الطـريق لعلهـم يظفرون منـه بفرصـة، فخلت بلادهـم من ناحية الشـام، فسمع فرخشـاه الخبر فجمع عسـاكـر الشام، ثـم قصـد بـلاد الفـرنـج وأغار عليهـا، ونهب دبـوريـة ومايجاورها مـن القرى، وأسر الرجال، وسبى النساء وغنـم الأموال، وفتح منهم الشقيف وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة.

ومنها أن البرنس صاحب الكرك لعنه الله عزم على قصد تيماء من أرض الحجاز ليتوصل منها إلى المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فجهزت له سرية من دمشق تكون حاجزة بين وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده لعنه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام في خامس المحرم من هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بمصر لم يعد إليها بعد ذلك.

وفي تاريخ المؤيد: وفي خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الفرنج، وغنم ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: وفي خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر، ونزل البركة قاصداً إلى الشام، وخرج أرباب الدولة لوداعه، وأنشد

الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم: تمتع... إلى آخره، وطلب القائل فلم يوجد، فوجم السلطان، ونظر الحاضرون فكان كما قال، اشتغل السلطان بالشرق والافرنج، ولم يعد بعدها إلى مصر، وسار انسلطان على أيلة والحسا ووادي موسى، وكان فرخشاه بدمشق، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية، فقصدوه فالتقاهم وكسرهم وقتل منهم ألوفا وأسر وساق عشرين ألفاً من الانعام وغيرها، وفتح حصناً مشرفاً على السواد على شقيف يقال له حصن جلدك، وقتل من فيه وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع وساق إلى بصرى فالتقى السلطان عندها فسربه، ودخلا دمشق في صفر.

وفي تاريخ ابن كثير: أغار صلاح الدين في طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الدين بوري بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو، فالتقوا على الازرق بعد سبعة أيام، ووصل السلطان الى دمشق في حادي عشر صفر منها، وقيل في سابع عشر.

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق:

منها أنه خرج من دمشق في العشر الأول من ربيع الأول، ونزل قرب طبرية، وشن الاغارة على بلاد الافرنج مثل بيسان وجينين والغور، فغنم منها، وقتل جماعة.

وقال ابن كثير: واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، ولكن كانت الدائرة للمسلمين، ثم رجع مؤيدا منصوراً إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق.

وفي تـاريخ بيبرس: وفيهـا سـار صلاح الـديـن من دمشـق إلى بيروت فحاصرها ونهب مـاوجد، وأمر اسطول مصر أن ينزلـوا عليها ويحاصروها، فكان وصولـه لها قبل وصولهم، وكان عازما على حصـارها الى ان يفتحها، وأتاه الخبر بأن بطسـة عظيمة ألقاها البحـر إلى دمياط خرج من فيهـا من الفرنـج للحج الى بيت المقدس، فـأسروا من بها، فكان عـدة الاسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعون أسيراً فضربت بذلك البشائر.

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزريـة لـأخذها، وذلك أن المواصلة والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتـى يغزو على أطراف البلاد ليشغلوا السلطان صلاح الـدين بنفسه عنهم، فكـان سيره على بلاد البقاع ثـم إلى حماه، ثم إلى حلـب فحاصرهـا ثـلاثاً، ورأى أن العـدول إلى غيرهـا أولى به، فسـار حتى قطع الفـرات من البيرة، وصار معه مظفـر الدين كوكبري صـاحب حران، وكاتـب ملوك تلك الاطراف، واستمالهم، فـأجابه نور الـدين محمد ابن قـرا أرسلان صاحـب حصن كيفا، وصار معـه ونازل السلطان مـدينة الرها وحاصرهـا وملكها وسلمها الى مظفر الدين كـوك بوري، ثم سار الى الرقة وأخذها من قطب الديـن ينال بن حسان المنبجي، فسار هو إلى عز الـدين مسعـود صاحـب الموصـل، ثم صـار صـلاح الديـن إلى خابـور، وملكهـا وملك ايضـاً قرقيسيـا ومـاكسين وعربـان، واستولى على الخابـور جميعها، ثـم سار إلى نصيبين وحـاصرها وملـك المدينة، ثـم ملك القلعـة واقطعها أميراً كان معه يقال له أبـو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبهـا مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار، فـأقام عليهـا منجنيقا وأقـاموا عليـه من داخـل المدينة مجانيـق، وضايـق الموصـل، فلما رأى طـول الحصـار رحل عنهـا الى سنجـار وحـاصرهـا وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين، وكان من أكبر الامراء، ثم سار صلاح الـدين إلى حران وعزل عن نصيبين في طريقـه أبا الهيجاء السمين، ثم عاد إلى حلب، وقد استحوذ على بلاد الجزيرة، وخضعت له

الملوك هناك، ولما وصل الى حلب تسلمها من صاحبها عماد الدين زنكي، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار، كما ذكرنا في العام الماضي، فاستوسقت الممالك شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وتمكن حينئذ من قتال أعدائه من الفرنج لعنهم الله، وتملكه حلب وغيرها إنما كان في السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: عبر صلاح الدين الفرات وملك الديار الجزرية، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبري ابن زين الدين علي بن بكتكين مقطع حران أرسل الى صلاح الدين يعلمه أنه معه وأنه محب لدولته، ووعده النصر، وأنه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفه أخذ البلاد، فرحل عن بيروت، ورسل مظفر الدين متواترة إليه تحثه على القدوم، فجد السير يظهر أنه يريد حصر حلب، ولما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين واجتمع به فقصد البيرة، وكان صاحبها مع صلاح الدين وفي طاعته، فعبر هووأصحابه من الجسر الذي عند البيرة، وكان عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدما إلى دارا، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل، وأرسلا إلى الرها عسكراً يحميها ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد وكاتب الملوك أصحاب الاطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجابه نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا لقاعدة كانت بينهما لما كان عنده بالشام، فقصد آمد وحصرها وقاتلها أشد القتال، وكان بها مقطعها الامير فخر الدين الزعفراني، فطلب الامان وسلم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، ولما ملك المدينة زحف إلى القلعة فسلمها إليه الدزدار الذي بها على مال أخذه، ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبوري مع حران، ثم سار إلى الرقة وبها

مقطعها قطب الدين ينال المنبجي، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور وقرقيسياء وماكسين وعربان، فملك جميع ذلك، فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها، وحصر القلعة أياماً فملكها وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين، وسار عنها.

ومنها أنه لما ملك نصيبين جمع أمرائه وأرباب المشورة فاستشارهم بأي البلاد يبدأ، بالموصل أو بسنجار، أو بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين: لاينبغي أن نبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لامانع لها، وإن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية، ووافقه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيراً ليقطعه الموصل: إذا ملكها، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لما في نفسه.

وصار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكراً كثيراً من فارس وراجل وأظهرا من آلات الحصار ماحارت له الابصار، وبذلا الاموال الكثيرة وشحنا مابقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار، وغيرها بالرجل والسلاح والاموال، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ومعهم نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فرأى ماهاله من عظم البلد، ورأى السور قد ملىء من الرجال، وليس فيه شرافة إلا وعليها مقاتل، سوى من عليه من عامة البلد، فعلم أنه لايقدر عليه، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه، ثم رجع الى معسكره وصبح البلد فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كندة، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال فلم يظفر، وأقام أياماً، ولم ينل منها شيئاً،

وترددت الرسـل إلى عز الدين مسعـود ومجاهد الدين في الصلـح، فطلب عز الدين اعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلـب إليه، فـامتنع عـز الديـن ومجاهد الـدين، ولم ينتظـم صلح ولاتم أمـر، فلما رأى صلاح الدين أنـه لاينال من الموصل غـرضا، وان من بسنجـار من العساكـر الموصلية يقطعون طـريق من يقصـده من عساكره وأصحابه، سار عن الموصل إليهـا، وسنذكر ماجرى بعد ذلك في السنة الآتية ان شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منهـا أن البرنس صـاحب الكـرك عليه اللعنـة عمل مـراكب في بحـر القلزم ليقطعوا الطريق على التجار والحجـاج، وذلك لما عجز عن ايصال الاذى للمسلمين في البر، فـوصلـت أذيتهـم الى عيــذاب، وخـاف أهـل المدينة النبـوية مـن شرهم فـأمر العادل أبـو بكر بـن أيوب أخـو صلاح الدين نائب مصر الأمير حسام الدين لـؤلؤ صاحب الاسطول أن يعمل مراكـب في بحر القلزم لمحـاربة البرنـس، ففعل ذلك، فظفـر بهم في كل موطن، وقتلـوا منهم وحرقوا وغـرقوا وسبوا وقهروا وأسروا في مـواطن كثيرة ومواقـف هائلـة، وأمن البر والبحر بـأذن الله، وأرسـل صلاح الـدين الى أخيه العـادل أبي بكر يشكـر من مسـاعيه، وأرسـل الى ديوان الخليفـة بما أنعم الله به عليهم من الفتوحات براً وبحراً.

وفي المرآة: في هذه السنة كانت وقعة الحاجب لـؤلؤ مع الفرنج، خرج ابـرنس صـاحب الكـرك إلى أيلـة فأقـام بها ومعه الاخشـاب على الجمال والصناع، فعمل المراكـب، وكان قصده مكة والمدينـة والغارات في البحر، فلما تـم عملها ركـب فيهـا، ووصل الى عيـذاب في بحـر القلـزم، فأخـذ مراكب التجـار ونهب وقتل وأسر، وسار يريد جـده، وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخي السلطان، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ، فركب في

بحر القلزم، وسار خلفهم، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وهرب بعضهم في البر، وأسر الباقين فأخذ مائة وسبعين أسيراً، وخلص أموال التجار، وردها عليهم، واستولى على مراكبهم، وعاد الى القاهرة، وكتبوا الى صلاح الدين بذلك، فقال بضرب رقاب الاسرى بعضهم بالقاهرة، وبعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، ففعلوا وكتبوا بذلك إلى الخليفة.

وفي تاريخ المؤيد: وكان حسام الدين لؤلؤ مظفراً فيه، شجاعاً فسار في طلبهم مجداً وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة وسار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا أشد القتال، فظفر الله بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

ومنها أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هووشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين، وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة بالكف عن الموصل، ومايتعلق بعز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكاً له يقال له سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعده، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الاجابة رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولاصلة، وأبلغ صاحبه الخبر فسار إلى ماردين وصاحبها قطب الدين بن ألبي، وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عزالدين وحموه، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن، وسار

عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال، فلما سمع صلاح الدين باجتماعهم سيّر الى ابن اخيه تقي الدين، وهو بحماه يستدعيه ، ورحل الى رأس عين، فلما سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بأنه يجمع العساكر ويعود، وعاد عز الدين الى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فأقام تحت ماردين أياماً...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في الشرق لاجل فتح البلاد التي ليست تحت يده.

ذكر فتوحات صلاح الدين رحمه الله في هذه السنة:

منها فتح آمد:

قال ابن كثير: في الرابع عشر من محرم هذه السنة تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد وحصنها بعد قتال وحصار شديد من يد صاحبها بعدما حمل ماأمكنه من حواصله وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلم السلطان البلد وجد فيه شيئاً كثيراً من الحواصل وآلات الحرب والسلاح، حتى قيل إنه وجد برجاً مملوءاً بنصول النشاب، وبرجاً آخر فيه مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، ووجد فيها خزانة فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد فوهبها كلها للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين حماراً، ثم وهب السلطان البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان في خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار،

فامتـدحه الشعـراء على ذلك، وعلى حسن صنيعـه الجميل، ومـن أحسن ماقاله بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قـل للملـوك تنحـوا عـن ممـالكـم
فقـد أتـى آخـذ الـدنيـا ومعطيهـا

وفي المرآة: وفي يـوم الاحد عـاشر المحرم تسلـم السلطـان آمد ودخـل إليها، وجلس في دار الامارة، ثم سلمها وأعمالها إلى نـور الدين محمد بن قرا أرسـلان، وكان قـد وعده بها لما جـاء إلى خدمتـه، ولما أخذهـا صلاح الديـن خرج الـرئيس محمـود بن علي ومحمـد بن كيكلـدي منها بـأموالهما وحريمهما إلى الموصل، وأعانهما صلاح الـدين بدواب تنقل بعض قماشهما، فحملا ماخف حمله وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والاسلحة.

وفي تاريـخ المؤيد: في العشر الأول من محرم هـذه السنة ملـك صلاح الدين آمد بعد حصار وقتال وسلمها إلى نـور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا.

وفي تاريخ ابن العميد: وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة سار السلطان الملـك الناصر صـلاح الـدين مـن مصر إلى الرهـا ففتحهـا، ثم سـار إلى الموصـل فنازلها واستشفـع صـاحبها عـز الـدين مسعـود بـن مودود مـن الخليفة النـاصر لدين اللـه، فشفع فيه الخليفـة فرحـل صلاح الديـن عن الموصل، ونزل على سنجار فحاصرها ثـم تسلمها وأحسن إلى رعيتها، ثم توجـه إلى حرزم فـأخربها، ثـم كتب إلى الخليفة يطلـب منه آمـد، فأجـابه الخليفة وبعث إليه بتقليـدها، فوصل إليه التقليد في ذي الحجـة من هذه السنـة، ثـم سار السلطـان إلى آمـد فنـازلها لثلاث بقين مـن ذي الحجـة وفتحها بالامان في العشر الاول من محرم سنة ثمانين وخمسمائة وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

ومنها فتح عينتاب:

ولما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار وقطع الفرات قاصدا حلب، واجتاز في طريقه بعينتاب وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين، فنزل إليه وقام بالضيافة، فأبقاها عليه.

وفي تاريخ المؤيد: لما فتح صلاح الدين آمد سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد تسلم عينتاب من نور الدين، فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه، فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب.

ومنها فتح حلب:

ولما فرغ السلطان من أمر عينتاب سار إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود.

وقال ابن كثير: سار السلطان في بقية المحرم إلى مدينة حلب فنازلها وحصرها، وقاتله أهلها قتالاً جيداً وجرح أخو السلطان تاج الملوك بوري ابن أيوب جرحاً بليغاً فمات منه بعد أيام، ثم اتفق الحال بين السلطان وبين صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر على عوض أطلقه السلطان وهو أن يرد عليه سنجار ويسلمه البلد، فخرج عماد الدين زنكي وجاء إلى خدمة السلطان وعزاه في أخيه ونزل عنده في المخيم، ونقل أثقاله إلى سنجار، وزاده السلطان خابور والرقة ونصيبين وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة وودعه السلطان، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين زنكي: «ياحمار بعت حلب بسنجار»، وكان تسلم السلطان حلب في صفر، وصعد إلى قلعتها يوم

الاثنين السابع والعشرين من صفر، وعمل له الامير طمان وليمة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً، ثم إن السلطان رحمه الله أسقط عن حلب وعن سائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب، وكذلك عن بلاد الشام ومصر، ثم أرسل الى عساكره ليجتمعوا إليه ليتصدى لقتال الفرنج الملاعين، لانهم عاثوا في البلاد يميناً وشمالاً في غيبة السلطان واشتغاله ببلاد الجزيرة، وكان السلطان قد بشر بفتح بيت المقدس حين فتح حلب، وذلك أن الفقيه مجد الدين ابن جهبل الشافعي رأى في تفسير أبي الحكم المغربي عند قوله تعالى: ﴿ألم* غلبت الروم* في أدنى الأرض﴾ [الروم١-٣] الآية ، البشارة بفتح بيت المقدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، واستدل على ذلك بأشياء، فكتب في ورقة وأعطاها للفقيه عيسى الهكاري ليبشر بها السلطان فلم يتجاسر على ذلك خوفاً من عدم المطابقة، فاعلم بذلك القاضي فخر الدين بن الزكي، فنظم معناها في قصيدة يقول فيها:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر
قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

وقدمها للسلطان، فتشوقت همة السلطان إلى ذلك، فلما افتتحها - كما سيأتي إن شاء الله تعالى - أمر القاضي فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ولما بلغه ان ابن جهبل هو الذي اطلع على ذلك أولاً، أمره أن يدرس، فدرس على الصخرة درساً عظيماً وأجزل له العطاء، وأحسن عليه الثناء.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة سار صلاح الدين من تل خالد إلى حلب، واستدعى إليها العساكر من جميع الجهات، فاجتمع عليها خلق عظيم، وتحقق عماد الدين أنه ليس به قبل، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع صلاح الدين في اعادة بلاده إليه وتسلم حلب منه، فرفع الحديث، وتقررت القاعدة ولم يشعر أحد من العسكر ولا من الرعية حتى تم الامر واستفاض، فاستعلم العسكر من عماد الدين فأعلمهم

وأذن لهم في تيسير أنفسهم، فأرسلوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بكتكين فاستحلفوا صلاح الدين على العسكر وعلى أهل البلد، وخرجت العساكر إلى خدمته بالميدان الاخضر فخلع عليهم، ونقل عماد الدين أقمشته وآلاته من القلعة، ثم نزل إلى السلطان، وسيره معه في الميدان، وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له تقدمة سنية وخيلاً، وخلع على جماعة من أصحابه وسار من يومه إلى سنجار، وطلع صلاح الدين الى القلعة وتسلمها في صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: نازل صلاح الدين حلب في سادس عشر المحرم، ونزل بالميدان الاخضر، وباشر القتال بكرة وعشياً، وزحف يوما أخوه تاج الملوك بوري فجاءه سهم في عينه، فوقع مريضاً، فمات في الثالث والعشرين من صفر، ثم علم عماد الدين زنكي، أنه لاطاقة له به، وقال لحسام الدين طمان: اخرج إلى صلاح الدين وسله في الصلح، فخرج سراً ولم يعلم به أحد، فقرر الصلح وأن يرد إليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين، وأنه يسلم إليه قلعة حلب، وعلم الناس بالصلح فخرجوا إلى صلاح الدين فخلع عليهم، وجعل أهل حلب تحت القلعة اجانة وثيابا وصابوناً وصاحوا عماد الدين: يافاعل، ياصانع، انزل فاغسل الثياب مثل المخانيث، مايصلح لك غير هذا، وعملوا فيه الاشعار، وغنوا بها في الاسواق، منها:

وبعت بسنجار خير القلاع
ثكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم الثالث والعشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان، فحزن السلطان عليه حزنا عظيما وجلس للعزاء، وكان يبكي ويقول: ماوفت حلب بشعرة من أخي، وقيل إنه قال: ماغلت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان لانه ماكان في البيت مثل بوري.

وسار عماد الدين إلى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم غير مكترث

بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثـم صعد القلعة سلخ صفر، فأنشده القاضي:

وفتحـــه حلبـــا بـــالسيـــف في صفـــر
مبشر بفتـــوح القـــدس في رجـــب

فعجب الناس مـن رمية من غير رام، فكان كما قال، ولكـن بعد أربع سنين، وهـو الذي خطـب بـالقـدس لما فتحه السلطـان، وولى السلطـان القضاء بحلب مجير الدين ابن زكي الـدين، والقلعة سيف الدين أركش، والديوان ناصح الـدين اسماعيل بن العميد، فأعطى تل بـاشر وتل خالد لبدر الـدين دلـدرم بن بهاء الديـن بن ياروق، وأعطـى قلعة أعـزاز لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم رحل عـن حلب يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الاولى.

وفي تاريخ المؤيـد: ولما استقر الصلح بين صلاح الديـن وعماد الدين، عمل عماد الديـن دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هـم في سرورهم إذ جاء انسان، فـأسر إلى السلطان بموت أخيـه بوري فـوجد عليه في قلبـه وجدا عظيماً وأمر بتجهيزه، ولم يعلـم السلطان في ذلك الـوقت أحدا ممن كان في الدعـوة بذلـك حتى لايتكـدر عليهم ماهـم فيه، وكـان يقول: مـاوقعت علينا حلـب رخيصة بمـوت بوري، وكـان هذا مـن السلطان مـن الصبر العظيم.

ومنها: فتح حارم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حـارم وبهاسرخك الذي ولاه الملك الصالح بـن نور الدين محمـود في تسليم حارم، وجرت بينهما مـراسلات فلم ينتظم بينهما حـال، وكاتب سرخك الفـرنج، فوثب عليـه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها.

وفي تاريخ بيبرس: وكان السلطان: قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها، فدافع الوالي الذي بها، فسار بنفسه إليها فتسلمها، وعاد إلى حلب، ورتب فيهاولده الظاهر غازي ومعه الامير يازكوج، ثم رحل عنها وسار نحو دمشق.

وقال ابن كثير: رحل السلطان من حلب في أواخر ربيع الاخر بجيوشه وعساكره، وقد جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وولى قضاءها لمحيي الدين بن الزكي، فاستناب له فيها نائباً، ورجع هو مع السلطان في خدمته، فاجتاز بحماه ثم بحمص، ثم على بعلبك، ثم دخل دمشق في ثالث جمادى الاولى في أبهة عظيمة، وفي نيته الخروج سريعاً إلى قتال الافرنج.

ذكر مافعل السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق:

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكور وأقام أياما، برز منها في أول جمادى الآخرة في جحافله قاصداً نحو القدس الشريف، فانتهى إلى بيسان فنهبها وخربها، وشن الاغارات على تلك النواحي، ثم سار ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سريه هائلة فيها الامير جرديك النوري، وطائفة من النورية، وجاولي مملوك عمه أسد الدين شيركوه فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم، فتواقفوا معهم فقتلوا من الافرنج خلقاً كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد، ثم عادوا في آخر ذلك اليوم، وبلغ السلطان، وأن الافرنج قد اجتمعوا للقتال، وتصدى لهم فنكلوا عنه، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم، وجرح مثلهم، فرجعوا ناكصين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة.

وفي تاريخ بيبرس: لما خرج السلطان من دمشق عبر نهر الاردن، ورأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأخربها، وأغار على

ماهنـاك، فاجتمـع الفرنـج وجاءوا إلى قتـاله، فلما رأوا كثـرة من معـه من العسكر لم يقـدموا عليـه، فأقـام عليهم، وأحـاطت بهم عسـاكره تـرميهم بـالسهـام وتنـاوشهـم القتال، فلـم يخرجـوا، وأغـار المسلمـون على تلـك الاعمال، ونالوا منها مـالم يكونوا يطمعون فيه من الغنـائم والنهب وعادوا فأعطـاهم دستورا ليستريحوا، ودخل دمشـق فأقام بها إلى شهر رجـب من هذه السنة.

وفي المرآة: لما وصل السلطان من دمشق إلى بيسـان هرب أهلها، فقدم بين يديه جـرديك النوري وجاولي الاسـدي، وجماعة من النوريـة، فجاءوا الى عين جالوت والفـرنج على الفولة، فصـادفوا على عين جالوت طـائفة مـن الافـرنج، فقتلـوا منهـم مقتلـة عظيمـة، وأسروا مائة فـارس، ورحـل السلطان الى الفـولة يطلب المصاف فتحصـن الفرنج بالـراجل، ولم يخرج منهـم أحـد، فلما كـان في الليـل ساروا طـالبين عكـا. ورحـل السلطـان خلفهم يقاتـل الساقة، فقتل منهـم جماعة، فدخلوا عكـا، وعاد السلطان على جينين فنهب وأحرق وعاد الى دمشق.

ذكر مسير السلطان الى الكرك:

وفي رجـب من هـذه السنة سـار السلطان إلى الكـرك فحاصرهـا، وفي صحبته تقي الديـن عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيـه الملك العادل أبي بكـرليحضر إليه ليـوليـه حلب وأعمالها، وفـق مـاكـان طلبه منـه، فحضر العادل إليه، واستمر الحصار على الكرك مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه ان الافـرنج كلهم اجتمعوا ليمنعوا منه الكـرك، فكر راجعاً الى دمشق في منتصف شعبان، وسار معه أخوه العادل، وأرسل ابن أخيه الملك المظفـر تقي الدين عمـر الى مصر نائباً عنه، وفي صحبتـه القاضي الفـاضل، ووصـل السلطان إلى دمشـق، وبعث أخـاه العادل على مملكـة حلب وأعمالها، واستقـدم ولده الملـك الظاهر إليـه، وكذلـك نوابـه ومن

يعز عليه، وإنما أعطى السلطان صلاح الـدين آخاه العادل حلب ليكون قريباً منه، فـإنه كان لايقطع أمراً دون مشورتـه، واقترض السلطان صلاح الدين من أخيـه العادل مائة ألف دينار، وتألم الظاهـر على مفارقة حلب، وكانـت إقامتـه في حلب ستـة أشهر، ولكنـه لايظهر مـا في نفسه، ولكـن يظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وفي تاريـخ بيبرس: لما توجـه صلاح الـدين الى الكـرك استدعـى أخاه العادل أبـا بكر مـن مصر، وكان قد أرسـل إليه يطلب منـه مدينـة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوافاه إلى الكرك في العسكر المصري، فكثـر جمعه، وحصر الحصـن من الـربض، ونصـب عليه المجـانيق، ثم رحل عنـه، وعاد إلى دمشق واستصحب أخـاه العادل معه، وسير ابن أخيه تقي الدين إلى مصر نـائبا عنه، وأعطى أخاه العادل حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن عـز الديـن مسعود صاحـب الموصل قبـض على نائبـه مجاهد الديـن قايماز، وكان إليـه الحكم في جميع البـلاد، وكان الذي أشـار عليه بـذلك عـز الـدين محمـود وشرف الـدين ابـن أبي الخير، وهما مـن أكابـر أمـرائه، لهوى بنفسيهما، ولما أراد القبـض لم يقدم على ذلـك لقـوة مجاهـد الدين، فـأظهر أنه مريـض، وانقطع عن الركـوب عدة أيام، فدخـل إليه مجاهد الـدين وحده، وكان لايمنـع من الدخول عليـه ولاعلى النساء، فلما دخل عليه قبض عليه وركب لـوقته إلى القلعة واحتوى على الاموال التي لمجـاهد الـديـن وخزائنـه، وولى عـز الـدين محمـود القلعـة، وجعل ابـن صاحـب الغراف أمير حـاجب، وكان تحت مجاهـد الديـن إربل وأعمالها ومعه فيهـا يوسـف بن زيـن الديـن علي وهو صبـي صغير ليس لـه من الحكـم شيء، والحكم والعسكـر إلى مجاهد الـديـن وتحت حكمه أيضاً

جزيـرة ابن عمر، وهي لمعـز الدين سنجرشـاه بن غازي بن مـودود، وهو أيضاً صبي صغير، وبيـده أيضاً شهرزور وأعمالها ونوابه فيهـا، ودقوقا وبها نائبه، وقلعة عقر الحميدية، ونائبه فيهـا، ولم يكن بقي لعز الدين صاحب الموصل بعد أن أخذ صـلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصـل، وكانت قلعتها بيـد مجاهد الـدين، وهـو على الحقيقة الملـك، فلما قبض عليـه عز الدين امتنع صـاحب إربل والجزيرة من طاعته، وأرسـل الخليفة إلى دقوقا من حـاصرها وأخذهـا، ولم يحصل لعز الـدين مسعـود مماكان بيـد مجاهد الديـن قايماز غير شهـرزور، وصارت إربـل وجزيـرة ابن عمـر أضر شيء على صاحـب الموصل، وأرسـل صاحبهـا إلى صلاح الـدين بـالطاعـة له والكون في خدمته، وكـان الخليفة الناصر لدين الله قـد سير صدر الدين شيخ الشيـوخ،، ومعه بشير الخادم إلى صلاح الـدين في الصلح مـع عز الدين صاحـب الموصل، فأجاب صلاح الديـن إلى الصلح على أن تكون إربل والجزيـرة معه، ويقـرر الصلح، وإنما قـوى طمع صـلاح الديـن في الموصل لقبـض صاحبها على مجاهد الـدين، فلما تبين لعز الديـن مسعود الضرر الذي ترتب على امساك المجاهد قـايماز أمسك الذين أشاروا عليه باعتقـاله وأفرج عنـه في الاعتقال، ثم رحل صـلاح الدين عـن الموصل، ونازل سنجار على ماذكرناه عن قريب.

ومنها أنـه سار اسطول من مصر في البحـر فلقوا بطسة فيها نحـو من ثلاثمائة من الفرنـج، نجدة لفرنج الساحل فقاتلـوهم فظفر بهم المسلمون وأخذوهم أسرى، فقتلـوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى وغنمـوا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنهـا أنه سـارت جماعـة كبيرة مـن الفرنـج مـن نـواحي الـداروم إلى نواحـي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمـع بهم المسلمون فخـرجوا إليهـم على طريق صدر وأيلة، فأفرج الفرنـج من بين أيديهم على ماء يقال له العبلة، وسبقـوا المسلمين إليه، فـأتاهـم المسلمـون وهم عطـاش قد أشرفـوا على

الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سحابة عظيمة بلطفه، فمطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قيظا والحر شديداً وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم الا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله ورحمته.......

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير شاه أرمن:

اسمه سقمان بن ظهير الدين بن ابراهيم بن سقمان القطبي، صاحب اخلاط، توفي في هذه السنة، وعمره أربع وستون سنة، وكان ملكه لها في سنة احدى وعشرين وخمسمائة، وكان بكتمر مملوك أبيه بميا فارقين لما مات شاه أرمن، فلما سمع بموته سار من ميافارقين، ووصل الى أخلاط، وكان أكثر أهلها يريدونه، وكان مماليك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله استولى على أخلاط وملكها، وجلس على كرسي شاه أرمن، واستقر في ملكه حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، كما سنذكره إن شاء اله تعالى.

تاج الملوك بوري بن أيوب:

أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكنيته أبو سعيد، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة، وكان الله تعالى قد جمع فيه مكارم الاخلاق، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة وفضلا وفصاحة، وكان أديبا شاعراً مترسلاً، وله ديوان شعر، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه...

وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر من هذه السنة على مدينة حلب من جراحة أصابته لما حصرها أخوه السلطان صلاح الدين

يوسف كما ذكرناه، وعمره ثلاث وعشرون سنة ـ بوري بضم الباء الموحدة وسكون الواو، وكسر الراء، وفي آخره ياء ساكنة، وهو اسم للذئب بلغة الترك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن صاحب ماردين وصاحب الغرب ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاه صاحب ماردين:

وهو قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين كان جوادا شجاعاً عادلا منصفا عاقلاً، توفي في جمادى الاخرة من هذه السنة، وكان والده ألبي قد ملك في سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وبقي في ملك ماردين الى مدة لم نقف على انتهائها، وملك بعده ابنه ايلغازي المذكور، واستمر فيها إلى أن مات في هذه السنة، وخلف أولاداً أطفالا، فأقيم في الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان وكان به هوج وخبط، فمات وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن ايلغازي، ولم يكن له حكم، بل الحكم إلى البقش والى مملوك للبقش اسمه لؤلؤ، وكان قد تغلب على استاذه البقش بحيث كان لايخرج البقش عن رأي لؤلؤ لمذكور، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين من الحكم شيء، وبقي الامر كذلك الى سنة احدى وستمائة، فمرض البقش، وأتاه ناصر الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفي تاريخ بيبرس: لما مات قطب الدين ايلغازي، ملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان، وهو طفل وقام بتربيته وتدبير ملكه نظام الدين البقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط، خال قطب الدين، فحكم في دولته وأحسن البقش تربية الولد، وتزوج بأمه، فلما كبر الولد لم يمكنه البقش من المملكة لانه كان أهوج، ولم يزل كذلك إلى أن مات الولد المذكور، وكان له أخ صغير أصغر منه اسمه قطب الدين، فرتبه البقش مكانه، والله أعلم.

ذكر غزوة صلاح الدين يوسف الكرك مرة أخرى ثانية:

وذلك لانه رأى ان فتحها الآن أنفع للمسلمين فإن الفرنج الذين فيها يقطعون الطريق على الحجاج والتجار في البراري والبحار، فأرسل إلى العساكر الحلبية والجزرية والمصرية، فقدم تقي عمر من مصر، وكان بها كما ذكرنا ومعه القاضي الفاضل وجاء من حلب الملك العادل أبوبكر أخوه، وقدم ملوك الجزيرة وسنجار وتلك النواحي والاقطار، وأخذهم كلهم في جيشه، فسار بهم إلى الكرك فأحدقوا بها في رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة، وركب عليها المجانيق، وكانت تسعة، وأخذ في حصارها، وضيق على أهلها، واشتد القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن وله خندق عمقه ستون ذراعاً، فألقى فيه الأحجار والاخشاب والاتربة، ورأى الفرنج شدة القتال وعرفوا عجزهم عن حفظ الحصن، فأرسلوا إلى ملكهم وفرسانهم يستنجدونهم، فاجتمعوا من كل مكان، فلما بلغ صلاح الدين خبر مسيرهم رحل عن الكرك الى طريقهم ليقاتلهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، فقرب منهم ولم يمكنه الدنو منهم لضيق الارض وصعوبتها، وانتظر خروجهم من ذلك المكان، فلم يخرجوا، فرحل وسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل الى نابلس أحرقها وأخربها، وقتل وأسر

وسبى وسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام، وكان فيها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم، وكان بها الاقساء والرهبان وعندهم الاسرى والودائع، فطلبوا الامان فأمنهم على أن يطلقوا من عندهم من الاسرى، ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق.

وفي بيبرس: لما فرغ من سبسطية رحل إلى جينين فنهبها، وعاد إلى دمشق وبث سراياه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان صلاح الدين على الكرك بلغه أن الافرنج قد اجتمعوا له كلهم فارسهم وراجلهم ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها وقصدهم ونزل على حسي تجاههم، ثم صار الى ماعير فانهزمت الفرنج قاصدين الى الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالاغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة فنهبوا نابلس وماحولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان الى دمشق، وأذن للعساكر بالانصراف إلى بلدانهم، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر الملك المظفر أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك امر لاخيه العادل ان يعود الي حلب، وأقام السلطان بدمشق ليؤدي فرض الصيام.

وقدمت على السلطان خلع الخليفة فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وخرتبرت، وآمد، التي اطلقها له السلطان.

وفي المرآة: وكان عند صلاح الدين رسل الخليفة شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وبشير الخادم، وكانا مريضين فطلبا العود الى بغداد فاذن لهما، فمات بشير بالسخنة وشيخ الشيوخ بالرحبة.

وذكـر في النـوادر السلطانيـة أن دخـول السلطـان صلاح الـديـن إلى دمشق كـان يوم السبت سـابع جمادى الا خرة مـن سنة ثمانين وخمسمائة، وفي هـذا الشهر وصـل رسل الخليفـة ومعهـم الخلع، وفيـه أيضاً وصلـت رسل ابن زيـن الدين مستصرخاً إلى السلطـان يخبرون ان عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهـد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم.

ذكر بقية الحوادث:

منها انه وقع الصلح بين صلاح الديـن وصاحب طرابلس، وذلك قبل مسيره الى الكرك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والثمانين بعد المائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين مخيـم بظاهر حماة، وكان بلغـه في أواخر السنة الماضية أن صـاحب الموصل نازل إربل، فبعـث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركـب من فوره إليه في جنـوده وعساكره، فسار إلى بعلبـك، ثم حمص ثم حماة، فـأقام بها أيامـاً، ثم سار إلى حلـب، وتلقاه أخوه العـادل، واجتمعت اليه العسـاكر، فخرج منها في صفـر لقصد الموصل، فقطع الفـرات من البيرة، وجاء الى حران فقبض على صـاحبها مظفر الدين بـن زين الدين، وهـو أخو زين الـديـن صـاحـب إربـل، وكـان وصـول السلطـان الى حـران في الثـاني والعشريـن مـن صفر، وكـان أمـر لسيـف الديـن المشطـوب أن يسير في مقـدمـة العسكـر إلى رأس عين، وكـان قبضـه على صـاحـب حـران في السادس والعشرين مـن صفر وذلك لشيء كان جرى منـه، وحيث كان

بلغه عنه رسوله، فأنكر عليه، وأخذ منه قلعة حران والرها ثم اعتقله تأديبا له إلى مستهل ربيع الاول، ثم أخرجه وخلع عليه وطيب قلبه، وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان صاحب حران مظفر الدين قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران، فلم ير السلطان لذلك أثراً، فغضب عليه واعتقله، ثم سار السلطان من حران في ثاني ربيع الاول إلى رأس عين ووصل إليه في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان صاحب الروم يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصلها يوم السبت الثامن من ربيع الاول، وجاء إليه عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين، فالتقاهم السلطان وأكرمهم.

وقال ابن كثير: فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إليه عماد الدين أبوبكر بن قرا أرسلان صاحب بلاد بكر وآمد، ثم بلغه موت أخيه ابن قرا أرسلان، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه، ثم سار السلطان فنزل على الاسماعيليات قريباً من الموصل، وذلك يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الاول، وكان يصل من العسكر كل يوم نوبة جزيلة تحاصر الموصل، وجاء إليه هناك صاحب إربل زين الدين، وأرسل السلطان ضياء الدين ابن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الامام ونصرة الاسلام.

ثم سار السلطان ونزل على الموصل، وهو نزوله الثاني عليها، فحاصرها، وكان القتال يعمل كل يوم ويخرج المواصلة اليه عراة يقاتلون،

وأرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء الاتابكيات وجماعة معهن يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم خائبين، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لاسيما وفيهن بنت نور الدين، وضيق على أهل الموصل، فأشاروا عليه بقصد أخلاط، لما رأوا أنه لاطمع لهم في الموصل، وقالوا: ماتفوت الموصل، فسار إلى أخلاط، وفي مقدمته ناصر الدين محمد وتقي الدين عمر، فوصلوا ميا فارقين وبها يرنقش مملوك صاحب آمد، فامتنع عليهم وقال: أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين، وبعد هذا فالأمر للخاتون والدتهم، فأرسل إليها صلاح الدين خادما ووعدها أن يتزوجها ويزوج ابنه احدى بناتها، فأجابت وسلمت إليه ميافارقين، وأعطاها الهتاخ، وأعطى يرنقش جبل جور، وكان الحاكم على خلاط الوزير مجد الدين ابن الموفق وهو الذي كاتب السلطان، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال، فغالط وقال: في القلعة سيف الدين بكتمر، وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن، وربما جاء البهلوان، فعاد الفقيه إلى السلطان بغير شيء، وجاء البهلوان بعساكر اذربيجان وهمذان، فنزل قريباً من اخلاط، وأرسل الى السلطان يقول: هذه البلاد لابنتي وهي في القلعة، والمصلحة ان تبقى المودة بيننا ودوام الصداقة، فرجع السلطان الى الجزيرة، ورجع البهلوان الى بلاده بعد ان حمل إليه سيف الدين بكتمر أموالا وهدايا، وولى السلطان على ميافارقين ودياربكر مملوكه سنقر الخلاطي، وعاد إلى الموصل، وهذه المرة الثالثة، وهي الاخيرة، فنزل الاسماعيليات، وقيل نزل على كفر زمار بدجلة، وكان الحر شديداً، فأقام مدة، وعزم على أن يشتي بذلك المكان، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة، واستعد المواصلة للحصار، ومرض السلطان مرضاً شديداً خيف من غائلته، فرحل طالباً وهومريض، وكان يتجلد، ولم يركب في محفة، فوصل حران وهو شديد المرض، وبلغ غاية الضعف حتى أيس منه، وأرجف بموته، وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال من هذه السنة فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها.

وفي المرآة: ولما كان السلطان على كفر زمار أشار أمراء عز الدين مسعود عليه بأن يخرج إليه الاتابكيات يشفعن إليه فخرجن ومعهن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان وقرر عماد الدين الصلح، وخطب للسلطان بالموصل، وأعطى عز الدين شهرزور والبوازيج، ووقف عليها قرية تعرف بباقيلا، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان، واشتد الحر فمرض مرضاً شديداً فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل إنه سقي، وضعف ضعفاً خيف عليه منه، وأرجف بموته، وأقام على نصيبين وقد أيسنا منه، ثم حمل في محفة إلى حران، فنزل في ظاهرها، وبنى داراً سماها دار العافية.

وفي تاريخ النويري: وجاءت رسل صاحب الموصل إلى السلطان وهو بحران بالاجابة إلى ماطلب. وهو أن يسلم صاحب الموصل الى السلطان شهرزور وأعمالها وولاية القراميلي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل ومابيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، ورضي السلطان بذلك، وتقرر الصلح، وأمنت البلاد، ثم رحل السلطان من حران وقد عوفي وعاد إلى دمشق في السنة الآتية.

وقال ابن كثير: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وبين المواصلة ـ كما ذكرنا ـ انقطعت خطبة السلاجقة والارتقية بتلك البلاد كلها.

قال: ولما جاء إليه أخوه العادل من حلب، ورآه في غاية الضعف أشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ماأبالي وأنا أترك من بعدي: أبا بكر، وعمراً وعليا وعثمانا، وأراد بأبي بكر أخاه العادل صاحب حلب، وأراد بعمر تقي الدين عمر صاحب حماة، وهو إذ ذاك صاحب مصر

وبها مقيم، وأراد بعثمان وعلي ابنيه الملك العزيز عثمان والملك الافضل علي، ونذر السلطان في ضعفه لئن شفاه الله تعالى من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الكفار، ولايقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلن اكبر همته فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع مايملكه من الاموال والذخائر وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لانه نقض العهد الذي عاهد السلطان عليه، فغدر بقافله تجار من مصر فأخذ أموالهم وضرب رقابهم بين يديه صبراً، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم، وكان هذا النذر كله باشارة القاضي الفاضل، ثم إن الله عز وجل بكرمه وفضله عافاه مما كان ابتلاه به، فسارت البشائر بذلك في كل ناحية، ودقت البشائر وزينت.

قال ابن كثير: ثم ركب السلطان من حران بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماه وحمص حتى دخل دمشق، وكان دخوله حلب يوم الاحد الرابع عشر من المحرم سنة اثنتين وثمانين، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشر نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته، ومعه خدمة عظيمة، ومنّ عليه بحمص موضع والده بحكم وفاته، ثم سار إلى دمشق فدخلها في الثاني من ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، وكان يوماً مشهوداً وصباحاً محموداً.

وفيها كان المنجمون بدمشق قد حكموا بأن يهب هواء مزعج برمل يهلك الناس، فحفروا أسراباً واختفوا فيها، فظهر كذب المنجمين.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الامير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه

صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص، ثم نقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الاوسط بينها وبين أخيها الملك المعظم تورانشاه، صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الاموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف على الف الف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة.

وقال النويري: وفي هذه السنة، ليلة عيد الاضحى، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أبقى السلطان حمص وماكان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد بن شيركوه، وعمره اثنتي عشرة سنة، وخلف ناصر الدين محمد شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عودته من حران، وأخذ أكثرها، ولم يترك الا مالا خير فيه.

وفي المرآة: وكان السلطان صلاح الدين يخافه، لانه كان يدعي أنه أحق بالملك منه، وكان بلغ السلطان عنه هذا، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء إلى حمص، وتوفي يوم عرفة بقي يتناثر لحمه، وقيل انه سم، وقيل مات فجأة.

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود :

صاحب حصن كيفا وآمد، مات في هذه السنة، وملك بعده ولده

سقمان، ولقبه قطب الـدين، وكان صغيرا، فقام بتدبير دولتـه وزيره القوام ابن سماقا الاسعردي.

وفي تاريخ بيبرس: مات نور الدين محمـد المذكور، لماكان صلاح الدين محاصراً للموصل، وخلف ولديـن، ملك الاكبر منهما واسمه سقمان، ولقبه قطب الديـن، فلما بلغ أخاه وفاته سـار ليملك بلاده فتعذر عليـه أمرها، فسـار إلى خرتبرت فملكهـا، وهي بيـد أولاده، ورجع صـلاح الديـن الى ميافـارقين، فحضر إليه ولد نـور الدين فأقـره على ملك أبيه، ومـن جملته آمد، وكانوا خافوا أن يأخذهـا منهم فلم يفعل، وردهـم الى بلادهـم وشرط عليهم أن يكـونوا تحت أمره وطـاعته، وجعـل معهم من جهتـه أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب والده.

الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر

وكان من الامراء الكبـار ايام نور الدين محمود وصلاح الـدين يوسف، كما ذكرنـا، توفي في دمشـق في جمادى الاخرى من هـذه السنة، مـن جرح أصابه وهو في حصار ميافارقين.

الست خاتون عصمة الدين بنت معين أنر:

نائب دمشق وأتابك عساكرها قبل نور الدين محمود ـ كما تقدم ـ وقد كـانت زوجـة نور الـدين ــ كما تقدم ــ ثم خلـف عليها مـن بعده صـلاح الديـن في سنة ثـلاث وسبعين وخمسمائة، توفيـت في هذه السنـة، وكانت من أحسن النساء وأعفهن، وأكثرهـن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية في محلة حجر الذهب، وخانقـاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانيـاس، ودفنت بتربتهـا في سفح قـاسيون قـريبا مـن قبيبات الشركسية، ولها أوقـاف كثيرة، فأما الخاتونية البرانيـة التي هي على

القنوات محلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان الذي هي به بتل الثعالب، فهي من انشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لامه، وكانت زوجة زنكي ونور الدين صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين كما تقدم.

وفي المرآة: ولها صدقات كثيرة وبر عظيم، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه في حجر الذهب، قريبة من حمام ازكش، وتعرف بمدرسة خاتون، وكانت وفاتها في رجب، وبلغ السلطان صلاح الدين وفاتها، وهو مريض بحران، فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف، وكان يصدر عن رأيها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر والشام وغيرهما، وكان قد تعافى من مرضه، ووجد نشاطاً، ورحل من البلاد الفراتية ووصل الى حلب يوم الاحد الرابع عشر من محرم هذه السنة، وكان يوماً مشهود الشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام فيها أربعة أياما ثم رحل في ثامن عشر من محرم نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخته، ومعه هدية هائلة، ومن عليه بحمص، فأقام أياما يعتبر تركة أبيه، وكان قد خلف أموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار، وكان القاضي نجم الدين ابن عصرون حاضر القسمة . فقام يوماً فوقعت من تحت ذيله منطقة مجوهرة، فنسبه العادل إلى ما لايليق به، وكان نجم الدين منزها عن ذلك لانه كان غنيا جواداً، شريف النفس، فحلف للعادل انني ماعلمت بها وصدق، وإنما الحساد وجدوا طريقاً للقول، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الاول، وكان يوما لم ير مثله فرحاً وسروراً، ثم قرر في ملك دمشق ولده الافضل علياً، ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته، الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملقب بالملك العزيز على ملك مصر، ويكون العادل أتابكه، وله اقطاعات عظيمة جدا، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم عمر على الدخول إلى بلاد إفريقية، فلم يزل السلطان يكاتبه ويتلاطف به، ويترفق له حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك بسنين، وزاده على ذلك مدينة ميافارقين.

وقال النـويري: ولما بعث السلطان ولـده الملك العزيز صحبـة العادل الى مصر، استدعى تقي الدين من مصر بسبب أن السلطان تجنى عليه في البـاطـن، فإنـه ظـن أنـه أخـرج ولـده من مصر ليملـك مصر إذا مـات السلطان، وقيل إنه توقف عن الحضـور، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفـريقية وبرقة من المغرب، وبلـغ السلطان ذلك فنهاه، وأرسـل يستدعيه ويـلاطفه، فحضر إليـه، ولما حضر إليه زاده على حماه منبج، ومعرة النعمان، وكفـر طاب، وميافارقين، وجبـل جور بجميع أعمالها، واستقر الملـك العادل أبو بكـر، والملك ألعـزيز عثمان بمصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

وفي تـاريخ بيبرس: سير السلطـان صـلاح الديـن الى ابـن أخيه تقـي الديـن عمر يستـدعيه مـن مصر إلى الشام والسبـب في ذلك أن صـلاح الدين لما استنابه بمصر ضم إليـه ولده الافضل، وكان أكبر ولده، فخاف صـلاح الديـن في مـرضه أن يتـولى تقـي الديـن البـلاد، ولايجلس ولـده الافضل، فأرسل في طلبه لهذا السبب، وأشـار عليه بعض أمرائه أن يعزل العادل من حلـب، فوقعت هذه الاشارة مـن نفسه موقعاً موافقـاً لغرضه، فلما حضر أخوه العادل إليه، أوصى صلاح الـدين ولده الظاهر غازي أن يلتمس من عمه حلب ليهبها له، فسأله ذلـك، فأجابه عمه العادل لوقته وكتب لـه بها، فتسلمها واستقـر بها وأولاده من بعـده، وكان تقـي الديـن يومئذ بمصر فبلغـه ان صلاح الدين يـريد عزله عنهـا، فأراد أن يهرب إلى المغرب، فإن قراقـوش فتح با لمغرب مدنا كثيرة فـأشار عليه أمراء مصر أن لايـروح إلى المغرب، وأن يمضي إلى عمـه ويستعطفه، فتجهـز وخرج مـن مصر، وسير صـلاح الديـن ولـده العزيـز صحبـة عمه العـادل الى مصر، ورتب ولده الظاهر غازي بحلب عـوضاً عن عمه العادل، ولما وصل تقي الدين الى صلاح الدين أنعم عليه بميافارقين.

وفي النوادر السلطانية: ولما تقرر الامر المذكور بين هؤلاء الملوك، قال العادل: اجتمعت بالملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم ان المفسدين كثير، ولاتخلو غدا ممن يقول عني مالايجوز، ويخوفك مني فإن كان لك عزم تسمع فقل إلي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع، وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: أنا أعرف أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا مالي الا أنت، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه، فقال مبارك، وذكر كل خير.

وفي النوادر أيضاً أن الملك الظاهر سار إلى حلب حتى أتى إلى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، ووالياً عيسى بن بلاشو، فنزل في يوم الجمعة بعين المباركة، وخرج الناس الى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الاخرة من هذه السنة، وصعد القلعة المحروسة ضحوة النهار، وفرح الناس به فرحاً شديداً.

وأما تقي الدين فإنه لما وصل، سار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر في ثالث عشرين شعبان من هذه السنة وأعطاه حماة، وسار إليها.

وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من هذه السنة.

وفيها حضر القمص صاحب طرابلس الى الملك الناصر صلاح الدين، واتفق معه ان يفتح له جميع الساحل، وأطلق له الملك الناصر جميع الاسرى والذين كانوا عنده، وجرد معه عسكراً الى الساحل، وفتح

الطريق من مصر إلى الشام، وسار فيها التجار، ثم إن القمص(٢٠) المذكور نافق وأخذ قافلة من التجار، ودخل بلاد الفرنج، فحلف الملك الناصر لئن ظفر به ليقتلنه بيده، وكان ذلك سبب فتوح الساحل.

وفيها كانت فتنة بين التركمان والاكراد ببلاد الجزيرة، والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق مالايحصى ودامت عدة سنين، وانقطعت الطرق، ونهبت الاموال واريقت الدماء، ثم إن مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل جمع عنده رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم، وخلع عليهم، وانقطعت الفتنة العظيمة.

وفيها دخل سيف الاسلام الى مكة ومنع من الاذان بحي على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس، وأغلق أمير مكة باب البيت، وصعد إلى أبي قبيس، فأرسل إليه وطلب المفتاح من صاحب مكة، فأبى من انفاذه فقال سيف الاسلام لرسوله: قل لصاحبك: إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لاتأخذوا المفتاح، من بيت شيبة، فنأخذه ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه المفتاح.

وفيها قسم السلطان صلاح الدين البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل، فإنه لما مرض أشاروا عليه بذلك.

وفيها ظهر الخلاف بين الافرنج، وتفرقت كلمتهم، وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام.

وفيها غدر ابرنس الكرك واسمه ارناط، وكان أخبث الافرنج، وأشرهم، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام، وفيها خلق عظيم ومال كثير، فاستولى على الجميع قتلا وأسراً ونهباً، فأرسل اليه

السلطان يوبخه على مافعل ويقـول: أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت، فلـم يلتفت وشـن الغـارات على المسلمين وفتـك فيهم، فنـذر السلطـان دمه، وأقام السلطـان بدمشق يجهز للقـاء العدو، واستدعى العسـاكر من المشرق والمغرب.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة وكان أولها يوم السبت، وكـان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أنـه أول سنة الروم ايضاً، وهذا اليوم الـذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضاً.

قال ابن الاثير: وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

ذكر غزوات السلطان صلاح الدين وفتوحاته:

كان السلطـان رحمه الله قد جمع عسـاكره في آخر السنـة الماضية، ولما استهلت هـذه السنة التـي أولها يوم السبت بـرز السلطان مـن دمشق في هذا اليوم، وقيل برز في أثناء الشهـر، أعني محرم هذه السنة فسار إلى رأس الماء، فنزل ولـده الافضل هنـاك في طائفـة من الجيـش، وتقدم السلطـان ببقيـة الجيش الى بصرى، ثـم خيـم على قصر أبي سـلامـة ينتظـر قـدوم الحجاج وفيهـم أخته ست الشـام وابنها حسام الديـن محمد بن عمـر بن لاجين ليسلموا من معرة ابرنس الكرك.

وفي تاريـخ بيبرس: وفي هذه السنـة تقدم أمر صـلاح الديـن إلى جميع البلاد بأن يحضروا للغزاة في سبيل اللـه، فحضر من الجند عسكر الموصل وعسكر ديـار بكر، مقدمهـم الامير زين الديـن صاحب حـران، وعسكر الشـام مقـدمهم ابـن دلـدرم، وعسكـر مصر وحلب وغيره، وخـرج مـن

دمشق وقصد الكرك، كما نذكر عن قريب، انشاء الله تعالى.

وفي المرآة: خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام، ونزل بصرى يرتقب وصول الحاج، وقد كان بلغه ان ابرنس الكرك يرتقب وصولهم، فخاف من غدره، ووصل الحاج في اواخر المحرم، وخلا سر السلطان منهم فسار الى الكرك على مانذكره.

وذكر صاحب النوادر السلطانية: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم صلاح الدين على قصد الكرك، فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض بصرى منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على مافي طريقهم من بلاد الساحلية ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر الشتوي، ووصل معهم بيت الملك المظفر، وماكان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالهم بالفرنج، بأرض انطاكية وبلاد ابن ليون، وذلك أنه كان قد مات ملك الافرنج الى لعنة الله ووصى لابن أخته بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرته، وكان وصول تقي الدين الى حلب في السابع والعشرين من محرم هذه السنة، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق، وأقام بها الى ثالث صفر، ثم انتقل الى دار طمان.

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب الى حارم وأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان الى الشام، وكان وصوله الى السواد في خامس عشر ربيع الاول من هذه السنة.

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعشترا ولقيه ولده الملك الافضل، ومظفر الدين وجميع العساكر، ومن منتصف ربيع الآخر عرض السلطان

العساكر على تل يعرف بتل تسيل، وتقدم الى ارباب الميمنة بحفظ موضعهم والى اصحاب الميسرة كذلك، والى اصحاب القلب بمثله، ثم ذكر صاحب هذا التاريخ وقعة حطين، ولم يذكر ماجرى قبل هذه الواقعة من الأمور، ونحن نذكرها مفصلة بعون الله ولطفه.

ذكر محاصرة الكرك:

لما قدم الحاج في أواخر صفر، نزل السلطان على الكرك، وقطع ماحوله من الاشجار، ورعى الزروع، وأكلوا الثمار، وجاءته العساكر المصرية، فتلقاهم بالقريتين، واجتمع عنده خلق كثير من العرب والترك والكرد وغيرهم، وكذلك فعل بشوبك مافعل بالكرك من المضايقة والمحاصرة واذهاب ضياء تلك الضياع، وازالة نقاء تلك البقاع، واقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العسكر.

وتوافت الجيوش الشرقية، فنزلوا عند الافضل، وقعدوا ينتظرون الاشارة من السلطان.

ذكر بعث الافضل الى اعمال طبرية سريته:

ثم ان الملك الافضل بعث سريته نحو أعمال طبرية وأمرهم بالغارة على حين غره، وجعل مقدمهم مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك، وجعل على عسكر دمشق قايماز النجمي، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي، فساروا وصبحوا صفورية، فخرج إليهم الفرنج في جمع عظيم من الداوية والاسبتارية وغيرهما، فوقع حرب عظيم، وكاد المسلمون أن ينهزموا وينفلوا، فثبت قايماز النجمي في صدورهم وكذلك مظفر الدين وحمل عليهم من ناحيته ودلدرم من ناحيته، فقتلوا وغنموا وأسروا وسبوا

ورجعوا سالمين غانمين، وجاء الخبر بالفتح والظفر للسلطان صلاح الدين وهو بالكرك، وكان هذا مقدمة الفتح.

وفي تاريخ بيبرس: ندب السلطان ولده الافضل للغارة على عكا والسواحل، وسير صحبته مظفر الدين كوكبري، فلما وصلوا صفورية التقوا الفرنج، ووقع القتال، فهزم الله عز وجل الافرنج، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، منهم مقدم الاسبتارية، وأسر الباقون وسيرت البشائر الى البلاد، ولما انتهى الخبر إلى السلطان رجع عن الكرك ولحق بالعسكر الذي مع ولده الافضل، وقد تلاحقت إليه العساكر والنجدات.

وفي المرآة: كان السلطان صلاح الدين قد أمر ولده الافضل عند مسيره الى الكرك أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ينتظر باقي العساكر الشرقية، فأنهض الافضل منهم طائفة للغارة على طبرية، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين، وعلى عسكر الشام صارم الدين قايماز النجمي، فنزلوا طبرية وتقدم بدر الدين دلدرم مقدم عسكر حلب الى طبرية، فخرج إليه مقدم الداوية والاسبتارية ومعهم جماعة فقاتلوهم فقتلهم دلدرم وأسر بعضهم، وسار إلى صفورية ففعل كذلك، وعاد بالأسارى الى الافضل وهو على شعب الشهاب، وجاء السلطان الى تسيل - قرية غربي نوى - وصعد على تلها وعرض العساكر، وسر بما رأى، واندفع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الاول نحو فيق، ورحل الافضل بالعساكر معه فالتقوا على الاقحوانة، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخطباء، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر الفاً من الفرسان، وأما الرجالة فيقال إنهم كانوا في ثمانين الفا مابين فارس وراجل، فنزلوا صفورية، وتقدم السلطان الى طبرية.

ذكر محاصرة طبرية وفتحها:

لما تقدم السلطـان الى طبرية نصـب عليها المجانيـق، ونقب أسـوارها، ففتحها يـوم الخميس الرابـع عشر من ربيـع الآخر، وتمنعت القلعـة عليه وبها زوجة القـومص، وتقدم الفـرنج فنزلـوا لوبيـة يوم الجمعة عنـد طلوع الشمس، وملـك المسلمون عليهم الماء، وكان يـوماً حاراً، والتهـب الغور عليهم، وأضرم مظفر الـدين النار في الزرع، وباتوا طـول الليل والمسلمون حولهم، فلما طلع الفجـر يوم السبت قاتلوا الى الظهر، ثـم صعدوا الى تل حطين على مانذكر الآن وقعة حطين.

وقال ابـن كثير: لما سار السلطان الى طبرية فتحهـا، وقد كانـت طبرية تقاسـم بلاد حـوران والبلقاء وماحـولها من الجولان وتلـك الاراضي كلها بالنصف، فاراح الله المسلمين من تلك المقاسم، وتوفرت عليهم.

وقال العماد: وكانت الست صاحبة طبريـة قد حمتها ونقلت إليها كل ماملكتـه وحوتـه، فلما جاء إليها السلطـان أمنها على أصحـابها وأموالها، وخـرجت بنسـائهـا ورجـالها وسارت الســت إلى طـرابلـس بلد زوجهـا القومـص بمالها وحالها، وعـادت طبرية آهلة آمنـة بأهـل الايمان، ثم عين السلطان لولايتها صارم الدين قايماز النجمي، وهو من أعيان الامراء.

وقال ابن كثير: ولما اجتمـع السلطان بولده الافضـل، خيم على عشترا، وسمع الفرنج بـذلك فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهـم، ودخل بينهم قومـس صاحب طـرابلس، ونقض العهـد، وابرنس الكـرك في جمع عظيم قيل كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفاً، وقد خوفهم القومص بأس المسلمين، فـاعترض عليه بـرنـس الكرك فقـال لـه: لاشـك أنـك تحب المسلمين وتخوفنـا مـن كثـرتهم، والنار لاتخاف مـن كثـرة الحطـب، فقـال القومص لهم: مـا أنا إلا واحد منكم وسترون غـب ماأقول لكم، وكـانت

طبرية للقـومص، وكان قـد هادن السلطان، ودخـل في طاعته كما ذكـرنا، فأرسلت الفرنج إليه القسوس والبطريق ينهونه عن موافقة السلطان.

وأصل ملك القومـص طبرية أنه كان لطبرية ملك يقـال له أماري بن فلك، هلـك في آخر سنـة تسع وستين وخمسمائة وخلـف ولداً مجذومـاً قد سقطت أعضاؤه، فوضع الفرنج التـاج على رأسه ورضوا به مع عيبه حتى لايخرج الملك من بينهـم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكـاً مطاعاً، فلما حس بهلاكه أحضر البطريـق والقسوس وأكابر دولته وكان لـه ابن أخت صغير، وقال لهم: يكون هذا ملكاً ، ولكن القـومص أراد ان يستبد بالملك فلم يوافقـه الداوية، وقالوا: يلـزمك العمل بشروط الوصية وتكفـل بالأمر وهو مغلـوب في مقاومـة السلطان ومحاربتـه ليتقوى بـذلك على الملـك، فاشتد امره الى أن مـات الصغير، فانتقل الملك منه إلى أمه، وبطـل ماكان في نية القومص من استبداده بالملك، فانتقل الملك إليها، واجتمع الفرنج عليها، فقالـت لهم: زوجي أقدر على الملك وهو أحق بـه، وأخذت التاج مـن رأسها فـوضعتـه على رأسه، ثـم إن الملك الكبير طـالـب القومـص بحساب ماتولاه، فاستنصر القومص عليه بالسلطان صلاح الدين فهادنه وتقرب منـه، ثم لما اجتمعـت العساكر الاسـلامية مـن الشاميـة والمصرية والجزرية جـاء الملك الى القـومص بنفسه، وقبـح له رأيـه في مهادنتـه مع السلطان، ورجعه عن ذلك حتى اتفقت الافرنج كلهم على المسلمين.

ذكر وقعة حطين:

ولما اجتمـع الفـرنج لملتقـى السلطـان فـارسهم وراجلهـم وسـاروا الى السلطان ركب السلطان من عند طبريـة، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخـر والتقى الجمعان، واشتد القتـال، ولما رأى القومص شدة الامـر حمل على من قـدامه مـن المسلمين، وكان هنـاك تقي الـدين صـاحب حماة، فـأفرج لـه، وعطف عليهـم، فنجا القـومص ووصـل الى

طرابلس، وبقي مدة، ومات غماً لعنه الله، وأخذ المسلمون الفرنج من كل ناحية، وأبادوهم قتلا وأسراً، وكان في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وابن الهنفري، ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية، وما أصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن مصيبة مثل هذه الوقعة، وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

وقال ابن الاثير: وكان في جملة الاسارى جميع ملوكهم سوى القومص صاحب طرابلس فإنه انهزم في أول الواقعة، وأخذ صليبهم الاعظم عندهم، وهو الذي يزعمون أنه هو الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، ورصعوه باللآلي والجواهر النفيسة ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾[الفرقان ٢٦].

وقال ابن واصل: ذكر العماد أن السلطان الملك الناصر خلص في هذه النوبة ثلاثين ألف أسير من المسلمين، وأسر من الكفار مائة ألف أسير، وكان يوماً عظيماً حتى أنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل لبسها في رجله.

وفي المرآة: ولما فتح الله للمسلمين ونصرهم على الافرنج، جيء الى السلطان بصليب الصلبوت وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب، وهو عند النصارى مثل المسيح، والذي أسر الملك درباس الكردي، والذي أسر ابرنس ابراهيم غلام المهراني، فلما رآهم السلطان نزل وسجد شكراً لله تعالى، وجاء إلى خيمته فاستدعاهم فجلس الملك عن يمينه، وابرنس الكرك الى جانب الملك، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشاً، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشربه وسقى الابرنس،

فقال السلطان: ماأذنت لك بسقيه فلم سقيته؟ وكان السلطان قد نذر أن يقتل الابرنس بيده، فقال له: ياملعون ياغدار، خلعت وغدرت ونكثت، وجعل يعدد عليه غدراته، ثم قام إليه فضربه بالسيف حل كتفه، وتقدم المماليك وقطعوا رأسه، وأطعموا جثته الكلاب، فلما رآه الملك قتيلاً خاف وطار عقله، فأمنه السلطان وقال: هذا غدار كذاب، غدر غير مرة.

وقال ابن كثير: ولما تمت الوقعة أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى يسحبون في قيودهم، فضربت أعناقهم وفيهم جماعة من مقدمي الداوية والاسبتارية، بين يديه صبراً، ولم يترك فيهم من كان يذكر الناس عنه شرا، ثم جيء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه وبجنبه أرناط برنس الكرك وبقية الملوك عن يساره، فجيء السلطان بشراب من الجلاب مثلوج فشرب ثم ناول الملك فشرب، ثم ناول ارناط فشرب، فغضب السلطان وقال: أنا سقيتك ولم آمرك أن تسقيه، هذا لاعهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة، واستدعى أرناط، فلما وقف بين يديه قام إليه بالسيف، وقال: أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه، ثم دعاه الى الاسلام فامتنع فقتله.

وقال العماد: قام السلطان فضرب عنقه بيده.

قلت: إنما فعل ذلك بيده، إقامة لنذره الذي نذر حين مرض[٢١] كما ذكرناه.

ثم قتل السلطان جميع من كان في الاسرى من الداوية والاسبتارية صبراً، وأراح الله المسلمين من هذين الجنسين النجسين، ولم يسلم ممن

عرض عليه الاسلام منهم الا القليل، فيقال إنه بلغ القتلى ثلاثين ألفاً وكذلك الاسرى كانوا ثلاثين ألفاً، وكان جيش الافرنج ثلاثة وستين ألفاً، ومن سلم منهم مع قتلهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم، ثم أرسل برؤوس الاسرى ورأس أعيان القتلى، وبصليب الصلبوت صحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وذكر في النوادر ماملخصه أن صلاح الدين اندفع قاصداً نحو بلاد العدو في وسط نهار الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وكان بلغه أنهم اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا، فقصد نحو المصاف معهم، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل، وكان نزوله يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر، ولما رآهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو، وزحف على طبرية فأخذها في ساعة من النهار، ثم التقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في آخر الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وحال الليل بين الفريقين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرون منه، فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض تسمى اللوبية، فحال الليل بينهما أيضاً، ولما كان صباح السبت الرابع والعشرين منه ووقع القتال، نصر الله المسلمين بعونه ولطفه، فلم ينج منهم واحد، واعتصمت طائفة أخرى بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عند قبر شعيب عليه السلام، ثم ذكر ماذكرنا، ثم قال: ولما كان يوم الاحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل السلطان على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

ـ ١١٢٨٤ ـ

ذكر فتح عكا:

وفيها لغتان المدّ والنسبة إليها عكاوي، وعكة بالهاء، ولما فرغ السلطان من أمر طبرية سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر، ففتحها صلحاً يوم الجمعة، وأخذ ماكان بها من حواصل وأموال وذخائر ومتاجر، واستنقذ من كان بها من المسلمين، فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم، ففرج الله عنهم، وأمر بإقامة الجمعة بعكا، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو تسعين سنة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان جعل للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري كل مايتعلق بالداوية، من منازل وضياع فأخذها بما فيها من غلات ومتاع، ووهب عكا لولده الافضل، وقال: ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فأقمنا بها الجمعة، وأعدنا الكنيسة العظمى جامعاً، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب الشهرزوري، فإنه تولى بها القضاء والخطبة.

وفي المرآة: نازل السلطان صلاح الدين عكا يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وليس بها من يحميها، لأن وقعة حطين أبادتهم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرون على حمله فأمنهم فدخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وغنم المسلمون أموالاً لاتحصى، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها ومافيها، ولم يحضر بهذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان، وكان بمصر، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا، ويافا على مانذكره، وحضر الملك العزيزلانه قدم مع العسكر المصري، ومضى إلى مصر وماعاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان والسلطان على صور.

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أولـه: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الـذكر أن الارض يرثهـا عبادي الصالحون﴾ [الانبيـاء ١٠٥] والحمد لله على انجاز هـذا الوعد وعلى نصرته لهذا الـدين الحنيف من قبـل ومن بعد، وجعـل من ﴿بعـد عسر يسراً﴾[الطلاق ٧] وأحـدث بعد أمـر أمراً وهو الامـر الذي مـاكان الاسـلام يستطيع عليـه صبراً، وخوطـب الديـن بقولـه: ﴿ولقد مننـا عليك مرة أخـرى﴾ [طه ٣٧] فـأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحـابة، والاخرى في هذه الدولة التـي عتق فيها مـن رق الكآبـة، والـزمـان لهيبته قـد استـدار، والحق ببهجتـه قد استنـار، والكفـر قد ردّ مـاعنـده في استعـار، والخادم شرح في هذا الفتـح العظيـم والنصر الكريـم مايشرح صـدور المؤمنين ويسوء وجوه الكـافريـن ويورد من البشرى مـاأنعم اللـه من يوم الخميـس الثالـث والعشرين مـن ربيع الآخر سلخه، وتلك ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ [الحاقة ٧] عدموا فيها نفوسـاً وجسوما، فأصبحـوا قد هووا في الهاوية ﴿كـأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقـة ٦٩] وأصبحت البلاد إلى الاسلام ضاحكـة، كما كانت بالكفـر باكيـة، ففي يوم الخميـس فتحت طبريـة، ويوم الجمعـة والسبت كانت الكسرة التي ماأبقت منهم بقية لايقـوم لهم بعدها قائمة ﴿وكذلك أخـذ ربـك إذا أخذ القـرى وهـي ظـالمة﴾[هود ١٠٢] وهـي أم البـلاد، وأخت ﴿إرم ذات العماد﴾[الفجر٧] إلى غير ذلك من الكلمات.

ذكر فتح مجدل يابا:

ثم إن السلطـان رحمه الله أرسل أخاه الملـك العادل فنازل مجدل يـابا وفتحه عنوة بالسيف.

وقـال ابن كثير: وجـاء العادل إلى السلطـان بعـد وقعة حطين، وفتـح عكا، ففتح بنفسه حصوناً كثيرة.

وقال العماد الكاتب: ولما فتح السلطان مدينة عكـا، أقام ببابها مخيما، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً، وقد كـان كتب إلى أخيـه الملك العـادل سيف الـديـن أبي بكر، وهـو بمصر، بها فتح اللـه لـه، فوصلـت البشرى بوصول العادل باشراً، وللواء الحمـد ناشراً، وأنه فتح حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، واغتنمها غزوة

ثـم إن السلطان فـرق أمراءه إلى فتـح البـلاد، ففتح كـل واحد منهـم حصناً أو قلعة على مانذكره الآن إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح الناصرة وصفورية:

أرسل السلطـان مظفر الدين كـوكبوري الى النـاصرة وصفوريـة ومعه حسام الدين طمان، فاستباح حمـاهما واستبى دماءهما ففتحهما، وغنم مافيهمـا مـن الاموال والـذخائر، وجاء الى السلطـان والاسارى بين يـديه مقـرنين فـي الاصفاد ومقـاديـن في الاقيـاد.

وفي تاريـخ المؤيد: وفرق السطان عسكـره ففتحوا الناصرة، وقيسـارية، وحيفـا، وصفوريـة، ومعليـا، والفولـة وغيرها مـن البـلاد المجاورة لعكـا، بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن.

ذكر فتح قيسارية:

أرسـل السلطان بـدر الديـن دلدرم اليـاروقـي، وغرس الـدين قليـج، وجماعة من الامراء إلى قيسارية، فافتتحوها بالسيف، وغنموا وأسروا وسبوا.

ذكر فتح نابلس:

أرسل السلطـان حسام الـدين محمـد بن عمـر بن لاجين على سمـت نـابلس، ووصـل الى سبسطيـة فتسلمها وتعجـل مغنمهـا، ووجد مشهـد

زكريا النبي عليه السلام، قد اتخذه القسوس كنيسة، وأعاده مشهداً ورده مسجداً ووضع فيه منبراً، ثم أناخ على نابلس وحاصرها، وطال عليه حصارها، ولم يزل عليها مقيماً ولقتالها مديماً إلى أن استأمنوا منه فأمنهم، ففتحوا له القلعة، وملكها حسام الدين، ثم إن السلطان استنابه على نابلس ومعاملتها.

ذكر فتح الفولة وغيرها من البلاد:

وكانت الفولة أحسن القلاع وأحصنها، وأملأها بالرجال والعدد، وهي للداوية حصن حصين، ومكان مكين، وكان فيها مشتاهم ومصيفهم ، فلما اتفق يوم المصاف، خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم، فلما كسروا أسروا وخسروا، وأسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان، وكانت فيه ذخائر عظيمة.

ثم تسلم السلطان جميع ماكان من تلك الناحية من البلاد مثل دبورية، وجينين، وزرعين، والطور، واللجون، وبيسان، والقيمون، وجميع مالطبرية وعكا من الولايات، والزيب والبعنة ومنوات، وغير ذلك.

ذكر فتح تبنين:

ولما حصلت تلك الممالك والأعمال للسلطان، رسم لابن أخيه المظفر عمر بن شاهنشاه بقصد حصن تبنين، وأن يتوكل على الله ويستعين.

وقال العماد: فوصلنا إلى تبنين في ثلاث مراحل، ونزلنا عليه بالنوازل، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل،فلما أيسوا من الحياة، وعاينوا الممات سألوا الامان من السلطان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، فأمهلوا، وأطلقوا أسارى المسلمين، فلما جلوا البقعة وأخلوا القلعة سيرهم السلطان ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور،

ورتب في الموضـع مملوكه سنقـر، ووصاه بتأنيس النـافر، وتعكيس الكـافر، وأن يصلح خندقها وسورها.

وفي النـوادر: نـزل السلطـان عليهـا يـوم الاحـد حـادى عشر جمادى الاولى، وهـي قلعـة منيعة وكـان بها رجـال ابطـال شديـدون في دينهـم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر اللـه عليهم، وتسلمها يوم الاحد ثامن عشر الشهر المذكـور عنوة، وأسر مـن بقي بها بعد القتـل، ثم رحـل منها إلى مدينة صيدا متوكلا على الله.

ذكر فتح صيدا:

نـزل عليهـا السلطـان بعسكـره يـوم الاربعـاء الحادي والعشريـن مـن جمادى الاولى، فجاء رسـل صاحبهـا بمفاتيحهـا وفتحت أبـوابها، ودخل فيها المسلمون، وأقيمت بها الجمعة والجماعة.

ذكر فتح بيروت:

ثـم رحل السلطـان مـن صيدا إلى بيروت، فنـزل عليهـا يوم الخميـس الثـاني والعشريـن مـن جمادى الاولى وتسلمهـا يـوم الخميـس التـاسـع والعشرين منه، وذلك بعد قتال عظيم، وحصـار شديد، ونقب لاسوارها، وظهر مـن تلك الايام ضراب شـديد من الداويـة فأخر الامـر، ولما اشتد بهم الحال خرج أحد المقـدمين يستدعي الامان، فأمنهم السلطـان فنزلوا على الطاعة، وسلموا البلد في التاريخ المذكور.

وفي النـوادر: لما فـرغ بـال السلطـان مـن هـذا الجانـب رأى قصـد عسقـلان، ولم ير الاشتغـال بصور بعـد أن نـزل عليها ومـارسها في هـذا الوقت، لأن العسكـر كانوا قد ضرسـوا من القتال وملازمـة الحرب، وكان اجتمع في صور كل فـرنجي بقي من الساحل، فـرأى قصد عسقلان لان

أمرها كان أيسر، وكان السلطان فتح جبيل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الاولى، وكان صاحب جبيل اسمه أوك، وهو الذي سلم جبيل الى السلطان وهو على بيروت.

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم:

ونزل السلطان عليها يوم الاحد السادس عشر من جمادى الاخرة، واجتمع السلطان بأخيه العادل عليها، وامتنع أهلها أشد الامتناع، وقاتلوا قتالاً عظيماً فضيق السلطان عليها بالرجال والقتال، ونصب المجانيق ونقب الاسوار، فلما ضاق عليهم الحال راسلهم الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، فترددت بينهم الرسالات، فقال لهم الملك المأسور لاتخالفوا لما أشير عليكم من الامر، فاسمعوني وأطيعوني واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، فإني إذا تخلصت خلصت، و إذا استنقذت أنقذت، وخرج المقدمون وشاوروا الملك فسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة. وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبار ابراهيم بن حسين الهذباني وهو أول أمير افتتح بالشهادة، وختم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه الى عسقلان الرملة ويبنى وبيت لحم، والخليل وأقام بها حتى أنه إذا سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة.

ثم اجتمع بالسلطان ابنه الملك العزيز صاحب مصر على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت والحاجب لؤلؤ المقدم فيها، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الاماكن وسبوا شيئاً كثيراً لايحد ولايوصف، واستبشر الاسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة، وترك السلطان جيوشه ترتع في هذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور ليستريحوا ويجموا أنفسهم وخيولهم ليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف.

واشتاع في الناس أن السلطان على عزم فتح بيت المقدس، فقصده العلماء والصلحاء والمتطوعة من كل فج عميق، فعند ذلك قصد السلطان بيت المقدس بمن معه على مانذكره ان شاء الله.

وفي تاريخ بيبرس: ولما فتح السلطان عكا فرق عساكره الى جميع الحصون الساحلية فتسلموها أولاً فأولاً، ولم يعد للفرنج قدرة على الدفاع، ولاسبيل الى الاجتماع فتسلموا نابلس وقيسارية وصفورية والناصرة، واستخلف في عكا ولده الافضل، ثم رحل على تبنين فحاصرها إلى أن تسلمها، ثم نزل على صيدا فتسلمها، ثم سار إلى بيروت فتسلمها، وتسلم أصحابه جبيل، ورحل إلى عسقلان فنازلها وتسلمها ، ثم تسلم الرملة: ثم الداروم، ووصل إليه ولده العزيز من مصر وهو على عسقلان مهنيا بالفتح، فأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة. وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال، وكان بين فتوح عسقلان وبين أخذ الفرنج لها ثمان وأربعون سنة.

وفي المرآة: وكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها منهم خمسة وثلاثون سنة، لانهم ملكوها في جمادى الاخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وفوض السلطان القضاء والخطابة الى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن، وتسلم السلطان هذه الاماكن المذكورة في أربعين يوماً، أولها ثامن عشرين جمادى الاولى، وآخرها ثامن رجب.

وفي تاريخ المؤيد: وفيها حضر المركيس في سفينة إلى عكا، و[illegible] يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهواء فراسل المركيس الملك الافضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر، والملك الافضل يجيب المركيس إلى ذلك إلى أن هب الهواء، فأقلع المركيس إلى صور، واجتمع عليه الفرنج الذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالامان، وحملهم الى صور من أعظم أسباب الضرر التي حصلت، حتى راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك.

ذكر فتح بيت المقدس شرفه الله واستعادته من أيدي النصارى بعد ثلاث وتسعين سنة:

ولما فتح السلطان صلاح الدين رضي الله عنه ماحول بيت المقدس من الاماكن المباركة، أمر العساكر فاجتمعت، والجيوش المتفرقة في البلدان للغنائم فائتلفت، وسارنحو البيت المقدس بتلك العساكر فنزل غربي بيت المقدس يوم الاحد الخامس عشر من شهر رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقد حصنت الفرنج لعنهم الله الاسوار بالمقاتلة، وكانوا ستين ألف مقاتل دون بيت المقدس أو يزيدون، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له باليان بن بارزان، وكان معه من سلم من وقعة حطين من الداوية والاسبتارية، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام، ثم سلم إلى كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور، ثم تحول إلى ناحية الشمال، لانه رآها أوسع وأنسب للمجال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، واستشهد بعض أمراء المسلمين فحنق عند ذلك كثير من امراء الاسلام واجتهدوا في القتال وقد نصبت المجانيق والعرادات، فبادر السلطان رحمه الله بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته.

وفي المرآة: وكان المنجمون قد قالوا للسلطان: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة، فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، وكان قد نزل على غربيه أولاً، ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية، ومن هذا المكان أخذه الفرنج، وكان مشحوناً بالبطارقة من الخيالة والرجالة على مايزيد على ستين الفاً غير النساء والذرية، وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ بيبرس: قتل في أول يوم عز الدين موسى بن مالك، صاحب قلعة جعبر، فحزن السلطان عليه.

وفي النوادر: وكان نزول السلطان على القدس يوم الاحد الخامس عشر من رجب، ونصب عليه المنجنيقات، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما شاهد الفرنج ذلك قصد أكثرهم السلطان وتشفعوا إليه أن يعطيهم الامان فامتنع وقال: لاأفتحها إلا بالسيف عنوة كما فتحتموها عنوة ولاأترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم المسلمين، فطلب صاحبها باليان بن بارزان من السلطان الامان ليحضره عنده فأمنه، فلما حضر ترفق له، وتشفع اليه بكل ممكن، فلم يجبه إلى الامان لهم، فقالوا: لئن لم نعط الامان رجعنا فقتلنا كل أسير من المسلمين بأيدينا وهم قريب من أربعة آلاف أسير، وقتلنا ذرارينا وخربنا الدور والاماكن الحسنة وأتلفنا مابأيدينا من الاموال والقينا قبة الصخرة، وبعد ذلك نقاتل قتال الموت فلا يقتل واحد منا حتى يقتل أعداداً منكم، فما يرجى بعد هذا من الخير؟ فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة دينارين، وأن تكون الغلات والاسلحة والدور للمسلمين، ويتحولوا منها إلى مأمنهم، وهو مدينة صور، فكتب الصلح على ذلك، ومن لايبذل ماشرط عليه إلى أربعين يوما فهو أسير، فكان من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف انسان من الرجال والنساء والولدان، ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم التاسع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهو ليلة الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى إلى السموات العلى.

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا أحد الاقوال في الاسراء والله أعلم.

وكان في القدس بعض نساء الملوك من الروم، قد ترهبت ومعها من الاموال والجواهر والعبيد والخدم شيء كثير، فطلبت الامان لنفسها ولمن معها فأمنها السلطان وسيرها إلى مأمنها، وخرجت زوجة الملك المأسور، وهي ابنة الملك ماري، وكانت الاخرى قد ترهبت وتزهدت، ومعها من الاموال والجواهر والخيول والخدم شيء كثير، فخرجت واستأذنت السلطان في اجتماعها بزوجها، وكان محبوساً في برج نابلس، فأذن لها وسارت وأقامت عند زوجها حتى تخلص.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من الذهب، فتسلق المسلمون وقلعوه والفرنج ينظرون إليهم، فصاح الناس كلهم صيحة كادت الارض أن تميد بهم، أما المسلمون فصاحوا سروراً بالتكبير والتهليل، وأما الفرنج فصاحوا تغبنا وتوجعاً.

وقال ابن كثير رحمة الله عليه: ولم يتفق صلاة الجمعة يومئذ، يعني يوم دخولهم خلافاً لبعضهم ممن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ، والصحيح أن الجمعة لم يمكن إقامتها يومئذ لضيق الوقت وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين ابن علي القرشي، المعروف بابن الزكي، كما نذكره، ونظف المسجد الاقصى يومئذ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وخربت دور للداوية كانوا قد ابتنوها غربي المحراب الكبير، وكانوا قد اتخذوا المحراب هرياً ومستراحاً، فنظف المسجد من ذلك كله، وأعيد الى ماكان عليه في الايام الاسلامية، والدولة المحمدية، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة محجوبة عن الزائرين.

وفي المرآة: ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي، ومحا الصور منها، وقد كان الملك العادل نور الدين

محمود بـن زنكي رحمه الله قد عمـل منبراً بحلب وتعب عليه مـدة وقال: هذا لأجل القـدس الشريف، فأرسل السلطان صلاح الـدين وأحضره من حلب، وجعله في الجامـع الاقصى، ولما كان في الجمعة الثـانية وأرادوا أن يقيموا بـه الجمعة حضر المسلمـون بالحرم الشريـف من كـل فج عميـق، فـاجتمع مـن الاعمال الاسلاميـة عـدد لايحصى، فلما أذن الظهـر حضر السلطـان بقبـة الصخـرة، وكـان جماعة مـن الكبـار والعلماء قـد رشحـوا أنفسهم للخطبـة في ذلك اليـوم وألفوا خطبـاً يخطبون بها، فلما كـان وقت الخطبة رسـم السلطان للقاضي محيـي الدين بـن زكي الديـن أن يخطب، فرقا المنبر بأهبـة السواد العباسية، وخطب خطبة بـديعة، ثم إن السلطان رحمه الله أقام حرمته فوق ماكانت.

وفي المرآة: وكان حضر مـع السلطان هذا الفتـح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الاجنـاس وتطاول جماعة من الأعيان إلى الخطابـة، فتذكر السلطان قول ابن زكي الدين:

وفتحكـم حلبــا بــالسيـف فـي صفـــر
مبشر بفتــــوح القـــدس في رجـــب

قال القـاضي الفاضـل: فقد أنطق اللـه السلطان بـالغيب، فـأعطاه الخطابة، وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق.

وقال ابـن القادسي في ذيله: إن صلاح الـدين خطب بالبيـت المقدس وهو وهـم منه، ثم إن السلطـان فرق الأموال التي أخـذها من الافـرنج، وكانت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار، على العلماء والفقهاء والصوفية.

ذكر مافعله السلطان صلاح الدين بعد فتحه القدس:

فمن ذلك تفـرقته الأموال التي أخذها مـن الأفرنج ـ كما ذكرنـا ـ ومن ذلك أنه جلس بعد صلاة الجمعة بعد أن خطب الخطيب، ودعا للخليفة

العباسي وللسلطان الملك الناصر صلاح الـدين، وسمع وعظ الشيخ زين الديـن أبو الحسن علي بـن نجا المصري، لأنـه بعد صلاة الجمعـة جلس على كـرسي للوعـظ باذن السلطـان، فوعـظ الناس، وكـان وقتاً مشهـوداً، واستمر القـاضي محيي الـدين بـن زكي الـدين الخطيـب بالنـاس في أيام الجمع أربـع جمع، ثم قـرر السلطان للقدس خطيبـاً مستقراً، وأمـر الفقيه ضياء الـدين عيسى الهكـاري يعمل حول الصخرة شبـابيك من حـديد، ورتـب لها امـامـا وراتبـاً، ووقـف عليه رزقـاً جيـداً، وكـذلـك على امـام المحـراب الاقصى، وعمـل للشـافعية المدرسـة الصـلاحيـة، ويقال فيهـا الناصرية أيضاً، وكان موضعها كنيسـة حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصـوفيـة رباطـاً كـان دار البترك إلى جـانب القمامـة، وأجـرى على الفقهـاء والفقراء الجامكيـات والجرايـات، وأرصـد الختم والـربعـات في أرجـاء المسجد الاقصـى لمن يقـرأ أو ينظر فيهـا مـن المقيمين والزائريـن، وتنافـس بنو أيوب فيما يفعلونـه من الخيرات بالقدس الشريـف للقائمين والظـاعنين والقـاطنين، وعـزم السلطـان على هـدم قمامـة وجعلهـا دكـاً لتنحسم مادة النصارى عن بيـت المقدس، فقيل إن هؤلاء لايتركون الحج إلى هذه البقعة ولو تـركتها قاعاً صفصفا، وقد فتـح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه القـدس وترك القمامـة على حالها، فتركهـا صلاح الدين أيضاً تأسيا بأمير المؤمنين، أحـد الخلفاء الراشدين، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة أنفس يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كـانت لهم عند باب الرحمة وعفى آثارها، وهـدم ماكان هناك من القباب وعجل دمارها.

ومن ذلـك أن السلطان أمر للعماد الكاتـب أن يكتب كتابـاً إلى بغداد بـالفتح، وكـان القاضي الفـاضل بـدمشـق مريضـاً لم يحضر هذا الفتـح، فكتب في أوله: «﴿وعـد ا لله الذين آمنوا منكـم وعملوا الصالحات﴾ إلى قوله: ﴿من بعـد خوفهم أمنا﴾ [النور ٥٤ ـ ٥٥] الحمـد لله الذي أنجز لعبـاده الصالحين وعـد الاستخـلاف، وقهر بـأهـل التـوحيد أهـل الشرك

والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، وبدل الامن به من المخافة، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوي ومنحه أخلص أوليائه، وأخص أصفيائه بعد أن انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وفوت ترجيه، وتقاصرت عنه الهمم، وتخاذلت عنه الامم، فله الحمد الذي حقق بفتحه ماكان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمسه، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس، وعباد الصليب والشمس، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الاحد، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل ﴿قل هو الله أحد﴾ وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس وجميع ماحوت مملكة الفرنج إلى نابلس، وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين، ونزع لباس اليأس بافاضة ثواب المحسنين، ورجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وطلع قمر الهدى من سراره، وعادت الارض المقدسة إلى ماكانت عليه من التقديس، وأمنت المخاوف بها، وفيها فصاحة صباح السرى ومناخ التعريس، وأقصى المسجد الأقصى الأقصون من الله الابعدون، وتوافد إليه المصطفون المقربون وخرس الناقوس برحيل المسيحيين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لاهله: مرحباً وأهلا، وشمل جماعة المسلمين ماجمع الله لهم فيه شملاً، ورفعت الاعلام الاسلامية على منبره، فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عزها: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف ١٣] وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين، وبعد أهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه».

وذكر العماد فصولاً في هذا المعنى:

نكتة غريبة: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن عن أبي محمد السنجاري في تفسير أبي الحكم

الاندلسي، يعني ابن حيان، في أول سورة الروم ــ أخباراً عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، قال السنجاري: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه مما زعم من قوله: ﴿غلبت الروم* في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين﴾ [الروم ٢-٤] فبنى الامر على التاريخ كما يفعله المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه الحالة وافقت اصابة إن صح أنه قاله قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولابد من باب الكرامات لانها لاتبان بحساب.

قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

ذكر رحيل السلطان من القدس طالباً صور:

لما قرر السلطان صلاح الدين أمور القدس الشريف انفصل عنه في الخامس والعشرين من شعبان وسار حتى أتى على عكا، ثم سار منها إلى صور، وكانت قد تأخرت من بين تلك النواحي، وقد استحوذ عليها من بعد وقعة حطين رجلٍ من التجار ويقال مركيس، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدة استدعى بالاسطول من الديار المصرية في البحر، فاحتاط بها براً وبحراً، فعدت الفرنج في بعض الليالي على خمس شواني من الاسطول فملكتها، فأصبح المسلمون واجمين، وقد دخل البرد وقلت الازواد وكثرت الجراحات وكل الامراء من الحصارات، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق في هذا الوقت حتى يستريحوا، ثم يعود إليها بعد هذا الحين فأجابهم على تمنع منه، وذلك أن السور من صور كان قد هدم أكثره ولم يبق الا الفرج والنجح، فتوجه إلى دمشق.

وفي المرآة: وفي شعبان سار السلطان إلى صور فوصلها غرة رمضان فوجدها مدينة حصينة وهي في البحر مثل السفينة، والبحر محيط بها من جوانبها، وليس لها طريق في البر إلا من مكان واحد فيه سبعة أبراج، وبها المركيس، وكان شجاعاً حازماً وقد انضم إليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج.

وفي النوادر: قدم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، صاحب حلب على أبيه، وهو على صور في الثامن عشر من شهر رمضان، وسرّ بوصوله سروراً عظيماً، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل، وكان السلطان خلف أخاه العادل في القدس لتقرير قواعده فاستدعاه، فوصل إليه في خامس شوال، وسير من حاصر هونين فسلمت بأمان في الثالث والعشرين من شوال.

وكان السلطان قد قدم على الاسطول انسانا يقال له الفارس بدران، وكان ناهضاً جلداً في البحر، وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن، وكان قد أكد الوصية في أخذ الحذر منهم، فغفلوا عن أنفسهم في الليل، فخرج اسطول الكفار من صور، فكبسهم، وأخذوا المقدمين، وأخذوا منهم خمس قطع وقتلوا قتلاً كثيراً من الاسطول الاسلامي، وذلك في السابع والعشرين من شوال، فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق صدره، وأشار بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعدادا جديدا، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها، وأحرق مالم يمكن نقله، وكان رحيله يوم الاحد ثاني ذي القعدة، ففرق العساكر وأعطاهم دستوراً، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال ابن كثير: ولما وصل السلطان إلى عكا نزل بقلعتها، وأسكن ولده الافضل برج الداوية، وولى نيابتها عز الدين جرديك، وقد أشار بعضهم

على السلطان بتخريب عكا خوفاً من عود الفرنج إليها، فكاد أن يفعل ولم يفعل فليته فعل، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوي(٢٣)، ووقف دار الاسبتار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الاسقف مارستاناً، ووقف على ذلك كله اوقافاً دارة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين بن الشيخ أبي النجيب، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً رحمه الله.

ذكر ماجرى بعد دخول السلطان دمشق:

ولما انفصل السلطان عن عكا وتوجه إلى دمشق جاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الاقطار والامصار بالتحف والهدايا.

وفي المرآة: وصل إلى السلطان من بغداد تاج الدين أبو بكر، أخو العماد الكاتب، فالتقاه السلطان وأكرمه، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على أسباب منها أن الخليفة عتبه لاجل ابن البوشنجي، ويلقب بالرشيد، وكان صبياً ببغداد ولايؤبه إليه، فخرج الى الشام واتصل بصلاح الدين، وقيل له: هذا من بيت كبير، وكان أديباً فأعجب السلطان، فسأله أن يبعثه الى بغداد في رسالته فبعثه إلى الخليفة، فقال: ماكان عنده غير هذا؟ وقصر في حقه، فلما عاد إلى السلطان تكلم بكلمات، وقال: ماالتفت إلي، ومنها إن كل من هرب من بغداد لجأ إلى السلطان يقبل عليه مثل رئيس الرؤساء وابن هبيرة، وابن أبي النجيب وأمثالهم، ومنها مشاركته في لقب الخليفة بالناصر، وأشياء من هذا الجنس، ثم قال في آخره: يمن علينا بفتح القدس، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته، فاستشاط السلطان غضباً، وقد كان يرجو أن يأتيه كتاب الخليفة يشكره على مافعل، ثم قال السلطان لأخي العماد: أما ابن البوشنجي فمن عندكم جاء، وقيل لي إنه من بيت كبير وصحبني وسألني انفاذه إلى بغداد ليمن على أهله، ويتجمل بكم، فما

أمكنني رد سؤاله، وأما الذين التجأوا إلي من أرباب البيوت، فإن الانسان قد يلتجيء إلى كوخ عجوز في البرية فتجيره من القتل، فأنا فعلت فعل العرب، وحفظت الذمام، وعرفت حق من قصدني ولجأ إليّ وصنتهم أيضاً عن ألسن الناس فيصير ذلك عاراً عليكم، وأما مشاركتي في اللقب فوالله إنني مااخترته ولااقترحته، ولكن لما أزلت دولة عدوه القائمة من مائتي سنة وكسر وفعلت مافعلت لقبني المستضيء بهذا اللقب، وكتب من بغداد إلى نور الدين بذلك، ولم يكن في زمانكم، ثم لو وقع هذا ففي عسكري عشرة آلاف تركماني وكردي لقب كل واحد صلاح الدين فلم أنكر عليه، وأما قوله إنني فتحت القدس تحت راياته وعسكره، فأين راياته وعسكره؟ والله مافتحت إلا بعسكري وتحت راياتي، وأرعد السلطان وأبرق، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة باطنيا، وأمسك السلطان نفسه ظاهريا، فكتب كتاباً إلى الخليفة يقول فيه: «المحاققة توجب المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه، واندمال هذا الجرح خير وأولى من إتساعه وخرقة».

وقال السبط: وقد ذكر محمد بن القادسي قضية ابن البوشنجي، فقال: كان أمرداً في دروب بغداد، فطلعت لحيته فخرج إلى الشام، فخدم يوسف بن أيوب وسأله أن يرسل الى الديوان في رسالة فأرسله فقامت القيامة على الديوان، فلما عاد ابن البوشنجي الى الشام اكثر كلامه، فما مضى الا اسبوع حتى جاءته نشابة فذبحته، وكان ذلك عقوبة لما بسط به لسانه.

قلت: وهذه من هنات ابن القادسي، فإنه كان عالماً، يتعمد المثالب، وقد أساء الادب في مواضع منها قوله:

كان أمرداً في دروب بغداد، ومنها قوله على السلطان يوسف بن أيوب، وماذكره ببعض القابه، ومنها قوله: جاءته نشابة فذبحته، جعل

الشهـادة في سبيـل اللـه عقـوبـة، وهذه الـواقعـة في هـذه السنـة، وابـن البوشنجي استشهـد في سنة ست وثمانين وخمسمائة بعد أخذ الفـرنج عكا من السلطـان، ومن العجائب في هذه الـواقعة أنني اجتمعـت بشيخ دار الحديـث المظفريـة بـالموصل في سنـة خمس وستمائة، وجـرت مذاكـرة في غـزوات صلاح الـدين، فقـال: حضرت معه في بـرج عكا، والفـرنج قـد أخذوا عكـا، فبينما أنا قـاعد في سـوق العسكر، وإذا بشـاب من أحسـن الشباب قد جلس إلى جانبـي، فذاكرته فوجدته فاضـلاً فصيحاً من أهل بغداد مـن بيت البـوشنجي، قلت فما اللقـب؟ قال: يقبـح بي أن ألقب نفسي، فأقسمت عليه فقـال: يقال الرشيد، فقلت ومالـذي جاء بك إلى هـاهنا؟ فقـال: سمعت أن السلطـان يعرف مقـدار اولاد الناس ويحسـن إليهـم، ورغبت أيضـاً في الشهـادة فـأتيت إليـه، فـأحسـن إليّ وأكرمنـي وأعطاني، ثـم قـال: أخاف ان تنقضي هذه الغزوات ومـاتحصل لي شهادة، فأسأل الله أن يرزقني الشهادة فقد تـاقت نفسي إليها، قال: فدعوت الله أن يختار لـه مافيـه الخيرة، ثم قلـت: ياسيـدي أنشدني شيئـاً من شعـرك فقال: نعـم...... ثم قام مـن عندي باكياً وقصـد الفرنج فـاستشهد رحمه الله تعالى.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير محمود أخو جاولي:

استشهد في هذه السنـة، وسبب ذلك أن السلطان وكلـه بحصن قلعة كوكب الذي على الغور وكانت فيها الاسبتـارية، وقد كانوا تمنعوا لشدتهم ومنعتهم.

وكانت جبلـة وأخذها في الثامن عشر من جمادى الاولى حـال وصوله على مانذكره.

وقال العماد الكاتب: وأشرفنا على جبلة يوم الخميس الثامن عشر، وتسلمنا الحصن في ذلك اليوم، وأقام السلطان بها أياماً.

وفي النوادر: ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل السلطان على تل قبالة حصن الاكراد، ثم سير الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا على تيزين في هذا التاريخ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بالسلطان في هذه المنزلة، فأقام في منزلته هذه ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه إلى حصن الاكراد وحاصره يوما يجسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره، واجتمعت العساكر من الجوانب، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية العساكر.

ولما كان يوم الجمعة الرابع من جمادى الاولى دخل على تعبئة للقاء العدو، ورتب الاطلاب، وسارت الميمنة اولا، وتقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الاخير ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار الثقل في وسط القلب حتى أتى المنزل، ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت، ورحل عنها يوم الاحد، ووصل إلى انطرطوس ضحوة نهار الاحد السادس من جمادى الاولى.

ذكر فتح انطرطوس:

ولما وصل انطرطوس في التاريخ المذكور، وقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاختيار، ثم اختار النزول، فأمر الميمنة والميسرة بالنزول على البحر من الجانبين، ونزل هو أيضاً في جانب آخر فأحدقت بها العساكر من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان حصينان كالقلعتين، ثم أمر الناس بالزحف والقتال، وشدوا عليها

جداً، ومـا استتم نصب الخيـم حتى صعد النـاس السور وأخذوهـا عنوة، وغنـم العسكر جميـع مافيهـا، وخـرج الناس والاسرى بـأيديهم وأمـوالهم، وتـرك الغلمان نصب الخيـم واشتغلـوا بـالنهب والكسـب ووفى السلطـان بقوله، فإنـه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بـأنطرطوس إن شاء الله، وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً، ثم أمـر بتخريب سور البلد، وتخريب بيعة عظيمـة عندهم كانـوا يحجون إليها من اقطـار بلادهم، وأمر بـوضع النـار في البلد فـأحـرق جميعـه، فأقـام عليـه إلى الـرابع عشر مـن جمادى الاولى، ثم سار يريد جبلة، وكان وصـوله إليها في الثامن عشر من جمادى الاولى يوم الجمعة.

ذكر فتح جبلة:

ولما وصـل السلطـان الى جبلة في التـاريـخ المذكـور أخذ البلـدة يـوم وصوله، وكان فيها مسلمون مقيمون فيها، وقاض يحكم بينهم.

وفي المرآة: وكان قـاضيها منصـور بن بليـل فأرسـل الى السلطان يشير عليه بقصدها، وقيـل إن القاضي والاعيان خرجوا إليه وهونـوا عليه أمرها، وأخذ القـاضي من السلطان امانـا لاهل جبلة، وكـان ابرنس انطاكيـة قد سلمها الى القاضي ووثق به في حفظها فنـازلها وفتحها في التاريخ المذكور، وامتنع الحصـن عليه يـوما ثم سلمـوه اليه يوم السبـت بالامـان بعون الله وفضلـه وأقام عليهـا إلى الثالـث والعشرين مـن الشهر المذكـور ثم سـار عنها يطلب اللاذقية.

ذكر فتح اللاذقية:

نزل السلطـان عليها يوم الخميـس الرابع والعشريـن من جمادى الاولى وهي بلدة لها ميناء وقلعتان متصلتـان على تل يشرف على البلد فنزل رحمه الله محدقاً بالبلـد، وأخذت العساكر منازلهم مستديـرين على القلعتين من

جميع نـواحيها الا من نـاحية البلد، واشتد القتـال وعظم الزحـف وأخذوا البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمـة، فإنه كان بلد التجار وفـرق بين النـاس الليـل، وأصبحـوا يوم الجمعـة مقـابلين مجتهـديـن في النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقـب حتى بلغ طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، واشتـد الزحف عليهم حتى صعدوا الجبـل وقاربوا السور، وتـواصل القتـال حتى صاروا يتحـاذفون بـالحجارة بـالايدي، فلما رأوا ذلك استغاثـوا وطلبوا الامان عشية الجمعة الخامـس عشر من الشهر المذكـور، وطلبوا قـاضي جبلـة فـدخل إليهـم ليقـرر لهم قـاعدة الامـان فـأجيبوا الى ذلـك، فدخـل القاضي وقـرر الحال معهم على أنهم يطلقـون بنفـوسهـم ونسـائهـم وذراريهم وأموالهم خـلا الغـلال والـذخـائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم السلطان دواب يركبـونها الى مأمنهم، ثم رقا عليهـا العلـم الاسلامـي المنصـور في بقيـة السبت الســادس عشر منـه، وأقاموا عليه إلى يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى.

وقـال العماد رحمه اللـه: ولما رحل السلطـان مـن جبلـة اتى الـلاذقيـة وفتحهـا في الـرابـع والعشريـن مـن جمادى الاولى، وهـي ثـلاث قـلاع متلاصقات على طـول التل، فلما عرفوا انهم مدركون طلبـوا الامان وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين عشية، ودخـل جماعة منهم في عقد الذمة، وانتقل الباقون إلى انطـاكية، ثم رتب السلطان جماعة مـن خواص مماليكه وأخـرج من القـلاع أهـل الكفر وأسكنهـا أهـل التـوحيد وولى بها سنقـر الخلاطي مملوكه، ثم ركب السلطان الى البلـد وطافه، وكانت قلعتهم هذه منيعة عـالية مـرتفعة، ولمالـك صلاح الديـن الساحـل وهلك البـاطل، وافتتحت طبرية وأعمالها، تمنعـت من ذلك قلعتان: قلعة صفد بـالداوية، وقلعـة كوكـب بالاسبتـاريـة، وتعذر فتحهما، ورتـب السلطان على صفـد جماعة يعرفـون بالناصرية، ومقـدمهم مسعود الصلتي، ورتـب على كوكب هـذا محمود المذكـور، وكان دينـا صـالحاً مشكور السيرة، فـأقام بحصـن قريب مـن كوكب يقال له عفـر بلا، وكان يسهر اكثر ليلـه متهجداً، وقد

جعل منـزله مسجداً، فلما كـان آخر ليلة من شـوال، وكانت ليلـة مظلمة مـدلهمة خـرج أهـل كوكـب وقـت السحر، ومضـوا إليـه، والناس رقـود، والحراس هجود، فما أحس محمـود إلا وقد هجم الفرنـج عليهم، فجاءتهم الشهـادة، وبقـي الامير حتـى استشهـد محصوراً، وكـان أمـر اللـه قـدراً مقدوراً، ونقلـوا إلى القلعة ماوجدوه مـن سلاح ومتاع وخيـل وكراع، فلما عرف السلطان مـا أصابهم ندب الى كوكـب صارم الدين قـايماز النجمي فضايقها وحصرهـا، ولم يزل عليها مقيماً إلى ان يسر الله فتحهـا كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو النـاصر لدين الله والسلطان صلاح الدين مقيم على عكا.

ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته في هذه السنة:

وسـار السلطان مـن عكـا في المحرم، وحـاصر حصـن كـوكَب، فـرآه منيعـاً صعبـاً، ووقته مشغـول بغيره، فـوكـل به الامير قـايماز النجمـي في خمسمائة فارس يضيقون عليه المسـالك، وكذلك بصفد، وكانـت للداوية، خمسمائة فارس مع طغرل الجاندار، يمنعـون وصول الميرة والتقاوي، وبعث إلى الكرك والشوبك جيشـاً آخر يحاصرونهما ويضيقون على أهليهما ليفرغ مـن أموره لقتـال هـذه الاماكـن وحصارهـا، وسـار منها في ربيـع الاول ودخـل دمشـق ففـرح النـاس بـه، وكتـب إلى ملـوك الاطـراف بـاجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام ثم خرج على ماننذكره.

وفي المرآة: وكـان الـذي أرسله صـلاح الـديـن إلى الكرك والشـوبـك صهره يقال له لوجيا.

وفي النـوادر: ولما خرج السلطـان نـزل على بحيرة قدس غـربي حمص، ووافته العساكر بها وأولهم عماد الدين زنكي بـن مودود بن زنكي صاحب سنجـار ونصيبين، ولما تكمـل عسكـره رحل ونـزل تحت حصـن الاكـراد وشـن الغارات على بـلاد الافرنـج، وسـار من حصـن الاكراد فنـزل على انطرطوس سادس جمادى الاولى فوجد الفرنج قد أخلوا انطرطوس، فسار إلى مرقـب فوجـدهم قـد أخلوهـا أيضاً، فسـار الى صوب جبلـة وهز إلى احسانها أعطافه، ثم رحل نحو صهيون.

ذكر فتح صهيون:

ولما سار السلطـان راحلاً من الـلاذقية نـزل على صهيون يوم الثـلاثاء التـاسع والعشريـن مـن جمادى الاولى، واستـدار العسكر بها مـن سـائر نواحيهـا بكرة الاربعاء، ونصـب عليها ستة منـاجيق، وهي قلعـة حصينة منيعـة في طرف جبـل، خنـادقها أوديـة هائلـة واسعـة عميقة، وليـس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقـدار طوله ستون ذراعا وهو نقر في صخر، ولها ثلاثة أسوار: سـوران دون ربضها، وسور دون القلة، وكان على قلتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الاسلامي وقع.

قال صـاحب النـوادر: شاهدت ذلـك حين وقع، فـاستبشر المسلمون بـذلـك، وعلمـوا أنـه النصر والفتـح، واشتـد القتـال عليهـا مـن سـائر الجوانب، فضربها منجنيق ولـده الملك الظاهر صاحب حلـب، وكان قد لحقه قبيـل فتح جبلـه بجحفله وعسكره، وحضر فتـوحها، ولما كـان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الـزحف، وركب وتقدم وأمر المنجنيقات بتـواتر الضربات، ومـا كان سـاعة الا وقد رقـا المسلمون على أسوار الـربض، واشتـد الزحف، وهجـم المسلمون الـربض، وانضـم من كـان فيه إلى القلعـة، واستدار المقـاتلة حـول أسوار القلعـة، فلما عاينـوا الهلاك طلبوا الامان، فبـذل لهم السلطان الامان على أن يسلموا بـأنفسهم

وأموالهم، ويـؤخذ من الرجـل منهم عشر دنانير، وعن المرأة خمسـة دنانير، وعن الصغير دينارين، وسلمت القلعة، وأقـام السلطان حتى تسلم قلاعا غيرها، وهي: بلاطنيس، وعيد، وقلعة الجماهير وغيـر ذلك .

وقال العماد: وكان تسلـم عيد يوم السبت، وقلعـة الجماهير يوم الاحد، وقلعة بـلاطنيس يوم الاثنين، وقـرر في كل حصـن من تسلمه، ومـامكنوا من الخروج حتى أحضروا ماقـرر عليهم، وتولى جباية ذلك شجـاع الدين طغرل الجاندار.

وقال العماد: ثم سلم حصن صهيون بجميـع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الامير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين.

ذكر فتح بكاس:

ولما رحل السلطـان من صهيـون ثالـث جمادى الآخرة وصـل الى قلعة بكـاس سادس جمادى الآخـرة وهي قلعـة حصينة على جـانب العـاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، ونزل السلطان على العاصي.

قال النويـري: تسلمها يوم الجمعة تـاسع الشهر المذكور، وكـان أهلها اخلوها قبل وصول السلطان وتحصنوا بقلعة شغر.

وفي النوادر: صعـد السلطان جريـدة الى القلعة، وهي على جبـل مطل على العـاصي، فـأحـدق بها مـن كـل جـانـب، وقـاتلهـا قتـالا شـديـداً بالمنجنيقات والزحف الى يوم الجمعة، ثم يسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم، وغنم جميع ماكان فيها،

ذكر فتح شغر

ولما تحصنت الفرنج بقلعة شغر، وهي قلعة شامخة منيفة، خيم السلطان بخيمة خفيفة الى الجبل لحصار القلعة فحاصرها في الثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الثلاثاء، ثم سلم السلطان حصن بكاس وحصن شغر الى غرس الدين قلج الساقي.

وفي النوادر: وكان لبكاس قليعة تسمى الشغر قريباً منها، يعبر اليها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الامان، وذلك في يوم الثلاثاء، وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، فأذن السلطان في ذلك، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة السادس عشر منه، بعون الله تعالى وفضله.

ذكر فتح سرمانية:

ولما فتح السلطان حصن شغر، أرسل ولده الملك الظاهر صاحب حلب، فحاصر سرمانية وأخذها بالامان، وهدم الحصن وعفى أثره.

وفي النوادر: أرسل صلاح الدين ولده المذكور الى قلعة تسمى سرمانية، يوم السبت سابع عشر جمادى الآخرة فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور، فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع، وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان رحمة الله عليه حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، ولم يتفق مثلها في تاريخ، وكان في هذه الحصون المذكورة من أسرى المسلمين عدد لايحصى، فأطلقوا وأعطوا النفقة والكسوة.

-١١٣٠٩-

ذكر فتح حصن برزية:

ثم سار السلطان من شغر إلى برزيـه، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعـة على سـن جبل شـاهـق يضرب بها المثـل في جميـع بلاد الأفـرنـج والمسلمين، يحيـط بها أوديـة من سـائر جـوانبهـا، وذرع علو تلها، فكـان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً.

وقال العماد: وكان وصول السلطان إليها يـوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وملكها يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

قال: فأحدقنا بها وبالجبل ونصبنا عليها المجانيق في سفحها، ولما رأى السلطان أنـه لاوصول إليها بالمجـانيق، وأن الاشتغال بها يطيل الـزمان، مال إلى الـزحف، فقسم النـاس ثلاثة أقسام، وجعل النـوبة الاولى لعماد الدين زنكـي صاحب سنجار، والملك العادل، وتقـدم السلطان بنفسه في النوبـة الثانيـة، واشتد القتـال، وضاق بها الحال، ولما أيقنـوا بأنهم ملكـوا طلبوا الأمـان، وكفوا عنهم، وكـانت زوجة صاحـب حصن برزيـة أخت زوجة الابـرنس صاحب أنطـاكية، وقد سبيت وخبيـت، فما زال السلطان يطلبها حتى أظهـروها وأحضروها فمنّ عليهـا بالاعتاق، وحل عنهـا وعن زوجها قيـد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنـة لهما وزوجها وعدة مـن أصحابهم، وأدخلهـم معها في الاطـلاق وسير معهـم إلى أنطاكيـة مـن أوفدهـم على أهلهم، فسرت زوجة البرنس بأختها.

وفي المرآة: وكـانت زوجـة صاحـب حصن بـرزيه عين للسلطـان على الفرنـج، والسلطان كان يـرى إليها ويـلاطفها، ولما فتحت القلعـة أسرها السلطان وزوجهـا وأولادها، فـأحسن إليهم وأطلقهـم، وبعث معهـم من أوصلهـم إلى أنطاكيـة، فزادت محبتهـا للسلطـان ومناصحتهـا له، وأنعـم السلطان بهذا الحصن على عز الدين المذكور عن قريب.

ذكر فتح قلعة دربساك:

ولما رحل السلطان مـن حصن برزية عبر من عنـد شقيف دركوش إلى شرقي العاصي، وجاء إلى جسر الحديد، وأقام هناك أيـاماً حتى تلاحق به العسكر، ثم سـار إلى دربساك، ونزل عليها يـوم الجمعة الثامن مـن شهر رجب وهي قلعة منيعة مرتفعة، وهي عـش الداوية، وقاتلها قتالاً شديداً، وضايقهـا مضايقة عظيمـة، وأمر بالنقـب تحت برج، وتمكن النقـب منها حتى وقـع، وحموه بالـرجال المقاتلـة، ووقف في الثغـرة رجال يحمـونها ممن يصعد فيها.

قال صـاحب النوادر: ولقد شـاهدتهم وكلما قتل منهم رجـل قام غيره مقامـه، وهم قيـام عرض الجدار مكشـوفين إلى أن اشتد بهم الأمـر حتى طلبوا الامان فـأمنهم السلطان، وشرط عليهم أن ينزلوا بـأنفسهم وبثياب أبدانهم لاغير، فعنـد ذلك رقا عليهـا العلم الاسـلامي يوم الجمعـة أيضاً الثاني والعشرين مـن رجب وأعطاها لعلـم الدين سليمان بن جنـدر، ثم سار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من رجب متوجهاً إلى بغراس.

ذكر فتح قلعة بغراس:

وهـي قلعة منيعـة على رأس جبـل شامـخ قريبـة مـن أنطاكيـة، كثيرة العـدة والرجـال، فنزل العسكـر في مـرج لها وصعد السلطـان في جريـدة عسكره إلى الجبل، ووقف بازاء الحصن، فنصـب عليه المجانيق من جميع جهـاته، وعين يـزكاً لجانـب انطـاكية كيـلا يحصـل التشويـش من جهـة انطاكيـة، فضرب اليزك على بـاب انطاكيـة بحيث لايقـدر أحد أن يخرج منها.

وقال صـاحب النـوادر: وأنا كنـت في اليزك في بعـض الايام، ولم يـزل السلطان يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة حتى ضاق بهم الحال، فخرج

مقـدم الداويـة يستـأذنه في الحضـور، فـأذن لـه، ولما حضر طلب الامـان فـأمنهم السلطـان على حكـم دربساك، ورقـا العلـم السلطاني عليهـا في الثاني مـن شعبان، ثم سلـم السلطان قلعـة بغراس لعلم الـدين سليمان المذكور آنفاً، فتسلـم الحصنين: دربساك وبغراس، وكان علم الـدين هذا صاحـب أعزاز وتسلمها بـذخائرها، ووجد في بغـراس خاصة مـن الغلة اثني عشر ألف غرارة، سوى مافيها من سائر الاقوات.

ذكر مهادنة صاحب انطاكية:

ولما فرغ السلطـان من أمر بغراس عـزم على التوجه إلى أنطاكيـة، وكان الابرنس صاحبهـا عجل بارسال أخي زوجته يسأل مـن السلطان المهادنة والصلح على أن يطلق كـل أسير عنده، وأجابه السلطـان إلى ذلك، ووقع الصلح إلى ثمانية أشهـر، وكان الابرنس هـذا من أعظم ملوك الافـرنج في هذه ا لبلاد، وكان أهـل اطرابلس سلموا إليه اطرابلـس أيضاً بعد موت القومص صاحبها، وجعل الابرنس ابنه في اطرابلس.

وقال صـاحب النـوادر: وكانـت هدنتهـم إلى سبعة أشهـر على أنه إن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلدان إلى السلطان رحمه الله.

ذكر رحيل السلطان متوجها إلى دمشق:

لما فـرغ السلطان مـن أمـر بغراس ومهـادنـة صاحـب أنطـاكية رحـل قاصـداً الشام، فـأتى حلـب ودخلها في حـادي عشر شعبان، ثـم أعطى دستوراً للعسكـر، وودع عماد الديـن زنكي بـن مودود بـن زنكي بعـد أن أنعم عليـه بأنواع التحف والامتعـة والدواب، ويقال إنما دخـل السلطان حلب لان ولـده الملك الظـاهر سألـه ذلك، فـأتاها وأقـام بقلعتها ثـلاثة أيام، وولده يقـوم بالضيافة حق القيـام، ولم يبق من العسكر إلا مـن ناله شيء من نعمته، وبالغ في ذلك حتى أشفق عليه والده، ثم سار السلطان

من حلب في رابع عشر من شعبان قاصداً دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، واصطنع له طعاماً حسناً، وأحضر له سماع الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية، ثم سار على طريق بعلبك حتى أتاها، وأقام بمرجها يوماً ودخل إلى حمامها، ثم سار منها حتى أتى دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة، فأقام بها حتى دخل رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكن، وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها: صفد وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال ابن كثير: ولما دخل السلطان دمشق أشاروا عليه بتفريق العسكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير، والاجل غير مأمون، فخرج من دمشق لغزوته في أوائل رمضان يريد صفد.

ذكر فتح صفد:

ولما خرج من دمشق أتى على صفد في أثناء شهر رمضان، وهي قلعة منيعة قد تقاطع حولها بالاودية، فأحدق العسكر بها، ونصب المجانيق، ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلموها بالامان في الرابع عشر من شوال من هذه السنة.

ذكر فتح قلعة كوكب

ولما فرغ السلطان من أمر صفد سار إلى كوكب وعليها الأمير قايماز النجمي وقد ذكرنا ان السلطان خلاه عليها يحصرها، ونزل السلطان على سطح الجبل، وجرد العسكر وأحدقوا بالقلعة وضايقوها بالكلية، وكانت الأمطار متوالية، والوحول كثيرة بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة كبيرة، وعانى السلطان شدائدا وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار،

وكون العدو متسلطا عليهم بعلو مكان، وجرح خلق من العسكر وقتل جماعة، ولم يزل السلطان راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب على سورها، ولما أحسوا بالنقب وقد تمكن علموا أنهم مأخوذون فطلبوا الأمان إلى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع كلها في صور.

وقال ابن كثير: وكان حصن كوكب معدن الاسبتارية، كما ان صفد معدن الداوية، وكانوا أبغض أجناس الافرنج إلى السلطان، لايكاد يترك منهم أحدا إذا وقع من المأسورين، ولما فتحت قلعة كوكب عرضها السلطان على جماعة فلم يقبلوها، وتولاها قايماز النجمي عن كراهة.

ذكر فتح الكرك:

لما كان السلطان سار إلى البلاد الشمالية جعل على الكرك وغيرها من حاصرها أخاه الملك العادل في تلك البلاد يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الامان، فأمر العادل المباشرين لحصارها بأن يتسلموها فتسلموا الكرك والشوبك وغيرهما مما في تلك الجهات.

وقال العماد: وكان الملك العادل مقيماً بتبنين بالعسكر تحرزاً على البلاد من غائلة الفرنج، مقوياً للامراء المرتبين على الحصون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلا وبأهله منكلاً، فتوسلوا بالملك العادل حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم. وكان فتح الكرك في أثناء شهر رمضان.

وفي تاريخ بيبرس: قد كان الملك الناصر صلاح الدين رتب على الكرك العساكر صحبة سعد الدين كمشبه، صهر الملك العادل فحصروها ليلاً ونهاراً مدة حتى فنيت منها الازواد، وأكل أهلها جميع

الحيوان الـذي عندهـم، فأذعنـوا للتسليم وسلمـوا، وكفى اللـه المسلمين شرهم.

ذكر مافعل صلاح الدين بعد هذه الفتوحات في هذه السنة:

قد ذكرنا أنه لما فرغ من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية توجه إلى دمشق، وجعـل طريقه على حلب، وكـان معه الامير قاسم بـن مهنا أمير المدينة، وكنيتـه أبو فليتة الحسني، وكـان ميمون النقيبة، مبـارك الطلعة، وكان السلطان قـد تيمن بطلعته، فما حضر معه بلداً إلا فتحـه، ثم جعل السلطان طريقه على المعرة، فزار قبر عمر بـن عبد العزيز رضي الله عنه، والشيخ أبا زكريا المغربي.

وقـال العماد الكاتـب: ولما خرجنـا مـن حلب على قبر عمـر بن عبـد العزيز رضي اللـه عنه، قصد السلطان زيـارة الشيخ الفقيه الزاهـد التقي أبي زكريا المغربي، وكـان مقيمـا هناك، وكان من عباد اللـه الصالحين وله كرامـات ظاهرة، وكـان القاضي الفاضـل مع السلطان في هـذه المواقف المذكورة، فكتـب عن السلطـان الى أخيه سيف الاسـلام صاحـب اليمن يستدعيه إلى الشام لنصرة أهل الاسلام، فإنـه قد عزم على حصار أنطاكية بنفسه، ويكون تقي الدين حاصراً طـرابلس إذا نسلخ هذا العام، ثم عزم القاضي الفـاضل على الـدخول إلى الديـارالمصريـة،فسار السلطـان معه لتوديعه، ثم عدل السلطان إلى القـدس الشريف، فصام فيه الجمعة وعَيد فيه عيـد الأضحى، ثم سـار ومعه أخـوه الملك العادل إلى عسقـلان، ثم أقطع أخـاه الكرك عـوضاً عن عسقـلان، وأمره بـالانصراف ليكون عـوناً لابنـه الملك العـزيز في الـديار المصريـة، على حـوادث الزمـان، ثم عـاد السلطان فأقام بمدينة عكا حتى انسلخت هذه السنة.

وفي النوادر: وكان دخول السلطان بيـت المقدس، وصحبه أخوه الملك

العادل في ثامن ذي الحجة من هذه السنة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة، وصليا صلاة العيد بها يوم الأحد، ثم عاد السلطان إلى خيمته، وأمضى بقية يومه، ثم سار يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة طالباً عسقلان لينظر في أحوالها ويودع أخاه، فأقام بها أياما يلم شعثها، ويصلح أحوالها، وودع أخاه العادل، وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان، ثم عاد يطلب عكا على طريق الساحل، فأقام بها إلى أن مضى أكثر المحرم من السنة الآتية، ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة، ثم سار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا مدد حفظها، ودخل دمشق في مستهل صفر من السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن طائفة من الرافضية بمصر خرجت يريدون ان يعيدوا دولة الفاطميين الذين حكموا في الديار المصرية والشامية وغيرهما، واغتنموا غيبة الملك العادل عن مصر، واستخفوا بأمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فبعثوا اثني عشر رجلا ينادون في الليل: ياآل علي، على أن العامة تجيبهم إلى ماعزموا عليه، فلم يلتفت إليهم أحد، فلما رأوا ذلك انهزموا فأدركوا وأخذوا وقيدوا وحبسوا، ولما بلغ أمرهم إلى السلطان ساءه ذلك، وكان القاضي الفاضل عنده بعد، ولم يفارقه لاجل سفره إلى مصر، فقال له: أيها الملك ينبغي أن تفرح ولاتحزن، فإنه لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتك ولا التفتوا إليهم، ولو أنك بعثت من قبلك جواسيس يختبرون رعيتك لسرك مابلغك عنهم، فسرى به عنه ذلك، ورجع إلى قوله، ولهذا أرسله إلى مصر ليكون له عيناً وعوناً ومعينا...

- ١١٣١٦ -

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

أسامة بن منقـذ: وهو أبو المظفر أسامة بن علي بـن مقلد بن نصر بن منقذ الكنـاني الكلبي الشيـزري، الملقب مؤيـد الدولـة، مجد الديـن، من أكابر بنـي منقذ أصحاب قلعة شيـزر وعلمائهم وشجعانهم، له تصـانيف عديـدة في فنون الادب، ولـه ديوان شعـر في جزئين، ذكـره ابن المستـوفي وأثنى عليه، وعده في جملة من ورد عليه، وأورد له مقاطيع من شعره.

وذكره العماد في الخريدة، وقال بعد الثناء عليـه: سكن دمشق، ثم رماه الزمـان إلى حصن كيفـا، فأقـام بها حتى ملـك السلطان صـلاح الديـن دمشق، فاستدعاه، وقد شيـخ، فجاوز الثمانين، وقال العماد: وكنت أتمنى أبداً لقيـاه حتى لقيته في صفـر سنة إحدى وسبعين، وسـألته عن مـولده فقال: يـوم الاحد السابـع والعشرين من جمادى الآخـرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بقلعة شيـزر، وتوفي ليلـة الثلاثـاء الثالـث والعشرين مـن شهر رمضـان سنـة أربـع وثمانين وخمسمائة بـدمشق، ودفـن مـن الغـد بجبـل قاسيون، وتوفي والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وقال ابن خلكان: فرأيت ديوانه بخطه ونقلت منه:

لاتستقـــرجلـــدأعلى هجـــرانهم
فقـــواك تضعـــف عـــن صـــدودودائم

واعلـــم بـــأنـــك إن رجعـــت إليهـــم
طـــوعـــاً وإلا عـــدت عـــودة راغـــم

وقال: ونقلت مـن خطه لنفسه وقد قلع ضرسـه، وقال: عملتهما ونحن بظاهر أخلاط، وهو معنى غريب يصلح أن يكون لغزاً في الضرس:

وصـــاحـــب لا أمـــل الـــدهـــر صحبتـــه
ليشقـــى لنفعـــي ويسعـــى سعـــي مجتهـــد

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد .

ويروى: فمذ وقعت عيني عليه افترقنا فرقة الابد......

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين يوسف مقيم على عكا، والامر مستقيم، فوصل إليه جماعة من مصر، فأمرهم بالاقامة فيها محافظة على الحماية، وأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء السور وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا والياً، ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر من هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس أن السلطان قدم عكا في أول هذه السنة، والصحيح أن السنة دخلت وهو مقيم على عكا.

وذكر صاحب النوادر أنه كان مع السلطان، وأنه وصل إلى عكا في أواخر ذي الحجة من السنة الماضية، وأنه أقام بعكا معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم سار حتى دخل دمشق في مستهل صفر منها، وأقام حتى دخل ربيع الاول.

وفيه جاء رسل الخليفة إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى:

ذكر خروج السلطان صلاح الدين لأجل شقيف أرنون:

قال ابن كثير: أقام السلطان شهر صفر في دمشق، ثم خرج منها في ثالث ربيع الأول يوم الجمعة وأتى مرج برغوث، وأقام به إلى يوم السبت حادي عشر الشهر، ثم رحل على سمت بانياس، وأتى مرج عيون، وخيم

بقرب الشقيف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول، وكان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، فنزل إلى خدمة السلطان، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان فقال له في التسليم، فقال: لايوافقني عليه أهل الحصن، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبس بها، ثم تحول السلطان من مخيمه إلى أعلى الجبل يوم الاربعاء الثامن من رجب لمحاصرة الحصن، ورتب له عدة من الامراء وأمرهم بملازمته في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه، وأجرى عليه حكم الحكيم.

وفي تاريخ بيبرس: لما نزل إلى السلطان صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، أظهر الطاعة والمودة، وقال: أنا محب لك ومعترف باحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور مابيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى فانهم عنده، وأشتهي ان تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم، وحينئذ أحضر أنا وإياهم إلى خدمتك ونسلم الحصن، وأكون في خدمتك، ونقنع بما تعطينا من اقطاع، فظن صدقه، فأجابه إلى ماسأل، وأقام بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب المدة، أعني مدة المهادنة التي بينه وبين صاحب أنطاكية، فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره وعساكر الشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء مدة الهدنة، وكان بلغه ان الفرنج اجتمعوا بمدينة صور، ومايتصل بهم من الامداد في البحر، وأن صاحب عسقلان الذي كان أسره ومن عليه اجتمع مع المركيس بصور وأنهم خرجوا في خلق لاتحصى، وكان يخشى أن يترك الشقيف وراء ظهره ويتقدم الى صور وفيها الجموع المتوفرة فتنقطع الميرة عنه، وكان أرناط صاحب الشقيف يجتهد في تحصينه وتحصيل مايقويه من الاقوات والسلاح، وبلغ ذلك الناصر فأحضره قبل انقضاء المدة فقال: تسلم الحصن، فاعتذر، وذكر ماذكرناه الآن.

وقال صاحب النوادر: نزل صاحب الشقيف بنفسه، فما حسسنا به الا وهو قائم على خيمة السلطان، فأذن له فدخل واحترمه وأكرمه، وكان من كبار الافرنج وعقلائها، وكان يعرف بالعربي، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده ثان، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وأنه يحب طاعته، وأنه يسلم المكان إليه من غير نقب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لايقدر على مساكنة الافرنج، وكان قد تردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي أتى إليه، وكان كل وقت يناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه.

ذكر ماتجدد للسلطان مدة اقامته بمرج عيون من الاحوال:

وبلغه أنه اجتمع من كان سلم من الافرنج على ملكهم الذي خلص من الاسر، وقالوا: نحن في جمع خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد من البحر فانهض بنا إلى ازالة هؤلاء عنا، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، فلم يمكنه من دخول البلد، ثم احتج أنه من قبل الملوك الذين من وراء البحار، وأنه منتظر لما يبرمونه من الامر، ثم اتفقوا على أن يقيم المركيس بصور، وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم، ويتساعدون على رم ماتشعث من أموالهم ويقصدون بلداً اسلاميا من الساحل والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع مايحتاجون إليه من الميرة والاسلحة والعدد، ووصل هذا الخبر يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاولى من اليزك، قالوا: إن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر، وأنهم

على قصد صيدا للحصر، فركب السلطان في الحال، فقبل وصول السلطان التقت اليزكية بهم فكسرتهم، وأسروا منهم سبعة من سباعهم، واستشهد من المماليك الخواص أيبك الاخرس، وقد كان شجاعاً شهماً، وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان، وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك، وأقام الى يوم الاربعاء تاسع الشهر، وركب في ذلك اليوم ليطلع في الجبل على القوم، ولم يكن له نية القتال، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال، وتبعه خلق كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال، وعلى عزمه، وكان الفرنج قد بصروا بالقوم فطمعوا فيهم، ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا، وحمل عليهم العدو فأسروهم وقتلوهم وختم الله لهم بالشهادة، وحمل الحاضرون من الامراء والعسكر على الافرنج حملة واحدة، وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر، والحرب سجال، فيوم لنا ويوم علينا، ولم يكن لاولئك الفرقاء بقتال الفرنج دربة، وممن لقي الله بالشهادة وختم له بالسعادة الامير غازي سعد الدولة بن مسعود ابن البصارو، وكان شاباً شجاعاً، فلم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة.

وفي النوادر: لما كان يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاول بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا، وهي الارض التي نحن عليها، فركب السلطان وصاح الجاووش بالناس، فركب العسكر يريدون نحو اليزك، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر جماعة منهم الجسر، فنهض لهم اليزك الاسلامي، وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا، ورموا جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرس، وكان شجاعاً باسلاً مجرباً للحرب ممارساً، تقنطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا

عليه فقاتلوه، ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته، وعاد السلطان من الوقعة إلى مخيم ضرب له قريب المكان، وأقام هناك إلى يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى المذكور، وركب يتشوف على القوم على عادته فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وأمر السلطان بردهم فلم يرتدوا، وذلك لأن المكان كان صعبا ليس للرجالة فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة على الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم، وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع من الفرنج خلق كثير فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيدا عنهم، ولم يكن معه عساكر، وأسروا من المسلمين جماعة وقتلوا جماعة، وعدّ من كان قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفر نج أيضاً عدة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية، وكان عندهم عظيماً.

ذكر مسير السلطان جريدة إلى عكا:

ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين في تلك الوقعة البادرة جمع أصحابه وشاورهم، وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ أو أزيد منه بشيء يسير، فلما صمم العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الاولى على ذلك، وركب وسار وتبعه الناس المقاتلة والعساكر، ولما وصل أواخر الناس إلى اوائلهم وجدوا اليزك عائداً، وخيامهم قد قلعت فسئلوا عن ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها، معتصمين بقربها، ولما رأى السلطان ذلك منهم، رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي ويعود، فراح على تبنين، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى الى عكا ورتب أحوالها، وأمر بتتمة عمارة سورها، وأمر بالاحتياط، ثم عاد إلى

العسكر المنصور الذي بمرج عيون، وأقام منتظراً مهلة صاحب الشقيف.

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت السادس من جمادى الآخرة، بلغ السلطان أن جماعة من رجالة العدو يتبسطون ويصلون إلى تبنين يحتطبون، وفي قلبه مما جرى على رجالة المسلمين شيء عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم ويأخذهم فيه، ثم بلغه أن ورائهم خيلاً يحفظونهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير مغيرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها، وأن يكون ذلك صبيحة يوم الاثنين الثامن من جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسيروا حتى يكونوا وراء عسكر العدو، حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين في السلاح متجردين ليس معهم خيمة إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكرتبنين، وسار حتى قطع تبنين ورتب العسكر ثانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهر ويناوشوهم وينهزمون بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يقدمهم الملك، وكان قد بلغهم الخبر، فتعبوا تعبئة القتال، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الحرب بينهم إلى آخر النهار، ولم يرجع أحد منهم إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى، واتصل الخبر بالسلطان في آخر الأمر، وقد هجم الليل، فبعث إليهم بعوثاً كثيرة، ولما علم الفرنج بأوائل المدد عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد أن جرت مقتله عظيمة من الجانبين، وكان القتلى من الفرنج على ما ذكره من حضر زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة نفر: اثنان من اليزك، وأربعة من

العرب، منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسناً مقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه، ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً فرسه، وأسرهو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة، وكان للسلطان مملوك يسمى أيبك أثخن بالجراح، حتى اندس بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم يجدوه معرفوا السلطان، فأنفذ من يكشف خبره، فوجده بين القتلى فحملوه الى المخيم،وعافاه الله، وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر المذكور، منصورا فرحاً مسروراً، جزاه الله خيراً

وقال ابن كثير: وقتل مع زامل أمير العرب، الأمير حجي بن منصور ابن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن مرى بن ربيعة، وآخر معهم.

ذكر ركوب الأفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان إلى قبالتهم:

ولما وصل الخبر إلى السلطان أن العدو قد ركب نحو عكا، وذلك يوم الأربعاء ثامن رجب ـ وكان قد اجتمع بصور من أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان خلق عظيم حتى صاروا في عالم لايحصون كثرة وأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون، وصورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الفرنج في البحر عالم لايحصون كثرة، وساروا إلى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب، وضايقوا عكا، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين اليها طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريباً من الأفرنج بمرج عكا على تل كيسان.

وقال صاحب النوادر: كتب السلطان إلى سائر أرباب الأطراف بأن يتقدموا إلى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم، وقال: سار السلطان بالليل، وأصبح صبيحة يوم الاثنتين الثالث عشر من رجب سائراً إلى عكا من طريق طبرية، إذ لم يكن ثمة طريق تسع العسكر إلاّ هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ويواصلوه بأخبارهم.

قال: وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له منية صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب، وفيه بلغنا أن الأفرنج نزلوا على عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وسار هو جريدة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذهم على طريق تبنين، بمرج صفورية، فإنه كان واعدهم إليه، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث بعثاً بعد بعث حتى حصل فيه خلق كثير وعدد وافر، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً، وسار من الخروبة، وقد كان نزل عليها يوم الاربعاء خامس عشر الشهر، فسار منها حتى أتى تلاً يقال له تل كيسان في أوائل مرج عكا، وأمر الناس أن ينزلوا على هذه التعبئة، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة يقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخذول، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت، ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لايقدر أن يخرج منها واحد إلاّ ويجرح أو يقتل، وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، ومددهم من البحر لاينقطع، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والبعوث تتواصل من المسلمين والملوك والأمراء من الأقطار متتابعة، فأول من نزل ووصل الأمير الأجل الكبير تقي الدين صاحب حماه في

جحفله، وتتابعت الامراء والعساكر الاسلامية، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الخلاطي باسهال شديد، فأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، فإنه كان شجاعاً دينا، ثم إن الفرنج تكاثروا واستفحل أمرهم واستداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها وذلك يوم الخميس سلخ رجب، فلما رأى السلطان ذلك ضاق صدره وثارت همته العالية لفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فاستحضر أمرائه وأصحاب الرأي وشاورهم في مضايقة القوم، واتفقوا على أن يضايقوا بحيث ينفصل الامر بالكلية او يفتح الطريق إلى عكا.

ذكر قيام الحرب لاجل فتح الطريق:

ولما أصبح نهار يوم الجمعة مستهل شعبان من هذه السنة أصبح السلطان على عزم القتال، فرتب عسكره ميمنة وميسرة وقلباً واتفقوا على أن تكون الملاقاة وقت الصلاة والخطباء تخطب، وهووقت قبول الدعوات، فحملوا حملات عظيمة وهم كالسور المحيط مافيه متسلق، والمسلمون كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، فلم يتحرك الملاعين يوم من موضعهم، ودامت الحرب بينهم وكلما قتل واحد وقف آخر مكانه حتى دخل الليل وحجز بينهم، فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا، واشتدت الحرب أكثر مما كان، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا، فلم يكن هناك خيم، لكن عساكرهم ممتده من كل ناحية، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فانهزموا الى تل المصلبين نحو القبة، وأخلوا ذلك الجانب، وأصبح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك الى باب قراقوش الذي جدده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج، ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان رحمه الله في ذلك اليوم عكا، ورقا على السور ونظر إلى عسكر العدو، وفرح المسلمون بنصر الله، وخرج

العسكر الذين كانوا بها الى خدمة السلطان، ثم استدار العسكر الاسلامي حول عسكر الافرنج وأحدقوا بهم من كل جانب.

ذكر الوقعة العظمى:

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من شعبان من هذه السنة برزت الافرنج بأجمعهم وضربوا مع السلطان مصافاً، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج، واشتغلوا بقتال الميمنة، فصاح السلطان: ياللاسلام، فركبت الناس بأجمعهم، وحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان كل واحد من المسلمين قتل أربعين أو خمسين من الفرنج، وكان قتلى الفرنج تقدير عشرة آلاف، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية، وبعضهم وصل الى دمشق، ولم يكن وقف من المسلمين ثابتين نحو ألف نفس، فردت مائة ألف، وجافت الارض بعد هذه الوقعة من قتلى الفرنج، فلحق السلطان مرض، وحدث له قولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان الى الخروبة، فلما رحل السلطان تمكن الفرنج حيتئذ من حصار عكار ، وانبسطوا في تلك الارض ، ولم يعلم السلطان أن ذلك كان من أكبر المصالح للعدو المخذول فإنهم اغتنموا هذه الفترة فحفروا حول مخيمهم خندقا يجمع جيشهم من البحر الى البحر محدقاً ، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً ، وجعلوا له أبوابا يخرجون منها إذا أرادوا ، وتمكن الأمر وقوي الخطب .

وقال صاحب النوادر : واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة ، وفي القلب الملك ، وبين يديه الانجيل محمولا مستوراً بثوب أطلس مغطى ، يمسك أربعة أنفس أطرافه ، يسيرون بين يدي الملك ، وامتدت

الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى اخرها ، وكذا امتدت ميسرتهم في مقابلة ميمنة المسلمين الى اخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر ، والسلطان رحمه الله رتب عسكره في مقابلتهم ، فوقف هو في القلب ، وفي الميمنة ولده الملك الافضل ، ثم ولده الظاهر ، ثم عسكر المواصله يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو مطل على البحر ، واما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي المشطوب وعلي بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج ورسلان بغا ، وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ، وفي مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه.

وهذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه ، يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النوال ، ويرغبهم في نصرة دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئا اطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً ، فأيده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ثم جاءت منهم حملة على عسكر ديار بكر ، وكانت بهم غرة عن الحرب ،

فلـم يصبروا وانكسروا كسرة عظيمـة ، وسرى كسرهم إلى انكسـار معظـم الميمنة واتبـع العدو المنهزمين إلى العياضيـه ، وصعدت طائفـة منهم إلى خيـم السلطان فقتلـوا طشـت دار كان هنـاك ، وفي هـذا اليوم استشهـد اسماعيل المكبـس وابن رواحـة ، وأما الميسرة فـإنها ثبتت ، فـإن الحملة لم تصـادمها ، وأمـا السلطـان فإنـه أخـذ يطـوف على الأطلاب ينهضهـم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم يالـلاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطـوف على الاطلاب ويخرق الصفوف، ثم أوى الى تحت التـل الذي كان عليـه الخيام وأما المنهزمـون فإنهم بلغوا الى الاقحوانـة فقطعوا جسر طبرية، وقوم وصلـوا إلى دمشق، وأما المتبعون فـاتبعوهـم إلى العياضيـة ثم رجعوا عنهـم، وقتلوا في الطريـق جماعة مـن الغلمان والخربندية والسـاسة المنهزمين، ثـم جاءوا على رأس السـوق فقتلوا جماعـة، وقتل منهـم جماعة أيضاً، فإن السوق كان فيـه خلق عظيم ولهـم سلاح، ثم لما رأوا أن الميسرة الاسـلامية ثـابتـة علمـوا أن الكسرة لم تتم فعـادوا منحـدريـن من التـل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنـه كان واقفاً تحت التل ومعه نفريسير، وهـو يجمع النـاس ليعودوا إلى الحملـة على العدو، ولما رآهـم نازلين مـن التـل أرادوا لقـاءهم فصبرهـم السلطـان إلى أن ولـوا ظهورهـم، فحملـوا عليهم، وعـاد الملك المظفـر بجمعه من الميمنـة وتراجـع الناس مـن كل جـانب فنصر اللـه الاسـلام، وظـل الناس في قتـل وضرب وجـرح الى ان اتصل المنهـزمون الى عسكر العـدو، ثم رجـع الناس عنهم السـالمون بعد صلاة العصر يخوضـون في القتلى وهـم فـرحون ومسرورون، وعـاد السلطان إلى خيمته في ذلـك اليوم فـرحاً مسروراً، فـافتقدوا المسلمين فكـان مقدار مافقد مـن الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومـن المعروفين استشهد ظهير الـدين أخـو الفقيه عيسـى، وكان قـد وقع مـن فرسـه وقتل عليـه جماعة من أقـاربه، وقتل أيضاً الامير مجلي، هذا الـذي قتل من المسلمين، وأما في العدو فحزر سبعة آلاف نفر.

قال الـراوي: ورأيتهم قد حملوا إلى شـاطىء النهر ليلقوا فيـه فحزرتهم

بـدون سبعـة آلاف، ثـم إن السلطـان سـارع في الكتـب والـرسـل في رد المنهزمين مـن المسلمين حتى ردوا البعـض من عقبـة فيق، وكـان الغلمان والحواشي نهبـوا أموال النـاس، فـأمر السلطـان بجمـع ذلـك كله، وأمـر بـالنداء بـالـوعيد والتهـديـد، فأحضروا شيئـاً كثيراً حتـى صار بين يـدي السلطان مثـل التل، ثم أمـر بردها على أصحـابها، وصار من عـرف شيئاً واعطى عـلامته أعطـاه، وكان ذلـك يوم الجمعـة الثالـث والعشرين مـن شعبـان، ثم تحول السلطـان الى موضـع يقال لـه الخروبة، وهـو موضـع قريب من مكان الوقعة، ونزل هنـاك يوم السبت الرابع والعشرين منه، ثم في سلخ الشهـر استحضر أعيان عسكره وقـال: اعلموا أن هـؤلاء الكفار قد نزلـوا في بلادنا، ووطئوا أرض الاسلام، ولابد مـن الاهتمام بقلع هؤلاء، والله قد وجب علينا ذلك، وأنتم تعلمـون أن هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة ننتظرهـا سوى الملك العادل، وهـو واصل انشاء الله، وهـذا العدو إن بقي وطـال أمره إلى أن ينفتح البحر، جـاءهم مدد عظيم، والـرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليتكلم كل منكـم ماعنده في ذلك ، وكان ذلك في ثـالـث عشر تشريـن مـن الشهور الشمسيـة، فـامتحضت الآراء، ثـم اتفقـت على أن المصلحـة تـأخير العسكر إلى الخروبـة لتتراجـع أنفسهـم إليهـم، فقـد أخذ منهـم التعـب واستـولى على نفوسهـم الضجـر، ولهم خمسون يـوماً تحت السـلاح وفوق الخيـل، والخيل قـد ضجرت مـن عرك اللجم وسئمت نفـوسها ذلك، ويصل الملك العادل ويشـاركنا في الرأي، فوافقهـم السلطان على ذلك لكـونه قد حصل لـه مرض من كثـرة ماحمل على قلبه، ومـاعاناه مـن التعب، وحمل السلاح، فـأقام هناك ينتظـر أخاه الملك العـادل إلى يوم الاثنين عـاشر رمضان، ثـم إن السلطان أرسـل الى مصر يطلب أخاه العـادل ويستعجل الاسطول، فوصـل إليه الاسطول في خمسين قطعة مـع الامير حسام الديـن لؤلؤ، وكـان مظفراً شجاعـاً، وظفر ببطسـة للفرنـج فأخـذها ودخـل بها إلى عكا، فقـويت قلـوب المسلمين لذلك، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر في منتصف شوال.

وقال العماد: وكان وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء عشر من ذي القعدة في المراكب المستعدة بالبأس والشدة، وكانت عدته خمسين شينيا، فأول ماظفر الاسطول المنصور بشيني للفرنج عظيم الشان، فقتل مقاتلته، فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة واسعة، وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ في مدة هذا الحصار، ووصل إلى الافرنج في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنات الوجوه، اجتمعن من الجزائر، وسبلن أنفسهن لله تعالى بزعمهن، والتزمن أن لايمنعن أنفسهن ممن أراد بطانتهن من مقاتلي الفرنج، وزعمن أن هذه قربة للمسيح مافوقها قربة لاسيما إذا كان ممن اجتمعت فيه عزبة مع اقدام على القتال.

ذكر وصول خبر ملك الالمان لعنه الله:

وفي رمضان من هذه السنة وصل من حلب كتب من ولده الملك الظاهر غازي يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الالمان قد خرج إلى قسطنطينية في عدة عظيمة، قيل مائتا ألف، وقيل مائتان وستون ألفاً يريدون البلاد الاسلامية، وقيل إنهم في ثلاثمائة ألف مقاتل، وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع، وجاءت كتب أيضاً من صاحب قلعة الروم، مقدم الارمن يبدي نصيحة واشفاقاً وتخوفاً على البلاد واحتراقاً، ويقطع ان الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عثرة، وأبرق في كتبه وأرعد، وأبدع بخطابه وأبعد، ولاشك إلى دينه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا الخبر كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، واشتد ذلك على السلطان، وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام الخليفة بذلك.

قال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم صاحب النوادر: استندبني السلطان لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب

سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى بغداد لاعلام الخليفة الناصر لدين الله.

قال: وكان مسيري في الحادي عشر من رمضان من هذه السنة ويسر الله الوصول إلى الجماعة المذكورين فأجابوا، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة، وسار ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة بنفسه يجر عسكره، وسير صاحب الموصل عز الدين ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره.

قال: وحضرت الديوان السعيد ببغداد، وأعلمت الخليفة بذلك، ووعد بكل جميل، ثم عدت إلى خدمة السلطان وكان وصولي إليه يوم الخميس خامس ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة، وكانت العساكر قد تجهزت فسبقتهم وعرفته باجابتهم بالسمع والطاعة، وتأهبهم للمسير، فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً، وانسلخت هذه السنة والحال على ماهو عليه، ولاملجأ من الله إلا إليه.

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه في محرم أمر الخليفة أن يعهد الى ولده أبي نصر، وأن أمير المؤمنين أنعم النظر للمسلمين بتفويض عهده والإمامة من بعده إلى ولده عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد، لما علم من عقله الراجح وهديه الواضح، وبعث الخليفة مع ضياء الدين عبد الوهاب بن علي الصوفي، ويعرف بابن سكينة، نسخاً إلى صلاح الدين في الخطبة، وبعث إلى جميع الآفاق، فالتقاه السلطان وخطب له على المنابر، وكان الخطيب بدمشق عبد الملك بن زيد الدولعي، وبعث السلطان جواب الرسالة مع ضياء

الـديـن بـن الشهـرزوري، وبعث معـه بصليـب كـان على صخـرة بيت المقدس، فجعل على باب النوبي تطأه الاقدام ويهان، وهو بحاله إلى هلم جرا.

وقال ابـن كثير: وفي صفر قدم من جهـة الخليفة رسل يعلمـون صلاح الديـن بولاية العهـد إلى عدة الديـن الملقب بالظـاهر ابن الامـام الناصر لديـن الله، فـأمر السلطـان لخطيب دمشـق أن يخطب لـه بعد الخليفـة، فخطب يوم الجمعـة ثالث صفر، ونثر عليـه الدنانير والدراهـم، ثم جهز السلطان مع الرسل تحفاً عظيمة وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حـربهم، وأرسل بصليب الصلبوت ودفـن تحت عتبة باب النوبي من دار الخلافـة فكان يداس بعدما كان يقبـل ويباس، وصار يبصق عليـه بعدمـا كان يسجـد عليه، وكـان هذا الصليـب من نحـاس مطلياً بالذهب.

ومنها أن السلطـان صلاح الـدين ولى دمشـق بدر الـدين مـودود أخا العادل لأمه شحنكية دمشق.

ومنها أنه في جمادى الاولى ولـد للملك العزيز ولـد سماه محمداً، ولقبه ناصر الـدين، وهو الـذي اجتمع عليه أصحـاب العزيـز عند موتـه سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان مـلازما للسلطان صلاح الدين يـوسف حتـى تـوفي في ركابـه، وكـان ممن تفقـه على الشيـخ أبي القاسـم البزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والامراء الكبراء.

وقال العماد: توفي الفقيه عيسى بمنزلة الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة لسنة خمس وثمانين وخمسمائة، وحمل من يومه إلى القدس فدفن به، وكان من الاعيان، ومن مقربي السلطان.

وفي المرآة: وكان لقبه ضياء الدين، وحضر فتوح القدس والفرات، وكان صلاح الدين يحبه ويحسن الظن به ويستشيره، وكأن الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس، ويفرج عن المكروبين مع الورع والفقه...

الأمير موسك بن جلودا والد الامير عماد الدين داود بن موسك، ابن خال السلطان صلاح الدين، حفظ القرآن وسمع الحديث وكان محسناً إلى الناس يقضي حوائجهم ويتلطف بهم، وكان ملازماً للسلطان في غزواته لم يتخلف عنه في مشهد منها، وكان ديناً صالحاً جواداً مرض بمرج عكا مرضاً شديداً، فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق يتطبب، فجاء إلى دمشق فتوفي بها ودفن بقاسيون رحمه الله، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة.

الأمير حسام الدين طمان ـ صاحب الرقة ـ كان شجاعاً جواداً محسناً محباً للخير، كثير الصدقات مائلاً إلى العلماء والفقهاء، بنى مدرسة بحلب لاصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان السلطان صلاح الدين يحبه، ويعتمد عليه، ولما احتضر والسلطان في مقابلة الافرنج، طلب حصانه وزرديته ليركب ويشهد من حرصه على الغزاة، فلم يقدر لضعفه، فجعل يبكي ويتأسف على موته على فراشه، وكان من شجعان المسلمين، توفي في ليلة النصف من شعبان، ودفن في تل العياضية، وحزن السلطان والمسلمون عليه.

الأمير سنقر الخلاطي: توفي في ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب من هذه السنة، وذلك أيضاً حين كان السلطان على عكا رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة والخليفة هو الناصر لدين اللـه، والسطان صلاح الديـن مقيم بعسكـره بمنزلـة الخروبة، وكـل من الملـك العادل والملـك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبـة، وعكا محصورة، وجموع الفرنج على حصارهـا محشورة، وهلك مـن الفرنج المحـاصرين في الوقـائع خلق كثير لان القتال لم ينقطع والتواقع لم يرتفع.

ذكر وقعة الرمل:

كان السلطـان صلاح الـدين رحمه الله يـركب أحيـاناً للصيـد، ولكن لايبعد مـن المخيم، وركـب يوماً في صفـر على عادتـه، فتصيد وطـاب له الصيد فأبعد، واليـزك على الرمل وساحل البحر مـن الميسرة على حذرهم واحتياطهـم فإذا الفـرنج خرجـوا في عدد لايحصـى وقت العصر فتسـامع المسلمـون، فـزحفوا إليهـم، وحملـوا عليهـم وطـردوهـم إلى خيامهـم مـن خلفهم وأمامهم، ولم يزل بينهم حملـة وردة ورمية حتى فني النشاب، فلما علم الفرنـج بذلك حملوا حملة واحـدة ردوا بها المسلمين إلى النهر، فثبت من العـادلية في وجـوه القوم صف مـرصوص البنيان، فـوقع بينهـم قتا ل عظيـم واستشهد جماعـة مـن الشجعان وذلـك لانهم ردوا الفـرنج إليهـم فلقوا فرساناً وصرعوا شجعاناً، ونـزلوا واشتغلوا بالغنيمة، فحملت الفرنج عليهم حملـة منكرة، فأشغلتهـم عن الـوثوب والانتهاض، وأظلـم الليل، وافترق الفـريقان عـن قتلى، وكـان ممـن استشهد مـن المسلمين الحاجـب ايدغمـش المجدي رحمه الله ومملـوك للسلطان كـان يدعى أرغـش، وكان خيراً صالحاً، ومـن عجائب هذه الـواقعة أن مملـوكاً للسلطان يسمـى قرا سنقر كان مـن الأبطال المشهورين عثـر به جواده فصار راجـلاً، فقبض

عليه مـن أسره وسحبه من شعره، وجـاء آخر وسل سيفه عليـه ليضربه، فضرب يد قـابض شعره فسيبه، واشتـد يعدو وهم يعـدون وراءه ليقتلوه، وفاتهم بعون الله تعالى.

ذكر فتح شقيف أرنون:

وفي يوم الاحـد خامس عشر ربيـع الاول تسلم صـلاح الدين بـالامان شقيف أرنـون، وكان الحصـار مستمراً عليـه من السنـة الماضية، وكـان السلطـان حبـس صاحبهـا أرنـاط في دمشـق على مافصلنـاه، فلما تسلـم السلطان شقيـف أرنون أفرج عن أرنـاط، وصار الى صور، وكان هـذا من أدهى الفـرنج وأخبرهـم بأيـام الناس، كما قـرأ في كتب الحديـث وتفسير القرآن، ومع هذا كان غليظ الجلد كما في القلب قبحه الله.

وفي النـوادر: لما كـان التـاريـخ المذكـور علـم الفـرنـج المستحفظـون بـالشقيف أنـه لاعـاصـم لهم من أمـر اللـه، وأنهم أخـذوا عنوه، فطلبـوا الامان، وكـانوا علموا مـن حال صاحبهم أنـه قد عذب أشـد العذاب، فاستقـرت القاعـدة على أن يطلق صاحبهـم وجميع من فيـه من الفـرنج، ويترك مـافيـه من أنـواع المال والـذخـائر، فـأمنهم السلطـان على ذلـك وسلموا الشقيف، وعاد صاحبهم والفرنج الذين كانوا به إلى صور.

ذكر حال عكا وكيفية الوصول إليها:

كان السلطـان قد قوى عكا بتسيير الغـلات والاقوات إليها، ومـلأها، بـالذخـائر والاسلحة، ثـم لما انقضى الشتـاء وانفتح البحـر، وحان زمـان القتال كتب السلطـان إلى العساكر يستدعيهم من الاطـراف، ولما تواصل أوائل العساكر، وقوي جيش الاسلام رحـل السلطان رحمه الله نحو العدو فنزل بتل كيسان، وذلك في الثامـن عشر من ربيع الاول من هذه السنة،

ورتب عساكره، وكان خبر البلد قد انقطع عن السلطان، وامتنع عليه دخول البلد والمدد، فعند ذلك اشتد العوامون بالسباحة، وكانوا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، وكان أهل عكا يكتبون إلى السلطان، ويكتب السلطان إليهم على أجنحة الحمام ويعرف الاحوال بذلك.

وقال ابن كثير: فلما انحسر الشتاء وانكسر البرد، وانتشر الربيع أمر السلطان باجتماع العساكر وكانوا قد تفرقوا فتوافوا، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم، ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان، ثم رحل السلطان ونزل على كيسان في التاريخ المذكور، وترتبوا في النزول ميمنة وميسرة وقلباً، وكان الملك الافضل في أول الميمنة وأخوه الملك الظاهر في أول الميسرة.

ذكر وصول رسول الخليفة: لما كان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة وصل رسول من بغداد من عند الخليفة الناصر، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، وذلك في جواب رسالته مع ضياء الدين الشهرزوري، وأرسل الخليفة معه أحمالا من النفط والرماح الخطية، ومعه نفاطة متقنون لهذه الصناعة غاية الاتقان، ومرسوم بعشرين ألف دينار، وذلك في رقعة من الديوان العزيز تتضمن الاذن للسلطان في أن يقترض عشرين ألف دينار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز، فقبل السلطان جميع ماوصل واستعفى عن الرقعة.

وفي المرآة: ومع الرسول توقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة، فشق على السلطان، وقال: أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا

وأضعافه، وما أنـا مضرور ، ورد عليه جميع ماجاء به، فـأشار عليه بعض أصحـابه بـأخذ النفـط للغزاة فـأخـذه، ورد التوقيـع، وقال: يـرحم اللـه العاضـد وصل إليّ منـه في عشرين يومـا بمقام الفـرنج على دميـاط ألف ألف دينار ومعها عروض.

ذكر وصول الأمراء:

وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الآخـر قدم عماد الدين زنكي بن مودود بـن زنكي، صاحب سنجـار بمن استنهضه من العسـاكر، في جمع عظيم، ولقيه السلطان وأكـرمه غاية الاكرام، ورتب لـه العسكر في لقائه، فكان أول مـن لقيه من العسكـر المنصور قضاتـه وكتابه، ثـم لقيه أولاده بعد ذلـك، ثم لقيه السلطـان، ثم سار حتـى أوقفه على العدو، ثـم عاد معه إلى خيمتـه وأنزله عنـده، وكان صنع لـه سماطاً لائقاً بـه، فحضر هو وجميع أصحـابه، وكان قد بـالغ في اكرامه حتـى بسط له طراحـة مستقلة إلى جانبه، وبسط لـــه ثوباً أطلس عند دخوله، ثم ضربت له خيمة على طـرف الميسرة عند جـانب النهـر، وقدم إليـه عشرة من الخيـول العربيـة، وخمس عشرة بقجة قماش.

ثم وصـل من بعـده ابن أخيـه معز الـدين سنجـرشاه بـن غازي بـن مـودود، صاحـب الجزيرة، بعسـاكره الكثيرة، وذلـك يوم الاربعـاء سابـع جمادى الاخرى، ولقيه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمة ضربت إلى جانب عمه عماد الـدين، ثـم وصل الملـك السعيد عـلاء الديـن خسروشاه ابـن صاحـب الموصل عز الديـن مسعود بن مـودود، وذلك يوم الجمعة تـاسع جمادى الاولى، وكـان أبوه أرسلـه نـائباً عنـه مقـدمـاً على عسكره، ففـرح السلطان بقـدومه وتلقـاه من بعـد وأنزلـه عنده في خيمـة ضربت لـه بين خيام ولديه الملـك الافضل والملك الظاهر، وقدم له تحفـاً سنية، وكان ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب والملك مظفر الدين بن علي كوجك،

صاحب حران، قدما قبل احتراق الابراج التي صنعها الافرنج.

وقضيتها أن البحر لما انفتح تواترت الافرنج والنصارى من كل جزيرة ينصرون أصحابهم ويمدونهم بالقوة والميرة، وعملت الافرنج ثلاثة أبرجة خشب وحديد عليها جلود مسقاة بالخل والخمر لئلا يعمل فيها النفط والنار، وطموا خندق عكا، وسحبوا الابراج على العجل إلى السور، فأقبلت أمثال الجبال، فأشرفت على البلد، وفي كل برج خمسمائة مقاتل، فأيس المسلمون من البلد، وقد حيل بينهم وبين السلطان، وركب السلطان والعساكر واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدروا ورماهم الزراقون الذين في البلد بالنفط، فلم يحترق منها شيء، فأهم أمرها المسلمين وكانوا عليها خائفين، فأعمل السلطان حيله وفكره في احراقها واهلاكها، فاستحضر النفاطين ووعدهم الاموال الجزيلة، فانتدب شاب نحاس من دمشق يعرف بعلي، عريف النحاسين، والتزم باحراقها واهلاكها، فأخذ النفط الابيض، وخلط إليه أدوية عرفها، وغلاه في ثلاث قدور من النحاس حتى صار ناراً تتأجج، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا، فأحرق الابراج الثلاثة باذن الله تعالى، حتى صارت ناراً لها ألسنة في الجو متصاعدة، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير واحترق في كل برج من مقاتلتهم سبعين كفوراً، ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان ٢٦] وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر فاحترقت في يوم واحد.

وفي المرآة: وكان هذا الشاب بعكا ليس له في الديوان اسم، وكان عارفاً بالنفط والحريق، وقال لقراقوش: انصب إليّ منجنيقاً أحرق هذه الأبراج، فقال له: قد عجز الصناع فمن أنت؟ فقال: قد عملت قدوراً لله تعالى، وأنا لاأريد منكم شيئاً، ومايضركم أن أرمي بها في سبيل الله فإن نفعت، وإلا فاحسبني واحداً منهم، فقال قراقوش: مايضرنا ذلك،

ثم نصب لـه المنجنيق، وكان قد هيـأ تلك القدور، فرمـى قدرة واحدة في برج فـاحترق بمن فيه، ثـم فعل ذلك بـالثاني والثالـث، فكبر المسلمون، وسمع السلطـان فكبر والعساكر وفـرح قراقـوش والأمراء وطموه بـالخلع والاموال، فلم يأخـذ شيئاً، وقال: أنا فعلت هذا لله تعـالى ولم يأخذ عليه شيئـاً من الـدنيا، وكـان السلطان أيضـاً قـد عرض عليـه العطية السنيـة فامتنع من قبـولها، وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه اللـه فلا أريد منكم جزاء ولاشكوراً.

ذكر وصول الاسطول من مصر:

وكان السلطـان قد أمر بتعمير اسطـول آخر من مصر، تصـل فيه الميرة والذخير والعدد الكثيرة، فلما كان ظهر يـوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهـر الاسطول فـركب السلطـان في جحافلـه ليشغـل الفرنـج عن قتـال الاسطول، وعمر الفـرنج أيضاً اسطولاً، وصفـوا شوانيه على البحر عـرضاً وطولاً، وأرادوا أن يـلاقوا الاسطـول المنصور، فجـاءت مراكـب الموحديـن ونطحت مـراكبهم وطحنتهـا، وأخذ المسلمـون لهم مركبـاً، وأخذ الافـرنج للمسلمين مركبـاً وكان التقصير مـن الرؤسـاء، واتصل الحرب في البر إلى حين غروب الشمـس، وعاد المسلمون مسرورين، وقتـل من الافرنـج عدد كبير لعنهم الله.

وقـال القـاضي بهاء الـديـن رحمه اللـه: التقـى الاسطـولان في البحـر والعسكران في البر، واضطرمـت نار الحرب، وباع كل فريق روحـه براحته الاخـرويـة، ورجح حيـاتـه الابـدية على حيـاتـه الـدنياويـة، وجـرى بين الاسطولين قتـال شديد أفصح عـن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخـذ منه شيني وقتـل من فيه، ونهب جميـع مافيه وظفر العـدو أيضاً بمركـب كان واصلاً من قسطنطينة، ورحل الاسطـول المصري إلى عكا، واتصل القتال بين العسكريـن من خارج البلد إلى أن حجـز بينهما الليل، وقد قتلـوا من

الافرنج خلقاً كثيراً، إلا أنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع في البحر والبر، ومن داخل عكا.

ذكر قصة ملك الالمان:

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج، وأنه وصل بجمعه إلى مضايق صعب عليه العبور، فقيل إنهم أقاموا في قفار ومواضع صعبة شهراً عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً، وكان التركمان الأوجية على طريقهم يمنعون.شريعتهم، فاضطروا إلى المقام بغير زاد، فصاروا يذبحون خيولهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها، فترجلت منهم ألوف، وكان ذلك في البرد الشديد وزمان الثلج والجليد، وعدموا الدواب لحمل الاثقال، ونقلوا عدد الرجال فدفنوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأحرقوا منها، وكان ظنهم أنهم إذا عادوا أخذوا مادفنوه، فأخذ المسلمون مادفنوه، وكانوا في عدد كثير، فما أثر فيهم ذلك ولاكسرهم عن مقصدهم ومازالوا يسيرون حتى بلغوا إلى بلاد صاحب الروم قونية وغيرها وهو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن (سليمان بن) قتلمش بن سلجوق.

وفي المرآة: وكانوا في ستمائة ألف مقاتل جاءوا من فرنجة، فخاف منهم ملك القسطنطينية فقالوا له: لاتخف نحن ماجئنا إلا لنخلص القدس وصليب الصلبوت، ونملك بلاد المسلمين، وكان بين السلطان صلاح الدين وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى السلطان بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة وجواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع في قسطنطينية، وكانت الخطبة أقيمت وأكرم الرسول اكراماً زائداً، وكان السلطان قد أنفذ مع الرسول خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً، ولما رقا

الخطيب المنبر حضر هناك جمع كثير من التجار والمسلمين مقيمين بها، وأقام الخطيب الدعوة العباسية وبعد ذلك كله جاء رسول صاحب القسطنطينية الذي ذكرناه ومعه ترجمان يترجم، وهو شيخ حسن الوجه وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب مختوم بالذهب دون عرض كتاب بغداد مترجم في ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجه وضع فيها الختم من الذهب المطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع، وعلى الختم صورة الملك وصورة السطرين المذكورين:

«من ايتاكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله، المنصور العالي أبداً، فقتوس المدبر من الله، القاهر الذي لايغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس.

إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين».

وأما الذي في باطن الكتاب فإنه يتضمن اظهار المحبة والمودة، ثم ذكر خبر ملك الالمان، وقال: «لاتحمل على قلبك منهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم، وإنهم قد خسروا كثيراً من الاموال والدواب والرجال وبلغوا بالشدة، وقد تخلصوا من أجناد بلادي بالغصب، وقد ضعفوا بحيث أنهم لايصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً في شدة بعد شدة».

وأكرم السلطان رسوله وأقام بحقه كما هو العادة بين الملوك.

ووصل أيضاً كتاب إلى السلطان من مقدم الارمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات، وصورته: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس: مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين، سلطان

الاسلام والمسلمين أدام الله إقباله وضاعف جلاله وصان مهجته وكماله، وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله.

وأما أمر ملك الالمان فإنه دخل بلاد الهنكر غصبا، وأذعن له ملك الهنكر ودخل تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله مااختار، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فضة، وثياباً طلساً، مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، ورد الرهائن، وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع بينهم وبين التركمان، وضايقهم التركمان ثلاثة وثلاثين يوماً»، ثم ذكر ماوقع بينه وبين قليج أرسلان على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر ماجرى بينهم وبين قليج أرسلان:

ولما وصلوا إلى بلاد قليج أرسلان، وكان مملوكاً من ولده قطب الدين ملكشاه، وهويدبر أمره، عارضهم وتعرض لقتالهم وطاردهم ليضيق عليهم، ثم اندفع من بين أيديهم، ودخلوا قونية، واعتصم قليج أرسلان بقلعتها وتراسل هووملك الالمان واتفقا بالمواثيق والايمان على ان يوافقه على العبور إلى الاقاليم الشامية والبلاد الاسلامية، وعلى أن يسير في بلاده إلى بلاد لافون ملك الأرمن، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى الماء، وأمر الناس بمبايعتهم على مايسومونه، وأقام لهم الاسواق، فساروا في رفق ورفاهية، ولماوصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الظعائن، واحتج عليهم بأن التركمان سرقوا منهم في طريقه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قربوا من قونية خرج إليهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان ليمنعهم، فلم يمكنه ذلك لكثرتهم، فراسله ملك الالمان، وأرسل إليه هدية وهادنه، وطلب منه من يسير معه إلى بيت المقدس، ثم سار إلى بلاد الارمن.

وفي المرآة: ولما دخلوا بلاد قليج أرسلان لم يكن له بهم طاقة، فاحتاج إلى مسالمتهم، وكتب إلى السلطان يعتذر بالعجز عنهم، وساروا طالبين الشام، ووقع فيهم الوباء وبدوابهم.

وذكر في النوادر: ولما قربوا من قونيه، جمع قطب الدين بن قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به الملك، وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرجت إليه جموع كثيرة من المسلمين فردهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف، وقتل منهم عالماً عظيما من المسلمين، وأقام بها خمسة أيام، فطلب منه قليج أرسلان الامان، فأمنه، واستمرت بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل ذلك وقبل منه.

وفي المرآة: ووصلوا إلى نهر طرسوس فتحصن منه ابن ليفون بقلعة من قلاعه لانه أرمني وهم روم.

قلت: التوفيق بين الكلامين أنه تحصن أولا منه خوفاً، ثم طلب منه الامان فأمنه، ونزل إلى خدمته، وأقام بواجبه.

ذكر هلاك ملك الالمان:

لماوصل ملك الالمان الى طرسوس، اجتاز هناك بنهر شديد الجرية، فدعته نفسه الخبيثة ان يسبح فيه، فنزل وصار فيه، فحمله الماء إلى جذم

شجرة هناك ففشخت رأسه، وأخذت أنفـاسه، وراحت روحه إلى الهاوية، وأراح الله المسلمين منه، وكان شيخاً مسناً.

وفي تاريـخ بيبرس: ثم سار إلى أنطاكيـة، وكان في طريقهم نهر، فنـزلوا عنده، فعبر الملك النهر ليغتسل فمرض فمات، وكفى الله شره.

وفي المرآة: أراد الملـك أن يسبح في نهر طـرسـوس، وكـان ماؤه بـارداً، فنهوه، وقـالوا: لاتفعل فـأنت متعوب، فقال: لابـد من ذلك فسبـح فيه، فأخذته الحمـى، فأقاموا على النهر بسببه، فأوصـى إلى ولده الذي كان في صحبته ومات فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوها في القدس.

وذكر صـاحب النوادر: نـزل على شط بعـض الانهار، فأكل خبـزاً ونام سـاعة، وانتبـه فتـاقت نفسـه الى الاستحمام في الماء البـارد، ففعل ذلـك، وخرج، وكـان من أمـر الله أنـه تحرك عليه مـرض عظيم مـن الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

ولما شاهـد لافون ملك الارمـن هذا هـرب وتحصن في بعض حصـونه، واحتمى هناك.

ذكر إقامة ابن الملك مقامة:

ولماهلك اللعين المذكـور أقيم ولده الاصغـر في الملك بعـده، وقد تمزق شملهم، وتفرق جمعهم.

وفي المرآة: ولما مـات اختلفوا على ولـده لانـه كـان له آخـر آكبر منـه، وكانوا يميلون إليه، فتأخر عنه أكثرهم، ودخل أنطاكية في جيش قليل.

وفي تـاريخ بيبرس: وكـان معه ولـده فصيروه ملكاً عليهـم، فاختلفـوا

عليه، ومـال بعضهم إلى أخيـه، فسار فيمـن بقي معـه، وعرض جماعتـه، فكانـوا نيفاً وأربعين ألفـاً، ووقع فيهـم الوبـاء، وتخطفهم عسكـر حلب وغيرهم، ثـم ساروا إلى طـرابلس، فلـم يبق منهـم سوى ألـف، ثم ركبـوا البحر وقصـدوا عكا، ثـم أجمعوا على العود إلى بـلادهم في البحـر، فغرق بهم المركـب، ولم ينج منهـم أحد، وأرسـل قليـج أرسلان صـاحب الـروم يعلم السلطان صلاح الـدين بذلك، وبلغ الفرنج هـلاكه فأشعلوا النيران حزناً عليه.

وفي تاريـخ ابن كثير: وأمـا ولد ملـك الالمان فإنـه مرض أيـاماً في بلـد الارمن، وهلك أصحابه جوعـاً، ووقع الموت في خيلهم، وحمل الملك وهو مريض، وساروا أمامه في ثلاث نـوب لكثرتهم، ومعظم رجالتهم حاملين العصي وركـاب حمير، وهـم غير عـارفين بـالطـريـق، والنـاس يلتقطـونهم ويتخطفونهم، ووصلـوا إلى أنطاكيـة وضاق بـالابرنـس صاحـب أنطاكيـة ذرعاً، ولم يجد عنـده مرتجى، وطلـب منه القلعة فـأخلاها لـه، ونقل مـاله إليها وسـأله أن يجعـل طريقه على حلـب، فخاف وأبـدى الخلاف، وقبل وصوله إلى انطاكية قلت جموعـه وجنوده، وبليت بحشد التركمان حشوده، واجتازت الفرقـة الاولى منهم على بغراس من تحت قلعتهـا، فخرج رجالها عليهم على قلتهم، فأسروا منهم أكثر مـن مائتي أسير، وقيل إنهم حسبوا أن بغـراس باقيـة على حالها بيـد الداويـة، فجاءوا إليهـم سحراً بـأحمالهم وأمـوالهم السنيه، فلـم يشعـر واليها إلا البغال على البـاب واقفة، فخـرج إليها وتسلمها بغير طعن ولاضرب، وتخلى عنهـا أصحابها لما عرفوا الحال، ولم يعـرجوا على حـرب، وهلك بـانطـاكية الكنـد الكبير مقدم العسكـر، وحصـل للابـرنس صـاحب انطـاكية أمـوال كثيرة من الـذخائر المودعـة وغيرها، ثـم سار هـؤلاء الملاعين على طريـق السـاحـل، فخرجـت عليهم خيل الـلاذقية وجبلة وسقتهم أنـواع العذاب، فجدوا السير حتـى وصلوا إلى طرابلس وقـد نقص نصفهم، وخاف الملك مـن المسير على الطريق لما افترقت جموعه، فـركب البحر في عدديسير لايزيد على ألـف، واختلط مع

الافرنـج على عكا، فسقط اسمـه وبطل حكمه، وكـذلك شأن مـن يكفر بالله.

وقال ابن كثير: وصل ملك الالمان في خمسمائة ألـف مقاتل، وإن ملوك الافرنج كلهـم كرهوا قدومـه عليهم لما يخافون من سطـوته، وزوال دولتهم بدولتـه ولم يفرح بـه إلا المركيس صاحـب صور، الـذي حرك هـذه الفتنة وأثار هذه المحنـة لعنه الله، فانـه تقوى به وبكيده، وكـان خبيراً بالحروب والقتال، وقـد أحدث أشياء كثيرة، مـن آلات الحرب لم تخطر ببـال أحد، منها أنـه نصب دبـابات أمثال الجبـال تسير بعجل ولها زلـوم من حـديد ينطح السور فيكسر ويثلم جـوانبه، فمن الله العليم باحـراقها واتلافها، وأراح الله المسلمين من شـرهـا (٢٤).

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التي في طريق ملك الالمان:

لما تحقق السلطان صـلاح الدين رحمه الله وصـول ملك الالمان الى بلاد لافون، ملك الارمن، وقـربه من البلاد الاسلامية جمع أمـراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفـق الرأي على أن بعض العسكر يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العـدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو ببـاقي العسكر المنصور، فكان أول من سـار صاحب منبج، وهو نـاصر الديـن بن تقـي الديـن، ثم عـز الديـن بن المقـدم صاحـب كفرطـاب وبعريـن وغيرهما، ثم مجد الديـن صاحب بعلبـك، ثم سـابق الديـن صاحب شيـزر، ثم الياروقيـة من جملـة عسكر حلب، ثـم عسكر حماه، وسـار ولـده الملك الافضـل إلى دمشـق لمرض عـرض له، ثـم بـدر الدين شحنـة دمشق لمرض عرض له أيضـاً، وسار بعد ذلك ولـده الملك الظاهـر إلى حلب لحفظ الطـرق وكشف الاخبـار، وسار بعد ذلـك الملك المظفر لحفظ مايليـه من البلاد، وكان آخر من سافر ليلـة السبت التاسع

عشر من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة، ولماسارت هذه العساكر خفت ميمنة السلطان، فإن معظم من سار كانوا منها، فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميمنة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفي، ومرض بعده الملك الظاهر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الا كابر وغيرهم، إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، مع كونه مقروناً بموتان عظيم، وأقام السلطان رحمه الله مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو.

وفي تاريخ ابن كثير: عزم السلطان على استقبالهم بالرد، وصدهم عن القصد، ثم ثبت عزمه على أن يعود الذين لهم بلاد على طريق هؤلاء الملاعين، فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج، ثم فلان وفلان على ماذكرنا الآن، ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة، ورتب السلطان منازل العسكر الحاضره على ماذكرنا وتقدم، وهدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت.

وفي المرآة: وانقطعت أخبار عكا عن السلطان، فندب أقواما للسباحة وأعطاهم المال في أوساطهم والطيور في أعناقهم ليرووا الاخبار، فعلم بذلك الافرنج فاحترزوا بشباك نصبوها في الميناء، فإذا جاء سابح وقع فيها، فامتنع الناس، وبعث قراقوش يشكو قله الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا، فقال لهم: ارفعوا الصلبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج، ففعلوا ذلك، فخرج إليهم الافرنج في الشواني، فقالوا: نراكم قاصدين البلد؟ فقالوا: أو ما أخذتموه بعد؟ قالوا: لا، فقالوا وراءنا بطسة أخرى ردوها عن

البلـد، فـذهبوا عنهـم فـردوا القـلاع إلى البلد، ودخلـوا إلى الميـنـاء، وكبر المسلمون وامتاروا أياماً.

ذكر الوقعة العادلية:

ولماكان يوم الاربعـاء العشرين من جمادى الآخرة من هـذه السنة، علم عـدو اللـه أن العسـاكـر تفـرقـت في أطـراف البـلاد للعـدو، وأن ميمنـة السلطـان قـد خفـت، أجمع رأيهم على أنهم يهجمـون على طـرف الميمنـة بغتة، فخرجوا ظهيرة يوم الاربعـاء، وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً، وانبثوا في الارض، وكـانوا عـدداً عظيماً، واستخفـوا طرف الميمْنـة، وكـان في طرفهـا مخيم الملـك العادل، فلما بصر الناس بهم خـرجوا مـن خيامهم كـالاسود من آجـامها، وركـب السلطان صـلاح الديـن رحمه الله ونـادى مناديـه: ياللاسلام، وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب، وكان السلطان أول راكب.

وقـال قاضي القضـاة بهاء الـدين: ولقـد رأيته وقـد ركـب من خيمتـه وحوله نفـر يسير من خواصه، والنـاس لم يستتم ركوبهم، وهو كـالفاقدة ولدهـا الثاكلة، ثم ضرب الكـوس فأجابته كـوسات الامراء من أمـاكنها، وركـب الناس، وأمـا الفـرنج لعنهـم الله، فـإنهم سـارعوا في القصـد إلى الميمنة حتـى وصلوا قبـل استتمام العساكـر حتى وصلـوا إلى مخيم الملـك العـادل، ودخلوا في وطـاقـه، وامتدت أيـديهم في السـوق وأطراف الخيـم بـالنهـب والغـارة، وقيـل وصلـوا إلى الخيمـة الخاص، وأخـذوا مـن شرابخـاناتـه شيئاً، وأمـا الملك العـادل لما علم بـذلك ركـب وخرج مـن خيمته واستركـب من يليه مـن الميمنة كـالطواشي قايماز النجمـي، ومن يجري مجراه مـن أسـود الاسـلام، ووقـف وقـوف مخادع حتـى تـوغـل بهم طمعهم في الخيـم، واشتغلوا بـالنهب مـن الاقمشة والفـواكه والمطـاعم، فعند ذلـك صاح العادل بالنـاس وحمل بنفسه يقدمه ولـده الكبير شمس الـدين، وحمل بحملتـه مـن كان يليـه مـن الميمنـة، وهجموا على العـدو

هجمة الاسـود على فرائسها وأمكنهـم الله منهم، ووقعـت الكسرة فعادوا يشتـدون نحـو خيـامهـم هاربين على أعقـابهم، وسيـف الاسـلام يلتقـط الارواح من الاشباح، ويفصل بين الاجسـاد والرؤوس، ويفرق بين الابدان والنفوس، ولما بصر السلطان بـذلك نادى في الناس ياللاسـلام، ياأبطال الموحدين، هـذا عدو الله قد أمكـن الله منه، وقد داخلهـم الطمع حتى غشيـوا خيامكـم، فكان مـن المبـادرين إلى إجـابتـه جماعة مـن مماليكـه وخاصته، ثم طلـب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولـد عز الدين، ثـم عسكر مصر يقـدمهـم سنفر الحلبـي، وتتابعـت العسـاكر وتجاوبـت الابطـال، ووقـف السلطـان في القلـب، فعنـد ذلـك قـامـت الحرب على سوقها.

قال الراوي: فلـم يك ساعة حتـى رأينا القوم ﴿صرعى كـأنهم أعجاز نخـل خـاويـة﴾ [الحاقـة٧] وامتـدوا مطـرحين، أولهم مـن خيـام الملـك العادل، وآخـرهم عنـد خيامهم، وكـانت المسـافة بين المضربين فـرسخاً، وربما زاد على ذلك، وقتلى الافرنج مطرحين فيها ولم ينج منهم إلا النادر.

قال قـاضي القضاة بهاء الديـن: ولقد خضت في تلـك الدماء بـدابتي فاجتهـدت أن أعدهـم فما قدرت على ذلـك لكثرتهم، وشـاهدت فيهـم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهـد فيهم أ ربع نسوة يقاتلن، وأسرت منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلـك اليوم نفر يسير، فإن السلطان أمر أن لايستبقى أحـد، هذا كله في الميمنـة وبعض القلـب، وأما الميسرة، فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الامر، وكـانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، وانفصلـت الحرب بعـد العصر، ولم يفقـد مـن المسلمين في هـذا اليـوم سـوى عشرة أنفـس غير معـروفين، وأما أهـل عكـا فـإنهم كـانـوا يشاهدون الوقعـة من أعالي السور، فخرجوا إلى مخيـم العدو، وجرى بينهم مقتلـه عظيمـة، وكانـت النصرة للمسلمين، فـأخـذوا جمعاً مـن النسـوان

والاقمشة حتى القدور فيها الطعـام، واختلف الناس في عدد القتلى منهـم فقيل كانوا ثمانية آلاف وقيل سبعة آلاف.

وقال قـاضي القضاة بهاء الديـن: ولقد شـاهدت منهم خمسـة صفوف أولها عند خيـم العادل وآخرهـا عند خيامهـم، ولقد رأيـت انساناً عـاقلاً جنديا يسعـى بين الصفوف من القتلى ويعدهم، فقلت لـه: كم عددت؟ فقال إلى هنا أربعـة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً، وكان قـد عدّ صفين وهو في الصف الثالث، لكن مامضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي.

ولما كـان يـوم الخميـس الحادي والعشريـن مـن جمادى الآخـرة ورد في عصره نجـاب مـن حلب، ومعـه كتـاب يتضمـن أن جماعة عظيمـة مـن العدو الشمالي خـرجوا لنهـب أطراف البـلاد الاسلاميـة، ونهض العسكر الاسلامي مـن حلب وأخذوا عليهم الطـريق فلم ينج منهـم أحد إلا من شاء الله عزوجـل، فضربت البشائر، ولم ير يوم أحسن منـه، وجاء في بقية ذلك اليـوم من اليـزك قيماز الحراني، وذكر أن العـدو قد سـأل من يصـل إليهم ليسمـع منهم حديثاً في سـؤال الصلح، لضعف حـل بهم، ولم يزل أعـداء الله مـن ذلك الـوقت مكسـوري الجناح منهـاضي الجانب حتـى وصل إليهم كند يقال له كندهري.

ذكر وصول الكندهري:

هذا كـان ملكاً مـن ملوك الافـرنج ومـن أعيانهم، وصـل في البحر في مراكب عدة ومعـه من الاموال والذخائر والمير والاسلحة والـرجال عدد عظيم، فقوي بـوصوله جأش الافرنـج وحدثتهم نفوسهـم بكبس العسكر الاسلامـي ليلاً، وكثـر هذا الحديـث على ألسنة المستـأمنين والجواسيس، فجمع السلطان الامـراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعـل، وكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخـرون عن العدو رجاء أن يخرجوا ويبعدوا عن خيامهـم فيمكن الله منهم، ووافقهم السلطان على ذلـك، فرحل إلى

جبل الخروبة بالعساكر بأسرها، وكان في يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ونزل بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة.

هذا والكتب متواصلة من عكا على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة منهم، وكان الكندهري المذكور قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على مانقل الجواسيس والمستأمنون ألفاً وخمسمائة دينار، وأعده ليقدمه على البلد، ولما رأى المسلمون أنهم سلطوا على البلد المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لايتعطل رميها لا ليلاً ولانهارا، وذلك في أثناء رجب من هذه السنة، وضيقوا على البلد، حركتهم النخوة الاسلامية، واتفقوا على أنهم يخرجون فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم، وكان مقدم العسكر الاسفهسلار الكبير حسام الدين أبو الهيجاء المقدم في الكرم والشجاعة، ووالي البلد وحارسه الامير الكبير بهاء الدين قراقوش، وفتحوا الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب، ولم يشعر الفرنج إلا والسيف فيهم حاكم، وسهم قضاء الدين فيهم نافذ، وتقدموا إلى أن ولجوا في خيامهم، ولما رأوهم كذلك ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها، فوصلت إليها شهب الزراقين والنفاطين حتى اضطرمت فيها النيران واحترق منها ماشيدته الاعداء في المدة الطويلة في أقرب أوان، وقتل منهم في ذلك اليوم سبعون فارساً، وأسر خلق عظيم، وكان في جملة الاسرى رجل مذكور فيهم ظفر به شخص من آحاد الناس، ولم يعلم بمكانته ولما انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا، فعرف الذي عنده أنه رجل كبير، وخاف أن يغلب عليه ويؤخذ منه فسارع إلى قتله فقتله، وبذل الفرنج فيه أموالاً عظيمة، ولم يزالوا يسألون ذلك حتى رموا إليهم رأسه، فضربوا بنفوسهم الارض، وحثوا على رؤوسهم ووجوههم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة واستخفهم المسلمون بعد ذلك فهجموا عليهم من كل جانب، ولاسيما العرب،

فـإنهم يـدفـون(٢٥) فيهـم مـن كل نـاحيـة يسرقـونّ وينهبـون ويـأسرون ويقتلون، فانحلت عزيمتهم وضعفـت قواهم، ولاسيما لما أحرق المسلمون ذلك المنجنيق العظيم الذي صنعه الكندهري، كما ذكرنا.

ذكر وصول البطس من مصر:

كتـب الأمير بهاء الديـن قراقـوش متـولي عكا إلى السلطـان في العشر الأول من شعبان مـن هذه السنة أنه لم يبـق عندهم من المؤن مـايكفيهم إلى ليلة النصـف، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسره في نفسـه ولم يبده لأحـد، خـوفاً مـن شيـوع ذلـك فيبلغ إلى العـدو فيقـوى على المسلمين، وتضعـف القلوب، وكـان قد كتـب إلى أمير الاسطـول بالـديار المصريـة ليتقدم بمسيره إلى عكا، فوصلت ثلاث بطـس ليلة النصف فيها من الميرة مايكفـي أهل البلد طـول الشتاء، وهـي في صحبة الأمير لؤلـؤ الحاجب، فلما أشرفت على النـاس، تقدم إليها اسطـول الفرنـج ليحاجز عـن البلد، ويتلـف البطـس، فـاقتتلـوا في البحـر قتـالا عظيماً، والمسلمـون في البر يبتهلون إلى الله تعـالى عز وجل، والفرنج أيضـاً يصرخون في البر والبحر، وقـد ارتفع الضجيـج، فنصر الله المسلمين، وسلمـت مراكبهـم وطابـت الـريح للبطـس فسارت فـأحرقـت المراكب الافـرنجية المحيطـة بالمينـاء، ودخلـت البلد سـالمة، وفرح بها أهـل البلـد والجيش فـرحاً عظيماً، وكـان السلطان رحمه اللـه قد جهـز قبل هـذه الثلاث بطـس المصريات بطسـة عظيمـة من بيروت فيهـا أربعمائة غرارة قمـح وشيء مـن الجبن والبصـل والشحـم والقديـد والنشـاب والنفط، وكـانت هـذه البطسـة من بطـس الفرنـج المغنومة، وأمـر من فيها مـن التجار أن يتزيـوا بزي الفرنـج حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدوا الزنانير، واستصحبـوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازيـر، وقدمـوا بها على مراكـب الفرنـج، فاعتقـدوا أنهم منهم، وهـي سائرة كـأنها السهم إذا خرج من الـرمية، فحذرهـم الفرنج غائلـة الميناء مـن نـاحيـة المسلمين، فاعتـذروا بـأنهم مغلـوبـون معهـا والريـح قـويـة

لايمكنهم أن يقفوا ولاينصرفوا، ومازالوا كذلك حتى ولجوا الميناء، وأفرغوا ماكان معهم من الميرة ، والحرب خدعة.

قال صاحب النوادر: وكان ذلك في العشر الاخير من رجب.

ذكر احتراق بطسه عظيمة للفرنج:

كان ميناء عكا يكتنفه برجان يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات، إذا أرادوا أن يضعوه على كل شيء من الاسوار والابرجة كلبوه فيصل إلى ماأرادوه، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتارين حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرقها، وذلك أن الافرنج أعدوا فيها نفطاً كثيراً وحطباً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض حتى إذا أراد المسلمون المحاققة عن الميناء بمراكبهم أرسلوا النفط على تلك البطسة الحطبية فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين فتحرقها، وبطسة أخرى لهم فيها مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان انعكس الامر عليهم بقدرة الرحمن وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الاخرى فغرقت، ووصل الى بطسة المقاتلة فتلفت وهلك من فيها، فأشبهوا من سلف من الكفار كما قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ [الحشر٢].

ذكر قصة عيسى العوام رحمه الله:

وكان عواماً، قيم في العوم يقال له عيسى، وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من الافرنج، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب مشمعة للعسكر، فنزل في

البحر، فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عن المسلمين، وذلك لان عادته أنه إذا دخل البلد أرسلوا طيراً يعرف بوصوله، فلم يجيء الطير فتحققوا أنه هلك، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طريق البحر في البلد إذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريباً فتسارعوا إليه فأخرجوه، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب المشمعة، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته الا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب من هذه السنة.

ذكر اشتداد الحصار على عكا:

وفي ثالث رمضان من هذه السنة اشتد الحصار من الافرنج للبلد حتى نزلوا إلى الخندق، فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتمكنوا من حريق الكبش الذي اتخذوه لحصار الاسوار، وسرى حريقة الى السفود، فارتفعت له لهبة عظيمة في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل، فحصلوه عندهم وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام فكان فيه من الحديد مائة قنطار بالدمشقي.

وقال العماد الكاتب رحمه الله: وعمل الفرنج دبابة هائلة في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين العظيمين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فحاصل الكلام أبطل المسلمون سعيهم في ذلك وأحرقوها كما ذكرنا ولله الحمد.

وفي أثناء ذلك حصل للسلطان سوء مزاج من كثرة مايكابده من الامور التي هي أمر من الاجاج، فطمع العدو المخذول في الاسلام

فتجرد منهم جماعة للقتال، وثبت آخرون على الحصار، وأقبلوا في عدد كثير، وعدد غزير.

وكانوا صوروا القدس في ورقة عظيمة، وصوروا فيه صورة القمامة التي إليها يحجون ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه ـ على زعمهم الفاسد ـ وذلك القبر أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوروا القبر، وصوروا عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس، وأظهروا هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشفة، وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، فهاج بذلك خلائق لايحصون، ولما كثروا على المسلمين رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، فلما رأى الفرنج ذلك فروا من موقف الحرب، فقتل منهم خلق كثير وجم غفير، ولما دخل فصل الشتاء وانشمرت مراكب الافرنج عن البلد خوفاً من الهلاك، وبسبب الزمان سأل من في البلد من المسلمين السلطان أن يخرجهم ويريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم والمقاتلة ليلاً ونهاراً، وأن يرسل إلى عكا بدلهم، فرق لهم السلطان، وعزم على ذلك، وكانوا قريباً من عشرين ألف مسلم: مائتي أمير ومأمور، فجهز جيشاً آخر غيرهم.

قالوا: ولم يكن ذلك برأي جيد، ولكن ماقصد السلطان إلا خيراً، لان هؤلاء الذين يدخلون البلد جدد الهمم، ولهم قوة العزم، وكانوا في راحة بالنسبة لاولئك، ولكن اولئك كانت لهم خبرة بالبلد والقتال، وكانوا قد تمرنوا على ماهم فيه من المصابرة للاعداء براً وبحراً، وجهزت لهؤلاء الداخلين سبع بطس فيها ميرة تكفيهم سنة كاملة، فقدر الله تعالى أنها لما توسطت البحر واقتربت من مينائها هاجت ريح عظيمة في البحر فتلقت بتلك البطس على عظمها، فاختبطت واضطربت وتصادمت وغرقت وغرق من فيها من البحارة جميعهم، ومافيها من الميرة، فدخل

بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد مرض السلطان وازداد مرضاً إلى مرضه وكان ذلك عنواناً على أخذ البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب.

وذكر صاحب النوادر أن دخوله كان يوم الاربعاء السادس عشر من محرم سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء، ودخل مع المشطوب خلق كثير من الامراء وأعيان الناس.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:

منها أن في يوم الخميس السادس عشر من رمضان من هذه السنة وصل الكتاب على جناح طير من حماه، وكان قد جاء إليها من حلب يذكر فيه أن الابرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية لشن الغارة عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر غازي، ولد السلطان، فكمنت الكمناء، وخرجوا عليهم، فلم يشعر الابرنس بهم الا والسيف قد وقع، فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفراً، وأسر خلق كثير، واستعصم هو بنفسه في موضع يسمى شيحا حتى اندفعوا وساروا إلى بلدهم.

ومنها أن في أثناء العشر الاخير من رمضان ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة، وكانوا قاصدين نحو العدو فغنمهما المسلمون، وكانوا قد ظفروا ببركوس للمسلمين فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظفر بهاتين جبراً عن ذلك.

ومنها أنه قوي عزم الافرنج على الخروج إلى جهة المسلمين، وتغير

مـزاج السلطان بحمـى صفـراوية، فـاقتضـى الحال أن انتقلوا في عشيـة الاثنين تـاسع رمضـان من هـذه السنة، فنـزلوا على أعلى جبـل كفر عـم ورؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة عن الوحل.

وفي ذلك الـزمان مرض زيـن الدين يـوسف بن زيـن الدين صـاحب إربل مـرضاً شـديداً بحمتين مختلفتين، واستأذن في الـرواح فلم يـؤذن له، ثم استأذن في الانتقال إلى النـاصرة فأذن له في ذلك، وأقام بالنـاصرة أياماً وهو مـريض، فـاشتد بـه الأمر الى ليلـة الثلاثـاء الثامـن والعشرين مـن رمضان من هذه السنة، ثم توفي إلى رحمة اللـه، وعنده أخوه مظفر الدين، وحزن الناس عليه لشبابه وغربتـه، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده إربـل واستنزله عـن بلاده التي كـانت في يـده، وهي حران والـرها ومـايتبعهما مـن البلاد والاعمال، وضـم إليـه شهـرزور أيضاً، واستـدعـى الملك المظفـر تقي الديـن عمر ابن أخيـه شاهنشـاه ليكون نازلاً مكـانه، وأقام مظفـر الدين كـوكبري بن زين الـدين علي بالمعسكـر المنصور إلى قدوم تقي الدين، وقدم ضاحي النهـار الثالث من شوال من هذه السنة، وفي صحبته معز الديـن سنجرشاه ابن سيف الدين غـازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيـرة، إذ ذاك، ثم تكرر سؤال عز الديـن هذا في طلب الدستور، والسلطـان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكـررة في معنى الصلح فلايجوز أن تنقص العسـاكر حتى يتبين على ماذا ينفصـل الحال من سلم أو حـرب، وهو لايـألوا جهـداً في طلب الـدستور، إلى أن كـان يوم عيـد الفطر مـن هذه السنة، وحضر سحـرة ذاك اليوم في باب خيمـة السلطان فـاستأذن في الـدخول فلـم يؤذن لـه، وكرر الاستـئذان فأذن لـه، فدخـل واستأذن في الـرواح شفاهـا، فذكر لـه السلطان وجوهـا تمنع مـن الرواح، فـانكـب على يده وقبلهـا كـالمودع لـه، ونهض مـن سـاعته وسـار وأمـر أصحـابـه أن اكفئوا القـدور وفيهـا الطعـام واقلعوا الخيـام، وتبعـوه على ذلك، فلما بلغ السلطـان إليه ذلك، كتب إليه: «إنـك قد قصدت الانتماء إليّ ابتداء وراجعتني في ذلـك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسـك وبلدك

من أهلـك، فقبلتك وآويتـك، ونصرتك، فبسطـت يدك في أمـوال الناس ودمائهـم وأعراضهـم،، فنفذت إليك ونهيتـك عن ذلـك مراراً فلـم تنته، فاتفـق وقوع هـذه الواقعة لـلاسلام فـدعونـاك فأتيت بعسكـر قد عـرفته وعرفـه الناس، وأقمت هذه المدة وقلقـت هذا القلق، وانصرفـت عن غير طيب نفس، وغير فصل حال مع العدو، فـانظر لنفسك وانظر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات».

وسلم الكتـاب إلى نجاب، فلحقـه قريباً مـن طبرية، فقـرأ الكتاب ولم يلتفـت إليـه، وسـار على وجهـه، وكـان الملك المظفـر تقـي الـديـن قـد استدعـي إلى الغزاة ـ كما ذكرنـا الآن ـ فلقيه في عقبة فيـق، وهو محث، وليست عليه امـارات حسنة، وسأله عن حـاله ففهم من كلامـه أنه سار والسلطـان غير راض عليـه، فقال لـه: المصلحـة أن تـرجع إلى خـدمتـه وتلازمها إلى أن يأذن لك السلطان، فأنـت صبي لاتعلم غائلة هذا الامر، فلم يلتفت إليـه، وأصر على الرواح، فخشن عليه الملك وقال: تـرجع من غير اختيار، وكان تقي الـدين شديد البأس مقدامـا على الامور، فلما علم معز الدين أنه قـابضه إن لم يرجع، فرجع باختياره، ورجـع معه حتى أتى العسكـر، وخـرج الملـك العـادل إلى لقـاء الملـك المظفـر، فـدخـلا على السلطان وسـألاه الصفح عنـه فعفا عنـه، وطلب أن يقيـم في جوار تقـي الديـن خشية على نفسه، فأذن في ذلـك، وأقام في جواره إلى حين ذهـابه، وكذلك عماد الـدين صاحب سنجـار، كان قد أصر على الرحيـل، ودخل على السلطان، فقبل يـده وسار من ساعته، فكتب السلطـان وراءه كتاباً، وكتب بيده في ظهره:

مـــــن ضـــــاع مثلي مـــــن يـــــديـــــه
فليـــــت شعـــــري مـــــا استفـــــادا

فوقف عماد الدين عليه وانقطعت مراجعته بالكلية.

ومنها: أنه تـواصلت الاخبار بضعف العدو المخـذول، ووقع الغلاء في بلادهـم وعسكرهـم حتى أن الغرارة مـن القمح بلغـت في أنطاكيـة ستة وتسعين ديناراً صورية، ولايزيدهم ذلك إلا صبراً واصراراً وعناداً.

ومنهـا: أنهم ضـاق بهم الامـر وعظـم الغـلاء فخـرج خلـق عظيـم مستأمنين لشـدة الجوع، وقد ذكرنـا أن السلطان كـان قد عرض لـه مرض فطمعوا بذلك وظنوا أنه لايستطيـع النهوض فخرجوا يوم الاثنين الحادي عشر من شـوال من هذه السنة بخيلهـم ورجلهم متحملين أزواداً وخيماً، وكان خروجهـم إلى الآبار التي استحدثها المسلمـون تحت تل العجـول لما كـانوا نـازلين عليـه، فأخـذوا معهم عليق أربعـة أيـام، فأخبر السلطـان بخروجهم على هذا الوجه، فأمـر اليزك أن ينزاحوا من بين أيديهم إلى تل كيسان، وكان اليـزك على تل العياضية، وكان نزول العـدو على الآبار بعد صلاة العصر مـن اليوم المذكور، وبـاتوا تلـك الليلة واليزك حـولهم جميع الليل، فلما طلع الصبح جاء من أخبر السلطان رحمه الله بأنهم قد تحركوا للـركـوب، وكـان رحمه اللـه قـد أمـر الثقـل في أول الليـل أن يسيروا إلى النـاصرة والقيمون، فـرحل الثقـل وبقي النـاس وأمر العسكـر أن يركبـوا ميمنـة وميسرة وقلبـاً تعبيـة القتـال، وركـب السلطـان، وصـاح الجاووش بالناس فركبوا، وسار حتى وقـف بتل من جبال الخروبة، وابتدأت الميمنة بالمسير، فساروا حتـى بلغ آخرها الجبـل، وسارت الميسرة حتى بلغ آخـرها إلى النهـر، وقـربـت مـن البحـر، وكـان في الميمنـة ولـده الملـك الافضـل صاحب دمشق وولده الملك الظاهـر غازي صاحب حلب، وولده الملك الظافـر صاحب بصرى، وولـد عز الديـن صاحـب الموصل علاء الـدين خرم شـاه، ثم الملـك العادل أخـوه في طرفهـا، ويليه قـريب منـه حسام الدين بـن لاجين والطواشي قايماز النجمي وعـز الدين جرديـك النوري، وحسام الـدين بشارة صاحـب نابلس، وبدر الـدين دلدرم صاحـب تل باشر الياروقـي وجمع كثير من الامراء، وكان في الميسرة عماد الـدين زنكي صاحـب سنجار، وابـن أخيه معـز الديـن صاحـب الجزيرة، وفي طـرفها

الملك المظفر تقي الـدين ابـن أخيه، وسيـف الديـن علي بن المشطـوب وجميـع المهرانيـة والهكـارية وخشتريـن وغيرهـم مـن الأمراء الاكـراد وفي القلب الحلقة السلطانية، وأمر السلطـان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ليدور حـول العدو واليزك معهم، وأخفـى بعض الاطلاب وراء التلال، عسـاهم يجدون غـرة من العدو، ولم يـزل عدو اللـه يسير والناس يقاتلونهم من جميـع جوانبهم، ولم يزالوا سائرين حتى نـزلوا على تل هناك وضربوا خيـامهم ممتـدة منه إلى النهـر، وجرح منهـم في ذلك اليـوم خلق عظيم، وقتـل أيضاً خلق، وكانـوا إذا جرح واحد منهم حملـوه، وإذا قتل واحد منهم دفنوه وهـم سائرون حتى لايظهـر قتيل ولاجريح، وكان نزولهم يوم الثـلاثاء بعد الظهـر، وتراجعت العسـاكر عنهـم إلى مواطن المصـابرة ومواقف الحراسـة، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستديـر بهم بحيث يقع آخرهم على البحر، والميمنة تستدير بـالنهر من الجانب الشرقي، والجاليش يقـاتلونهم ويـرمـونهم بالنشـاب بحيث لاينقطـع النشـاب عنهم أصـلاً، وبات الناس تلـك الليلة على هذا المثال، وسـار السلطان إلى رأس جبل الخروبـة الذي كـان نـازلاً عليه في العـام الماضي، فنـزل في خيمة لطيفـة والناس حوله في خيم بمرأى العدو، وأخبارهـم تتواصل إليه في كل ساعة إلى الصبح.

ولما كان الصبح يـوم الاربعاء وصل من خبر أنهم تحركوا للـركوب عند الصبح، فركـب السلطان وذلك في صبيحة يوم الأربعاء الثـالث عشر من شوال ورتب الاطلاب، وسار حتى أتـى قرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهـد جميع أحـوالهم، وكان السلطـان رحمه الله ملتـاث المزاج، ضعيف القوة، قـوي القلب، ثـم بعث إلى العسـاكر وأمرهـم با لمقـاتلة والمضـايقة والحملة عليهم مـن كل جانب، وأمر الاطـلاب أن تحتاط بهم بحيث أن لاتكـون قريبـة ولابعيـدة ليكونـوا ردءاً للمقاتلـة الى ان تضـاحى النهـار، وسـاروا على شـاطىء النهـر مـن الجانـب الغـربي يطلبون جهـة خيمهـم والقتـال يشتد عليهـم مـن كـل جانـب، فـاشتـدوا في قتالهم مـن سـائر

الجوانب إلا من جـانب النهر، والتحم القتال، فصرع منهـم خلق عظيم وهم يـدفنون قتلاهـم ويحملون جرحاهـم، وقد جعلوا راجلهـم سوراً لهم تضرب النـاس بالـزنبورك والنشـاب حتـى لايتركون أحـداً يصل إليهـم، وخيالتهـم يسيرون في وسطهم بحيـث لم يظهر منهـم أحد في ذلـك اليوم أصلاً والكوسات تخفق والبوقـات تنفر والاصوات بالتهليل والتكبير، هذا والسطان يمد الجاليـش بالاطلاب والعساكر إلى عنده حتـى لم يبق معه إلا نفـر يسير، وعلم الفـرنـج مرتفـع على عجلة، وهـو مغـروس فيها، وهـي تسحب بالبغال، وهـم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كـالمنارة، حرفيه بيـاض ملمع بحمـرة على شكل الصلبـان، ولم يـزالوا سـائرين على هـذا حتى وصلـوا وقت الظهـر إلى قبالة جسر دعـوق، وقد ألجمهـم العطش، وأخـذ منهـم التعـب، واثختنهـم الجراح، واشتد بهم الامـر، ولقـد قـاتـل المسلمـون في ذلك اليـوم قتـالاً شديـداً، وأعطـوا الجهـاد حقه، وهجمـوا عليهم هجوماً عظيماً واستداروا بهم كالحلقـة، وهم لايظهرون من رجالتهم ولايحملون، وجـرح في ذلك اليوم جماعة، منهـم: اياز الطويـل رحمه الله، وجرح جـراحات معدودة وهـو مستمر على القتـال، وجرح سيف الـدين يازكـوج جراحـات متعددة وهو مـن فرسان الاسـلام وشجعانـه، ولم يزل النـاس حولهم في ذلـك اليوم حتـى نـزلوا ظهيرة ذلـك النهار عنـد جسر دعـوق، وقطعوا الجسر وأخـربـوه خوفـاً من عبـور النـاس إليهم، ورجـع السلطان الى تـل الخروبة، وأقـام عليهم يـزكاً يحرسهـم، وبات وأخبـارهم تتواتر عليـه حتى الصباح، وعزم تلك الليلة على كبـس بقيتهم في الخيم، وكتب إلى البلد ـ أعني عكا ـ يعرفوا بـذلك حتى يخرجوا هم من جانب، وعسكر السلطان من جانب، فلم يصل مـن أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب.

ولما كـان صباح الخميـس رابع عشر شهـر شـوال وصل مـن أخبر أن العدو في الحركة للرحيل، فركـب السلطان وطلب الاطلاب، وكف الناس عن القتـال خشية أن يغتـالوا، وأوقـف الاطـلاب في الجانب الشرقـي من

النهر يسيرون قبالة العدو، وكان ممن جرح من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس، وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كبير منهم، ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم بها أطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي، وحملت عليهم، وانتشب القتال بين اليزك وبينهم، وجرى فيه قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر، وقتل منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد إلى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب، فدفع إليهم جثته، وطلب رأسه فلم يوجد، وعاد السلطان إلى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلته، ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من هذه السنة رأى السلطان أن يضع للعدو كميناً، فأخرج جمعاً من كماة العسكر وشجعانهم وأبطالهم، وأمرهم أن يسيروا في الليل، ويكمنوا في سفح تل شمالي عكا بعيداً عن عسكر العدو، وأمرهم أن يظهر منهم نفر يسير ويقصدونهم في خيمهم، حتى إذا خرجوا انهزموا بين يديهم نحو الكمين، ففعلوا ذلك، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً، فكمنوا تحته، ولما علا نهار السبت الثالث والعشرين من شوال خرج منهم نفر يسير على خيل جياد، وساروا حتى أتوا مخيم العدو، ورموهم بالنشاب فانتخى منهم مقدار مائتي فارس، وخرجوا إليهم شاكين في السلاح على خيل جياد، وبعدة تامة، وليس معهم راجل واحد، وداخلهم الطمع فيهم لقلتهم، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم، حتى أتوا موضع الكمين، فخرج عليهم أبطال الموحدين، وصاحوا فيهم صيحة رجل واحد، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فرائسها، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فمكن الله المسلمين منهم، ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى هلك منهم جمع عظيم، واستسلم الباقون للاسر، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم، وجاء البشير إلى السلطان، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير، وركب لملاقاتهم.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان واعتبر الاسارى، وكان فيهم مقدم عسكر الافرنسيس وخازن الملك أيضاً، ثم نزل السلطان في مخيمه فرحاً مسروراً، وأمر مناديا فنادى: ألا من كان عنده أسير فليحضر به، فأحضر الناس أسراهم، وأكرم المقدمين منهم، وألبس مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصاً، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية فإن البرد كان شديداً، وكانوا عرايا موتى من البرد، وأحضر لهم طعاماً فأكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق، وأذن لهم أن يراسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم مايحتاجون إليه من الثياب وغيرها، ففعلوا ذلك، وساروا إلى دمشق، وحبسوا هناك.

ومنها أن في اليوم التاسع من ذي الحجة من هذه السنة سقطت قطعة من سور عكا، وهي قطعة عظيمة.

وفي النوادر كان ذلك ليلة السبت السابع من ذي الحجة، فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة، فداخل العدو الطمع، وجاءوا إلى البلد كقطعة الليل المدلهم من كل جانب، فقام أهل البلد بهمم عالية، فقتلوا منهم جماعة، وجرحوا خلقاً عظيماً حتى أيسوا من أن ينالوا شيئاً من البلد، ووقف المسلمون موضع القطع كالسد، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع، ووضعوهم في ذلك المكان وحموهم بالنشاب والجروخ والمناجيق، فما مرت ليال يسيرة حتى فرغوا من بنائها بأحسن مما كان.

ومنها أنه وقع وباء عظيم في الجيشين :المسلمين والكافرين ، وكان السلطان يقول في ذلك:

اقتلـــــــوني ومـــــــالكـــــــاً
واقتلــــــوامـــــالكـــــــامعـــــــي

ومنها أن في شهر ذي الحجة قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان، وكـان قد طال شـوق كل منهما إلى صـاحبه، فأفضـى كل واحد منهما إلى الآخـر ماكـان يسره ويكتمه من الآراء التـي فيها مصـالح المسلمين، وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق، قدس الله روحهما.

ومنهـا أن في يـوم الاثنين الثـاني والعشريـن مـن ذي الحجـة عـاد المستأمنـون من الفـرنج الـذين أنهضهـم السلطان في بـراكيس ليغـزوا في البحر، ويكونـوا أيضاً جواسيس للمسلمين ، فرجعوا وقـد غنموا ، وذكروا أنهم وقعـوا بحـراقـة كبيرة ومعهـا بـراكيـس، وفيهـا تجار معهـم أمـوال لاتحصى، فـأسروا التجار، وأخذوا الأمـوال وجذبوهـا إلى الساحل،فـأنعم السلطـان عليهـم بهذه الأكسـاب، فلما رأوا ذلـك مـن السلطـان أسلـم أكثرهم، وكانـوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضـة عظيمة وعليها مكبة بقيمة عـالية، ومعها طبـق يماثلها في الوزن، وكـل فضتها قاربـت قنطاراً، فقال السلطان: خذوها فأنتم بها أولى.

وقـال صاحـب النوادر: وكـان قـد استأمـن مـن الفرنـج خلق عظيـم أخرجهـم الجوع إلينا، وقـالوا للسلطـان: نحن نخـوض البحر في بـراكيس ونكسب مـن العدو، فيكـون المكسب بيننـا وبين المسلمين ، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم براكيس، فساروا، ثم ذكر البقية مثلما ذكرنا.

قلت: البراكيس جمع بركوس، وهو المركب الصغير.

وفيها أن في الرابع والعشرين من ذي الحجة أخـذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسـون نفراً، وفي الخامس والعشرين منـه أخذ أيضاً بـركوس واحد فيـه من الفـرنج مقـدمون وروس وهـم نيف وعشرون، منهـم أربعة

خيالـة، ومعهم ملـوطة مكللـة باللؤلؤ بأزرار مـن الجواهر، قيـل إنها من ثياب ملـك الألمان، وأسر فيها رجـل كبير قيل إنـه ابن أخيـه، وهو كبير الشأن.

ومنها أنه لما هجـم الشتاء وهاج البحر أمنـت أهل عكا من أن يبـالغ العـدو في الحصار، وذلـك من شـدة الأمطار وتـواترهـا، فعند ذلـك أذن السلطـان رحمه الله للعسـاكـ الاسـلامية في العـود إلى بلادهـم ليستريحوا ويريحوا خيولهم إلى وقـت العمل،فكان أول من سار عماد الديـن صاحب سنجارلما كان عنده من القلق في طلـب الدستور، وكان مسيره يوم الاثنين الخامس عشر من شـوال، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيـه سنجرشاه صـاحب الجزيـرة، وذلـك بعد أن أفيـض عليهما مـن التشريف والانعـام والتحـف بما لم ينعـم بها على غيرهما، وسار عـلاء الـديـن ابن صـاحـب الموصل في مستهل ذي القعدة من هذه السنـة مشرفاً مكرماً، معه التحف والطرائف، وتأخـر من العساكر الملـك المظفر تقي الديـن إلى أن دخلت سنـة سبع وثمانين، وتـأخـر أيضـاً ولد السلطـان الملـك الظـاهر غـازي صاحب حلـب إلى أن سار إلى حلب ضاحي نهار الاربعاء تـاسع المحرم من السنة الآتية.

وسار الملـك المظفر في ثـالث صفـر من السنـةالآتية وهـي سنة سبـع وثمانين ، ثم اشتغـل السلطان بـادخال البدن في البلـد، وأخرج مـن كان بها من الأمـراء الذيـن طالت شكـواهم إلى السلطـان من طـول الحصار ومـلازمـة القتـال ليـلاً ونهاراً، وأمـر السلطـان بـإدخـال المير والـذخـائر والنفقات والعـدد إليها، وكـان مقدم بها يـومئذ الأمير حسـام الديـن أبو الهيجـاء، فخرج هـو وأصحابـه ومن كـان بها من الأمـراء ، وكان مقـدم الداخلين من الأمـراء الأمير سيف الدين أحمـد بن علي المشطوب ، وكـان دخولهم فـي يوم الاربعـاء السـادس عشر من المحـرم من السنـة الآتيـة، وأخـذ كل أميـر معه ميـرة سنـة كـاملة، وانتقـل الملك العـادل بعسكـــــــره الـــــى حيفـــــــــــا علـــــى

شاطىء النهر، وهـو الموضع الذي تحمل منه المراكب، وتـدخل إلى البلد، وإذا خـرجت تخرج إليـه، وأقام ثمـة يحث النـاس على الدخـول، ويحرس المير والذخائر لئلا يتطـرق إليها من العدومن يتعرض لها، وكـان مما دخل إليها سبـع بطس ملـوءة ميرة وذخائر ونفقـات كانـت وصلت مـن مصر، وكان السلطان قد عينهـا من مدة مديدة، وكان دخـولها يوم الاثنين الثاني مـن ذي الحجـة من هـذه السنـة، أعنـي ست وثمانين، ولما علـم العـدو بذلك، وهم القـائلون من جانب البحر اجتمعـوا في خلق عظيم وزحفوا على البلد من جـانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الأسـوار وصعدوا في سلم واحد، فانـدق بهم السلم، فتداركهم أهل البلد فقتلـوا منهم خلقاً عظيماً، وعادت بقيتهـم خائبين خـاسرين، وأما البطـس فإن البحـر هاج هيـاجاً عظيماً فضرب بعضها ببعـض على الصخر، فهلكت وهلـك جميع مـا كان فيها، وهلك فيهـا خلق كثير، قيل كانـت عدتهم ستين نفراً، وكانـت فيها ميرة عظيمـة لو سلمـت لكـانت كفـت البلد سنـة كـاملة، ودخـل على المسلمين بذلـك وهن عظيم، وحـزن السلطان حزنـاً شديداً، وكـان ذلك أول علامة أخذ البلد، والظفر به......

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير زين الـدين يـوسف بـن زين الـدين علي كـوجك بـن بكتكين صاحب إربل، وهو أخو مظفر الديـن بن زين الدين، كان عند السلطان صلاح الديـن في هذه السنة على الخروبة، فمـرض في رمضان، وارتحل من الخروبة إلى الناصرة، فـأقام يمرض نفسه، وكـان عنده أخوه مظفر الـدين يمرضه، فيقـال إنه سقـاه سماً فمات، وظهرت على مظفـر الديـن أمارات ذلك، فـإنه لم يكترث لموته ولا تـأسف عليـه، وبلغ السلطان فحـزن عليه وبكى لأنه كان صـاحبه ومصافيه وشاكره وداعيـه، وحزن المسلمون عليه لمكان عفتـه وشبابـه وغربتـه، ظننا منـا أنه قـد حزن عليـه حزن الأخ على أخيـه، [وقصدنـاه معزيـن]فكأنـا جئنـا نهنيه، واذا بـه مشغول عنـه

بحيازة أمواله وأسبابه، والقبض على عماله وكتابه، ثم أرسل مظفر الدين الى السلطان يطلب منه إربل، وينزل عن حران والرها، فأجابه الى ذلك وسأله كتابا الى صاحب إربل في هذا المعنى، وأضاف اليه شهرزور واعمالها.

وقال ابن كثير: وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو : حران والرها وسميساط، وأعطاها الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على مابيده ، وهو ميافارقين، وفي الشام حماه ومعرة النعمان وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس وديار بكر(٢٦).

الأمير سوار: استشهد على عكا في هذه السنة، وكان من مماليك السلطان الخواص.

وقال العماد: استشهد على عكا سبعة من الأمراء من جملتهم سوار المذكور، وكذلك استشهد عدة من الاكراد وقال: استشهد في اليوم التاسع من جمادى الأولى من هذه السنة....

ملك الألمان: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ، وقيل في ثلاثمائة ألف مقاتل كما ذكرنا، وقد أهلكه الله بالغرق كفرعون، كما ذكرنا.

ابن ملك الألمان: الذي تولى بعد هلاك أبيه على طرسوس، هلك في آخر السنة، لعنه الله.

وقال العماد: وهلك ابن ملك الألمان بعلة الجوف ولعله من مرض الخوف في ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة، وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار وأبصر في جهنم مصائر أمثاله من الكفار، وزاد لهلاكه ألم الألمانية، وانسد بموته فرج الأفرنجية، وتبعه في السفر إلى سقر كند كبير يقال له كند أرناط دافع القدر فما قدر، وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير، لعنهم الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو النـاصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مقيم على عكا والحصار مستمر على حاله من الجانبين، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد، والملك العادل أخو السلطان مخيم إلى جانب البحر ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم.

ذكر وقعات متعددة في هذه السنة بين المسلمين والأفرنج

الأولى: وقعت في مستهل ربيع الأول منها، خرج المسلمون من عكا فهجموا على مخيم الأفرنج، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا شيئاً كثيراً، وسبوا اثني عشر امرأة.

الثانية : وقعت في ثالث ربيع الأول بينهم وبين يزك السلطان ، وذلك أنه خرج إليهم من الأفرنج خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة قتل فيها من الأفرنج جماعة ، وقتل منهم رجل كبير على ما قيل، ولم يفقد من المسلمين إلا خادم كان للسلطان يسمى قراقوش، وكان شجاعاً عظيماً له وقعات كثيرة عظيمة استشهد في ذلك اليوم.

وفي بعض التواريخ: ولم يقتل من المسلمين في هذه الوقعة سوى طواشي صغير عثر به فرسه.

الثالثة: وقعة أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير صاحب حمص، وكان من حديثه أن السلطان رحمه الله كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس، ويأخذ بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية، وأنه قيل له إن أهل طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم وأبقارهم إلى مرج هناك، فخرج أسد الدين

على غرة منهم، وهجم على جشارهم فأخذ منه أربعمائة رأس من الخيل، ومائة رأس من البقر، فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقي، وعاد إلى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد، ولكن قتل منهم جماعة، ووصل كتابة بذلك إلى السلطان في الرابع من صفر من هذه السنة.

وفي ليلة هذا اليوم ألقت الريح مركباً لهم على الساحل فكسرته، وكان فيه خلق كثير منهم، فبصر به المسلمون فوثبوا عليهم وأخذوهم عن آخرهم.

وقال القاضي بهاء الدين: ولقد حضرت وقد عرض منهم على السلطان خمسة عشر نفراً.

الرابعة: وقعةالملك العادل أخي السلطان: وذلك أنه بلغ السلطان يوم السبت تاسع ربيع الأول منها أن العدو يخرجون طائفة بعد طائفة وينفسحون لبعد المسلمين عنهم، فاقتضى رأيه أن أنفذ أخاه الملك العادل، وفي خدمته خلق كثير من العساكر، وأمره أن يكمن وراء التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هوفكمن وراء تل العياضية، وكان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الأفضل ولده، ومعه من صغار أولاد ه الملك الأشرف محمد والملك المعظم تورانشاه والملك الصالح اسماعيل ، وكان من المتعممين القاضي الفاضل والديوان وقاضي القضاة بهاء الدين، وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد، وناوشوا العدو وباسطوه، فلم يخرج في ذلك اليوم أحد، وكأنه كان قد وشي إليهم بجلية الأمر، إلا أنه حصل في ذلك اليوم نوع نصرة للمسلمين، فإنه وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفراً من أسارى الفرنج، فإنهم كانوا قد أسروا في بيروت وسيروا إلى السلطان رحمه الله.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ولقد شاهدت من السلطان في ذلك اليوم رقة قلب ورحمة لم ير أعظم منها، وذلك أنه كان في الأسرى شيخ كبير طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس ولا له قوة إلا مقدار ما يتحرك بها لاغير، فقال للترجمان: سله ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن، وكم من ها هنا إلى بلادك؟ فقال: أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر، وأما مجيئي فإنه كان للحج إلى القمامة، فرق له السلطان ومن عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو.

ولقد سأل من السلطان أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل الأسرى، فلم يأذن لهم، قال القاضي بهاء الدين: فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم فيما طلبوه، فقال: لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء.

ولقد جرت وقعات أخرى في هذه الأيام إلى أن أخذوا عكا من المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر وصول ملك الافرنسيس

واسمه فيليب، وكان وصوله في الثاني عشر من ربيع الأول، يوم السبت في ست بطس ملعونة مشحونه بعبدة الصليب، وحين وصل إليهم لم يبق لأحد من ملوكهم حكم، وذلك لعظمته عندهم، وكان الأفرنج كل وقت يتواعدون المسلمين بقدومه ولاسيما لليزك ومن يقاربهم من المسلمين، وكان هذا الملعون من كبار ملوكهم، لايتقدم عليه أحد، ولما قدم كان معه من الميرة ما يحتاج إليه هو وأصحابه، وكذلك من الخيل والسلاح ، وكان قد صحب معه من بلاده باز عظيم عنده ، هائل الخلق، أبيض اللون، نادر الجنس، وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً فانفلت من يده وطار وهو يدعوه فلا يجيب حتى سقط على سور عكا، فأمسكه أهلها وأرسلوه إلى السلطان رحمه الله، وكان لقدومه استبشار عظيم بالظفر به، وتعالوا بذلك، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

-١١٣٧١-

ذكر قدوم كند فرند

قدم هذا اللعين بعد ملـك الافرنسيس، وهو أيضاً من أكـابر ملوكهم، وكان مقـدماً عظيما عنـدهم، مـذكوراً، وكـان حاصر حماه وحـارم في عام الرملة.

ثم وصلـت سفن عن ملـك الانكتار ـ لعنـه الله ـ واسمـه جبلرت ، ولم يجيء هو لا نشغاله بجزيرة قبرس.

وقال العماد الكـاتب: وصل الخبر أن ملـك الانكتار وصل إلى جـزيرة قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخـر في جمع عظيم ، وتقدمته إلى الجزيرة مـراكب وشـواني على قصد الجزيرة، فخـرج صاحـب قبرس إليها واستـولى عليها وغنـم امـوالها، وصـدم رجالها، فلما وصـل مكـث متحيراً، واشتغل بـالقتال وأنفذ إلى الأفـرنج الذيـن على عكا يطلب منهـم نجدة فـأنفذوا لـه جفـري أخـا الملك العتيـق في جموع كثيرة، وامتـدت الحروب بينهم، ثم تـراسلوا في الصلح، واجتمع صاحب الجزيـرة بملك الانكتار، وحمل له هدايا وتحفاً، ووسع له الأزواد، وبذل له الأمداد.

وقال صاحـب النوادر: وكان ملك الانكتـار هذا شديد البـأس بينهم، عظيـم الشجاعـة، قـوي الهمة لـه وقعـات عظيمة وجسـارة على الحرب، ولكنـه دون ملـك الافرنسيـس في الملـك والمرتبـة، ولكنـه أكثر مـالاً منـه وأشهر في الحرب والشجـاعة، وكان الأفرنـج على عكا منتظرين مـا يكون بين الطائفتين منهم. ولما كان يوم الأحد سلـخ ربيع الآخر من هذه السنة وصلت كتب من بيروت تخبر أنـه قد أخذ من مراكب الانكتـار القاصدة نحـو عسكر العـدو خمس مراكـب وطرادة فيهـا خلق كثير مـن الرجـال والنساء والميرة والأخشاب والآلات وغير ذلك، وفيها أربعـون فرساً، وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون.

ذكر وصول العساكر الاسلامية

لما انفتح البحر وطاب الزمان، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين قدم من العساكر الاسلامية خلق كثير، وكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر غازي، ولد السلطان صاحب حلب، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً، له وقائع ورأي حسن، والسلطان يحترمه ويكرمه لقدم صحبته، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه صاحب بعلبك، وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب.

ذكر زحف العدو إلى عكا

لما كان يوم الخميس الرابع من جمادى الأولى من هذه السنة زحف العدو إلى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعاً ، ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم، والتماس شغل العدو عنهم، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل إلى مضايقة العدو، فسار حتى وقف على الخروبة ورتب العساكر ميمنة وميسرة وقلباً، ثم بعث من كشف حال العدو، وحال خنادقهم، هل فيها كمين لهم أم لا، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين، فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم، وصعد تلاً كان يعرف بتل الفضول ، وهو قريب العدو ومشرف على خيامهم ، وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها، وهو بطال، ثم عاد سائراً إلى مخيمه.

قال قاضي القضاةبهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر، قد أخذوه من أمه وسرقوه.

ذكر قضية الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم ما قدروا عليه ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وكانوا سرقوه من مهده، وعرضوه على السلطان، وكان كل ما يأخذونه يعرضون عليه فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه، ولما علمت أمه بذلك وجدت عليه وجداً شديداً، وباتت تلك الليلة مستغيثة بالويل والثبور حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، وقد أذنا لك بالخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك، فخرجت وهي تستغيث إلى يزك المسلمين ، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تل الخروبة.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها، ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون ، فأرضعته ساعة، ثم أمر بها السلطان فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم، فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة والشفقة الكاملة، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة:

ومليحة شهدت لها ضراتها
والحسن ليس لحقه من ناكر

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكري، وكان مقدماً عظيماً من أمراء الموصل، وصل مفارقاً لهم طالباً

خدمة السلطان، ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يمكث إلاساعة حتى وصل إليه الخبر بتجديد الزحف على عكا، فعاد وركب من ساعته، وسار نحو البلد فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين.

ذكر كيفية أخذ العدو مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان صبيحة يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى بلغ السلطان أن الأفرنج قد ضايقوا البلد وركبوا عليه المناجيق، فأمر الجاووش أن يصيح بالناس ، وركب وركب لركوبه العسكر فارسهم وراجلهم وسار حتى أتى الخروبة ، وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليهم، فلم يخرج العدو، واشتد زحفهم على البلد، فضايقهم السلطان مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً، وهجم عليهم في خنادقهم، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور، وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل بها من الشمس، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة، وقوى اليزك، وأمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ شيء من الراحة ، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف، لما أحسوا بانصراف السلطان عنهم، أشد مما كانوا أولاً، فأمر العسكر بالعود إلى جهة العدو أطلاباً أطلابا، وبات هو رحمه الله وجميع العسكر على تعبية القتال، ثم سار العسكر في أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى ا لأولى، إلى تل العياضية قبالة العدو، وضربت له خيمة لطيفة، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي، لكن جرائد مع بقاء الثقل على الخروبة، ونازل العدو في ذلك اليوم مجمعين على القتال الشديد على البلد من جميع جوانبه، والسلطان يدور بين الأطلاب، ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه، ولما رأى العدو تلك المنازلة خافوا من الهجوم على خيمهم فتراجعوا عن الزحف، وعاد السلطان إلى خيمته في تل العياضية، ورتب على خنادقهم من يخبر بحالهم ساعة فساعة، ثم إنهم بالغوا في مضايقة البلد،

ومبالغتهم في طم خندقه بالأتـربة وغير ذلك حتى بموتى دوابهم، ونصبوا المجانيق والدبـابات والسلالم، وجل همهم في طم خنـدق البلد،وألقوا فيه كل شيء، حتى آل أمرهـم أنهم كانوا يلقون فيه موتاهـم، وكانوا إذا جرح منهم واحد جراحـة مميتة مؤيسة ألقوه فيه، وأما أهـل البلد فإنهم انقسموا أقساماً، فقسـم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموتى والـدواب التي يلقونها فيه، وقسم ينقلون ما يقطعون إلى البحر ويلقـونه فيه، وقسم يذبون عنهم، ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار، ومع هـذا قد أخذهـم التعب والنصب ، وتكاثـرت شكايتهم مـن ذلك، وقـد ابتلوا ببليـة لم يبتل بمثلهـا أحـد، هذا والسلطـان رحمه الله لايقطـع الزحـف عنهم، والمضايقـة لخنادقهـم بنفسه وخواصـه وأولاده ليلاً ونهاراً، فحصلت هذه الأمور الشديدة ليلاً ونهاراً إلى أن وصل ملك الانكتار.

ذكر وصول ملك الانكتار

وقد وصل هذا اللعين يوم السبـت الثالث عشر من جمادى الأولى بعد مصـالحتـه لصـاحـب قبرس كما ذكـرنـا، وكـان في جمع عظيـم في خمس وعشرين شينيـا ملوءة بالـرجال والسلاح والعدد، وأظهـر الأفرنج بقـدومه سروراً عظيماً وفـرحوا فـرحاً شـديدا، حتـى أنهم أوقدوا تلـك الليلة نيرانـاً عظيمة في خيـامهم، وبلي الثغـر منه بـلاء لا يشبه مـا قبله ، فعنـد ذلك حركـت الكوسـات في البلد، وكانـت علامـة بينهم وبين السلطـان أيضاً كرسالة ، واقترب من البلد ليشغلهم عنه، وقـد أحاطوا به من كل مكان، ونصبوا عليـه سبعة مجانيـق، وهي تضرب البلـد ليلاً ونهاراً، ولا سيما على بـرج مـن جهـة البر حتـى أثـر فيـه أثـراً بين وشرعـوا في ردم الخنـدق بما أمكنهم مـن دواب ميتة ومن قتـل منهم ومن مـات أيضاً، وقـاتلهم أهل البلد وهم ينقلون ما ألقوا فيه إلى البحر.

ذكر ما جرى على البطسة الاسلامية

ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من هذه السنة وصلت بطسة عظيمة للمسلمين من بيروت مشحونة بالآلات والمير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها في بيروت وتسييرها، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكانت عدة رجالها ستمائة وخمسين رجلاً، فاعترضها ملك الانكتار اللعين في عدة شواني، وكان واقفا في البحر في أربعين مركباً لايترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية، فاحتاطوا بتلك البطسة من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها، وجرى القضاء والقدر بأن وقف الهواء، فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل من العدو خلق عظيم، وأحرقوا من شوانيهم شينيا كبيرا فيه كبير، فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، ورأى أنهم لابد أن يقتلوا، قال: والله لا نقتل في أيديهم ولا نموت إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول، ولم يزالوا كذالك حتى فتحوا فيها من كل جانب مثل الأبواب ، فامتلأت ماء وغرق كل من فيها، وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو بشيء منها أبداً، وكان اسم المقدم يعقوب، من أهل حلب، وتلقف العدو بعض من كان فيها وخلصوه من الغرق، ومثلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر حريق الدبابة الكفرية

وكان من لطف الله تعالى أن جبر المسلمين بأن مكنهم في اليوم الذي جرى على البطسة الاسلامية ما ذكرناه على حريق دبابة كان الفرنج قد اصطنعوها، وكانت هائلة عظيمة أربع طبقات: الأولى من الخشب،

والثانية من الرصاص، والثالثة مـن الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت مشرفة على السور، وفيها المقـاتلة، وقد قلق أهل البلد منها، وخـافوا خوفاً شـديداً بحيـث أن أنفسهم حـدثتهم مـن خـوفهم مـن شرها أن يطلبـوا الأمان من الأفرنج، ويسلموا البلد، وكان قـد قربوها من السور بحيث لم يبق بينهـا وبين السور إلا مقدار خمسـة أذرع على ما يشاهـد برأي العين، وأخذ أهل البلـد بتواتر ضربها بالنفـط ليلاً ونهاراً حتى قدر اللـه حريقها واشتعـال النـار فيهـا، وظهـرت لها ذؤابـة نـار نحـو السماء ، وارتفعـت الأصوات بـالتكبير والتهليل ، ورأى المسلمون ذلـك جبراً لذلك الـوهن، ونعمة بعد نقمـة.

ذكر عدة وقعات بينهم وبين المسلمين من داخل وخارج

الأولى : كـانت يـوم الجمعة التـاسـع عشر من جمادى الأولى ، فـإنهم زحفوا على البلد زحفاً عظيماً ، وضايقوه مضايقـة شديدة، وكان قد استقر بينهـم وبين المسلمين أنـه متـى زحـف العـدو عليهـم دقـوا كـؤوسهـم، فضربوا كؤوسهـم فأجابت كـؤوس السلطان رحمه الله، وركبت العسـاكر وضـايقهم السلطـان مـن خارج وزحـف عليهـم حتـى هجم المسلمـون عليهـم في خيـامهم، وتجاوزوا خنـادقهـم، وأخـذوا القـدور من أثـافيهـا، وحضر من الغنيمـة المأخوذة عنـد السلطان شيء، ولم يـزل القتال يعمـل حتى أيقن العدو أنهم قد هجم عليهـم وأخذوا فتراجعوا عن قتال البلد، وشرعوا في قتال العسكر، وانتشبت الحرب بينهـم ، ولم تزل حتى قام قائم الظهيرة وغشي النـاس مـــن الحر أمـر عظيـــم مـن الجانبين، فتراجعـت الطائفتان إلى خيـامهم، وقد أخذ منهم التعـب والحر. وانقضى القتال في ذلك اليوم.

الثانية: كانت يوم الاثنين الثـالث والعشرين من جمادى الأولى ، فدقوا الكـؤوس على عـادتهم فجـاوبـت كـؤوس السلطـان ، وثـار القتـال بين

الطائفتين، ولج العدو في مضايقة البلد ثقة منهم أن المسلمين لايهجمون على خيامهم وأنهم يهابونهم، فأكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً، ونهبوا منها فتراجعوا إلى قتال المسلمين ولحق من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرحت جماعة من الأفرنج.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: أعجب ما في هذه الواقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة، فوصل والحرب قائمة، فلقي السلطان واستأذنه في الجهاد، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها في تلك الساعة ، ولما رأى الأفرنج دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم حركتهم الحمية وبعثتهم النخوة فخرجوا إلى ظاهر أسوارهم، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثباتاً عظيماً لم يتحركوا عن أماكنهم، والتحم القتال من الجانبين ، وصبر المسلمون صبر الكرام، ودخلوا في الحرب بالاقتحام، ولما رأى الأفرنج صبرهم وثباتهم أنفذوا رسولاً في غضون ذلك، فبلغ الرسول أولاً إلى الملك العادل، وأخذه وأتى به إلى خدمة السلطان، ومعه الملك الأفضل أيضاً، مضمون رسالته أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان، فأجاب السلطان في الحال بأن الملوك لايجتمعون إلا عن قاعدة، ولا يحسن الحرب بعد الاجتماع والمواكلة، وإذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة بترجمان يوثق به في الوسط، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى وينتظم.

الثالثة : كانت يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج فارسهم وراجلهم على المسلمين من جانب البحر شمالي البلد، ولما علم السلطان ذلك، ركب وركب العسكر وانتشب القتال بينهم، وقتل من المسلمين بدوي وكردي، وقتل من العدو جماعة وأسر آخرون

منهم واحد بلبسه وفرسه، ومثل بين يدي السلطان، ولم يزل القتال يعمل إلى أن حجز الليل بينهم.

الرابعة: كانت يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج منهم رجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو، فلقيتهم طائفة من اليزك، وجرى بينهم قتال عظيم، ووصلت رجالة المسلمين، والتحم الحرب، فأسروا مسلماً وقتلوه وحرقوه، وأسر المسلمون منهم واحداً، فقتلوه وحرقوه.

قال القاضي بهاء الدين: ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد، ثم مرض ملك الانكتار مرضاً شديداً أشفى منه على الهلاك، وخرج الأفرنسيس، وفارقهم المركيس، وسار إلى بلده صور خوفاً منهم أن يخرجوا ملكها من يده ، وبعث ملك الأنكتار إلى السلطان رحمه الله، فذكر أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نية ارسالها إليه، ولكنها قد ضعفت ، وهو يطلب لها دجاجاً وطيراً لتتقوى بذلك، فعرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه بتلطف وحيلة، وحمل إليه بشيء كبير من ذلك كرماً منه وسجية وحشمة، ثم أرسل يطلب فاكهة وثلجاً، فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الاحسان، بل لما عوفي عاد إلى أشر مما كان عليه، واشتد الحصار ليلا ونهاراً، وأرسل من بالبلد يقولون : إن لم تعملوا معنا شيئاً غدا وإلا طلبنا من الأفرنج أمانا، فشق ذلك على السلطان، وكان أمراً عظيماً، وذلك لأنه قد سير إليها أسلحة الشام والديار المصرية وسائر السواحل، وما كان من غنيمة وقعة حطين، ومن بيت المقدس وهي مشحونة بذلك، فعزم السلطان على مهاجمة العدو، فلما أصبح ركب في جيشه، وهذه هي الواقعة:

الخامسة: ورأى السلطان أن الأفرنج ركبوا من وراء خندقهم والرجالة منهم قد ضربوا سوراً حول الفرسان، وهم قطعة من حديد لا ينفذ بها

شيء، فأحجم عنهم لما يعلم من نكول جيشه، ولكنه ما رجع إلا عن قتال إلى أن حجز الليل.

ذكر قدوم بقية عسكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار مقدمهم مجاهد الدين يرنقش، فلقيه السلطان فاحترمه وأكرمه، وكان دينا عاقلا محبا للغزو، وأنزله السلطان في الميسرة، وذلك بعد أن أنزله في خيمته، وفرح بقدومه فرحا شديدا، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر وفيهم علم الدين كرجي، وسيف الدين سنقر الدوادار، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في عسكره فلقيه السلطان بالخروبة، ونزل هناك إلى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة، ثم أصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو، فعرض عسكره هناك وأنزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف ما يليق بكرمه،وأنزله في الميمنة، وفي يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا، واشتد مرض ملك الانكتار بحيث شغل الفرنج مرضه، وكان ذلك جبرا عظيما ولطفا جسيما من الله تعالى،فإن البلد ضعف من كان فيه ضعفاعظيما،واشتد الخناق شدةعظيمة،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل، ومع هذا فاللصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ويأخذون الرجال بأن يجيء جماعة إلى واحد منهم وهو نائم، ويضعون على حلقه السكين ثم يوقظونه ويقولون له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين، وجرى ذلك مرارا عديدة.

ذكر قوة زحفهم على البلد لعنهم الله

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب بتثقيل

أحجـارهـا حتى خلخلـوا أسـوار البلـد وأضعفوا بنيـانها، وأنهك التعـب والسهر أهـل البلد لقلـة عددهم، وكثـرة الأعمال عليهم حتـى أن جماعة منهـم بقوا ليـالي عدة لا ينـامون أصـلا لا ليلاً ولا نهارا، والخلـق الذيـن عليهـم عدد كثيرة يتنـاوبـون على القتـال، ولما أحسوا بضعـف المسلمين شرعوا في الـزحف من كل جـانب وانقسموا أقسـاما ، وتناوبوا فـرقا كلما تعبت طـائفة استراحـت وقام غيرهـم مقامهـم ، وشرعوا في ذلـك شروعا عظيما براجلهـم وفارسهم، وذلك في اليـوم السابع من جمادى الآخـرة من هذه السنـة، هذا مـع عمارتهم أسوارهـم الدائرة على خنـادقهم بـالرجـالة والمقـاتلة ليـلا ونهارا، فلما علم السلطـان بـذلك ركـب وركب العسكـر بأسرهـم وجمع الراجل والفارس ووعـدهم ورغبهم ، وزحـف على خنادق القوم حتى دخـل فيها العسكر عليهم، وجرى في ذلك اليـوم قتال عظيم مـن الجانبين، والسلطان رحمه اللـه كالـوالـدة الثكلى يتحرك بفـرسه مـن طلب إلى طلـب، ويحث الناس على الجهاد والملك العـادل رحمه الله حمل بنفسـه في ذلـك اليـوم مرتين، والسلطـان يطـوف بين الأطـلاب وينـادي باسمه يا لـلاسلام وعيناه تذرفان بالدمع، وكلما نظـر إلى عكا وما حل بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتـال، ولم يطعـم في ذلـك اليوم طعـامـا البتـة، وإنما شرب بعض أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب.

وقال قـاضي القضاة بهاء الدين رحمه اللـه: وتأخرت عن حضـور هذه الزحوف لما عـراني مرض مشوش لمزاجي وكنت في الخيمـة المضروبة في تل العياضية، وأنـا أشاهد الجميع، ولما هجم الليل عـاد السلطان إلى الخيمة بعد عشاء الآخـرة وقد أخذ منه التعب والحزن فنام إلا مـن غفو، ولما كان وقت السحـر أمر بـدق الكوسـات ، فركـب وركبت العسـاكر مـن كل جانب، وأصبحـوا على ما أمسوا عليه، وفي هـذا اليوم وصلت بطاقـة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية، فما بعدها إلا التسليم، ونحـن في الغـد ـ يعنـي يـوم الأربعـاء الثـامن مـن جمادى الآخرةـ إن لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان، ونسلم البلد، ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على سلاح جميع الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الاسلامية، واحتوت على كبار من أمراء الاسلام وشجعانهم كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما، وكان قراقوش ملازما لحراستها منذ نزل العدو المخذول عليها ، وحصل للسلطان من ذلك أمر عظيم وخيف على مزاجه التشوش، وهولا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك ، وهو صابرمحتسب ملازم مجتهد، ثم صاح في العسكر منادي من جهته، فركبت الأطلاب، واجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف في ذلك اليوم، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم في الهجوم عليهم ، فإن الرجالة من الأفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعضهم من بعض الأطراف فثبت المسلمون وذبوا غاية الذب، ولم يزل الحرب يعمل بينهم بقتل وجرح حتى حجز الليل بين الطائفتين.

ومن الغرائب أن امرأة منهم واقفة داخل سورهم عليها ملوطة خضراء، ولم تزل ترمي المسلمين بقوس من خشب حتى جرحت جماعة منهم، فتكاثر عليها المسلمون الذين دخلوا أسوارهم فقتلوها وأخذوا قوسها وحملوه إلى السلطان فتعجب من ذلك عجبا عظيما.

وكذلك كان هناك أفرنجي راجل صعد سور خندقهم، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم، ولقد حكى من كان من الداخلين سورهم أنه وقع فيه زهاء خمسين حجرا وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه مسلم زراق بقارورة نفط فأحرقه.

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليه من كل جانب، وقلت

رجال البلد ضعفت نفوسهم لما رأو الهلاك حقيقة، واستشعروا الضعف والخذلان، وتمكن العدو من الخنادق فملأوها، وتمكنوا من سور البلد والباشورة فنقبوا وأشعلوا فيه النار، ووقعت بدنة من الباشورة ، ودخلوا فيها ، وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا ، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية، وفي غد ذلك اليوم نادى الفرنج: احفظوا هؤلاء الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: قد قتلناهم، فحزنوا لذلك حزنا عظيما، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك ثلاثة أيام

ذكر خروج سيف الدين المشطوب إليهم

ولما قتل المسلمون الستة المذكورين حنق الفرنجة عليهم جدا، وجاء الليل فحال بين الفريقين، ولما أصبح الصباح خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين أحمد بن علي المشطوب، فاجتمع بملك الافرنسيس وطلب منه الأمان على أنفسهم ويتسلمون منه البلد، فلم يجبه إلى ذلك وقال له: بعد ما سقط السور جئت تطلب الأمان ؟، فأغلظ له الأمير سيف الدين في الكلام، ورجع إلى البلد في حال الله بها عليم، ولما أخبر أهل البلد بذلك خافوا خوفا شديداً،وأرسلوا إلى السلطان يعلمونه بذلك.

وقال صاحب النوادر:ولما جرى ذلك أخذ جماعة من أهل البلد بركوساً - وهو مركب صغير - وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الاسلامي، وذلك في ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان فيهم من المعروفين: أرسك وابن الجاولي الكبير وسنقر الوشاقي، فأما أرسك وسنقر فإنهما لما وصلا العسكر تغيبا ولم يعرف لهما مكان خشية من نقمة السلطان رحمه الله، وأما ابن الجاولي فإنه ظفر به ورمي في الزردخاناه.

وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعراً أنه يريد كبسة القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر، وتخاذلوا عن ذلك، وقالوا: نخاطر بأهل الاسلام كلهم ولا مصلحة في ذلك،وفي ذلك اليوم خرج من ملك الانكتار ثلاثة رسل، فطلبوا فاكهة وثلجاً وذكر وا أن مقدم الاسبتارية يخرج من الغد ـ يعني يوم الجمعة ـ فيتحدث معكم في الصلح، فأكرمهم السلطان، ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه، وهو أخو المشطوب، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري، وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً ، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً، ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة، خرج منهم ثلاثة رسل واجتمعوا بالملك العادل وتحدثوا معه ساعة زمانية وعادوا إلى أصحابهم، ولم ينفصل الحال في ذلك اليوم، ولما كان يوم السبت الحادي عشر من جمادى الآخرة لبست الأفرنج بأسرهم لباس الحرب،وتحركوا حركة عظيمة واصطفوا ، وتصرم هذا النهار ولم ينفصل الحال، ولما كان يوم الأحد الثاني عشر من جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها: إنا قد بايعنا على الموت، فلا نزال نقاتل ولا نسلم هكذا البلد ونحن أحياء ، فانظروا أنتم كيف تصنعون في شغل العدو عنا، ولا تخضعوا لهؤلاء الملاعين، وبالله المستعان، فلما سمع السلطان هذا الخبر حط منديله على عينيه، وبكى بكاء شديداً وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة قدم الأمير سابق الدين صاحب شيزر، وفي يوم الأربعاء خامس عشر قدم بدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير، وكان السلطان قد نفذ إليه ذهباً كثيراً أنفق فيهم، وقدم في يوم الخميس سادس عشر أسد الدين شيركوه،

ومع هـذا اشتد الحال على أهل البلد، فـأرسل السلطان إليهـم أن يخرجوا من البلـد في البحر ولا يتأخـروا عن هـذه الليلة، فتشاغـل كثير منهم في جمع الأمتعـة والأسلحة، وتـأخـروا عـن المسير في تلك الليلـة، فما أصبـح الخبر إلا عند الأفرنـج من مملوكين صغيرين سمعا بما رسـم به السلطان، فهربا إليهم فـأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحـر احتفاظاً عظيماً، فلم يتمكـن أحـد من أهـل البلـد أن يتحـرك بحـركه، ولا خـرج منهـا شيء بالكلية، فلما أصبح السلطان بعث إلى ملـوك الأفرنج يطلب منهم الأمان لأهـل البلـد على أن يطلـق عـدتهم مـن الأسرى الـذيـن تحت يـده مـن النصارى، ويزيـدهم على ذلك صليب الصلبوت، فأبـوا إلا أن يطلق كل أسير تحت يده ويعيـد إليهم جميـع البلاد السـاحلية التـي أخذت منهـم وبيت المقـدس، فأبى السلطان مـن ذلك، وترددت المراسـلات في ذلك، والحصار يتـزايد على أسوار البلـد، وقد تهدم شيء كبير منهـا وكلما ينهدم شيء يعيد المسلمـون عوضه، وصبروا على ذلك صبراً عظيماً، ولما كـان يوم الجمعـة السـابع عشر مـن جمادى الآخـرة صـالحهم أهـل البلـد على أن يسلموا البلـد وجميع ما فيـه من العـدد والآلات والمراكب، ومائتـي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحـوال، ومائة أسير معينين وصليب الصلبـوت، على أن يخرجـوا بـأنفسهـم سالمين ومـا معهـم مـن الأمـوال والأقمشـة المختصة بهم وذراريهم ونسـائهـم، وضمنـوا للمركيـس اللعين بعشرة آلاف دينـار لأنـه كـان واسطـة، ولأصحــابـه أربعـة آلاف دينـار، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج.

ولما وقف السلطـان على ذلك أنكر انكاراً عظيماً وجمع أربـاب المشورة من أرباب دولتـه وعرفهم بذلـك، وعزم على أن يكتب في تلك الليلـة مع العوام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الـوجه، فما أحسوا بذلك إلا وقد ارتفعـت أعلام الكفـر وصلبـانه على أسـوار البلـد، وذلك في ظهيرة يـوم الجمعة المذكـور الآن، وصاح الأفـرنج صيحـة واحدة، وعظمـت المصيبة على المسلمين، واشتـد حـزن الموحـديـن، ووقــع مـن العسكـر الصيـاح

والعويل والبكاء والنحيب، ودخل المركيس اللعين البلد ومعه أربعة أعلام للملوك، فنصب علماً على القلعة، وعلما على برج الداوية، وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الاسلام، وتحيز المسلمون الذين بها إلى ناحية من البلد معتقلين مضيقاً عليهم، وقد أسرت النساء والأبناء، وغنمت منهم الأموال ، وقيدت الأبطال، وأهينت الرجال.

ولما رأى السلطان ذلك، رأى التأخر عن تلك المنزلة التي هو فيها مصلحة، فإنه لم يبق وجه من المضايقة، وأمر بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفرعم، وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدووحال أهل البلد، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، وفي ذلك اليوم خرج ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان بشأن محتوى ما وقع عليه الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة ثم ساروا إلى دمشق يبصرون الأسرى، وكان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة.

ولما كان يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة خرج الأفرنج من جانب البحر شمالي البلد ومن جانب القنة وانتشروا انتشاراً عظيماً راجلهم وفارسهم، وضربوا أطلاباً للقتال، فأخبر اليزك بذلك السلطان، فدقوا الكوسات وركب السلطان وأنفذ إلى اليزك وقواهم برجال كثيرة، وتوقف هو حتى تركب العساكر الاسلامية واجتمعوا فوقع بين اليزك وبين الأفرنج وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك، فقتل اليزك منهم زهاء خمسين نفراً، وجرح خلق عظيم،وفي ذلك اليوم وصل رسل الفرنج الذين مضوا إلى دمشق لتفقد حال أسراهم، ووصل معهم من أعيان أسراهم أربعة نفر، ثم لم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب من هذه السنة، وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب ملك الانكتار، فأخبر أن ملك الفرنسيس سار إلى صور، وطلبوا أن يشاهدوا صليب

الصلبوت وأنـه هل هـو في العسكر أو حمل إلى بغـداد، فأحضر صليب الصلبـوت، فلما رأوه سجـدوا لـه وألقـوا أنفسهـم إلى الأرض ومـرغـوا وجـوههم في التراب، وبعثـوا يطلبون مـن السلطـان ما أحضر مـن المال والأسرى والصليب فـامتنع السلطان إلاّ أن يـرسلوا إليـه من بأيـديهم من الأسارى أو يبعثوا إليـه برهائن عنده على ذلـك، فقالوا : لا ولكن تـرسل ذلك وترضـى بأمانتنا فيهم فعـرف أنهم يريدون الغدر والمكر، فلـم يرسل ذلك إليهـم، وأمر برد الأسارى إلى دمشـق وبالصليب معهم مهـانا ، ولما رأوا ذلك أخـرجوا خيامهـم إلى ظاهـر خنادقهم مبرزيـن في نهار الأربعاء الحادي والعشريـن مـن رجب مـن هـذه السنـة، وكـان الذي بـرز ملـك الانكتار ومعه خلق عظيم من الخيالـة والرجالة، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين في صعيـد واحد فـأوقفـوهم وهـم موثـوقـون في الحبال، وحملـوا عليهـم حملة الـرجـل الواحـد فقتلـوهم صبراً ضربـاً وطعنـاً، وذلك يـوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب.

قال صاحب النوادر: وكانوا قدموا خيامهم حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وتل العياضية، وكان اليزك الاسـلامي قد تأخر إلى تل كيسان،ولما كان يـوم الخميس التـاسع والعشرين مـن رجب ركبت الأفـرنج بـأسرهم وقلعـوا خيـامهـم وحملـوها على دوابهم، وسـاروا حتـى قطعـوا النهـر إلى الجانب الغـربي وضربوا الخيـام على طريـق عسقلان، وأظهـروا العزم على المسير على شاطـىء البحر، ولم يستبقوا من المسلمين إلاّ مـن كان أميراً أو شريفاً أو مـن كان لـه صنعة هـم محتاجـون إليها أو امـرأة أو صبياً، ثـم رحلوا نحو عسقلان.

ذكر رحيل الأفرنج صوب عسقلان

لما كـان يـوم الأحـد مستهـل شعبان مـن هـذه السنـة اشتعلـت نيران الأفـرنج في سحـرة ذلك اليـوم، وكـانت عـادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيـل

أشعلوا النيران، ولما أخبر السلطان بـذلـك أمـر أن لايبقى أحـد إلا على ظهـر مركبـه، فهلـك من النـاس في ذلـك اليوم قماش كثير، ولاسيما مـن السوقة لقلـة الظهر، ثم سار الأفرنـج في ذلك اليوم قاصـدين عسقلان، وركب السلطان أيضـاً بعساكره وهم يسايـرونهم ويعارضونهم منزلـة منزلة ومرحلة مرحلة، وكانت مدة إقامـة السلطان على عكا صابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً، وجملة من قتل من الفـرنج في هذه المدة خمسون ألفاً، وسار السلطان حتى آتـى القيمون عصر ذلك النهار فنزل وقـد ضرب له دهليز وشقة دائرة حوله لا غير، واستحضر الجماعة وأكلوا شيئاً، واستشارهم فيما يفعل فـاتفقوا على أنهم يرحلـون بكرة غد، وقـد رتب حـول الفرنج يـزكاً يـبيتـون حولهم ويرقبون أمـرهم ، ولما كان صباح الاثنين الثـاني من شعبان أرسـل السلطان الثقل، وأقـام هو يترصـد أخبار العدو فلـم يصل اليـه شيء من خبـرهم حتى علا النهار، ثم سار فـي إثر الثقل حتى أتى قريـة يقال لها صبـاغين ، فجلس ساعـة يترقب أخبـارهم فلم يأت خبـر، فسار حتى أتـى منزلـة يقال لهـا عيون الأسـاود.

قـال قـاضي القضـاة بهاء الـديـن رحمه اللـه: ولما بلغنـا المنـزلـة رأى السلطان خيماً فسأل عنها، فقيل إنها خيم الملك العادل، فعدل إليه فأقام عنـده ساعـة ثم أتـى خيمتـه، وفقد الخبـز في هـذا المنزل بـالكلية وغـلا الشعير حتى بلغ الـربع بدرهم، وبلـغ الرطل من البقسماط بـدرهمين، ثم ركب السلطـان وسار إلى مـوضع يسمـى الملاحة يكـون منزلاً للعـدو إذا رحلوا من حيفـا، وكان السلطان قد سبـق ليتفقد المكان وأنه هـل يصلح للمصـاف أم لا، وتفقد أراضي قيسـاريـة بـأسرها إلى الشعـراء، وعـاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خـدمته، وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال: وصل إلينـا من أخبرنا من أصحابنا أنهم مـا رحلوا من حيفـا إلى عصر يومنـا هـذا يعني يـوم الاثنين ثـاني شعبـان، وبات تلـك

الليلة وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو، ونادى بالعرض، فركب الناس على ترتيب المصاف ميمنة وميسرة وقلباً، ثم عاد إلى الخيمة، وعاد الناس وقد علا النهار، ثم صلى السلطان الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً وناقصاً، ثم اتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا، ونزل الثقل بالمجدل بكرة النهار، وأقام هو باليزك جريدة إلى الصباح، ثم رحلوا إلى جهة العدو، فرحل الثقل من وقت العشاء، ولم يبق مع السلطان إلاّ خف من الأقمشة، وبات في منزله إلى الصباح يوم الأربعاء الرابع من شعبان، ثم ركب وسار إلى رأس النهر الجاري إلى قيسارية، ونزل جريدة هناك، وبلغ الرطل من البقسماط إلى أربعة دراهم، والربع من الشعير إلى درهمين ونصف، ولم يوجد الخبز أصلاً، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر وأكل شيئاً وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو، فلم يعد إلى أن دخل وقت العصر، فجلس ساعة ثم ركب في آخر نهار الأربعاء المذكور، ولما نزل أتى باثنين من الفرنج قد أخذهما اليزك فأمر بضرب رقابهما، وأصبح مقيماً بتلك المنزلة، ثم ركب في وقت عادته وأشرف على قيسارية وقد وصله الخبر بأن العدو لم يرحل من الملاحة، وأحضر عنده اثنان أيضاً فقتلا أشر قتلة، ثم أحضر بين يديه منهم فارس مذكور، وسأله عن أحوال القوم وعن السعر ، فأخبر الترجمان: إن أول يوم من رحيلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس، وسأله عن سبب تأخرهم في المنازل، فقال: لانتظارهم وصول المراكب بالرجال والميرة، وسأله عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم فقال: كثير، وسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك، فقال: مقدار أربعمائة فرس، ثم أمر بضرب عنقه، ثم ركب السلطان بعد صلاة العصر يوم الخميس خامس شعبان إلى أن نزل ، واتى باثنين فأمر بقتلهما، وذكر له في وقت السحر أن العدو تحركوا نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد، فرحل إلى تل قريب من التل الذي كانوا عليه، وضربت الخيام، ومضى السلطان يرتاد الأراضي

الكائنة في طـريق العدو لينظر أيها تصلـح للمصاف، ونزل قريـب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان بن جندر، وأخذرأيهما ، ثم صلى الظهر وركـب للتشوف على العدو، وتنسم أخبارهـم، وأتاه اثنان منهم قـد أخذا فـأمر بقتلهما، ثـم باثنين آخـرين كـذلك في يـوم الجمعة سادس شعبـان، وجيء باثنين آخـرين في آخـر النهار فقتلا أيضـاً، ثم لما أصبح نادى الجاووش لعرض أجناد الحلقـة لاغير، فركب إلى جهة العدو، ووقف على تلول مشرفة على قيسـارية، وكان الأفرنج قد وصلـوا إليها يوم الجمعة ، ولم يزل يعـرض هناك إلى أن علا النهار، ثم نزل وأكـل شيئاً، ثم ركب إلى أخيـه، وعاد بعـد صلاة الظهر فصلى الظهـر، فأتي بـأربعة عشر من الأفرنـج وامرأة فرنجية بينهـم أسيرة، وهي بنت فارس مشهـور، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة، ورفـع الباقون إلى الزرد خاناه، وهؤلاء أتي بهم من بيروت، أخذوا في مركب من جملة عدد كثير، فقتلوا في نهار السبت سابع شعبان، ولما كان صبيحة يـوم الأحد الثامن من شعبان ركب السلطان على عـادته، ثم نزل فجاء من أخبر أن العـدو على حركة، وأتى ثان آخر وأخبرهم أنهم ساروا فأمـر بالكؤوس فدقت، وركب الناس معه وساروا.

قال القـاضي بهاء الديـن: وكنت في خـدمته حتـى أتى بمـن معه إلى عسكر العـدو، فصف الأطـلاب حولـه وأمر بقتـالهم، وأخرج الجاليـش، وكان النشاب بينهـم كالمطر، وكان على الفـرنج اللبود الثخينة والـزرديات السابغـة المحكمة بحيـث يقع النشـاب ولا يؤثر وهـم يرمـون بالـزنبورك فتجرح خيول المسلمين.

قـال القـاضي: ولقد شـاهـدتهم يتغـرز نشـابـة في ظهر واحـد منهـم ونشابتـان وثلاثة إلى عشرة وأكثر وهـو يسير على هيئته من غير انـزعاج ، وكانوا قـد أنقسموا ثلاثة أقسـام: الأول الملك العتيق كي وأهـل الساحل معه في المقـدمة، والانكتار والفـرنسية معـه في الوسط، وأصحـاب طبرية

وطائفة أخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة كالمنارة عليها علمهم، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين، وهم يسيرون سيراً رفيقاً، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل ونزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل رجالتهم، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم على ظهورهم لقلة الظهر بينهم فانظر إلى هؤلاء الأشقياء وإلى صبرهم على هذه الأعمال من غير أجر ومن غير دنيا ودين، وكان منزلهم ذلك قاطع نهر قيسارية، ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان وصل من أخبر أنهم ركبوا سائرين وركب السلطان أول الصبح ، وسار يطلب القوم، وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أطلاب، ثم لم يزل المسلمون يكرون عليهم ويحملون عليهم إلى أن أتوا إلى نهر يقال له نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانهم إياز الطويل من مماليك السلطان، ودفن على تل مشرف على البركة، ونزل السلطان بالثقل على البركة، وهو موضع تجتمع فيه مياه كثيرة، وأقام هناك إلى بعد صلاة العصر، ثم رحل وأتى نهر القصب فنزل عليه، وكان المسلمون يشربون من أعلاه والأفرنج من أسفله، وليس بينهم إلا مسافة يسيرة، وبلغ الربع من الشعير في هذه المنزلة إلى أربعة دراهم، والخبز كثير موجود، والرطل منه بنصف درهم، وأقام السلطان ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهم، وباتوا تلك الليلة هناك ووقع حرب بين طائفتين منهم ومن المسلمين، فقتل من الفرنج جماعة ومن المسلمين اثنان وأسر منهم ثلاثة، فسأل السلطان عنهم فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان فأخبرا بقلة عدد العسكر الاسلامي، ولما جرى بالأمس ما جرى طلب البدويين فضرب أعناقهما، وأخبروا أن المجروحين منهم كانوا زهاء ألف نفس، والمقتولين جماعة ، ولما كان ظهر يوم الثلاثاء العاشر من شعبان رأى السلطان التقدم على العدو فدق الكؤوس ورحل ودخل في شعراء أرسوف حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب، فنزل هناك وأقام ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر من شعبان،

وجاء من أخبار العدو أنهم مقيمون على نهر القصب، وأنه لحقهم نجدة من عكا في ثماني بطس كبار، ويزك الاسلام حولهم يواصلون بالأخبار التي تتجدد، وجرى بين اليزك وحشاشة الأفرنج قتال، وجرحت جماعة من الطائفتين، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر، فأرسلوا إليه من يسمع كلامه، وحاصل سؤالهم الاستئذان بالاجتماع بالملك العادل، فأذن له السلطان في المضي إليهم، فجاء إلى اليزك وبلغ الخبر إلى ملك الانكتار، فاجتمعا بحده من أصحابهما، وكان يترجم بينهما ابن الهنفري، وهو من فرنج الساحل من كبارهم.

قال قاضي القضاة: ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن، إلا أنه محلوق اللحية على شعارهم، وكان كلام الرسول في الصلح طلب عود البلاد إليهم كما كانت، وأن المسلمين ينصرفون إلى بلادهم، فلما سمع العادل هذا الكلام أغلظ في الجواب وجرت منافرة واقتضت أنهم رحلوا، وأما الأفرنج فانهم نزلوا على موضع يسمى البركة مشرف على البحر ، وأصبح السلطان في صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان في قرية تسمى بركة وأقام مطلب الاطلاب متطلعاً إلى أخبار الافرنج، وأحضر عنده اثنان منهم قد مسكهما اليزك فأمر بضرب أعناقهما.

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يوم السبت الرابع عشر من شعبان بلغ السلطان أنهم قد تحركوا للرحيل نحو أرسوف، فركب ورتب الأطلاب للقتال، وعزم في ذلك اليوم على مصافة القوم، وأخرج من كل طلب جاليشاً وسار الأفرنج حتى قاربوا شعراء أرسوف وبساتينها، وأطلق عليهم الجاليش النشاب ولزتهم الأ طلاب من كل جانب ، والتحم القتال واضطربت نارها من الجانبين، وقتل منهم طائفة وجرح آخرون، واشتدوا في السير

لعلهم يبلغون المنزلة فينزلون، واشتد بهم والسلطان رحمه اللـه يطوف من الميمنة إلى الميسرة، ويحث الناس على الجهاد.

وقـال قاضي القضـاة بهاء الديـن: لقيتـه مراراً وليـس معه إلاّ صبيـان بجنبيه لا غير، ولقيت أخاه وهو على مثـل حاله، والنشاب يتجاوزهما، ولم يزل الأمر يشتد بـالفرنج، وطمع فيهم المسلمون طمعـاً عظيماً حتى وصل أوائل راجلهم إلى بسـاتين أرسوف، ثـم اجتمعت الخيـالة وتـواضعوا على الحملـة فحملوا حملـة واحـدة من الجوانـب كلهـا، فحملـت طائفـة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب، فاندفع الناس بين أيديهم.

قـال قاضي القضـاة: واتفـق أني كنت في القلـب ، ففـر القلب فـراراً عظيماً، فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إليّ فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة، ثـم نويت التحيـز إلى الميمنة فرأيتهـا وقد فرت أشـد فراراً من الكـل، ثم نـويت التحيز إلى السلطـان، وكان ردأ الاطـلاب كلها كما جرت عـادته بـذلك، فأتيتـه ولم يبق معـه إلا سبعة عشر مقـاتلاً لا غير، لكن الأعلام كلها بـاقية، والكوسات تدق لاتفتر، ثم وقف الأفـرنج خوفاً من الكمين، وقاتلوا وهم واقفون ،ثم حملوا حملـة ثانية، ففروا وهم يقاتلون في فـرارهم، ثـم وقفـوا وحملوا ثـالثـة حتـى بلغوا إلى رؤوس رواب هنـاك وأعالي تلول، وقفوا هنـاك، وأما المسلمون بعد أن فروا فقالـوا كل من رأى طلب السلطان واقفاً والكوسات تـدق يستحي أن يتجاوزه، ويخاف غائلة ذلـك، ويعود إلى الطلـب، فـاجتمع عنـد الطلـب خلـق عظيم، ووقـف الأفرنج قبالتهم على رؤوس التـلال والروابي والسلطان رحمه الله واقف في طلبه لايتحرك حتـى رجعت الناس بأسرهم، وخاف الأفـرنج أن يكون في الشعراء كمين فتراجعـوا يطلبون المنزلـة ، وعاد السلطـان إلى تل في أوائل الشعراء ونزل عليه بلا خيمة، وقال قـاضي القضاة: ولقد كنت في خدمته وأسليـه وهو لايقبـل ، وظلـل عليـه بشيء ، وأحضر بين يديـه شيء مـن الطعام فتنـاول شيئاً يسيراً، وبعث النـاس خيولهم للسقي، فـإن الماء كان

بعيداً، وجلس ينتظر حتى يعودوا من السقي، والجرحى يحضرون بين يديه وهو يداويهم ويحملهم وقتل في ذلك اليوم رجالة كثيرة وجرحت جماعة من الطائفتين، وكان ممن ثبت في هذه الوقعة الملك العادل والطواشي قايماز النجمي والملك الأفضل ولد السلطان، صدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب، وثبت أيضاً في ذلك اليوم طلب الموصل، ومقدمه علاء الدين، وشكره السلطان على ذلك، وتفقد الناس بعضهم بعضاً، فوجدوا قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم أمير شكار موسك، وكان رجلاً شجاعاً معروفاً، وقايماز العادلي، وكان مذكوراً، وأبقوش، وكان شجاعاً أسف السلطان عليه وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسر واحد فأحضر، فأمر السلطان بضرب عنقه، وأخذت منهم خيول أربعة، ثم أمر السلطان أن يتقدم الثقل إلى العوجاء ، وكان الأفرنج نزلوا على قبلي أرسوف، ونزل الثقل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضرة على جانب النهر، ووصل السلطان في آخر النهار، وازدحم الناس على القنطرة، ونزل السلطان على تل مشرف على النهر، ولم يعبر الخيمة، وأقام السلطان إلى سحرة ليلة الأحد الخامس عشر من شعبان من هذه السنة، ثم دق الكؤوس وركب وركب الناس وسار راجعاً إلى جهة العدو حتى وصل إلى أرسوف ، وصف الأطلاب للقتال وجاء خروج الأفرنج ومسيرهم حتى يصادمهم، فلم يرحل الملاعين في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراحات، فأقام السلطان قبالتهم إلى آخر النهار، ثم عاد إلى منزلته التي بات بها، فبات بها ليلة الاثنين السادس عشر ، ولما كان يوم الاثنين دق الكؤوس، وركب وركب الناس، وسار نحوهم ، وبلغ إليه خبرهم أنهم رحلوا طالبين جهة يافا، وسار حتى قاربهم جداً ورتب الأطلاب ترتيب القتال، وأخرج الجاليش، وأحدق العسكر الاسلامي بالقوم وألقوا عليهم من النشاب ماكاد أن يسد الأفق، وقاتلهم قتالاً عظيماً والملاعين لم يحملوا بل حفظوا نفوسهم،

وساروا مصطفين على عـادتهم حتى أتـوا نهر العوجـاء، وهو النهـر الذي كـان منزل المسلمين أعـلاه، فنزلـوا في أسفله، وعبر بعضهـم النهر وأقـام البـاقون مـن الجانب الشرقـي، وعـاد السلطان أيضـاً إلى الثقل، ونـزل في خيمته وأكـل الطعام ثـم أتي بـأربعة مـن الأفرنـج وقد أخـذتهم العرب، ومعهم امـرأة، فرفعـوا إلى الزردخانـاه، وأقام السلطـان بقية اليـوم في تلك المنزلـةوكتب الكتب إلى الأطـراف باستحضـار بقية العساكـر، وحضر من أخبره أنه قتـل من الفـرنج يـوم أرسوف خيـول كثيرة وأن العرب يتبعـونها فعدوها فـزادت على مائة، وجرح أيضاً مـن خيل المسلمين شيء كثير، ثم أمر السلطـان برحيل الجمال إلى الـرملة، وبـات في تلك المنزلـة، ولما كان يـوم الثلاثـاء السابـع عشر من شعبـان صلى الصبح ورحـل ورحل معـه الثقل الصغير، وسـار يريـد الرملة، وأتي بـاثنين من الأفـرنج فـأمر بضرب أعناقهما، وجـاء خبر من اليـزك بأن الفـرنج رحلوا قـاصديـن يافـا، وسار السلطان إلى الـرملة ونـزل في الثقل الكبير وأتي باثنين مـن الأفرنـج أيضاً فسـألهما عـن أحوال القـوم فـذكـرا أنهم ربما يقيمـون في يـافا أيـامـاً وفي أنفسهـم عمارتها واشحانها بـالـرجال والعـدد، فـأحضر السلطان أربـاب المشورة وشاورهـم في أمر عسقلان هل تخرب أم تبقـى، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة مـن العسكر قريباً من العدو لأجل الأخبار ، وأن يسير السلطـان إلى عسقلان ويخربها خشيـة من أن يتـولاها الأفرنـج فيأخـذوا من بها من المسلمين، ويـأخذوا بها القـدس الشريف، ويقطعوا طـريق مصر، فعند ذلك أمـر السلطان برحيل الثقـل الجمالي من أول الليـل، وأمر ولـده الملك الأفضـل أن يسير عقيـب الثقل في نصـف الليل، ثم سـار السلطان في سحرة يوم الاربعاء الثامـن عشر من شعبان، ووصل إلى يبنـى فنزل بها، وأخذ النـاس راحة، ثـم رحل وسار حتـى أتى أرض عسقلان بعـد صلاة العصر، وقد ضربـت خيمته بعيـداً منها شمالي البلد في أرض طيبة، فبـات هنا مهموماً بسبب تخريب عسقـلان ، وما نام تلك الليلة إلاّ قليلاً.

قال قـاضي القضاة بهاء الدين: فطلبنـي في تلك الليلة وقـت السحر، وشرع في حديث عسقـلان وتخريبها وأحضر ولده الملك الأفضـل وشاوره في ذلك، وقال: والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن أهـدم منها حجرا واحدا، ولكن إذا قضى الله بذلك، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع ؟!

ذكر تخريب عسقلان

ثم استخار السلطان فأوقع اللـه في قلبه أن المصلحة في تخريبها لعجز المسلمين عن حفظها عن الافرنج، فـاستحضر الوالي بها يدعى قيصر، من كبار ممـاليكه وذوي الآراء منهم، فأمـره أن يضع فيها المعـاول، وذلك في سحرة ليلة الخميـس التاسع عشر من شعبان، وقسـم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلـومة وبرجا معلوما يخربونه، ودخـل الناس البلـد، ووقـع فيه الضجيـج والبكـاء، وكـانت بلـدة نضرة حسنـة خفيفـة على القلب محكمـة الأسـوار عظيمـة البنـاء، مرغـوبـا في سكنها، فلحـق الناس حـزن عظيم، وعظـم عويـل أهلها وبكـاؤهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع مـا لا يمكن حمله، وبيع ما يساوي عشرة دراهم بـدرهم واحد، ورمـى الناس أقمشتهم بـالثمن البخس حتـى بيع اثني عشر طيرا من الدجاج بدرهـم واحد، واختبط البلد، وخرج أهله إلى العسكـر بذراريهم ونسـائهم خشيـة أن يهجم الافـرنج البلـد، وبذلـوا في الكرى أضعاف ما يساوي، فقـوم إلى مصر و قوم إلى الشام، وقوم يمشون لم يقع لهم كـراء، وجرت أمـور كثيرة وبلية عظيمـة لعلها لم يكـن مثلها ، وكـان السلطان ولـده الملـك الأفضل يستعمـلان النـاس في التخريـب والحث عليـه خشيـة أن يسمـع الافـرنـج فيحضرون ولا يمكـن تخريبهـا، وبات الناس على أشد حال مـن التعب والنصب، وفي تلك الليلة حضر من الملـك العادل مـن أخبر أن الافرنج تحدثـوا معه في الصلـح، وأن ابن الهنفري جاء إليه وتحدث معه في ذلـك، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة

لما رأى في أنفس الناس من الضجر والملالة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك، وفوض أمر ذلك إليه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الاصرار على التخريب واستعمال الناس فيه، وأباح لهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من لحوق الأفرنج ، وأمر بتحريق البلد، وأضرمت النار في البيوت والآدر فاضطرمت النيران فيها ، ورمى الناس غالب أقمشتهم للعجز عن نقلها، وفي أثناء ذلك الأخبار تتواتر من جانب الافرنج بعمارة يافا، وأن كل وقت يجري بينهم وبين اليزك وقعات.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولم يزل التخريب والتحريق يعملان في عسقلان وأسوارها إلى سلخ شعبان من هذه السنة، وكانت عظيمة البناء بحيث أن بعض سورها كان عرضه تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ـ أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح.

قال القاضي: ووصل في أثناء ذلك جرديك بكتاب فيه أن الفرنج قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ غرضه منهم في غرتهم، فعزم السلطان على الرحيل ، وعلى أن يخلف حجارين في عسقلان ومعهم من يحميهم حتى يستقصوا في التخريب، ثم رأى أن يتأخر الى أن يحرق البرج المعروف بالاسبتار، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة، وأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه.

قال القاضي: ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لتحريق البرج، ولم يزل الناس ينقلون الأعشاب ويحشونها في البرج حتى امتلأ، ثم

اطلقت فيها النار، وبقيت النار تشتعل فيها يومين وليلتين، ثم رحل السلطان ليلة الثلاثاء الثاني من رمضان من نصف الليل، ووصل إلى يبنى ضحوة نهار الثلاثاء، ونزل في خيمة أخيه الملك العادل ، واستعلم منه الأخبار، ثم قام ونزل في خيمته، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

ذكر رحيل السلطان إلى الرملة

ولما أصبح السلطان يوم الأربعاء الثالث من رمضان رحل إلى جهة الرملة، فسار حتى أتاها ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير هناك نزول اقامة، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا، ومد السماط للناس، ثم أخذ بعض راحة ثم ركب بين الصلاتين وسار إلى لد فرآها ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بتخريبها وتخريب قلعة الرملة أيضا، ووقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم، وفرق الناس لتخريب المكانين وأباح ما فيهما من التبن والشعير في الاهراء السلطانية، وأمر من كان بهما من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامرة ، وما كان بقي من المكانيين إلا نفر يسير، ثم عاد السلطان إلى خيمته، ولما أصبح يوم الخميس الرابع من رمضان أقام الحجارين في المكانيين، ورتب عندهم من يستخدمهم في ذلك وهو يتردد إليهم في الأصايل، ثم وقع له أن يسير خفية في نفر يسير ليشاهد أحوال القدس الشريف، وخلف أخاه العادل في العسكر يحث الناس على الخراب فسار من أول الليل حتى أتى القدس الشريف في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور، وصلى الجمعة وأقام ذلك اليوم يتفقد أحوال الناس وأحوال القدس في عمارته وميرته وعدته وغير ذلك، وظفر بنفر من النصارى معهم كتب إلى الافرنج، فضرب أعناقهم، ولم يزل مقيما في القدس إلى يوم الاثنين الثامن من رمضان، ولما كان يوم الاثنين خرج قاصدا العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة.

ذكر مجيء معز الدين صاحب ملطية

وفي يوم الاثنين المذكور وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه ابن قليج أرسلان وافدا على السلطان مستنصرا على أخوته وأبيه لأنهم كانوا قاصدين أخذ بلده منه، فلقيه الملك العادل عند لد واحترمه وأكرمه، ثم لقيه بعده الملك الأفضل ولد السلطان، وضرب خيمته قريبا من لد.

وفي تاريخ النويري: وسبب قدومه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك، فسار إلى السلطان ملتجئا إليه، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطع طمع أخيه منه.

وقال ابن الأثير: ولما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترجل معز الدين فترجل السلطان صلاح الدين، ولما ركب عضده قيصر شاه وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين في نفسه: ما بقيت تبالي يابن أيوب بأي موتة تموت: يركبك ملك سلجوقي ويصلح قماشك ملك أتابكي زنكي، وفي يوم قدوم معز الدين وصل الخبر إلى العسكر أن جماعة من الحشاشين من الأفرنج خرجوا يحشون، فحمل عليهم اليزك الاسلامي، ووصل الخبر إلى عسكرهم، فخرجت في نصرتهم جماعة وجرى بينهم وبين اليزك قتال، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم ملك الانكتار، وأن شخصا من المسلمين قصد طعنه، فحال بينه وبينه فرنجي، فقتل الفرنجي وجرح هو.

ذكر عودة السلطان إلى المعسكر

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان المذكور وصل السلطان إلى العسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه وأقام يحث على الخراب، ولم تزل أخبار العدو عنده، ولم يزل يقع بين اليزك وبين الأفرنج وقعات وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

وفي أثناء ذلك اليوم وصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالحهم بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذ ها منهم، فأجاب السلطان وسير إليه العدل النجيب، وكان المركيس هذا خشنا ملعونا، وكان لما استشعر من الافرنج أخذ بلده صور منه استعصم بها، وانحاز عن الفرنج، ولذلك أجاب السلطان إلى كلامه، وسير العدل النجيب مع رسوله يوم الجمعة ثاني عشر رمضان، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة عداوة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها من الأسرى، وكذلك من كان بصور من الأسرى، فإذا فعل ذلك يسلم إليه صيدا وبيروت.

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم إلى العلوفة، فإنهم كانوا على الرملة قريبين من الأفرنج، فنزل السلطان على تل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجميع العسكر ما عدا اليزك وذلك بعد خراب الرملة ولدّ، ويوم نزوله هناك أمر بتخريب النطرون، وكانت قلعة منيعة.

وفي السابع عشر من رمضان جاء الخبر من اليزك بأخبار طيبة منها خبر هلاك الأفرنسيس، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له، ومنها أن ملك الانكتار عاد إلى عكا، وذلك لما صح عنده مراسلة المركيس إلى السلطان فيما ذكرنا.

ذكر سير الملك العادل إلى القدس

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان اقتضى الحال تفقد أحوال القدس، والنظر في عمائره، فتعين لذلك الملك العادل، فسار إليه وعاد منه إلى العسكر يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وفي أثناء هذه الأيام وصل كتاب من الملك المظفر تقي الدين يخبر أن قزل أرسلان صاحب ديار العجم قفز عليه أصحابه فقتلوه، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة.

وفي هذا التاريخ وصلت مراكب العدو، وقيل إنها وصلت من عكا وأن ملك الانكتار فيها بجماعة عظيمة وقصده عمارة عسقلان، وقيل قصده أخذ القدس، ووصلت جماعة من الأسرى كانوا من عكا أخذهم اليزك من موضع يقال له الزيب، ووصل رسول قزل أرسلان، كان قد سيره قبل موته، ورسول ابن أخيه اينانج، ورسول ملك الانكتار ومعه حصانه إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه، ووصل خبر وفاة حسام الدين بن لاجين بدمشق بسبب مرض عرض له، فحزن عليه السلطان، ووصل كتاب من سامة يذكر فيه أن الأبرنس صاحب أنطاكية ـ لعنه الله ـ أغار على جبلة واللاذقية، وأنه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية مخذولا، ووصل رسول من ملك الانكتار يقول: خربت البلاد وهلك المسلمون والافرنج وتلفت الأموال، وقد بلغ الأمر غايته، وما ثم شيء في الوسط سوى القدس والصليب والبلاد وأما القدس فإنه متعبدنا ما نفرغ عنه ولو لم يبق منا أحد، وأما البلاد فتعاد إلينا من حد الأردن، وأما الصليب فإنه خشبة لا مقدار لها عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن السلطان بهذه الأشياء علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم، ولما وقف السلطان على هذا أجاب بأن القدس لنا كما هو لكم، بل هو أعظم عندنا مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ومجمع الملائكة فلا يتصور أن نتركه ولا نقدر

على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها صار لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فحرقه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام .

ذكر هروب شيركوه بن ما خل الكردي من عكا

وكان أسيرا فيها ووصل إلى عسكر الاسلام في أواخر يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان وكان من الأمراء الأكراد الزرزاريين، وأخبر أنه هرب ليلة الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وكان ادخر له حبلا في مخدة، وكان الأمير حسين بن باريك ادخر له حبلا في بيت الطهارة، فاتفقا على الهروب، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة، وانحدرا من السور الأول، وعبر شيركوه من الباشورة، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل، ونزل شيركوه سليما، وأنه أتى إليه وحركه فلم يتحرك، فخاف إن مكث أخذ، فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى إلى تل العياضية، وقد طلع الصبح، فكمن في الجبل حتى علا النهار، وكسر قيوده وسار، فستر الله عليه حتى أتى العسكر في الوقت المذكور، وأخبر أن سيف الدين بن المشطوب ضيقوا عليه وقطعوا عليه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأموال ،وأن ملك الانكتار أتى عكا وأخذ كل من كان بها من خدمه ومماليكه وأقمشته، ولم يخل له فيها شيئا، وأن فلاحي الجبل يمدونه بالميرة مدا عظيما، وأن طغرل السلاحدار أخذ خواص مماليك السلطان فهربوا قبل هروب شيركوه.

ذكر بقية الأخبار

منها أن في يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان استدعى الملك العادل قاضي القضاة بهاء الدين، وأحضر جماعة من الأمراء: علم

الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم، وحسام الدين بشارة وقال لهم: إن ملك الانكتار أرسل إليه يقول له: إن العادل يتزوج بأخته، وكان قد استصحبها معه من صقلية، وكانت زوجة صاحبها ومات عنها، وأن يكون مستقرها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان، وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن السلطان يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والاقطاعات، وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والاسبتار وأنا أفك أسراكم، وأنتم تفكون أسرانا، فإذا استقر الصلح على هذا يرحل ملك الانكتار إلى بلاده في البحر وينفصل الأمر

قال القاضي: فلما حضرنا عند السلطان عرضت عليه هذا الحديث فبادر إلى الرضى بهذه القاعدة معتقدا أن ملك الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا، وأن هذا منه هزو ومكر.

قال: ثم عدنا إلى الملك العادل وعرفناه بذلك، ولما كان يوم الأربعاء الثاني من شوال سار ابن النحال رسولا من جانب العادل والسلطان أيضا إلى ملك الانكتار، فلما عرف بقدومه أنفذ إليه من قال له: إن الملكة أخت الملك عرض عليها أخوها حديث النكاح فسخطت من ذلك وغضبت وأنكرت أن يكون ذلك انكارا شديدا، وحلفت أنه لا يكون أصلا، ثم قال أخوها: إن الملك العادل يتنصر فأنا أتمم ذلك، فعاد الرسول بذلك وأخبر العادل والسلطان به، وتحقق ما قاله السلطان.

ومنها أن في يوم السبت خامس شوال وصل الخبر من الاسطول الاسلامي أنه استولى على مراكب للأفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وأكثر، وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة أنفس وهم كبار مذكورون، فسر المسلمون بذلك وضربت البشائر.

ومنهـا أن في يـوم الأحد سـادس شـوال جمع السلطـان أكابـر الأمـراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهـم في أن الأفرنج قد أجمعوا على الخروج، وأنه كيف يصنـع في ذلك، فاتفقت آراؤهـم على الاقامة في منزلتهـم بعد تخفيف الأثقال، فـإنْ خرجوا لاقوهـم، وفي عشية هذا اليوم استـأمن من الأفرنـج اثنان فـارسان وأخبرا أنهم على عـزم الخروج يوم الثـلاثاء، وأنهم زهاء عشرة آلاف فـارس، ولكن لا يعرف قصـدهم، ثم جـاء أسير مسلم هـرب منهم وأخبر أنهم قـد أظهروا الخروج إلى الـرملة ، ثـم يتفقون فيهـا على مـوضع يقصـدونه، ولما تحقـق السلطـان ذلك أمـر بتجهيز العسكـر، وشد الرايات وأن يقـف قبالتهم إن خرجوا، وسار يـوم الاثنين حتى أتى قبلي كنيسـة الرملـة فخيـم هنـاك وبات ليلتـه، ولما كـانـت صبيحة يـوم الثلاثـاء الثامـن من شوال رتـب الأطلاب للقتـال، وسلم اليـزك للملك العادل، وتبعه من يريدون الغزاة ، فخـرجوا في جملة من خرج، فلما وصلوا إلى خيام الأفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية ورموا عليهم بالنشاب، وقام الأفرنـج وركبوا وصاحوا صيحـة الرجل الواحـد وحملوا في جمع كثير، فنجا مـن سبق بـه جواده، وظفروا بجماعـة قتلوا منهم ثـلاثة نفـر على ما قيل، ونقلوا خيـامهم إلى يازور وأقام السلطان بلقـاء منازلهم إلى الصباح، ولما كـان يوم الجمعـة الحادي عشر مـن شوال ركـب السلطـان نحوهـم فأشرف عليهم ثم عاد.

قال القاضي: ثـم استدعاني وجماعة مـن الأمراء،وأمر الناس بـإبعادهم عن الخيمة، فـأخرج كتابا من قبـائه وفضه ووقف عليه، وبـدرت دموعه، وغلبه البكـاء والنحيب حتـى وافقه الحاضرون على ذلـك من دون علـم، السبب، ثم ذكـر أن الملك المظفر قد توفي إلى رحمة الله، وأمـر بكتم ذلك عـن الناس لئـلا يصـل الخبر إلى العـدو، وكانـت وفـاتـه في تاسـع عشر رمضان يوم الجمعة على ما نذكره انشاء الله.

ومنهـا: أن في يوم السبـت الثـاني عشر من شـوال وصـل من دمشـق كتـاب من النـواب بها، وفي طيه كتـاب من بغـداد مـن الديـوان العزيـز النبوي يتضمن فصولا ثلاثة:

الأول: الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر.

والثـاني في الانكـار على مظفر الـديـن في مسـك حسن بـن قفجـاق والأمر بإعادته إلى الكرخاني.

الثالـث: فيه الأمر بـإحضار القاضي الفاضـل إليهم ليقال لـه أشياء: فأجـاب السلطان عـن الأول بأنـا لم نأمـره بذلـك، وعن الثـاني بأن ابـن قفجاق لا يخفى مـا تصدى له من الفسـاد في الأرض، وعن الثالث بـأنه كبير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة.

ومنها أن في السـادس عشر من شوال أمـر السلطان للحلقـة بالكمين للعـدو في بطون أوديـة هنـاك واستصحبوا جمعـا مـن العرب، فلما استقـر الكمين في مـوضعه ظهـرت العرب في منـاوشتهـم، وكانـت منهم جماعـة تخرج لـلاحتشاش والاحتطـاب، فنـزل عليهـم العرب ووقـع الحرب وقـام الصياح، فركبـت جماعة من خيالـة الأفرنج، وانهزمت العـرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، فخـرج الكمين ووقع الصياح وانهزموا بين أيديهم نحو خيـامهم، ثـم ركب منهـم خلق عظيـم فـالتحم القتـال، وقتل جمع مـن الطـائفتين ، وأسرت جماعـة مـن العــدو، وأخـذت منهـم خيـول كثيرة ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعـاء السادس عشر من شوال، واستشهد في هـذه الوقعة ايـاس المهراني، وكان شجـاعا معروفـا، وجاولي غلام الفيدي، وصرع إيـاز المعظمي، وجرح جماعة عدة، وقتـل من العدو زهاء ستين نفرا، وأسر فارسان معروفان، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما.

ومنها أنـه وصل في بقية هـذا اليوم رسـول من عند ملـك الانكتار إلى

الملك العادل يعتب عليه من جهـة الكمين وأنه يطلب الاجتماع به، فأذن له، ولما كان يـوم الجمعة الثاني عشر من شوال سار الملـك العادل، ومعه من الأطعمـة والتجملات والتحف ما يحمّـل من ملك إلى ملـك، وجاء إليه ملك الانكتـار في خيمته فأكرمـه العادل واحترمه، ووصل معـه أيضا مـن طعـامهم الـذي يختصـون بـه، فـأتحف بـه الملك العـادل على وجـه مطايبته، فتناول منه العادل وتناول هـو وأصحابه من طعام العادل، وقدم إليـه ما كـان حمله معـه، وتحادثـا معظم ذلـك النهـار وتفاصـلاعن تـواد ومطايبة.

ومنها: أن في يوم السبت التاسع عشر من شوال حضر صاحب صيدا بين يدي السلطان ومعـه جماعة وأكرمه السلطان اكـراما عظيما، وقدم بين يديـه طعامـا، ولما رفع الطعـام خلا بهم، وكـان من حـديثه أن السلطـان يصالح المركيس صاحب صور، وقد انضـم إليه جماعة من أكابر الافرنج، وكان مـن شرط الصلح معه اظهـار عداوته لـلأفرنـج البحرية، وبـذل له السلطان موافقة على ذلك.

ومنها أن في عشيـة ذلك اليـوم وصل رسول ملـك الانكتار: وهـو ابن الهنفري، وكان مـن أكابرهم وملـوكهم، ومن أولاد ملوكهـم، وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمـره مائة وعشرون سنة، فأحضره السلطـان، وكانت رسالتـه: إن الملك يقول إني أحـب صداقتك ومـودتك، وأنت قـد ذكرت أنك أعطيـت هذه البلاد الساحليـة لأخيك، فأريد أن تكـون حكما بيني وبينـه، ونقسم البـلاد بينـي وبينـه، ولابد أن يكـون لنـا علقـة بالقـدس، ومقصودي أن نقسم البلاد بحيث لا يكـون عليك لوم من المسلمين، ولا علي لوم من الأفرنـج، فأجابه في الحال بوعد جميـل، ثم أذن لهم بالعود في الحال.

قـال قـاضي القضـاة بهاء الـدين رحمه اللـه: ثـم التفـت السلطـان في

المجلس وقال لي: متى صالحناهم لم نأمن من غائلتهم، فإني لو حدث بي حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الأفرنج، والمصلحة الثبات على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه وغرضه رحمه الله.

ولما كان يوم الاثنين الحادي والعشرين من شوال جمع السلطان الأمراء الكبار وأرباب المشورة من الدولة،وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس، واستقر الأمر من جانبه عليها وهي أخذ صيدا، وأن يكون معنا على الفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة، وذكر لهم القاعدة التي التمسها ملك الانكتار، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معينة، وتكون لنا الجبليات بأسرها، وتكون القرايا كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم أقساء في بيع القدس الشريف وكنائسه،وشرح لهم السلطان هاتين القاعدتين وأخذ رأيهم في ترجيح أحد القسمين.وهما من جانب ملك الانكتار ومن جانب المركيس، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن ملك الانكتار فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة، وصحبتهم غير مأمونه، وانفض الناس وبقي الأمر مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح، وهي أن ملك الانكتار كان قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية والفرنجية لهما، أما الفرنجية فلها من جانب الملك وأما الاسلامية فللملك العاد ل من جانب السلطان، وكان آخر رسائلهم من الملك أن قال:إن معاشر دين النصرانية أنكروا علي كون أختي تحت مسلم بدون مشاورة الباب، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير إليه رسولاً يعود في ستة أشهر، فإن أذن في ذلك فبها ونعمت، وإلاّ زوجتك ابنة أختي، وما أحتاج في ذلك إلى إذن الباب، هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عمال، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الأفرنج وقتال المسلمين لهم، وكلما رآه ا لأفرنج مع الملك العادل تحركوا للصلح خوفا من

انكسار الشوكة لهم، ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شوال، ففي يوم الجمعة أصبح السلطان عازما على الرحيل وسار إلى تل الجزر لارتياد المنزل، فنزلت الناس كلهم مع السلطان، ولما عرف الأفرنج بعود السلطان رحلوا عائدين، وأقام السلطان بتل الجزر، ثم رحل إلى جهة القدس الشريف، ورحل الأفرنج إلى بلادهم واشتد الشتاء وعظمت الأمطار، وأعطى السلطان دستورا للعساكر وأقام بالقدس في هذا الشتاء أجمع، ونزل السلطان في دار القساقس قريبا من القمامة، وكان نزوله في ذي القعدة من هذه السنة، وشرع في تحصينه وتعميق خنادقه، وعمل فيه بنفسه وأولاده وأمرائه، وعمل القضاة والعلماء والصوفية بأنفسهم، وكان وقتا مشهودا، واليزك حول البلد من ناحية الأفرنج، وفي كل وقت يستظهرون على الأفرنج ويقتلون ويغنمون منهم، وانقضت السنة والأمر على ذلك، وأرصد ملك الانكتار في يافا عساكر، ثم عاد إلى عكا لينظر في أحوالها وأقام مدة.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة

منها أنه استقر الحال مع الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه أن يأخذ الرها وحران وسمسياط وينزل عن كل الذي بالشام: بصرى، وعمان، والبلقاء، ومن حلب: المعرة ومنبج، والمستقر بيده حماه وسلمية واللاذقية وجبلة وبلاطنس وبكسرائيل، ثم لم يلبث أن أدركته الوفاة على مانذكره في الوفيات إن شاء الله تعالى.

ومنها أن السلطان صلاح الدين أرسل إلى ولده الظاهر أن يخرب حصن بغراس، فبلغ ذلك ابن ليفون صاحب سيس فسار إليها فأخذها بغير قتال.

ومنها أن السلطان أخرب عسقلان كما ذكرنا ، وأخرب غزة والداروم أيضا، واهتم بعمارة القدس الشريف.

ومنها أن السلطان عزل أبا حامد محمد بن عبدالله بن أبي عصرون عن قضاء دمشق، وولى محيي الدين بن زنكي الدين، قالوا: وسبب عزل ابن أبي عصرون مداخلته الجند واشتغاله بما يشتغل به الأمراء من اتخاذ الخيول والمماليك والنزل ومباشرة الحروب، ومعاملة الأمراء ومداينتهم فتبرم السلطان منه وعزله...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير سليمان بن جندر: من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية، وهو والد علم الدين بن سليمان، وشهد سليمان مع صلاح الدين حروبه، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان، فطلب المسير إلى حلب فأذن له السلطان فسار فتوفي بغباغب في أواخر ذي الحجة وحمل إلى حلب فدفن بها.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين:صاحب نابلس، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين،واقفة الشاميتين بدمشق، توفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السلطان به وبابن أخيه تقي الدين عمر، لأنهما ماتا في ليلة واحدة، وقد كانا من أكبر الأعوان، وأعز الأخوان، ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي التي أنشأتها له بمحله العوينة، وهي الشامية البرانية، وكانت وفاته بدمشق، وكان شجاعا مقداما

الأمير الكبير الصفي بن القابض: نائب دمشق، وكان من أكبر أصحاب السطان صلاح الدين قبل الملك، ثم استنابه على دمشق

وفي المرآة: الصفي بن القابض: وزير صلاح الدين، واسمه نصر

الله، وكان خـدم السلطان لما كان شحنة دمشق، وأمده بـالمال، فرأى له ذلك، فلما ملك استوزه وكان شجاعا ثقـةدينا أمينا، ولما نزل الفرنج داريا والسلطان في الشرق، جمع من أهل دمشق سـوادا عظيما، وخرج إلى ظاهر البلـد، فظنوهـم عسكرا ، فـرحلوا، وكـان كبير المعروف، وكتـب أملاكـه لمماليكه لأنه لم يكـن له ولد، وبنى بـالعقيبة مسجدا ودفن بـه في رجب، ويعرف اليوم بمسجـد الصفي، وكانت وفـاته في الثالث والعشريـن من رجب رحمه الله...

الملك المظفر تقي الدين عمر بن شـاهنشاه بن أيوب: كان عزيزا عند عمه السلطان صلاح الدين، استنابـه بمصر وغيرها من البلاد، ثم أقطعه حماه ومـدنا كثيرة معهـا حولها، ومـن بـلاد الجزيرة، وكـان سع عمـه على عكا، ثم استأذنه في الاشراف على بـلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها اشتغل وامتـدت عينيه إلى أخذ غيرها مـن أيدي الملوك الذيـن يجاورونه، فقاتلهـم، فاتفق مـوته وهو على ذلـك، والسلطان متغضب عليـه بسبب اشتغاله بذلك عنه.

وقال العماد الكاتـب: توفي الملك المظفر تقـي الدين عمر يـوم الجمعة التـاسع عشر مـن شهـر رمضان، وهـو على محاصرة مـلازكـرد من عمـل أرمينية، وكتم ولده الملـك المنصور ناصر الدين محمد وفـاته إلى أن أخرج من ذلـك الاقليم سـالما، وبعث إلى السلطـان يسألـه في ابقاء بـلاد أبيه بيده، فلم يجب السلطان إليه.

وقـال النويـري: قـد سار الملـك المظفـر تقي الـديـن عمر إلى البـلاد المرتجعة مـن كوكبوري التـي زاده إياهـا عمه السلطان مـن وراء الفرات وهـي حـران وغيرها، فـامتـدت عين الملـك المظفر إلى البـلاد المجـاورة، واستولى على سويـداء وحاني ، وتواقع مع بكتمر صـاحب أخلاط فكسره

وحصره في أخلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونزل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به حتى توفي يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، فأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه فدفنه بها بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة مشهورة هناك، وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبي، وكان عنده فضل أدب وله شعر حسن.

ثم أرسل الملك المنصور إلى السلطان صلاح الدين، واشترط عليه شروطا، نسبه السلطان فيها إلى العصيان، وكاد أمره يضطرب بالكلية، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماه، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها، وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء الى القدس شرفه الله، ولما استقر ذلك، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، فقررها وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، ولما قدم العادل على السلطان صلاح الدين كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور ابن تقي الدين عمر نهض واعتنقه وبكى وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره.

وقال بيبرس في تاريخه: توفي الملك المظفر تقي الدين بأرض أخلاط في حصار منازكرد، ودفن بميافارقين، ثم نقل إلى حماه رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، وصاحب مصر والشام وغيرهما من البلاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو مقيم في القدس الشريف في دار الأقساء بجوار قمامة، وقد قسم السور بين أولاده وأجناده، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بينه وبين قربوس سرجه، والناس يقتدون به والعلماء والفقراء ويعملون بأنفسهم والأفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان وما ماوالاها لا يتجاسرون أن يتقدموا من اليزك والحرس الذين للسلطان حول القدس، إلاّ أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الاسلام مجمعون، وهم والحرس تارة يغلبون وتارة ينهبون وتارة يُنهبون.

ذكر رحيل الفرنج إلى عسقلان

قال العماد الكاتب رحمه الله : رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها، وتشاوروا في اعادة عمائرها، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين في بعض أعمالها مجدين في نقل غلالها، وركب ملك الانكتار عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند ابليس، فشاهد دخانا على البعد، فساق متوجها إلى تلك الجهة، وتبعه عسكره، فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة بغتة، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار، وكانوا نازلين في موضعين، فلم ير العدو إلاّ أحد القسمين ، فقصده بحزبه، فعرف القسم الآخر بهجوم العدو، فركبوا إلى العدو فدفعوه من بين أيديهم، وساقوا أثقالهم قدامهم، وما فقد من المسلين إلاّ أربعة أنفس، ونجا الباقون وكانت نوبة عظيمة رفع الله خطرها.

ذكر السرايا الثلاث

بتاريخ يوم الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان صلاح الدين في

القدس على عادته في نقل الحجارة والجد في العمارة، ومعه أولاده الملوك والأمراء والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والأولياء، ولما دخل وقت الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك الظاهر بالصحراء، وأحضر فيها السماط ودعا ناسا من الأمراء فحضروا وأكلوا، وصلى السلطان الظهر هناك وركب عائدا إلى داره وأمر بتجهيز السرايا، فنزل عز الدين جرديك في سرية، فأغار بهم يوم الأربعاء الحادي عشر من من المحرم على يبنى وفيها الأفرنج بنية السكن، فغتموا اثني عشر أسيرا وخيلا ودوابا كثيرة.

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر أغارت السرية وفيها عز الدين جرديك وعسكر القدس وجماعة من المماليك على ظاهر عسقلان، وغنموا ثلاثين أسيرا وخيولا وبغالا.

وفي ليلة الأحد رابع عشر صفر باتت سرية فيها فارس الدين ميمون القصري بتل الجزر، وساروا حتى أصبحوا على يبنى وكمنوا وصبروا إلى أن استرسلت الأفرنج إلى الطريق وأمنت، ثم ظهرت السرية على قافلة الأفرنج فكبسوها وأخذوها بأسرها مع رجالها وأحمالها وبغالها وأثقالها، ثم أغاروا على يافا فقتلوا وهتكوا وغنموا وعادوا بالغنيمة والسبايا وعجزت جماعة من المشي فضربوا أعناقهم صبرا.

ذكر خروج سيف الدين بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

وفي ربيع الآخر دخل الأمير سيف الدين علي المذكور إلى السلطان بالقدس الشريف وقد خلص من الأسر، وكان أسر حين كان نائبا على عكا فافتدى نفسه منهم بخمسين ألف دينار، فأعطاه شيئا كثيرا منهم، ثم استنابه على نابلس فتوفي بها في شوال منها.

وقال العماد الكاتب: قرر سيف الدين علي المذكور قطيعة خمسين ألف دينار، فأدى منها ثلاثين وأعطى رهائن على عشرين، ووصل إلى

القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، فقام إليه واعتنقه وأقطعه نابلس وأعمالها، ثم عين السلطان ثلث نابلس لمصالح البيت المقدس وتشييد سوره.

ذكر عصيان الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين وماجرى له وعليه في ذلك:

وفي النوادر: ويوم وصول المشطوب كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل بأن يسير إلى الفرات ويتسلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف على نفسه من السلطان، وأظهر ذلك، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب، وكان قد سافر إليها: إنه إن احتاج أخوك إلى معاونة أعنه، وجهز السلطان صلاح الدين ولده الأفضل بجملة كثيرة، وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكراماً عظيماً،وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنية.

وأما الملك المنصور فإنه لما بلغه موجدة السلطان عليه أرسل إلى الملك العادل رسولاً يستشفع به ليطيب قلب السلطان ويعطيه إما حران والرها وسميساط، وإما حماه ومنبج وسلمية والمعرة، فراجع الملك العادل السلطان مراراً بسببه فلم يفعل ذلك، ثم كثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء، وهزت له شجرة الكرم، فرجع إلى خلقه الحسن، وحلف له على حران والرها وسميساط، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع المذكورة ويتخلى عن البلاد التي في يده، ودخل في هذا الضمان الملك العادل، ثم التمس العادل خط السلطان، فأبى وألح عليه، فخرق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، وانفصل الحال، وانقطع الحديث.

وقال قـاضي القضاة بهاء الديـن: كنت المتردد بينهما في ذلـك، وأخذ من السلطـان الغيظ كيـف يخاطب بمثـل ذلك مـن جانـب بعض أولاد أولاده.

قال القاضي: ثم أرسلني السلطـان إلى العادل والأمراء بأن يتشاوروا في أمر الملـك المنصور، فاجتمعـوا في خدمـة ا لعادل، فانتـدب الأمير حسام الديـن أبو الهيجـاء وقال: نحن عبيـد ا لسلطان ومماليكه، وذلـك صبي وربما حملـه خوفـه حتـى انضـاف إلى جانـب آخـر، ونحـن ما نقـدر على الجمـع بين قتـال المسلمين والكفـار، فـإن أراد السلطـان قتـال المسلمين يصالح الكفـار، ونسير نحن إلى ذلك الجانب ونقاتـل بين يديه، وإن أراد مـلازمة الغـزاة يصـالـح المسلمين ويسامحهـم، فـاتفـق الجميع على هـذا الكلام، فعنـد ذلك رق قلب السلطـان، وجددت نسخة يمين لابـن تقي الديـن، وحلف له بها، وأعطـى خطه بما استقـر من الأمر، ثـم إن العادل طلـب من السلطـان البلاد التـي كـانت بيـد ابـن تقي الـدين وتكـررت مراجعات العادل في ذلك.

قـال القاضي: وكنـت الـرسول بينهما، وكـان آخر مـااستقـر عليه أنـه يتسلم تلـك البلاد وينزل عـن كل ماهـو شامـي الفرات، ماعـدا الكرك والشوبك والصلـت والبلقاء وخاصته بمصر، وذلك بعـدأن قرر على نفسه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس، وأخـذ خط السلطـان بذلك، ثـم سار بنفسـه ليصلح ابـن تقي الديـن ويطيب قلبـه، وكان مسيره في الثامـن من جمادى الأولى مـن هذه السنة.

ثم إن السلطـان سير إلى الملك الأفضل يـأمره بـالعود من قصـد تلك البلاد، وكـان قد وصـل إلى حلب كما ذكـرناه، فعـاد مع انكسـار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشـق معتباً ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الأفـرنج سير إليه وطلبـه، فما وسعه التـأخر، فسار مـع من

وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق، وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم ان السلطان سير إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد، وكان قد وصل إلى حلب كما ذكرناه، فعاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشق معتبا ولم يحضر إلى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه، فما وسعه التأخر، فسار مع من وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة، فلقيه السلطان قريب العازرية، وترجل جبراً لقلبه وتعظيماً لأمره، وساروا في خدمته وكان فيهم أخواه الملك الظافر وقطب الدين إلى ظاهر القدس من جهة العدو.

وأما الملك المنصور فإنه قد تسلم البلاد التي عينها له السلطان، ووصل إلى خدمة السلطان الملك العادل يوم السبت الحادي عشرمن شعبان، فنزل عنده، ثم كتب العادل إلى السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه واكرامه، وطلاقة الوجه له، ثم إن المنصور لما قرب من السلطان استأذن ولده الظاهر في لقائه فأذن له في ذلك، فتلقاه في بيت نوبة، فنزل عنده وفرح بلقائه وأقام عنده إلى العصر، وذلك في يوم الأحد، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان، فدخل عليه واحترمه واعتنقه وضمه إلى صدره، ثم غشيه البكاء فبكى بكاء كثيراً حتى بكى الناس لبكائه ثم باسطه وسأله عن الطريق، ثم قام وبات في خيمة ولده الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين، ثم ركب وعاد إلى عسكره، ونشروا الأعلام والبيارق، وكان معه عسكر جميل، فقرت عين السلطان بذلك، وكان ذلك في صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من شعبان، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة، وكان قدوم الملك الظاهر إلى خدمة والده السلطان يوم السبت الخامس من رجب من هذه السنة، ونزل في دار الاسبتار، وفرح السلطان به.

ذكر هلاك المركيس صاحب صور لعنه الله:

وفي ثالث عشر ربيع الآخر يوم الثلاثاء، قتل المركيس لعنه الله، أرسل إليه ملك الانكتار اثنين من الداوية، فأظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتى ظفرا بالمركيس فقتلاه.

وقال العماد الكاتب فمسكهما الفرنج فوجدوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما: من وضعكما على هذا التدبير؟ فقالا: ملك الانكتار، وذكرا أنهما تنصرا منذ ستة أشهر، وكان خدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس، فبهذا الطريق وصلا إلى المركيس فقتلاه، ثم قتلهما الأفرنج أشر قتلة.

ثم لما قتل المركيس وذهبت روحه إلى الهاوية، استناب ملك ا لانكتار على صور ابن أخته الكندهري. وهو ابن أخت ملك الأفرنسيس لأبيه، فهما خالاه، ولما سار إلى صور ابتنى بزوجة المركيس بعد موته بليلة واحدة وهى حبلة أيضاً، وذلك لشدة العداوة التي كانت بين ملك ا لانكتار وبينه.

وفي النوادر: وكان المركيس تغدى يوم الثلاثاء المذكور عند الأسقف، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين، وكان خفيفاً من الرجال، فمازالا يضربان حتى عجل الله بروحه إلى النار، وقام بالأمر اثنان، فحفظا القلعة إلى أن اتصل الخبر بالملوك، واعتمدوا الأمر وتدبروا المكان.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان ملك الانكتار يراسل السلطان صلاح الدين في المصالحة والمسالمة كلما كان يرى أن المركيس يراسله ويهادنه، ثم لما هلك المركيس —لعنه الله— طاب قلب ملك الانكتار، وذهب خوفه، وقوي عزمه، وأرسل إلى السلطان في طلب المناصفة على البلاد سوى

القدس، فإنه للمسلمين، سوى القمامة، فلم يجب السلطان إلى ذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة داروم:

وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها، وأسروا طائفة من الداوية بها.

وقال العماد: وكانت قلعة داروم ضرراً عظيماً لما كانت مع الافرنج، فلما فتحها المسلمون تركوها وأملوها بالذخائر والرجال، وخربوا عسقلان وغزة دون داروم، وتسلمها علم الدين قيصر علي أن يحفظها، فلما شرع الافرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا إليها مراراً وأشرفوا عليها، وأنفق السلطان على جماعة وقواها بهم، ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم واشتد زحفهم عليها عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أحدثوا فيها نقباً، فطلب أهلها الأمان فلم يجابوا، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا، ولما عرف الوالي أنهم مأخوذون عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعقرها، وإلى الذخائر فأحرقها وفتحوها بالسيف وأسروا منها عدة يسيرة، ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها، ورحلوا عنها ونزلوا على منزل يقال له الحسي وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام، وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، ثم تركوا خيامهم وساروا قصدهم قلعة هناك يقال لها مجدل جناب، فخرجت عليهم أسد اليزكية المكمنة في الغاب فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير، وعادوا مفلولين مخذولين، ثم رحل الافرنج من الحسي يوم الأحد سابع عشر الشهر المذكور، وتفرقوا فرقتين: بعضهم عاد إلى عسقلان، وبعضهم جاءوا إلى بيت جبرين.

ذكر قصد الافرنج بيت المقدس شرفه الله:

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور نزلت الافرنج

بجموعهم الوافرة بتل الصافية، ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون، فأرجفت الألسن على أنهم على قصد بيت المقدس، ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة، وأمر السلطان صلاح الدين رحمه الله بنقل الأزواد، وفرق الأبراج على الأمراء والأجناد، وكان قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدو، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون فوقف عليهم عسكر للعدو وأخذوهم، وهرب منهم ستة نفر، فوصلوا إلى السلطان وأخبروه بالخبر، ووصلت الجواسيس وأصحاب ا لأخبار من جانب العدو أنهم مقيمون بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب، فإذا حصل عندهم مايحتاجون إليه قصدوا القدس، وكان السلطان رحمه الله قد سير إلى العساكر من سائر الأطراف يسابقون إلى الحضور، وكان أول من قدم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان، ولقيه السلطان وأكرمه، ثم وصل بعده عز الدين ابن المقدم بعسكر حسن وأطلاب جيدة، ثم أمر السلطان بخروج العسكر إلى البدو، فخرجوا إلى خيامهم يتخطفونهم وجرت وقعة بعد وقعة، وكبسوهم كبسة بعد كبسة، وكان الأمير دلدرم صاحب تل باشر في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين، فبعث من أصحابه إلى طريقهم من يافا، فجازت بهم فرسان من الفرنج، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا، وفي يوم السبت سلخ الشهر نزلت الناس إليهم وقاتلوهم في خيامهم، وركب العدو وساق إلى قلونية، وهي ضيعة من ضياع القدس على فرسخين، ثم عادوا بائدي الشأن بادين الشين وعساكر الموحدين قد ركبوا أكتافهم ورجعوا سالمين.

وفي النوادر: وكان طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة إلى العدو، فأمر السلطان من في اليزك أن يعملوا معهم مايمكنهم، وكان في اليزك بدرالدين دلدرم، فكمن حول الطريق كمينا فيه جماعة جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة، فحمل عليهم وجرى قتال

عظيم فقتلوا منهم ثلاثين نفراً، وأسروا جماعة، ووصلت الأسرى يوم السبت تاسع وعشرين جمادى الآخرة، وخرجت الأتراك على جماعة منهم فأخذوا منهم وقتلوا، وجرحت من الأتراك جماعة.

ذكر كبسة الأفرنج على عسكر مصر الواصلين

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله يدعوهم نجده لأهل القدس على أهل الكفر، فضرب العسكر خيامهم على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق، وانضم إليهم التجار، وللفرنج جواسيس يجسون الأخبار ويعرفون ملكهم بذلك، وجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أن العدو ملك الانكتار ركب في سبعمائة فارس مردفين بألف راجل، وسار عصر يوم الأحد، ولايدري أي جانب قصدوا، فجرد السلطان أميراً وعدة من العادلية، وأمرهم أن يأخذوا في طريق البرية فعبروا على ماء الحسي قبل وصول العدو إليه، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين أخو العادل لأمه، ولم يسأل عن المنازل والمراحل، وقصد أقرب الطرق، وترك الجمال على طريق أخرى سائرة، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة، ونادى تلك الليلة: إنا جزنا مظان المخافة فلا رحيل إلى الصباح، فاغتر الناس بذلك وناموا مغفلين فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة التامة وبغتوهم بغتة، فركب كل منهم الى وجهة، ومنهم من ركب فرسه عريانا، فتفرقوا في البرية وعاد معظمهم إلى مصر، وفيهم من عاج إلى طريق الكرك، فأخذ الكفار جمالاً لاتعد وأحمالاً لاتحد.

وقال ابن كثير: فكبسوهم ليلا وقتلوا منهم خلقا كثيراً، وأسروا منهم خمسمائة أسير، وغنموا شيئاً كثيرا من الأموال والجمال والبغال والخيل، وكانت جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير، والتجار الذين معهم نهبوا كلهم فتقوى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً.

وفي النـوادر: وكان السلطـان قـد أوصـى عسكر مصر بـالاحتراز عنـد مقاربة العـدو، وكانت معهم قـوافل كثـرة، واتصل خبرهـم إلى العـدو من العرب المفسـودين، وركب اللعين ملـك الانكتار في ألف راكـب مردفين بألف راجل، وسـار حتى أتى تل الصافية فبات وعلـق على خيله فيه ثم سـار حتى أتـى ماء يقـال له الحسي، وكـان السلطان قـد أرسل جماعـة وصلـوا إلى الماء المذكور قبـل العدو، لكـن لم يقيموا عليـه، وساروا حتـى اتصلوا بالعسكـر المصري والقوافل، ثم قصدوا قرب الطـريق، فساروا إلى أن وصلوا إلى ماء يقـال له ا لخويلفة، وتفرق النـاس لأجل الماء، فأخبرت العرب العدو بذلك، وهـم نازلـون برأس الحسي، فقاموا من وقتهم وسروا حتى أتـوهم قبيـل الصبح فكبسـوا عليهم، وكـان الشجاع القـوي الذي ركـب فرسـه ونجا بنفسـه، وانقسم القفـل ثـلاثة أقسـام: قسم قصـدوا الكرك مـع جماعة مـن العرب، وعسكـر الملك العـادل، وقسم أوغلـوا في البرية مع جماعة من المذكوريـن كحسين ا لجرا حي، وفلك الدين وبني الجاولي وآخريـن، وقتل من العدو زهـاء مائة فارس، وقيل لم يقتـل سوى عشرة أنفس، ولم يقتل مـن المسلمين المعـروفين سـوى الحاجب يـوسـف وابن الجاولي الصغير، وتفـرق الناس في البرية ورموا أمـوالهم، وجمع العدو مـا أمكنهـم جمعـه مـن الخيل والبغـال والجمال والأقمشـة، وسـائر أنـواع الأموال، وكلف ملك الانكتار الجمالين بخدمـة الجمال والخربندية بخذمة البغـال والساسـة بخـدمة الخيـل، وسار في جحفـل مـن الغنيمة يطلـب عسكره، فنزل على الخويلفـة وسقى منها دوابه، ثم سـار حتى أتى الحسي وكانت هـذه الوقعة صبيحة يوم ا لثلاثـاء الحادي عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ووصـل الخبر إلى السلطان في عشيـة ذلـك اليـوم بعد عشـاء الآخـرة، وكنت جالسـاً في خدمته، فما مرّ بالسلطان خبر أ نكـى منه في قلبه، ولا أكثر تشويشـاً منه لباطنه، وأخـذت في تسكينه وهو لايقبل ذلـك، ولكن يقول: الأمر كله لله ويكرر ذلك.

قال: وكـان وصول العدو إلى مخيمهم في سـادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم أظهروا فيـه من السرور والفرح مالايمكن وصفه، وأعادوا خيـامهم إلى الوطـأة على بيت نوبـة، وصح عزمهـم على القدس، وقويـت نفوسهم بما حصل لهم مـن الغنائم والأشياء الواصلـة من مصر، ورتبـوا جماعـة على لـدّ يحفظـون الطـريـق على مـن ينقـل الميرة، وأنفـذوا الكنـدهري إلى صور وطرابلـس وعكا يستحضر مـن فيها مـن المقاتلـة ليصعدوا إلى القدس.

وفي المرآة: وكانـوا قد قصدوا أن يسيروا إلى مصر، ثـم عادوا عـن ذلك وقووا عزمهـم على القدس، واستدعوا الفـارس والراجل فاجتمـع عندهم خلق عظيم، فساروا إلى بيت نوبة.

ذكر تصميم الأفرنج على محاصرة القدس:

ولما جرى مـاذكرنـا شاور السلطان الأمـراء في القدس وقـال لهم: أنتم جند الاسـلام ومنعته، ودمـاء المسلمين وأموالهم وأهـاليهم متعلقـة بكم، فإن جبنتم طووا البـلاد طياً وكنتم المطالبين بذاك، فقالـوا: نحن مماليكك ومـانطير رؤوسنـا إلاّ بين يـديـك، وافترقوا على هـذا، ثـم تهيـأ السلطـان لذلـك، وأكمل السور، وعمق الخنـادق، ونصب الآلات والمجانيـق، وأمر بتغويـرماحول القـدس من المياه، ثم أحضر الأمـراء ليلة الجمعة التـاسع عشر من جمادى الآخـرة وفيهم أبو الهيجـاء السمين والمشطوب والأسـدية بكمالهم فاستشارهم السلطان فيما قد دهم مـن الأمر الفظيع، فأفاضوا في الكلام، وأشار كـل برأي، وأشار العماد الكاتب بـأن يتحالفوا على الموت عند الصخـرة كما كانـت الصحابـة رضي الله عنهم يفعلـون، فأجـابوا إلى ذلك كلهم، هذا كله والسلطان ساكـت واجم مفكر، فسكت القوم حتى كـأن على رؤوسهـم الطير، ثـم قال: «الحمـد لله والصـلاة على رسـول الله، اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم، وليـس لهذا العدو من يلقاه غيركم، فإن

طويتم أعنتكم — والعياذ بالله — طووا البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، وأكلتم بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»، فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وأعطيتنا وأعنتنا، وليس لنا إلاّ رقابنا، وهي بين يديك، والله مايرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت بين يديك، فقال بقية القوم مثلما قال: ففرح السلطان وطاب قلبه، ومدّ لهم سماطاً حافلاً، وانصرفوا من بين يديه على ذلك، ثم بلغه بعد ذلك عن بعض الأمراء أنه قال: إنا نخاف أن يجري علينا في هذه البلدة كما جرى في عكا، ثم يأخذون بلاد الاسلام بلداً بلداً، والمصلحة أن نلقاهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم وإن تكن الأخرى سلم الله العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الاسلام بدون القدس مدة طويلة، وكان مما بعثوا إلى السلطان يقولون: إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصر الأفرنج فتكون أنت معنا أو بعض أهلك حتى يكون الجيش تحت أمره، فإن الأكراد لايطيعون الترك، والترك لايطيعون الأكراد، فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة وبات ليلة ذلك أجمع مهموماً كئيباً يفكر فيما قالوا: ثم انجلى الأمر واتفق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيماً عندهم نائباً عنه بالقدس الشريف، وكان ذلك نهار الجمعة، فلما حضرت صلاة الجمعة وأذن المؤذنون قام فصلى ركعتين بين الأذانين وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيماً، وتضرع لديه وتمسكن وسأله فيما بينه وبينه في كشف هذه الضائقة العظيمة.

وفي المرآة: وبعد افتراق الأمراء من عند السلطان بعد المشاورة اختلف الأمراء في الليل، فقال بعضهم: مانقيم حتى يكون السلطان معنا، نخاف أن يجري علينا ماجرى على أهل عكا.

وبلغ السلطان ذلك فبعث إليهم يقول: هذا مجد الدين بن فرخشاه

ابن أخـي يكون عندكـم، وأكون أنا مـن برا أذب عنكـم، فقالوا: مـاهذا برأي، وإنما نخـرج ونصدقهـم الحملة فـان قهرنـاهم وإلاّ سلـم العسكر ونمضي إلى دمشـق، فعزّ عليه ذلـك خـوفاً على القـدس ومن فيـه مـن المسلمين، وبات ليلة الجمعـة ساجداً باكيـاً متضرعاً، وبعث بالصـدقات إلى الفقراء، وطلع الفجـر فجلس إلى الضحى يدعـو، ومضى إلى المسجد الأقصى فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع إلى الله تعالى.

وكان جـرديك في اليـزك فجاءت منه رقعـة يقول: قـد ركبوا بـأسرهم، وبات السلطـان ليلة السبت قلقـاً ماعـرف المنام، فلما طلع الصبـاح جاء جـرديك مسرعـاً فقـال للسلطان: يهنيـك رحلوا خلـف الـرملة، فسجـد السلطان وانكشفـت أخبارهـم وسبب رحيلهم أن السلطـان كان قـد أمر بطـم الصهاريـج والآبـار التـي كانـت حـول القـدس، فقال لهم ملـك الانكتار: مـن أين نشرب؟ قـالوا: من العيـون التي حـول القدس قـالوا: يتخطفوننا.

وقال صـاحب النـوادر: قالوا: نشرب مـن نهر تقوع بينـه وبين القدس مقدار فـرسخ، فقـال الملك: كيـف نذهـب إلى السقي؟ فقـالوا: ننقسـم قسمين: قسم يـركب إلى السقـي مع الـدواب، وقسم يبقـى على البلد في المنـزلة، ويكـون الشرب في اليـوم مرة، فقـال الملـك: إذا يـأخذ العسكـر البراني الـذي يـذهـب مـع الـدواب، ويخرج عسكـر البلـد على البـاقين، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم، وحكـم الاثني عشر ثلاثة على عادتهم في النوازل، فبـاتوا يتشـاورون، فرجح عنـدهم الرحيـل، وقالـوا: السلطان حاضر ومعه العساكر فارحلوا فرحلوا.

وفي تـاريـخ ابـن كثير: ولما كان يـوم السبـت الحادي والعشريـن مـن جمادى الآخـرة جـاءت الكتـب مـن الحرس حول البلـدان بـأن الفـرنـج

اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس، فقال ملك الافرنسيس: إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس وقد بقي بيننا وبينه مرحلة، وقال ملك الانكتار: إن هذا البلد يشق علينا حصاره لأن المياه قد عدمت، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء تعطل أمر الحصار، ثم اتفق الحال بينهم على أن حكموا [٢٧] ، إلى آخر ماذكرناه، فرحلوا صوب الرملة.

وقال في النوادر: وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة، وعلى أعقابهم ناكصين، ووقف عسكرهم شاكين في السلاح إلى أن لم يبق في المنزلة إلاّ الآثار، ثم نزلوا بالرملة، وتواتر الخبر بذلك، وركب السلطان والناس، وكان يوم سرور وفرح.

ذكر بروز السلطان بجيشه إلى خارج البلد

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس، وسارنحوهم خوفاً من أن يسيروا إلى الديار المصرية لكثرة مامعهم من الظهر والأموال، وكان ملك الانكتار لعنه الله يلهج بذلك كثيراً فخذلهم عن ذلك، وترددت الرسل من ملك الانكتار إلى السلطان في طلب الصلح، ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر، وأن يعيد إليهم السلطان عسقلان، ويهب لهم أكبر كنيسة ببيت المقدس، وهي القمامة، وأن يمكن الزوار من النصارى والحجاج إليها بلا شيء، فامتنع السلطان من اعادة عسقلان، وأطلق لهم قمامة، ولكن فرض على الزوار مالاً يؤخذ من كل منهم، فامتنع ملك الانكتار إلاّ أن تعاد إليهم عسقلان ويعمر سورها كما كان، وصمم السلطان على عدم الاجابة.

وقال صاحب النوادر: ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو، حضر رسول الكندهري فقال: إن ملك ا لانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية،

وهـي الآن لي فأعـد عليّ بـلادي حتـى أصالحك، و أكـون أحـد أولادك، فغضـب السلطـان لـذلـك غضبـاً شـديـد بحيـث أنـه أراد أن يبطـش بالرسول، فـأقيم من بين يديه، ولما كان يوم الثـالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الـرسول، وكان جوابـه بأن يكون الحديث بيننـا في صور وعكا على ماكان من المركيس.

ذكر فتح السلطان مدينة يافا

ثم ركب السلطان في جيشـه العزيز حتى وافى يافا، فحـاصرها حصاراً شديداً فافتتحهـا وغنم جيشه منها شيئا كثيراً، وامتنعت القلعـة، فبالغ في أمـرها حتـى هـانت ولانـت ودانت، وكـادوا أن يبعثـوا إليه بـأقـاليدهـا ويأخذوا الأمان لكبيرها ووليدهـا، إذ أشرفت عايهم مراكب الانكتار على و جه البحر، فقويت رؤوسهم واستصعبـت نفوسهم، وهجم اللعين ملك الانكتار فـاستعاد البلـد إليه وقتل مـن تأخـر بها من المسلمين صبراً بين يديه، وتقهقـر السلطان من منزلـة الحصار إلى ماورائها خـوفاً على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الانكتـار يتعجب من شدة سطوة السلطان كيـف فتـح مثـل هـذا البلد العظيـم في يـومين وغيره لايمكنـه فتحـه في عـامين، ثـم ألـح في طلـب الصلـح على أن يكـون عسقـلان داخـلاً في الصلح فامتنع السلطان من ذلك أشد الامتناع.

وفي المرآة: أقـام السلطـان بـالقدس حتـى يتيقـن وصـولهم إلى عكـا، وخرج فنزل على يـافا وحصرها وتعلق النقابون في الأسـوار، وملك المدينة، وأشرفوا على أخـذ القلعة، فصـاح أهلها الأمـان، ونهب المسلمون البلـد، فوقف ممـاليك السلطان على الأبواب، كل من خـرج ومعه شيء أخذوه، وعز ذلـك على الأمراء والأكـراد، وسلموا القلعـة، وبعث السلطـان إليها جماعة مـن أصحابـه، وبقي فيهـا من الفـرنج أربعـون رجلاً، وبينما هـم كذلك إذ لاحت مـراكب كثيرة فتوقفوا، وقويت نفوس الافـرنج الذين في

القلعة، وعلموا أنها مراكب الانكتار، فرمى واحد نفسه في الماء وسبح إليهم وقال: تقدموا، فأرسوا إلى الميناء، وكانت خمسة وثلاثين مركباً، فهرب المسلمون من البلد، وتأخر السلطان إلى يازور، وجاء الانكتار فنزل في منزلة السلطان، ولم يكن معه سوى عشرين فارساً وثلاثمائة راجل، وعشرين خيمة، والسلطان في ألوف، فبعث إلى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ومعك هذا الجيش الكثير، ومعظم عساكر المسلمين فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي وليس معي أحد، فغضب السلطان، وبات على غضب، فلما أصبح ركب وركبت العساكر وملك الانكتار نازل على حاله لم يصل إليه من الافرنج أحد، فحمل عليه المسلمون، وهو في عشرين فارساً وثلاثمائة راجل فلم يتحرك، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة؟! فلم يجبه أحد، وقال له الجناح: قل لعلوقك الذين ضربوا الناس بالأمس، وأخذوا كسبهم، ويقال إن ملك الانكتار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة، فلم يعترض أحد، وساق السلطان من حينه إلى النطرون ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد، فلم يتجاسر أحد أن يكلمه وجاءت رسل الملك في طلب الصلح.

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان ملك الانكتار نازلاً في منزلة السلطان على ماذكرنا، كبس في بعض الليالي ملك الانكتار وهو في سبعة عشر فارساً، وقليل من الرجالة، فأركب السلطان بجيشه حوله وحصره حصراً لم يبق له منه نجاة لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا عن الحملة، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض عن شرب الدواء، هذا وملك الانكتار لعنه الله قد ركب في أصحابه، وأخذ عدة قتاله وحرابه، واستعرض الميمنة من أولها إلى آخر الميسرة فلا يتقدم إليه منهم أحد من الفرسان، ولايهش في وجهه بطل من الشجعان، فعند ذلك كر السلطان راجعاً، ثم حصل لملك الانكتار بعد ذلك مرض شديد، وبعث إلى السلطان يطلب منه

فاكهـة وثلجاً، فـأمده السلطـان بذلـك فتوة وكـرماً، ثـم عوفي لعنـه الله، وتكررت رسلـه إلى السلطان لأجل الصلح، وذلـك لكثرة شوقـه إلى بلاده (٢٨).

وعن قريب نذكر المراسلات واستقرار الصح إن شاء الله تعالى.

وذكر في النوادر: في فتح يافـا ماملخصه: أن السلطان رحمه الله بلغه في العـاشر من رجـب أن الافرنـج قـد رحلوا طـالبين نحو بيروت، فبرز مـن القـدس إلى منزلـة يقـال لها الجيـب، وكان ولـده الملـك الظـاهر غـازي صاحـب حلب قـد قدم إليه يـوم السبت الخامس مـن رجب، ثـم رحل السلطان من الحبيب إلى بيت نوبة، ثـم رحل يوم الأحد ثالث عشر رجب إلى الرملـة، فنزل بها ضحـوة النهار على تلال بين الـرملة ولـدّ، وأقام بها بقيـة يوم الأحـد، ولما كانـت صبيحة يـوم الاثنين الرابـع عشر من رجـب ركب جـريدة حتى أتـى يازور وبيت دجـن وأشرف على يافا،ثـم عاد إلى منزلته وأقـام بها بقية يوم، ولما كان صبـاح يوم الثلاثاء الخامـس عشررحل إلى نحـو يافـا فخيم عليهـا ورتـب العسكر ميمنـة وميسرة وقلباً، وكـان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل، والعساكـر فيما بينهما، وزحفوا يـوم السادس عشر وأخـذ النقابـون النقب من شمالي الباب الشرقي في الزاوية طول البـدنة، وكان المسلمون قد هدوا ذلك المكان في الحصـار الأول، وبناه الأفرنج، ودخل النقابـون فيه، وكان الملك في عكـا قد توجـه إلى نحو بيروت، وهذا الـذي حمل السلطان على نزوله على يـافا، وأقام السلطان تلـك الليلة هناك إلى أن مضى مـن الليل مقـدار ثلثـه، وعـاد إلى المنـزلـة، ولما أصبـح السلطـان عـزم على القتـال. فقاتلوه، وجرح من المسلمين جماعة بالنشـاب والزنبورك من البلد، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلج والي بعلبك، وأصيـب بعينه، وطغرل التاجر وقد استقـر في وجهه، وهما مـن خواص المماليـك ، وإيـاز جركـس وهو مـن كبارهم، ولما رأى العدو المخذول ماحل بـه أرسل رسولين نصرانياً وفرنجياً

يطلبان الصلح، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس قطيعة، فأجابوا إلى ذلك، ولكن اشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت التاسع عشر من رجب فإن جاءتهم نجدة وإلاّ تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الانتظار وصمم على القتال والمضايقة، ولم يزالوا يقاتلون في ذلك اليوم إلى أن فصل الليل بينهم، ولم يقدر السلطان على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقوب في البدنة، وضاق صدره وندم على عدم اجابته للصلح، ولما كان يوم الجمعة الثامن عشر من رجب زحف السلطان وزحف ولده الظاهر زحفاً شديداً، وزحف العادل في الميسرة فإنه كان مريضاً، وارتفعت الأصوات وضربت الكوسات، وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات، ووقعت تلك البدنة، وانفتح الطريق، ولما رأى العدو ذلك أرسلوا رسولين إلى السلطان يطلبان الأمان، فقال: قولا لهم يتجاوزوا إلى القلعة ويتركوا البلد، فدخل الناس البلد ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش من نهبهم من القافلة المصرية.

ولما كان عصر يوم الجمعة جاء إلى السلطان كتاب من قايماز النجمي، وكان في طرف الغور لحمايته من العدو الذي في عكا، يخبر فيه أن ملك الانكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد إلى قصد يافا، ولما كان سحر تلك الليلة سمع المسلمون بوق الفرنج وقد نعق، فعلموا بوصول النجدة، وكانوا نيفاً وخمسين مركبا منها خمسة عشر شيني، فوهب رجل من أهل القلعة نفسه للمسيح، وقفز من القلعة إلى الميناء وكان رملاً، فلم يصبه شيء، واشتد عدواً حتى أتى البحر فجاء له شيني فأخذه الملك فأخبره بالخبر، ولما تيقن الملك أن القلعة ما أخذت، اندفع يطلب الساحل، وان أول شيء ألقى من فيه إلى البر شينى الملك، وكان أحمر وقبته حمراء وبيرقه أحمر وكان رنكه، ثم نزل كل من في الشواني إلى الميناء.

قال القاضي بهاء الدين: هذا كله وأنا شاهد ذلك، وكان تحتي فرس

فسقت حتى أتيت إلى السلطان، وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم حتى يكتب لهما الأمان، فعرفته في أذنه ماجرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان إلاّ ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان، فصاح في الناس فركبوا، وقبض على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، وبقي السلطان جريدة إلى الليل، وبات في ليلته هناك، وخرج ملك الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي وأيبك العزيزي، وسنقر المشطوب، وبدر الدين دلدرم وغيرهم، وكان قد صادقهم، فقال لهم: إن هذا السلطان عظيم، ومافي الأرض في الاسلام أكبر منه ولا أعظم، كيف رحل عن مكانه بمجرد وصولي، والله مالبست لأمة حربي، وليس في رجلي إلا زربول البحر؟! ثم قال لأبي بكر: بالله عليك سلم على السلطان، وقل له يجيب إلى صلحي، فهذا أمر لابد منه في الأخير، وقد هلكت بلادي وراء البحر، ومادوام هذا مصلحة لالنا ولالكم، وجاء أبو بكر وعرف السلطان بذلك، وكان ذلك في أواخر يوم السبت التاسع عشر من رجب، فلما سمع السلطان أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على كون الجواب: انك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت عسقلان، وهذه يافا خربت أيضاً، فيكون لك من قيسارية إلى صور، فمضى إليه وعرفه ماقال فرده إليه ومعه رسول فرنجي، وان يقول الملك:إن قاعدة الفرنج إنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تابعا له وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين: يافا وعسقلان، وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، وكان جواب السلطان رحمه الله: حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن تجعل البلد قسمين: أحدهما لك وهو يافا وماوراءها، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها، ثم سار الرسولان ورحل السلطان وكان بيازور، ورتب اليزك بها والنقابين وأمر بخرابها وخرب بيت دجن، وسار حتى أتى الرملة

فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر، فأمر باكرامه، وكانت الرسالة الشكر من الملك على إعطائه يافا، وتجديد السؤال في عسقلان، ويقول له: إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي هاهنا، فأجابه السلطان: أما النزول عن عسقلان فلاسبيل إليه، وأما تشتيته فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت منه بالضرورة، وإذا سهل عليه أن يشتي هاهنا وهو بعيد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين، وهوشاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، أما يسهل عليّ أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي ويحضر إلي ماأريده ومن أريده، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي عندي في الشتاء يكون غير العسكر الذي يكون في الصيف، ومع هذا أنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولاأزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، فلما سمع الرسول ذلك طلب ان يجتمع بالملك العادل، فأذن له في ذلك، فسار إلى خيمته، وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه على موضع يقال له مارخوان.

ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد، فجمع أرباب الرأي للمشورة، فوقع الاتفاق على قصدهم جريدة، ويرحل الثقل إلى الجبل، فأمر الثقل بالرحيل في عشية يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب، وسار هو رحمه الله جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها، وأن الملك فد نزل خارج يافا بنفر يسير وخيم قليلة، فوقع له أن يكبس عليه، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تقدمه إلى أن أتى وقت الصباح إلى خيام العدو، فوجدها يسيرة مقدار عشر خيم، فداخله الطمع، وحمل عليهم فلم يتحركوا من أماكنهم ودار السلطان على الأطلاب بنفسه يحثهم فلم يجب أحد إليه سوى ولده الملك الظاهر فإنه تأهب للحملة فمنعه، فلما رأى

السلطان ذلك رأى أن وقوفه وحده خسارة، فأعرض عن القتال، وسار حتى أتى يازور وهو مغضب، فنزل بها ذلك يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب، ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى النطرون فنزل به فأرسل إلى العسكر فحضروا عنده يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب فبات به، ثم أصبح يوم الجمعة، وسار إلى الملك العادل يفتقده، ودخل القدس وصلى الجمعة به، ونظر إلى العمائر ورتبها ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون.

وقدمت إليه العساكر، فأول من وصل علاء الدين ابن أتابك صاحب الموصل فتلقاه السلطان ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من رجب، فأكرمه وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له تقدمة جليلة، ثم سار إلى خيمته وأقام السلطان بالنطرون، ولما كان يوم الخميس التاسع من شعبان قدم عسكر مصر وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة من الأسدية، وكان في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، وكان يوما مشهودا، ثم أنزلهم عنده ومد الخوان، ثم ساروا إلى منازلهم، ثم قدم الملك المنصور بن تقي الدين في صبيحة يوم الاثنين ثالث عشر شعبان، ونزل في مقدمة العسكر، ولما رأى السلطان أن العساكر قد تجمعت، جمع أرباب الرأي وقال: إن ملك الانكتار مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد رجعوا إلى بلادهم، ونفقاتهم قد قلت، وأصبح يوم الخميس راحلاً إلى جهة الرملة.

ذكر كتاب الصلح

لما رضي ملك الانكتار بمارسم به السلطان صلاح الدين كتب كتاب الصلح في الثامن عشر من شعبان، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم وأسقف وجاثليق، وحلف الأمراء من المسلمين وكتبوا خطوطهم، واكتفي من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحاً عظيماً.

وفي تاريخ النويري:واستقر أمر الهدنة يوم السبت الثامن عشر من شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذروا بأن الملوك لايحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته على الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان، ومعهما جماعة من المقدمين،وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل والملكين: الأفضل والظاهر ابني السلطان صلاح الدين، والملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين ـلدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها ايلول الموافق لحادي عشرين شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج: يافا وعملها وقيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط السلطان دخول الاسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الافرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، واستقرت القاعدة على ذلك، وأرسل السلطان مائة ألف نقاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان واخراج من بها من الأفرنج والألمان.

ذكر توجه السلطان إلى القدس

ثم لما تمّ هذا الأمر رحل السلطان إلى القدس في اليوم الرابع من شهر رمضان، وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل كنيسة تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الاسلام دار علم قبل

أن يملك الأفرنج القدس ثم لما ملـك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربعـائة أعادوهـا كنيسـة كما كانـت قبـل الاسـلام، فلما فتح السلطـان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد رحمه الله، وأمـر بأن تجعـل الكنيسـة المجاورة لـدار الاسبتـار بقرب قمامـة مارستـانا للمرضـى، ووقف عليها مواضـع، وسير أدوية وعقاقير عـزيزة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القـاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المذكور.

ثـم عـزم السلطـان رحمه الله على أن يحج عـامـه هـذا مـن القـدس فكتب إلى الحجـاز واليمـن والـديار المصريـة والشـاميـة ليعلمـوا ذلـك وليتـأهبوا لـه، وكـان أخـوه سيف الاسـلام في اليمـن، وكتـب إليه أيضـاً بذلـك، ثم فنـده الأمراء، وكتـب إليه القـاضي الفاضـل ينهاه عـن ذلك خـوفـاً على البـلاد مـن استيـلاء الأفرنـج عليهـا، ومـن كثـرة المظـالم بها والفساد، وذكـر أن النظر في أ حـوال المسلمين واصلاح أمـرهم ومصـابرة عـدوهم أفضـل ممـا نوى والعـدو المخذول مخيـم بعـد في الشام، فسمـع السلطان منه وشكره على نصحه وعزم على ترك الحج عامه ذلك وكتب به إلى سائر الممالـك، واستمر السلطـان مقيما بالقـدس جميع شهـر رمضان، وكلما وفـد أحد رؤسـاء النصارى للـزيـارة أولاه غايـة الاكرام والاحسـان تأليفاً لقلـوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان، ورغبة أن يـدخل في قلوبهم شيء من الايمان، ولم يبق أحـد من ملوكهم إلا جاء لزيـارة قمامة متنكراً، ويحضر سماط السلطـان فيمـن يحضر مـن جمهـورهـم بحيـث لايـرى، والسلطان يعلم ذلك جملة وتفصيلا، لهذا يعاملهم بالاكرام والاحسان.

ذكر خروج السلطان من القدس على عزم دمشق

ثم إن السلطـان رحمه الله فوض ولاية القـدس الشريف إلى عز الـدين

جرديك ووصاه بتهذيب الأمور، والأخذ بالحزم في كل شيء، وكان فيه كفاية وشهامة وديانة، وكان الوالي قبله حسام الدين سياروخ وكان فيه دين ولين، وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وماوالاها، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة والعمران، وكان السلطان قد أعطى دستوراً للعسكر حين تم أمر الصلح، فكان أول من سار عسكر إربل فانهم ساروا في مستهل شهر رمضان، ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن، وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة ثم انصرف عائداً إلى الكرك لينظر في أحواله ثم يعود إلى بلاده الشرقية ليدبرها، فإنه كان أخذها من السلطان، وودع السلطان، فلما وصل إلى العازرية ونزل بها، أتى إليه من أخبره أن رسولاً من بغداد واصل إليه، فانفذ إلى السلطان وعرفه، وذكر أن يجتمع به، ثم جاء إليه يوم السبت الرابع والعشرين منه، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة وزارة بغداد، ومضمون كتابه أنه يستعطف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة، والانكار عليه في تأخر رسله عن العتبة الشريفة، وأن يسير القاضي الفاضل إلى الديوان في تقرير قواعد بينه وبين السلطان، ووعد العادل شيئاً كثيراً إذا قرر ذلك، ولما سمع السلطان ذلك كره انفاذ رسول يسمع كلام الديوان، ووقع كلام كبير بين السلطان والعادل ثم قوي عزم السلطان على انفاذ الضياء الشهرزوري، وعاد العادل إلى مخيمه بالعازرية، وعرف الرسول بما وقع عند السلطان، ومن اجابته إلى انفاذ الرسول، ثم سار العادل يوم الاثنين طالباً جهة الكرك، وسار الضياء متوجهاً إلى بغداد يوم الثلاثاء سادس عشرين رمضان، وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين منه توجه الملك الظاهر بن السلطان إلى جهة حلب بعد أن أوصاه السلطان بالتقوى فانها رأس كل خير، وبالبعد عن سفك الدماء ومظالم الناس.

وفي الليلة الخامسة من شوال من هذه السنة سار الملك الأفضل بن السلطان متوجهاً إلى دمشق، ثم إن السلطان رحمة الله عليه لم يزل ينظر في أحوال الناس، ويعطي اقطاعات لأناس ودستوراً لآخرين، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكتار متوجهاً إلى بلاده مستهل شوال، فعند ذلك حرر عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ثم يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل، ثم يعود إلى القدس ويزوره، ثم يسير إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها، وينظر مصالحها.

قال القاضي بهاء الدين: وأمرني بالمقام بالقدس لعمارة مارستان أنشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، ثم خرج السلطان من القدس ضحوة نهار الخميس السادس من شوال من هذه السنة.

قال القاضي: وودعته إلى البيرة، وهي قرية بين القدس ونابلس، ونزل بها وأكل فيها الطعام، ثم رحل منها وبات على بركة الداوية، ثم نزل على نابلس ضحوة نهار الجمعة السابع من شوال، وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها، وأنه زاد في رسومها ونوائبها، فأقام بها السلطان إلى ظهر يوم السبت الثامن من شوال حتى كشف مظالمها، وأسقط رسومها الجائرة، ثم رحل بعد الظهر ونزل بسبسطية وتفقد أحوالها.

قال ابن كثير: وبات ليلة الأحد عند عقبة ظهرحمار بموضع يعرف بالفرنديسة، وأصبح راحلاً ونزل ضحوة نهار الأحد على جينين وهناك ودعه المشطوب وداع الأبد، فإنه توفي بعد أيام، ثم رحل يوم الاثنين وجاء ضحوة إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية، فقال: الصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب، ولم يزل حتى بين كيفية بنائها، ثم رحل الظهر وبات على قلعة كوكب، ورحل عنها ضحوة الثلاثاء

ونزل بطبرية وقت العشاء وهناك جاء إليه بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر، وكان قد أسر فيمن أسر بعكا، وكان انفكاكه من الأسر يوم الثلاثاء الحادي عشر من شوال، ففرح السلطان به فرحاً شديداً لأنه كان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام، وأقام السلطان بطبرية يوم الأربعاء، ونزل بكرة الخميس، ونزل بقرب صفد تحت الجبل، وصعد السلطان إليها وأمر بتشييد مافيها من الخلل، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة، ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحش وهي عامرة، وسار منها وخيم على مرج تبنين ووصى الوالي بعمارة قلعتها، ثم رحل بكرة السبت وجاء على قلعة هونين، ونزل من الجبل وبات على عين الذهب، ورحل يوم الأحد وخيم بمرج عيون، ورحل عصر يوم الاثنين وعبر من عمل صيدا ميسرة وعمل وادي تيم يمنة، على الضياع والقرى وعرس على مرج تلفياثا مقابل مرج القنعبة، ثم أصبح يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفياثا فخيم على جسر كامد، ثم غدا يوم الأربعاء وخيم بناحية قب الياس، ثم رحل يوم الخميس إلى بيروت ونزلت الأثقال على مرج قلميطية بالبقاع، وأقام خمسة أيام على الاستراحة، ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة بكل ماتوفرت به الكرامة، وأحضر للسلطان ولكل من كان معه من أنواع التحف وأقسام الطرف (٢٩) .

ولما أراد السلطان أن يرحل من بيروت وذلك في يوم السبت الحادي والعشرين من شوال قيل له إن الابرنس والأنطاكية قد وصل إلى الخدمة، متمسكاً بحبل العصمة، داخلاً في حكم الذمة، فثنى السلطان عنانه ونزل وأقام، وأذن للابرنس في الدخول عليه، فدخل عليه وقربه ورفع مجلسه، وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً، ووهب السلطان كلا منهم تشريفاً سرياً، وكتب له من مناصفات أنطاكية بمبلغ عشرين ألف دينار، ثم ودعه يوم الأحد وفارقه.

وفي النـوادر: وأنعم عليـه بـالعمـق وزرعان ومـزارع تغـل عشرة آلاف دينار، ثم خرج السلطان يوم الأحد وبـات بالمخيم على البقاع، ورحل يوم الاثنين وعبر عين الجر، وبات على مـرج يبوس، ووصـل هناك مـن أعيان دمشق مـن تلقاه بأنواع التحـف من الفواكـه وغيرها، ورحل يوم الثـلاثاء وبـات بالعـرادة، وأصبح يـوم الأربعـاء السادس والعشريـن من شـوال، ودخل دمشق، وخرج كـل من بالمدينة، وحشر الناس ضحى، وكـان يوماً مشهوداً، وكـانت غيبتة عن دمشـق أربع سنين وهو في الجهـاد، وكان في دمشق أولاده: الملـك الأفضل، والملـك الظاهـر، والملك الظـافر، وأولاده الصغار، وكـان يحب البلد ويؤثـر الاقامـة فيه على سائر البـلاد، وجلس للناس بكـرة يوم الخميـس السابـع والعشرين منـه، وحضر الناس عنـده وتملـوا برؤيتـه وطلعتـه المبـاركة، وأنشـده الشعـراء، وعـم ذلك المجلـس الخاص والعام، وقـام بنشر جناح عـدله وبهطل سحـاب انعامـه وفضله، وبكشف مظالم الرعايا.

وفي يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملـك الأفضل دعوة للملك الظاهر، وأظهـر فيها من بديع التجمـل وغريبه مايليق بهمتـه، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما كـان خدمه به حين وصوله إلى حلـب، وسأل السلطان الحضور في دعوته فحضر، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الأربعاء السـابع والعشرين من ذي القعدة قـدم الملك العادل مـن الكرك، وخـرج السلطان إلى لقـائه، وقـام يتصيد حـول غباغـب إلى الكسوة حتى لقيـه، وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخـولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد مستهـل ذي الحجة مـن هذه السنة، وأقـام السلطان بـدمشق يتصيد هـو وأخوه وأولاده ويتفرجـون في أراضي دمشق، وماكـان ذلك إلا للوداع لأولاده وهو لايشعـر، ثم أذن السلطان لولده الملك الظـاهر لسفره إلى حلب محل ولايته، فودعه وداعاً لالقـاء بعده، وسار إلى حلب، وبقي

عند السلطـان ولده الملـك الأفضل وأخـوه وبقية أهلـه، وخرجـت السنة والأمر على هذا.

ذكر بقية الحوادث

.... ومنها أنه اتهم أمير الحجيج ببغداد مـن مدة عشرين سنة في غاية حسن السيرة، بأنه يكاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليـأخذهـا فإنـه ليس يمنعه أحـد، وقدكـان مكذوبـاً عليه في ذلك، ومع هذا حبس وأهين وصودر.

وفي المرآة: اعتقله تحت التاج وأخفى أخبـاره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر......

ومنها أنـه هربـت جماعة مـن العرب ودخلـوا مع الفـرنج، ثـم أرسلوا يطلبون الأمان من السلطان على أن يسرقوا ماقـدروا عليه من خيل الفرنج فساقوا خمسمائة فرس.

ومنهـا أن ملك الانكتـار جهـز مـن عدد المسلمين وأسلحتهـم التـي نهبوهـا شيئاً كثيراً في مـركب، وسفرهـا في البحر، فـأرسل الله تعـالى عليها ريحاً عاصفاً فغرق المركب، بما فيه ومن فيه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان.....

ابن الفراش القاضي شمـس الدين محمد بن محمد بـن موسى المعروف بـابـن الفراش، كـان قـاضي العسـاكـر بـدمشق، ويـرسلـه السلطـان في الـرسالات إلى ملـوك الآفـاق، وتـوفي بملطية عـائداً مـن عنـد ابن قليـج أرسلان.

وقال العماد الكاتب: أرسله السلطـان إلى قليج أرسلان وأولاده ليصلح

بينهم، فتردد سنة وعاد ووصل إلى ملطية وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بديار مصر، ثم صار من أكابر أمراء السلطان صلاح الدين، وهو الذي كان على نيابة عكا حين أخذها الفرنج، فافتدي منهم بخمسين ألف دينار، وتخلص إلى أن خلص إلى السلطان وهو بالقدس الشريف كما ذكرناه، فولاه نيابة نابلس، وكانت وفاته يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال بالقدس الشريف، ودفن في داره.

وقال العماد: وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال.

وقال المؤيد: وكانت نابلس اقطاعه وتوفي فيها، ووقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين وأميرين معه.

وفي المرآة: سيف الدين المشطوب، ملك الهكارية، واسمه علي بن أحمد الهكاري، كان شجاعاً صابراً في الحرب مطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث، وشهد فتح مصر، ولزم خدمة السلطان، واتفق أن السلطان اجتاز بنابلس في عوده إلى دمشق، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا، فقال: ماهؤلاء؟ قالوا: يتظلمون من المشطوب، وهو راكب بين يديه، فقال: ياعلي لو كان هؤلاء يدعون لك هيهات يسمع الله، فكيف وهم يدعون عليك، واختلفوا في وفاته، فقال العماد: ومات المشطوب في نابلس في آخر شوال، وقال القاضي ابن شداد: مات بالقدس، وصلي عليه في المسجد الأقصى، ودفن بداره.

راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد، وكنيته أبو الحسن، صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام، أصله من البصرة، توفي في هذه السنة.

قال بيبرس في تاريخه: كان عالماً فاضلاً أديباً، وكانت له معرفة وسياسة وحذق في اقامة الدعوة، واستجلاب للقلوب، ولم يقم أحد بعد مقامه.

وفي المرآة: وكان في حصن أَلَموت، فرأى منه الآمر في تلك البلاد نجابة وشهامة ويقظة، فسيره إلى حصون الشام، وكان مجيئه إلى الشام في أيام نور الدين محمود، فأقام والياً ثلاثين سنة، وجرت له مع السلطان قصص، وبعث إليه جماعة وثبوا عليه، وكان في عزم السلطان قصده، ولم يعطه طاعة قط، ولما صالح السلطان الأفرنج وعزم على قصده توفي، وتحكى عنه العجائب والغرائب.

السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قلطمش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، صاحب بلاد الروم، توفي في يوم السبت منتصف شعبان من هذه السنة، وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة حسنة وهيئة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين، قد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور، وكان أبوه قد أعطاه سيواس، فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والانفراد بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه، وهجم على والده قليج الدين أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه وقال لوالده وهو في قبضته: أنا بين يديك أنفذ أمرك، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية، ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله بأمر والده، وخرج عسكر قيسارية

لحربه، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده، كلما ضجر واحد منهم انتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو، فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع معه وحشد وسار معه إلى قونية وملكها وأخذها من ابنه ملكشاه، ثم سار إلى أقصرا فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونيه فدفنه بها، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه قليج أرسلان بقليل، فاستقر كيخسرو في ملك قونية، وأثبت أنه ولي عهد أبيه قليج أرسلان، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان، فرجع غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعاً، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم كذلك إلى أن قتل، وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ثم توفي كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو، ثم توفي علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو، وكسره التتار سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق، وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم في الحقيقة، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فملكا

معا مـديدة، ثم انفرد ركـن الدين بالسلطنـة، وهرب أخوه عز الـدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين المذكور معين الدين البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر، ثـم إن البرواناه قتل ركـن الدين وأقـام ابن ركن الـدين يخطب لـه بالسلطنـة، والحكم للبرواناه، وهـو نائب التتر، كما سنـذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريـخ بيبرس: والذي كان قليج أرسـلان فرقة لأولاده مـن بلاده: ركـن الـديـن سليمان دوقـات وأعمالها، غيـاث الـديـن كيخسرو قـونيـة وأعمالها، قطـب الـديـن سيـواس وأعمالها، وأقصرا وأعمالها، فلما مـات اختلفت الأخوة وتحاربوا، واتفقت وفاة ولـده قطب الدين على إثره، فقوي ركن الدين على أخوته وملك هذه الممالك جميعها منهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في هذه السنة التاسعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هـذه السنة والخليفـة هو النـاصر لديـن الله، ويقال لها سنـة الملوك، لأنـه مات فيهـا ملوك كثيرة، وأعظمهـم وأجلهم السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب، والأتابـك عز الـدين مسعـود صاحب الموصل، وسيف الدين بكتمـر صاحب خلاط، وسلطانشـاه بن ألـب أرسلان صـاحـب خراسـان، وقيطرمـش المسجـدي شحنة بغـداد، والأمير داود صاحب مكـة، وسنذكر تراجمهم واحداً بعـد واحد بعون الله، ونذكر أولاً ترجمة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه.

ذكر وفاة السلطان صلاح الدين:

الأول في ترجمته: هويوسف بن أيوب بن شادي بن مروان.

وقال ابن خلكـان: ولقد تتبعت نسبهم كثيراً، فلم أجد أحـداً ذكر بعد

شادي أباً آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه وأيوب ابني شادي لاغير، ويقال شادي بن مروان.

قال: ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن عرب بن عمران الجرشي يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنتر بن أسامة بن بيهس ابن الحارث صاحب الحمالة بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ابن سعد بن قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب إلى أن انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز يقال أنه ممدوح المتنبي وفيه يقول من جملة قصيدته:

شرق الجو بالغبار

إذا سار علي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل ماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان، وكان مه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي، بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أمية، وادعى الخلافة.

وقال ابن خلكان: سمعت شيخنا قاضي القضاة ابن شداد يحكي عن

السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال ليس هذا أصلي.

وذكر ابن القادسي وقال: كان شادي مملوك بهروز الخادم.

وقال السبط في المرآة: وهذه من هنات ابن القادسي، ماكان مملوكاً قط ولاجرى على أحد من بني أيوب رق، وإنما شادي خدم بهروز الخادم في قلعة تكريت استنابه فيها.

وكان صلاح الدين يوسف المذكور يقال له السلطان الأعظم أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية.

الثاني: في بيان ميلاده، وبلده وأصله، ولد صلاح الدين بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها في اثنتين وثلاثين وخمسمائة، واتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دوين—بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء، آخر الحروف، وفي آخرها نون— وهي بلدة في آخر أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وأنهم أكراد روادية—بفتح الراء والواو، بعد الألف دال مهملة ثم ياء آخر الحروف مشددة وبعدها هاء— والروادية بطن من الهدبانيه— بفتح الهاء والدال المهملة والباء الموحدة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء آخر الحروف مشددة، وبعدها هاء— وهي قبيلة من الأكراد.

وقال ابن خلكان: قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين: إن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان—بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة، وبعد الألف الثانية نون أخرى— وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد شادي والد أيوب والد صلاح الدين بها، أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها

وعلى قبره قبة داخـل البلد، وكان شيركوه وأيـوب لما كانا في بغداد خـدما مجاهد الـدين بهروز شحنـة العراق، ورأى مجاهـد الديـن في نجم الـدين عقلاً ورأياً حسناً، وحسن سيرة، فجعلـه دز دار تكريت—ودز دار بضم الدال المهملـة وسكون الزاي المعجمة وفتـح الدال المهملة وبعـد الألف راء— وهـو لفـظ أعجمـي، ومعنـاه حـافـظ القلعـة، وهـو الـوالي، ودز بـالعجمـي القلعة، ودار الحافـظ للقلعـة، فسـار إليهـا ومعه أخـوه أسـد الدين، ثم إن أسد الدين قتل انسـاناً بتكريت لكلام جرى بينهما، فأرسل مجاهد الـدين إليهما، فأخـرجهما من تكريـت، ثم إنهما قصدا عماد الـدين زنكي، وكـان اذ ذاك صاحـب الموصل، فـأحسن إليهما وأقطعهما اقطـاعاً حسناً، وصـارا من جملة جنـده، ولما فتح عماد الـدين بعلبك جعـل نجم الدين دز دارهـا، وقد ذكرنا ذلك كلـه مفصلاً، فيقال إن الأخويـن خرجا من تكريت في الليلـة التي ولد فيها صلاح الديـن، فتشاءموا به، وتطيروا منه، فقـال بعضهـم: لعـل فيه الخيرة وماتعلمـون، فكان كما قـال. ويقال ماخرجـا من تكريت إلاّ بعـد ولادة صلاح الدين مـدة يسيرة، أو في بقية السنة التـي ولد فيهـا صلاح الديـن، أو في سنة ثـلاث وثلاثين وخمسمائة والله أعلم.

الثـالث في بيـان منشـأه: ولم يـزل صلاح الـديـن في كنـف أبيه حتـى ترعرع، ولما ملك نـور الدين محمود الشهيد ابن عماد الـدين زنكي دمشق في التاريـخ الذي ذكرنـاه، لازم نجم الديـن أيوب خـدمته وكذلـك ولده صلاح الدين يـوسف وكانت مخايل السعادة عليه لاتجد والنجـابة تقدمه من حالة إلى حالـة، ونور الدين الشهيد يرعاه ويؤثـره ومنه تعلم صلاح الديـن طرائق الخير وفعل المعروف، والاجتهـاد في أمر الجهاد، حتـى تجهز مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما ذكرنا مفصلاً.

الرابع :في سيرته.

قال العماد وغيره: قد كان السلطان صلاح الدين متشرعاً في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلايلبس إلاّ الكتان والقطن والصوف، ولايعرف أنه فعل مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصوده الأعظم نصر الاسلام وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك وآرائه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، هذا مع مالديه من الفضائل والفواضل، والفوائد والفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان مواظباً على الصلوات الخمسة في أوقاتها في الجماعة، ويقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى في مرض موته، كان يدخل الامام فيصلي به، ويتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم مايقال بين يديه من البحث والمناظرة، وشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها.

قال العماد: ورأى يوماً دواتي محلاة بالفضة فأنكر علي وقال: هذا حرام، فقلت له على سبيل المداعبة: أوليس تحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح، ودواتي هذه أنجع ومدادها أنفع، ويراعي بذراعي القصير أطول، وسنان قناتي أحد وأقتل، فقال: ليس هذا دليل صالح، قلت: ماجمعت هذه العساكر الاسلامية إلا بقلمي ولاتفرقت جموع الكفر إلاّ بكلامي، فقال: والله إن هذا مايعجبني ، فلم أعد أكتب بتلك الدواة بين يديه، وكان طاهر المجلس لايذكر أحد في مجلسه إلاّ بالخير، وكان طاهر اللسان لايذكر أحداً بسوء ولاشتم أحداً قط، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهراء، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، وماسمع منه كلمة فحش

قط، وكان يلين للمؤمنين ويغلظ على الكافريـن، ومن جالسه لايعلم أنه جـالس سلطـاناً، بـل يعتقد انـه أخ من الاخـوان، وكان شـديد الحيـاء، خـاشع الطـرف، رقيق القلـب، سريع الـدمعـة، شديـد الرغبـة في سماع الحديث، وإذا بلغه عن شيـخ رواية عالية، وكان ممن يعـرض عند الناس استحضره وسمع عليه وأسمـع أولاده ومماليكه وأمرهم بـالقعود عند سماع الحديث جـلالاً له، وإن لم يكـن ممن يحضر عنـد الناس ولايطـرق أبواب الملوك سعـى إليه وسمـع منه، وروى عنـه وتردد إليـه، ولم يكن في عمـره كتـب بيده مـافيه أذى مسلـم، وماحضر بين يـديه يتيـم إلاّ وترحـم على مخلفه وجبر قلبـه، وأعطاه مايكفيـه، فإن كان لـه كافل والاّ كفلـه وأعطاه مايكفيه، وإنه مات ولم تجب عليه الزكاة.

الخامس: في حسن عقيدته.

كان متوكلاً على الله في كل أمره ولايلتفت إلى قول منجم، وكان حسن العقيدة كثير الـذكر لله تعالى، وكـان قد قـرأ عقيدة القطب النيسـابوري، وعلمهـا أولاده الصغار لترسـخ في أذهانهم مـن الصغـر، وكان يـأخذهـا عليهم.

وقـال ابن كثير: وكـان القطب النيسـابوري جمع هـذه العقيدة لأجلـه، وكـان يحفظها ويحفظهـا مـن عقـل من أولاده، وكـان يحب سماع القـرآن العظيم، ويـواظب على سماع الحديث، حتى أنـه سمع في بعض مصـافه جـزءاً و هو بين الصفين، وكـان يتبجح بـذلـك، ويقول: هـذا موقـف لم يسمع بـه أحدا حـديثاً، وكـان ذلك بـاشارة العماد، وكـان رقيق القلـب، سريع الدمعة عند سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان قد لجأ إلى ولده الظاهر وهـو بحلب شاب يقال له السهروردي، وكان يعرف الكيمياء والسيمياء وشيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات، فافتتـن به ولده وقـربه وأحبه، وخـالف فيـه حملة الشرع، وبلغ ذلـك أباه

السلطان، فكتب إليه أن يقتله لامحالة، فصلبه ولده عن أمر والده كما ذكرنا في سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

ومن شدة محبته لسماع الحديث مضى إلى الاسكندرية وسمع من الحافظ السلفي ومن ابن عوف الضياء، وكان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة.

وقال ابن كثير: وكان رحمه الله قرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي (٣٠).

السادس: في حلمه وأخلاقه الحسنة.

وكان حليما كثيراً يعفو عن أصحاب الذنوب، حسن الخلق صبوراً على مايكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أ حدهم مايكره ولايعلمه بذلك ولايتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسر موزه فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة ا لأخرى ليتغافل عنها.

وقال القاضي شهاب الدين: نفرت بغلتي يوما من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أقلقته من الوجع، وهو يبتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين شيئا سوى صرفهم.

وقال القاضي بهاء الدين: كنت يوماً عند مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل رجل حسن الهيئة ومعه مكتوب حكمي وقال لي: ياأيها القاضي خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، فقال له القاضي: بأي سبب؟ قال: إن سنقر الخلاطي مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، فاستولى عليها السلطان، وأخرج

الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قال ابن خلكان رحمه الله: ولقد دخلت إلى هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترحمت عليه، وأحضرني قيم القبة ومتولي أمرها بقجة فيها ملبوس بدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير ورأس كميه بأسود فتبركت به.

قال ابن القادسي: ودفن معه سيفه، وقال القاضي الفاضل: هذا يتؤكأ عليه في الجنة.

وقال السبط في المرآة: هذا وهم من ابن القادسي لأن سيفه بعث به ولده الأفضل إلى بغداد.

وقال ابن كثير: ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لرجل صالح، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بعدما أدخله الجامع وصلى عليه صلاة ثانية،وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

الثالث عشر: في مدة سلطنته ، ومدة عمره، وكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة، وقد ذكرنا أن مولده كان في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

وفي تاريخ ابن العميد:وكان عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً، وكانت مدة مملكته للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وللشام قريباً من تسع عشرة سنة، قاله ابن كثير.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت مملكته اثنتين وعشرين سنة وسبعة

المكتوب فتفحصته فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي، وأنه اشتراه من فلان التاجر في الوقت الفلاني، ولم يزل على ملكه إلى أن شذّ عنه في سنة كذا. قلت له: فما أخرك إلى هذا الوقت؟ فقال: الحقوق لاتبطل بالتأخير، قال القاضي: فأعلمت السلطان فأحضره، واستوى معه في المجلس حتى ساواه، وادعى الرجل وأظهر كتابه، فقال السلطان: عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان ملكي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس، ولم يزل في ملكي حتى أعتقته، ثم أحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء فشهدوا بذلك، فانكسر الرجل، فقلت للسلطان: يامولانا مافعل هذا إلا ليطلب صدقة السلطان فما يحسن أن يرجع خائب الأمل، فقال: هذا باب آخر، وأمر له بخلعة ونفقة جيدة وبغلة.

قال: وكان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ومعه قصص، فقدم له قصة، وكان السلطان قد مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح فداسها سنقر الخلاطي، ولم يعلم، وقال له: علم عليها فلم يجبه، فكرر عليه القول، فقال له: ياطواشي أعلم بيدي أو برجلي؟ فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم، ثم قال السلطان: هات القصة فعلم عليها، ومازال السلطان على هذه الأحوال دوماً حتى توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته ورضوانه.

وقدم إليه مملوك له قصة، فقال: أنا الساعة ضجر، فأخرها ساعة، فلم يؤخرها وقدمها إلى وجهه، فلما قرأ اسم صاحبها قال: أي والله رجل مستحق، قال: فوقع له، قال: ماثم دواة، ثم نظر فإذا الدواة بعيدة عنه، فامتد على يده اليسرى حتى أخذ الدواة ووقع له.

وقال القاضي: ولقد واجهه الجناح على يافا بالكلام القبيح فما قال له كلمة، واستدعاه فأيقن بالهلاك وارتقب الناس أن يضرب رقبته، فأطعمه فاكهة جاءته من دمشق، وسقاه ماء وثلجاً.

السابع: في شجاعته.

وكـان رحمه الله أشجع النـاس وأقواهـم بدنـاً وقلباً مـع ماكـان يعتري جسمه مـن الأمراض والأسقـام و لاسيما وهو مرابـط مصابـر مثاغـر عند عكا، فإنهم كـانوا كلما كثرت جموعهم وتـراكمت أمدادهم لايـزيده ذلك إلاّ قوة وشهامة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألـف مقاتل، وكان جملة من قتـل منهم مـائة ألف مقـاتل، وكـان يوم المصـاف يدور على الأطـلاب، ويقول: وهل أنا إلاّ واحد منكم، وكـان في الشتاء يعطي العساكر دستوراً وهونازل على مرج عكا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير.

وفي المرآة: وكان شجـاعاً شهماً جـواداً مجاهداً في سبيـل الله، وأقام على عكا مجاهداً مرابطاً قريباً من أربع سنين.

الثامن: في كرمه وجوده.

وفي المرآة: كان يجود بـالمال قبل الوصول إليـه. ويحيل به، ومتـى عرف وصول حمل وقع عليـه بأضعافه ومـاخيب أحداً بالـرد، وإن لم يكن عنده شيء لطف به كـأنه غريم يستمهلـه، وكان مغرماً بـالانفاق في سبيل الله، ووهب مدة مقامـه على عكا مرابطاً للفرنج، مـن رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة إلى يوم انفصاله عنهـا في شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة مدة ثـلاث سنين وكسر، فكـان اثنـي عشر ألــف رأس مـن الخيـل العـراب والأكاديـش الجياد للحاضرين معـه في الجهاد والقادمين عليه مـن البلاد غير ماأطلقه من الأموال في أثامن الخيل المصابة في القتال.

قال العماد: ولم يكن لـه فرس يركبه إلاّ وهو موهـوب، ولاجاءه قود إلاّ وهو مطلوب، ولارد سائلاً بلا، ولاأخجل ماثلاً، ولاخيب آملاً.

قال: وشكا إليه أيوب بن كنعان ديناً مبلغه اثنا عشر ألف دينار فقضاه عنه.

قال: وكتب إليه سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن بعض الضمّان انكسر عليه مال كثير، وربما وصل إلى الباب وتمحل، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب وتمحل وبلغ السلطان، فأرسل إليه يقول: احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ.

قال: وفتح آمد ووهبها لابن قرا أرسلان، واجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال، وفرق ثمنها فيهم، وأنه رحمه الله لم يخلف في خزانته إلاّ سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً صورياً، ولم يخلف عقار، ولابستاناً ولاقرية ولاشيئاً من الأملاك، وحوسب صاحب ديوانه فخرج عليه تسعون ألف دينار باقراره، وماطلبها ولاأراه أنه عرفها، ولم يرض له بعد هذا بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

وكان إذا فتح بلداً أو أخذ اقليماً وهبه لبعض أقاربه وأمرائه وأتباعه.

التاسع: في معروفه.

قال ابن خلكان: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة كان مذهبها الامامية، فلم يكونوا بهذه الأشياء، فعمر بالقرافة الصغيرة المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي رحمه الله، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه، وجعل عليه وقفاً كثيراً طائلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل بن السلار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار جعلها وقفاً على الشافعية، ووقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل

القصر مارستاناً وله وقف جيد، وله بالقدس أيضاً مدرسة وقفها كثير، وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية.

وقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي في القرافة مايسميها الناس إلاّ للشافعي رحمه الله، والمجاورة للمشهد لايقولون إلاّ للمشهد، والخانقاه التي بالقاهرة لايقولون إلاّ خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة التي للحنفية لايقولون إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لايقولون إلاّ مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية، وهذه صدقة السرعلى مذهب الحنفية، والعجب أنه له بدمشق في جوار المارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة أيضاً للمالكية ولاتعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى.

العاشر: في فتوحاته وهي على أنواع:

الأول: في البلاد الاسلامية وهي: الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة واليمن من زبيد إلى حضرموت متصلاً بالهند، ودمشق وبعلبك، وحمص، وحماه، وحلب، وأعمال هذه البلاد.

الثاني: في البلاد الاسلامية الفراتية وهي: حران، والرها، الرقة، ورأس العين، وسنجار ونصيبين، وجملين، وسروج، وديار بكر، وميافارقين، وآمد وحصونها، وشهرزور، والبوازيج، وخطب له على المنابر من باب همذان إلى الفرات، ومن الفرات إلى حضرموت، ومن الغرب إلى إفريقية.

وفي المرآة: أول مافتح الديار المصرية.

الثالث: في البلاد التي أخذها من الأفرنج وغيرهم وهي: طبرية، وعكا، أما طبرية فهي على نهر الأردن فتحها بالسيف وأما عكا فهي مدينة على البحر الملح فتحها بالصلح والزيب ومعليا (٣١) ، واسكندرونة بين صور وعكا، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وحصن يحمور بالأمان، وتبنين بجبل عاملة بالتسليم، وهونين غربي بانياس بالأمان، والناصرة التي ينسب إليها النصارى، والغور قبلي صفورية بالتسليم، والصفورية غربي طبرية بالسيف والفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وجينين قبلي عفربلا بالتسليم، وزرعين ودبورية متاخمة صفورية بالسيف، وعفر بلا قبلي الطور بالتسليم، وبيسان والغور، وسبسطية من عمل نابلس بالتسليم، ونابلس مدينة مشهورة، واللجون وريحا وسنجل والبيرة بأرض القدس، ويافا بالسيف، وأرسوف بالأمان، وقيسارية بالسيف وحيفا وصرفند بأرض بيروت، وصيدا على البحر، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وجبل الجليل، وبيروت على البحر وجبيل، ومجدل يابا بأرض الرملة، ومجدل جاب، والداروم، وغزة وعسقلان بالأمان، وتل الصافية، والبرج الأحمر بساحل عكا بالسيف، وحصن النطرون غربي القدس بالأمان، وبيت جبريل بأرض الخليل بالتسليم، وجبل الخليل بالأمان، وبيت لحم مولد المسيح عليه السلام، واللدّ بأرض الرملة بالسيف، والرملة بالسيف، وقلعة السلع والوفيرة وقلعة الجمع وقلعة الطفيلة، وقلعة القرين. جميع ذلك في وادي موسى عليه السلام، وقلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف، وقلعة الشوبك بالأمان، وقلعة صفد بعد حصار مدة، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وحصن عفرى شمالي القدس بالأمان، وحصن العازرية شرقي القدس بالتسليم، وحصن قرية يابا بأرض قلنسوة شمالي لدّ بغير قتال، وحصن قاقون بغير قتال، وحصن قيمون شرقي حيفا بالسيف، وحصن يبنى قريب الرملة بالأمان، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وقلعة الفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وشقيف بالأمان وحصن جلدك، وحصن بلنياس بين جبلة والمرقب، وحصن صهيون وريفة بالسيف، وقلعة

بلاطنس من عمل صهيون، وحصن الجماهرية شمالي صهيون، وقلعة عيد غربي جبل البرزين، وقلعة بكاس وقلعة الشغر من أنطاكية وبكسرائيل، وقلعة المروانية، وقلعة البرزين ودربساك وبغراس، وحصن الدامور وأنطرسوس، وجبلة، واللاذقية بالسيف، وقلعة برزية والبيت المقدس، وغير ذلك من القرى والمعاقل التي لم تذكر.

وفي المرآة: ويقال إنه فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين: مصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديارهم، ولوعاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً، وإن كان مبدأ فتوحاته بمصر بهمة نور الدين وأمواله وعساكره ورجاله، وبينهما مقاربة في السيرة والعدل والأيام، واجتناب الآثام، وكلاهما لم يبلغ ستين سنة، والله أعلم.

الحادي عشر: في مرضه.

استهلت هذه السنة، وهو في غاية الصحة والسلامة، وخرج هو وأخوه الملك العادل أبو بكر إلى الصيد في شرقي دمشق،ولقداتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنج هذه المدة يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أ خاه العادل إلى خلاط، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى أذربيجان وبلاد ا لعجم.

ولما قدم الحجيج من الحجاز الشريف يوم الاثنين حادي عشر صفر خرج لتلقيهم، وقدم معهم ولد أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن فأكرمه واحترمه، وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الحديد، فكان ذلك آخر ماركب في هذه الدنيا، وذلك أنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت السادس عشر من صفر، فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل، فأ خذ يشكو إليهم قلقه البارحة، وأ طال الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايد به المرض واستمر، وفصده الأطباء في اليوم

الرابع فاعتراه يبس، وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، فقوي اليبس أيضا، فأحضر الأمراء والأكابر والرؤساء، فبويع لولده الأفضل نور الدين علي نائباً على ملك دمشق، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضل وابن شداد، وقاضي البلد ابن الزكي، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جدّ جديد بالأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات، فقرأ:(هوالله الذي لاإله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة) (الحشر٢٢) فقال: هو كذلك صحيح، فلما أذن للصبح جاء القاضي الفاضل يدخل عليه وهو بآخر رمق، فلما قرأ القارىء:(لاإله إلاّ هو عليه توكلت) (التوبة١٢٩) تبسم وتهلل وجهه إلى رحمة الله تعالى.

وقال العماد: وجلس السلطان ليلة السبت السادس من صفر في مجلس عادته ومحل سعادته ونحن عنده في أتم انبساط، وأتم نشاط، حتى مضى من الليل ثلثه، وهو يحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا إمامه، وحال قيامه انفصلنا بإحسانه مغتبطين وبإنسانه مرتبطين، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان ننتظر خروجه لوضع الخوان، فخرج بعض الخدم، وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام، فجاء وتربع في دسته، وجلس بسيمته وسمته، وتطيرنا بتلك الحال، وتفللنا بحد ذلك الفال، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وتوفي إلى رحمة الله تعالى.

وقال النويزي: خرج السلطان إلى شرقي دمشق متصيداً، فغاب خمسة عشر يوما وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق، وودعه أخوه العادل وداعاً لالقاء بعده، ومضى إلى الكرك، وأقام السلطان بدمشق، ثم ركب يوم الجمعة الخامس عشر صفر، ولقي الحجاج وبكى كيف فاته الحج معهم، ثم عاد إلى القلعة فلحقه تلك الليلة كسل عظيم وغشيته

حمى وأخذ المرض في التزايد، ثم حدث به رعشة وغاب ذهنه، واشتد الارجاف بموته، وحزن أهل دمشق حزنا عظيماً لذلك.

وقال القاضي بهاء الدين: لما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده، فسألني عمن في الايوان، فقلت: الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال.

ولما كان بكرة يوم الخميس استحضرني فحضرت عنده وهو في صفة البستان وعنده أولاده الصغار وقال لي: أكلت شيئاً اليوم؟وكانت عادته المباسطة، ثم قال: أحضروا لنا مايتيسر، فأحضروا رزاً بلبن ومايشبه ذلك، فأكل وماكنت أظن أن عنده شهوة لأن بدنه كان ملتاثاً ممتلئاً فلما فرغنا قال: ماالذي عندك من خبر الحاج؟ فقلت: قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم فقمت من عنده ولم أجد من النشاط ماأعرفه منه، ثم بكر يوم الجمعة فركب للقاء الحجاج، وكان فيهم سابق الدين الياروقي، وكان كبير الاحترام للمشايخ، ثم لحقه ولده الملك الأفضل، ثم رجع إلى القلعة وكان آخر ركوبه.

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً،فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وأصبح في يوم السبت السادس عشر من صفر وعليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس، فدخلت أنا والقاضي الفاضل وولده الأفضل عنده، وطال الحديث بيننا، وأخذ يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، ومد الطعام في الايوان وجلس الأفضل في موضعه خالياً وولده فيه، ثم أخذ مرضه يتزايد ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، وكان طبيبه الذي ألف مزاجه غائباً، وحضرت

الأطباء ففصدوه فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، ولم يزل المرض يتزايد، فاشتد في السادس والسابع والثامن، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الرجيف في البلد وخاف الناس، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشي الناس من الكآبة والحزن مالايوصف، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً، وأقمنا على العادة نتردد، ثم أ صبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا الباب، وسألنا عن حاله، فأخبر جمال الدولة اقبال أنه عرق حتى نفذ عرقه إلى الفراش، ثم إلى الحصر ثم إلى الأرض، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وضعفت قوته، ولما رأى ولده الأفضل ماحل به وتحقق اليأس منه شرع في تحليف الناس، فجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة فعملوا نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، ثم للأفضل بعد وفاته، فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود الشحنة أخو بدر الدين مودود، ثم ناصر الدين صاحب صهيون فحلف وزاد أن الحصن الذي في يده له، ثم سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق، واعتذر بأنه ماحلف به، ثم خشترين الهكاري، ثم أنوشروان الزرزاري فحلف واشترط أن يكون له خبز يرضيه، ثم حلف علكان ومنكلان، ثم مد الخوان فأنهوا.

ولما كان العصر أعيد مجلس التخليف فأحضر ميمون القصري، وشمس الدين سنقر الكبير، وقالا: نحن نحلف بشرط أن لانسل سيفاً في وجه أحد من أخوتك، وحضر سامة وقال: ليس لي خبز فعلى أي شيء أحلف، فروجع فحلف بشرط أن يعطى خبزاً يرضيه، وحضر سنقر المشطوب وأيبك الفارس وأيبك الأفطس ولم يحلف بالطلاق، وحضر سياروخ وحلف واشترط رضاه، وحضر حسام الدين بشارة وحلف،

وكـان مقـدماً علـى هـؤلاء، ولـم يحضـر أحـد من الأمـراء المصـريين، ونسخة اليمين:

« إنني مـن وقتي هـذا قد أصفيـت نيتي، وأخلصـت طويتـي للملك النـاصر مـدة حياتـه، وإني لا أزال بـاذلاً جهدي فـي الذب عن دولتـه بنفسي ومالـي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمـره، واقفاً عند مراضيـه، ثم من بعـده لولـده الملك الأفضل علي، ووالله انني فـي طاعتـه، وأذب عن دولته وبـلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجـالي وأمتثل أمره ونهيـه، وباطني وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل».

ثم لمـا كانـت ليلة الأربعـاء السابـع والعشرين مـن صفر، وهي ليلـة الثـانـي عشـر من مـرضـه، اشتـد مـرضـه وحـال بيننـا وبينـه النسـاء، واستحضرت أنـا والقاضي الفاضل وابـن الزكي في تلك الليلـة، وعرض علينـا الملك الأفضل أن نبيـت عنـده ، فلم يـر الفاضـل ذلك، وقـال: المصلحة نزولنـا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسـة، فإنه رجل صالـح يبيت بالقلعـة حتى إذا استحضر السلطـان بالليل يحضـر عنده ويحول بينـه وبين النساء، ويـذكره بالشهـادة، ففعلوا ذلك، وكـان ذهن السلطان غـائباً من ليلة التـاسع لايكاد يفيق إلاّ في الأحيـان، وبات في تلك الليلـة على الانتقال والشيـخ أبو جعفـر عنده يقـرأ القرآن ويـذكره بالله إلى أن توفي رحمه الله.

الثاني عشر: في تاريخ وفاته.

قال القـاضي بهـاء الدين: كـانت وفـاته بعـد صلاة الصبح مـن يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي تاريخ بيبرس: وقيل توفي في الخامس والعشرين من صفر.

وفي المرآة وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد صلاة الفجر السابع والعشرين من صفر.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت وفاته بكرة يوم الأربعاء لثلاث بقي من صفر، وكلام الكل قريب بعضه من بعض.

وفي المرآة: وغسله الخطيب الدولعي وصلى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي، وبعث له القاضي الفاضل الأكفان والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه في قلعة دمشق.

وقال ابن خلكان: كان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمين مثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغسله الدولعي، وهو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين بن قائد بن جميل التغلبي الأرقمي الدولعي الشافعي، خطيب جامع دمشق، توفي في ثاني عشر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: ثم أخرج تابوت السلطان بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فقط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج، وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ثم إنه بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي

وأربعين يوماً، أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الأربعاء تتمة خمسمائة وثمانين سنة وسبعة وخمسين يوماً للهجرة ، ولتمام ستة آلاف سنة وستمائة وأربعة وثمانين سنة وستة أشهر وسبعة أيام للعالم شمسية.

الرابع عشر: فيما جرى يوم وفاته.

قال ابن كثير: وجلس الملك الأفضل للعزاء في القلعة وأرسل الكتب بوفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر، وإلى الملك الظاهر غازي بحلب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، وقد ذكرنا أنه كان سافر إلى الكرك قبل موت أخيه السلطان لينظر في أمرها.

قال المؤيد في تاريخه: ولما نقل الأفضل والده السلطان من القلعة حين بنى له تربة مشى بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل الجامع ووضع قدام النسر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيام في الجامع،وأنفقت ست الشام في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

وفي المرآة : وكتب الفاضل إلى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية يقول فيه: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» الآية: (الأحزاب ٢١) .

كتبت إلى الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه في مصابه، وجعل الخلف فيه لمماليك المرحوم وأصحابه، كتبت والدموع قد حفرت النواظر، والقلوب قد بلغت الحناجر،وإني ودعت أباك مخدومي وداعاً لانلتقي بعده، وأسلمته إلى الله طالباً فضله ورفده، ولم يدفع عنه جنوده المجندة القضاء ، ولاردت عنه الأسلحة والخزائن البلاء، فالعين

تدمع والقلب يخشع، ولا نقول ما يسخط الرب ـ وإنا عليك يايوسف لمحزونون».

وفي آخر الكتاب: « فإن اتفقتم فما عدمتم إلاّ شخصه الكريم، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبلة هولها عظيم».

قال السبط في المرآة: وقد فات الفاضل شيئان: أحدهما عند قوله: ودعته وداعاً لانلتقي بعده، وكان الأولى أن يقول: إلى جنات النعيم، والثاني: عند قوله: وهولها عظيم، وكان ينبغي أن يقول: (ذلك تقدير العزيز العليم) (يس : ٣٨).

وفي المرآة: وكان أخوه العادل لما توفي السلطان بالكرك، فقدم دمشق معزياً للأفضل، فأقام أياماً، ثم رحل إلى الجزيرة التي أعطاها إياه السلطان، وهي: حران، والرها، وسميساط، والرقة، وقلعة جعبر، وميافارقين، وديار بكر، وكان له بالشام : الكرك ، والشوبك.

وبعث الأفضل القاضي ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى الخليفة ومعه زردية السلطان، وسيفه، وحصانه،وكزاغنده، ودبوسه، وتحفاً كثيرة ، وعاب الناس عليه حيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد، وكتب كتاباً فمنه :« أصدر العبد خدمته هذه، وصدره معمور عليه بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء»، وذكر كلاماً طويلاً.

وأما العادل فإن المشارقة ثاروا عليه، واستشاروا عز الدين صاحب الموصل، واستشار هو أصحابه، فأشار عليه المجد ابن الأثير بالخروج، وأشار عليه مجاهد الدين قيماز بالمقام لتظهر حقائق الأمور، وتراسل جيرانه: ابن زين الدين صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب الجزيرة وعماد الدين صاحب سنجار، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعا على حران، واستنجد العادل بأولاد أخيه فجاءته عساكر الشام

ومصر، ومرض عز الدين على نصيبين بالاسهال ، وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع إلى الموصل جريدة، فمات بها على ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى.

ثم إن الملك العزيز قدم إلى الشام، وقدمت معه العساكر على الأفضل، وبعث إليه العادل: ارحل إلى مرج الصفر، فرحل وهو مريض، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد، لتصل العساكر، فوصل الظاهر من حلب، والمنصور من حماة، وشيركوه من حمص، والأمجد من بعلبك في نجدة الأفضل، فقال العادل: قد تقرر أنه يرجع إلى مصر، ويقع الاتفاق وتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

واشتد مرض العزيز، ولولا مرضه لما صالح، فأرسل العزيز كبراء دولته: فخر الدين شركس وغيره فحلف الملوك، وطلب مصاهرة العادل فزوجه ابنته خاتون، ورجع كل واحد إلى بلده، وذلك في شعبان، وتمام هذه في السنة التالية انشاء الله تعالى.

قال العماد الكاتب: ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب، واحتجب عن الرعية ، وانقطع إلى لذاته، وفوض الأمر إلى وزيره الجزري، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سببا لزوال دولته، واستبدلا بكبراء الأمراء الأجناد وأرذال الناس، ففسدت أمور العباد.

الخامس عشر: فيمن خلفه من الأولاد.

قال العماد الكاتب: خلف السلطان سبعة عشر ولداً ذكراً، وابنة صغيرة.

الأول: الملك الأفضل نور الدين علي، وهـو أكبرهم، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ليلة عيد الفطر.

الثـاني: الملك العـزيز عمـاد الديـن عثمان، أبـو الفتح، ولد بمصـر أيضاً، في جمادى الأولى سنة سبع وستين.

الثالث: الملك الظافر أبو العباس مظفر الدين خضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل.

قـال ابن خلكـان وكنيتـه أبـو الكـرام وأبو العبـاس الخضـر، ويقـال المشمـر لأن أباه لمـا قسم البـلاد بين أولاده الكبـار قـال: أنا مشمـر ، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده فـي القاهرة في خامس شعبان سنة ثمان وستين وخمسمـائة، وتوفي في جمـادى الأولى سنة سبع وعشـرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف بن الملك العادل.

الرابع: الملك الظاهر أبو منصور غيـاث الدين غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين.

الخامس: الملك المعـز فتح الدين أبو يعقوب اسحق، ولـد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة

السادس: الملك المؤيـد نجم الدين أبو الفتح مسعـود: ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين، وهو شقيق العزيز.

السابـع: الملك الأعز شـرف الدين أبـو يوسـف يعقوب، ولـد بمصر سنة اثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً.

الثامن: الملك الزاهر محيي الديـن أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الظاهر.

التاسع : الملك المفضل قطب الدين مـوسى، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الأفضل.

العاشر: الملـك الأشرف أبو عبد الله عـز الدين محمد، ولـد بالشام سنة خمس وسبعين.

الحادي عشر : الملك المحسن ظهير الـدين أبو العباس أحمد، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الأشرف المذكور.

الثاني عشر: الملـك المعظم فخر الدين أبو منصور تـوران شاه، ولد بمصر في ربيع الأول سنـة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلـى سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنـة التي أخرب فيها العدو من التتـار مدينة حلب وغيرها.

الثالـث عشر: الملك الجـواد ركن الـدين أبو سعيـد أيوب، ولـد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق المعز .

الرابع عشر: الملـك الغالـب نصير الدين أبو الفتـح ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعظم.

الخامس عشـر: الملك المنصور أبو بكـر أخو المعظم لأبويـه ، ولد بحران بعد وفاة السلطان.

السادس عشر: عماد الدين شادي لأم ولد.

السابع عشر: نصرة الدين مروان لأم ولد أيضاً.

وأما البنت مؤنسة خاتون ، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته، كالملك المنصور حسن، والأمير أحمد، وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هلال كسفا — وأي غصن قصفا
كان سراجاً قد طفا — على الورى ثم انطفى
لم يركب الخيل ولم — يقلدوه مرهفا
قل للنحاة: ويحكم — أحمد كم قد صرفا
صبراً صلاح الدين يا — رب السماح والوفا (٣٢)

السادس عشر : فيما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان.

ولما توفي السلطان رحمه الله استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها: ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية: الملك العزيز عثمان، وبحلب وبلادها: الملك الظاهر غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية والفراتية : الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان، وبحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن

فرخشاه بن شاهناه بن أيوب ، وبحمص والرحبة وتدمر: شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي، وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى، وهو في خدمة اخيه الملك الافضل ، وبيد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون :منهم سابق الدين عثمان بن الداية ، بيده شيزر وأبوقبيس، وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية،وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر،وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون ، وعزالدين ابراهيم ابن شمس الدين ابن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وأفامية.

والملك الافضل هو الأكبر من أولاد السلطان . والعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الاثير، مصنف المثل السائر ، وهو أخو عز الدين ابن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل ، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في أخيه الأفضل ، فمال إلى ذلك ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز ، وكان اليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، أخي السلطان صلاح الدين ، ثم بعد ذلك شرعت الأمور تضطرب وتختلف ، وتفاقمت الأحوال حتى آل الأمر إلى ماإليه آل ، واستقرت الممالك واجتمعت المحافل على أخي السلطان صلاح الدين ، وهو الملك العادل ، وصارت الممالك في أولاده الا ماجد الأفاضل كما سنوضحه ان شاء الله تعالى.

السابع عشر : في مراثي السلطان صلاح الدين .

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة ، من أحسنها ماعمل فيه العماد الكاتب في آخر كتاب البرق الشامي ، وهي مائتان وثلاثون بيتاً وقد سردها الشيخ شهاب الدين في الروضتين...

الثامن عشر : في مدائحه

وقد مدحه جماعة من الشعراء منهم : ابن قلاقس ، وابن الذروي ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الشاتاني ، والبحراني الإربلي ، وابن دهن الخصا الموصلي ، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان وغيرهم ، ومدحه العماد الكاتب في غالب أحواله من غزواته وفتوحاته وغير ذلك ، ومدحه في فتح القدس بقصيدة هائية ذكرناها في موضعها ومدحه القاضي رشيد الدين بن النابلسي بقصيدة انشده اياها بمرج عكا....

التاسع عشر : في قضاته ووزرائه وكتابه .

وأما قضاته: كمال الدين بن الشهرزوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون ، وولده أبو حامد ، ومحيي الدين بن زين الدين ، وهؤلاء كانوا في الشام وحلب ، وأما قضائه في مصر ، فكان القاضي جلال الدين ابو قاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصوري وكان قدم من الشرق ، فولاه السلطان صلاح الدين ، وكان عنده بمكانة، وصرف بعد وفاة صلاح الدين ، وولي مكانه القاضي زين الدين علي بن سعيد الدمشقي في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة.

وأما وزيره فكان صفي الدين بن القابض.

وأما كاتبه فكان القاضي الفاضل ، العماد الكاتب ، وكان الفاضل

حـاكمـاً على الجميـع وهـو المشـار إليـه بـالسيف والقلـم ، لايصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولايمضي في الأمور بمر إلا بمراجعته

قـال ابن خلكان : كـان القـاضي الفاضـل تعلق بـالخدم في ثغـر الاسكندريـة ، واقام بـه مدة ، ثم آل أمـره إلى أن وزر للسلطـان صلاح الديـن ، وترقى في منـزلته عنده على مـانذكره فـي ترجمته إن شـاء الله تعالى.

العشرون :في ذكر من كان في البلاد ولاة الأمور في سنة وفاته

كـان في دمشق الملك الأفضـل ، وكان في حلـب الملك الظاهـر ، وكان في مصـر الملك العزيز ، كـل هؤلاء أولاد السلطان صـلاح الدين رحمـه الله ، وكـان في القدس عـز الـدين جرديـك النوري ، ولمـا بلغ العزيـز وفاة والـده صلاح الـدين أرسل عشـرة آلاف دينار إلـى القدس الشريـف لتنفق في العسكـر المقيم به، فخطـب له عـز الدين جـرديك بـالقـدس ، وخشي من نقـض الهـدنة بينـه وبيـن الأفرنـج فأرسـل إلى القدس عسكراً احترازاً من الأفرنج ، وكـان في الروم ركن الدين سليمان ابن عـز الدين قليـج رسلان السلجوقـي ،وكان في المـوصل عز الـدين مسعـود بن مـودود بن زنكي بـن آقسنقر ، وكـان في أخـلاط وماوالاهـا بكتمر ، وكـان في مرو وغيـرها سلطـان شاه، وكـان في همذان وغيـرها السلطان طغرل شاه السلجوقي ، وكان في غـزنة وماوالاها شهاب الدين الغوري، وكـان في بـلاد سمرقند وغيـرها خـوارزم شاه، وكـان في اليمن سيف الاسـلام طغتكين بن أيوب ، وكـان في مكة الأميرداود، وكـان في بلاد المغـرب يعقوب بن عبد المؤمـن رحمهم الله، وهذا آخر مـاانتهينا من ترجمة السلطان صلاح الدين رحمه الله.

الحواشي

١ـ الحديث هنا عن سقوط طرابلس الغرب لاطرابلس الشام التي احتلها الفرنجة سنة ٥٠٢ هـ/
٢ـ سلف الحديث في الجزء الاول من المدخل حول قيام الاسرة المنقذية ، وأنهم ملكوا شيزر في أواخر عصر المرداسيين.
٣ـ ابو الفداء صاحب حماه ومصنف كتاب المختصر في أخبار البشر ويبدو أنه قد فاته أن بلدة شيزر سقطت مع انطاكية وجزء كبير من ساحل الشام للبيزنطيين منذ أيام سيف الدولة الحمداني .
٤ يبدو أن مصدر العمري هنا كتاب المفيد في أخبار صنعاء وزبيد للشاعر عمارة اليمني ، انظر ص ٢٢٩ ـ ٢٣٧ ط. اليمن ١٩٧٩.
٥ـ الشاذياخ مدينة نيسابور نفسها . معجم البلدان، ولمزيد من التفاصيل حول حوادث نيسابور انظر الكامل لابن الاثير ط. القاهرة ـ مطبعة الاستقامة ج٩ ص ٥٩ ـ ٦٠.
٦ـ كذا ولا أدري من أين جاء بالنسب الصنهاجي الى أئمة الاسماعيلية في ألموت؟
٧ـ سورة البقرة ـ الآية . ٢١٦.
٨ـ سورة النساء ـ الآية: ١٢
٩ـ ديوان العرقلة ص ٥٢
١٠ـ سورة الانعام ـ الآية : ٤٤
١١ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٤٢
١٢ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٩٢ـ ١٩٥
١٣ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٢١٨
١٤ـ في المصادر الأخرى المتقدمة: سمى نفسه السلطان الناصر

١٥ـ مصدر العمري هنا الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٢٣١
١٦ـ نسبت هذه الجماعة الى محمد بن كرام السجزي [ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م] وكان يقول إن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر. الاعلام للزركلي.
١٧ سورة آل عمران ـ الآية :٥٣
١٨ـ الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٢٤٩.

١٩ـ سورة الحجرات ـ الآية :٢٠
٢٠ـ سورة الفرقان ـ الآية : ٦٣
٢١ـ سورة البقرة الآية : ٢٧٥
٢٢ـ أي قليل الماء.
٢٣ـ هذا وهم فالفرنجة لم يستطيعوا قط قهر مدينة حلب .
٢٤ـ سورة الزلزلة ـ الآتيان: ٧ـ ٨
٢٥ـ سورة يوسف ـ الآية :٢٣٩٢ـــسو رة التوبة ـ الآية : ١١١
٢٣ـ ديوان عرقلة الكلبي ص ٨٧
٢٤ـ عفيف بن المبارك بن الحسين ـ انظر مرآة الزمان ج١ ص ٢٣٥
٢٥ـ سورة الرعد ـ الآية : ١١
٢٦ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢١٦
٢٧ـ سورة النساء ـ الآية : ١٢

٢٨ـ سورة النحل ـ الآية : ٩١
٢٩ـ سورة القصص ـ الآية :٨٣
٣٠ـ سورة يوسف الآية : ٧٧
٣١ـ زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين.
٣٢ـ البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٣
٣٣ـ انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٢
٣٤ـ زيد مابين الحاصرتين من الروضتين
٣٥ـ زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين
٣٦ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٢
٣٧ـ هما الآن: ازرع والشيخ مسكين ، في حوران سورية ، الشيخ مسكين على الطريق الدولي من دمشق الى درعا، وازرع الى الشرق منها على مسافة قصيرة.
٣٨ـ سورة المدثر ـ ـ الآيتان : ٥٠ـ ٥١
٣٩ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٢

-١١٤٧٣-

المحتوى